@ketab_n
4.3.2015

نيقولاي غوغول

الأنفس الميتة



ترجمة: د. عبد الرحيم بدر
مراجعة: غائب طعمة فرمان

@ketab_n

نيقولاي غوغول

الأنفس الميتة

@ketab_n

ترجمة:

د. عبد الرحيم بدر – غائب طعمة فرمان

الأنفس الميتة

روايــة

المؤلف: نيقولاي غوغول
عنوان الكتاب: الأنفس الميتة
ترجمة: د. عبد الرحيم بدر
غائب طعمة فرمان
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: ٢٠١٤

Author: Nikolai Gogol
Title: Dead Souls
Translator: Dr. Abed AlRahim Bader
Gaeb Tohme Faraman
Cover designed by: Roula Majed
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2014

جميع الحقوق محفوظة

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

غوغول اللغز

حين أصدر غوغول المجلد الأول من «الأنفس الميتة»، وهي أروع عمل له، في عام ١٨٤٢ كتب الناقد الروسي الشهير فيساريون بيلينسكي: «دلونا، أين تلك الروح التاريخية العالمية في أعمال غوغول، أين ذلك المحتوى المشترك بقدر واحد بالنسبة لجميع الشعوب والقرون؟ دلونا ماذا سيحصل لأي عمل من أعمال غوغول إذا ما ترجم إلى اللغة الفرنسية أو الالمانية أو الانجليزية؟».

كان بيلينسكي معجباً متحمساً بغوغول، وجد فيه كاتباً روسياً عظيم الشأن، ومع ذلك فحتى هو كان يعتبر أهمية مبدع «الأنفس الميتة»، و«المفتش العام» و«المعطف» مقتصرة على روسيا وحدها.

ونحن اليوم واثقون من أنّ الأمر ليس كذلك. فقد ترجم غوغول ويترجم إلى اللغة الفرنسية والألمانية والإنجليزية واليابانية وإلى الكثير من لغات العالم الأخرى. وتنشر المقالات والكتب المكرسة لغوغول في جميع أنحاء المعمورة. وتقام مناقشات ولقاءات علمية حوله.

ولعل صفة «اللغزي» أكثر ما يتردد من بين الصفات التي تطلق الآن عن ابداع هذا الكاتب. فكثيراً ما يقال: «غوغول اللغز».

وقد تجلّت صفة «اللغزي»، بالطبع، في فرادة المآل الذي صار إليه غوغول بعد الوفاة، وفي اطراد تنامي صيته العالمي. ولكن ليس هذا وحسب. فإن كلمة «اللغزي» تتضمن انعكاساً لحياةِ الكاتب، وصورة

لخصائص طبعه السايكولوجي والروحي، وطبعاً لخصائص طريقته في الإبداع أيضاً.

نحن لا نستطيع، طبعاً، أن نحدد كم ستكشف الملاحظات الحالية من هذه الخصائص، وإلى أي حد من الكمال. ولكننا سنحاول الإشارة إليها على الأقل، وتقديم المعلومات الأكثر ضرورية عن حياة الكاتب وإبداعه.

ولد نيقولاي فاسيليفيتش غوغول في الأول من نيسان (في ٣٠ آذار حسب التقويم القديم) عام ١٨٠٩ في الجزء الجنوبي الغربي من الإمبراطورية الروسية، في أوكرانيا، في منطقة «فيليكيه سوروتشينتسي». وكان والداه من ملاكي الأراضي المتوسطين. وكان لهما حوالي ٤٠٠ قن من الفلاحين وضيعة صغيرة باسم «فاسيليفكا» (لها اسم آخر هو يانوفشينا) تقع غير بعيد عن فيليكيه سوروتشينتسي في نفس ولاية بولتافا. وقد قضى كاتبنا المقبل أعوام طفولته في فاسيليفكا.

كان الإقليم غنياً بالأساطير والنوادر والحكايات العجيبة التي حفّزت مخيلة الصبيّ الحساس العصبي.

عندما بلغ غوغول الثانية عشرة أُرسل إلى مدرسة العلوم الرفيعة، وهي مؤسسة تعليمية عالية فُتحت حديثاً في مدينة نيجين الصغيرة في ولاية تشيرنيغوف المجاورة. وقضى «نيكوشا» الصغير هناك سبعة أعوام، و لم يؤخذ إلى بيت والديه في فاسيليفكا إلاّ في العطل المدرسية، وما عدا ذلك أُبقيَّ بين جدران المدرسة في وسط من الأولاد متنوع الطوائف جامح، حاد المزاج.

لم تكن علاقة غوغول بزملائه بسيطة. فكانوا يسمونه بالغريب واللغز في هذه الأزمنة أيضاً. وقد كتب غوغول إلى أمه قبل بضعة أشهر من تخرجه في المدرسة: «أنا أعتبر لغزاً لدى الجميع، ولا أحد حلّني

اطلاقاً». واضاف: «ولك أن تعتبريني ما تشائين.. فقط أن تصدقي بأن العواطف النبيلة تملأ نفسي دائماً، وأنني لم أحطّ من قدر نفسي، وأنني طوال حياتي كنت إلى جانب الخير».

في سن مبكرة جداً، منذ السادسة عشرة من عمره، أخذ يعد نفسه لنشاط اجتماعي. و لم تكن لغوغول بعد فكرة عن الاشتغال في الكتابة، رغم أنه بدأ يكتب وهو في المدرسة، بل وبعض المعلومات تشير إلى أنه بدأ الكتابة في سن أبكر، وهو ما يزال صبياً صغيراً جداً. وكان «المجال» الذي ذكره غوغول في رسالته إلى أمه، والذي أراد أن ينذر له نفسه كلياً هو الخدمة في مؤسسة من مؤسسات الدولة، والأدق مجال القانون، العمل في ميدان القضاء والتشريع. «لقد رأيت أن العمل في هذا المجال سيكون الأكثر... أن الجور القضائي، التعاسة العظمى في الدنيا، كان يمزق قلبي أكثر من أي شيء آخر».

ولكن حدث ما لم يكن في تصور غوغول. فبعد انهائه المدرسة، ووصوله إلى بطرسبورج في نهاية ١٨٢٨ حاول بالفعل أن يبني مستقبله في الخدمة، وكان وقتاً ما يشغل منصب موظف صغير، ولكنه لم يستطع أن يقوم بأي أعمال مهمة في ميدان القضاء. والخدمة في مؤسسة الدولة التي كانت تسلم غوغول إلى خيبة أمل متنامية ساعة بعد أخرى، أخذت تتراجع أمام نشاطات أخرى، هي النشاطات الأدبية والتعليمية. وصار غوغول مدرّساً في معاهد بطرسبورج التعليمية - المعهد الوطني، وبعد ذلك جامعة بطرسبورج. وهنا، ولا سيما في الأعمال الأدبية، قد حقق غوغول نجاحات مثيرة مباشرة دفعة واحدة تقريباً.

وإذا كان كتاب غوغول الصغير الأول - وهو القصيدة العاطفية «هانز كيوخيلغارتن» التي صدرت عام ١٨٢٩ تحت اسم مستعار، هو ف. ألوف قد أثار سخريات الصحفيين، فإن الكتاب التالي - وهو مجموعة «أمسيات في قرية قرب ديكانكا» من مجلدين صدرا ١٨٣١

- ١٨٣٢ - رفعت مؤلفه إلى عداد الكتاب الروس الأفذاذ. وقد كسب غوغول رأساً المهارة والنضج وأصالة الطريقة. لقد جسّد فنياً التجربة التي حصل عليها من تربة أرضه – معرفته الرائعة في الأساطير الأوكرانية، ومعيشة الشعب، والعادات. وقد حبب غوغول، بالمعنى الحرفي للكلمة، أوكرانيا إلى آلاف وآلاف من القراء الروس.

وقد كتب ألكسندر بوشكين تحت تأثير الجزء الأول من كتاب غوغول هذا: «... الآن أتممت قراءة «أمسيات قرب ديكانكا». وقد أذهلني. ذلك هو المرح الحقيقي الصافي، الصادق، بدون تكلف، ولا تحفّظ. وفي بعض الأماكن شعر، وأي شعر! أي رهافة حس! كل ذلك غير اعتيادي في أدبنا الحالي، بشكل ما زلت مذهولاً به».

وخلال ذلك كان في انتظار القراء مفاجأة جديدة. في الروايات القصيرة التي اعقبت «أمسيات» وجُمعت في مجموعتين هما «ميرغورد» و«منمنمات» (كلتاهما صدرتا في عام ١٨٣٥) لم يعد غوغول رومانسياً ملهماً، بل كاتباً اجتماعياً صارماً، محللاً بصفاء ذهن للوضاعة والحقارة الحياتية (رغم أن الأساس الشاعري العميق في هذه الروايات القصيرة وفي كلِّ إبداع غوغول احتفظ بقوته). وفي بعض الأعمال، مثل «كيف تشاجر إيفان إيفانوفيتش مع إيفان نيكيفوروفيتش» نظر غوغول من زاوية نظر جديدة إلى الحياة الريفية التي عرفها منذ الطفولة، إلى أوكرانيا الحبيبة. وفي أعمال أخرى، وهي ما أطلق عليها «قصص بطرسبورج» («شارع نيفسكي»، «مذكرات مجنون» إلى آخره) عكس بصفاء ذهن بالغ وبلا رأفة حياة العاصمة الروسية. وقد أعطت القدرة على الملاحظة، وتصوير التناقضات الاجتماعية الحادة، وتعارضات الحلم والواقع، وفنطازية النكهة غير القابلة للمحاكاة، والشاعرية العميقة المروى فيها طابعاً حياتياً غير مألوف، ونمطيّة لتصوير غوغول لبطرسبورغ.

وفي مجموعتي «ميرغورد» و «منمنمات» تكشفت بكل حجمها موهبة غوغول الهازلة وغنى سخريته وألقها. وعندها، وحسب اعترافه، اتخذ هذا القرار: «إذا كنت تريد أن تضحك فمن الأحسن أن تضحك بقوة ومما يستأهل الضحك العام بالفعل» («اعترافات مؤلف»). وهكذا انضمت إلى فكرته في أن يكون «في خدمة الدولة» فكرة الاشتغال في مجال الكتابة. وتوصل غوغول إلى استنتاج حاسم حدد كل مستقبله: يجب البحث عن المنفعة الاجتماعية غير بعيد عن طريق الكاتب، لكن لا في العمل الوظيفي، بل يمكن إيجاد هذه المنفعة في عمل الكاتب نفسه، والكاتب المعاصر، الكوميدي، بشكل خاص.

في عام ١٨٣٦ ظهرت كوميديا «المفتش العام» منشورة وممثلة على خشبة المسرح، وقد صورت بوضوح، وكأنما من خلال عدسة مكبرة، حياة بلدة صغيرة إقليمية. وكانت صورة هذه البلدة المتخيَّلة واضحة للعيان عميقة المعاني وفي نفس الوقت تكاد تكون من كثرة الدلالات الرمزيّة مما جعلها تترك أثراً قوياً جداً على المعاصرين، وجلبت لمؤلفها لا استحسان الأصدقاء فقط، بل السباب الفظ من قبل المغرضين. ورغم انزعاج غوغول الشديد من هذه الشتائم، إلا أنه لا يحيد عن الطريق الذي سلكه، ويبدأ بتحقيق مشروع أكثر ضخامة، وهو قصيدة «الأنفس الميتة» التي بدأها في وقت مقارب لبدئه في «المفتش العام» أي حوالي ١٨٣٥، فضلاً عن أن موضوعي هذين العملين هما من إيحاء ألكسندر بوشكين.

قضى غوغول الفترة ما بين حزيران ١٨٣٦ ونيسان ١٨٤٨ خارج روسيا (في ألمانيا، وسويسرا، وفرنسا، وبلجيكا، ولكن معظم هذه الفترة قضاه في إيطاليا). ولا يعود إلى روسيا إلا لفترة قصيرة، لا تتجاوز بضعة شهور، مرة في عام.١٨٣٩ لترتيب أمور أخواته اللواتي تخرجن من المعهد الوطني، ومرة أخرى في عام ١٨٤١ للقيام بنشر المجلد الأول من «الأنفس الميتة» (نشر في عام ١٨٤٢).

وكان غوغول قد صرح في عام ١٨٣٦ بأن «الأنفس الميتة» ستكون من عدة مجلدات. وقد شبَّه الكاتب المجلد الأول بـ «مقدمة» القصر الذي أشيده» (من رسالة مؤرخة في ١٧ آذار ١٨٤٢). وحين صدر المجلد الأول عرف القارئ من الفصل الحادي عشر أن القصيدة مكونة من ثلاثة مجلدات («الجزءان الكبيران يتبعان...»).

ورغم أن غوغول في الأربعينات نشر أعمالاً جديدة (من بينها نفائس كقصة «المعطف» والعملين المسرحيين «خطوبة» و «المقامرون») إلا أن حياته كلها كانت مكرسة للعمل الرئيسي، وهو إكمال «الأنفس الميتة» ومن جديد ظهرت الصفحتان «اللغز» و «السر»، وكانتا، في هذه المرة، تعودان إلى قصيدة غوغول هذه، لأنّ «الأنفس الميتة» كانت موكلة بالكشف عن سر الحياة الروسية، ورسالة روسيا في التاريخ المعاصر.

وبذل غوغول جهداً هائلاً فوق الطاقة الإنسانية في العمل على هذه القصيدة. وفي صيف عام ١٨٤٥، أحرق مخطوطة المجلد الثاني، تعبيراً عن عدم رضاه عما أنجزه.

ويكتب غوغول، وهو يتحدث عن أسباب حرقه للمخطوطة: «ثمّة ساعات لا يمكن فيها أن تحث المجتمع أو وحتى جيلاً كاملاً إلى الرائع الجميل، إلا إذا أظهرت كل عمق وضاعته الراهنة. ثمّة ساعات لا ينبغي فيها حتى التحدث عن الرفيع والرائع دون أن تشير بوضوح، كوضوح النهار، إلى السبل والطرق التي يسلكها كل إنسان إليه. وكانت هذه الناحية الأخيرة قليلة وضعيفة التطور في المجلد الثاني من «الأنفس الميتة»، بينما كان يجب أن تكون الرئيسية أو تكاد ولهذا أحرقته». («أربع رسائل إلى أشخاص مختلفين بشأن «الأنفس الميتة»»، الرسالة الرابعة) وبهذا الشكل كانت الصعوبات الناشئة مرتبطة بالهدف الرئيسي للمجلد الثاني. فقد كان يجب الاحتفاظ بـ «جسامة» الشخصيات، وتحاشي الافتعال والمثاليّة في ذات الوقت، والاقتراب من «الرفيع والرائع» في وعيّ القارئ.

في عام ١٨٤٨ وبداية ١٨٤٩ عمل غوغول عملاً مكثفاً في صيغة جديدة للقصيدة.

وبعد سبعة أعوام، في بداية ١٨٥٢ انفجرت أزمة جديدة. في ليلة ١١ على ١٢ شباط يحرق غوغول في البيت الذي كان يسكنه في بولفار نيقيتسكى الصيغة النهائية للمجلد الثاني. وبعد عدة أيام، في صباح ٤ آذار (٢١ شباط في التقويم القديم) فارق غوغول الحياة.

وأخذ الكاتب معه إلى القبر «سر» بقية القصيدة، ومحتواها الذي تروى فيه المؤلف بسعة واستيعاب.

والفصول التي سلمت من الجزء الثاني نشرت لأول مرة في عام ١٨٥٥، على شكل مجلد إضافي إلى الطبعة الثانية لمؤلفات غوغول (الطبعة الأولى للمؤلفات صدرت في عامي ١٨٤٢ - ١٨٤٣): «مؤلفات نيقولاي فاسيليفيتش غوغول التي وجدت بعد وفاته. مغامرة تشتيشيكوف أو الأنفس الميتة. قصيدة ن.ف. غوغول. المجلد الثاني (٥ فصول)، موسكو ١٨٥٥».

وجوهر ما يؤلف «لغزية» غوغول هو أنه في ظاهره يبدو كاتباً بسيطاً جداً، بينما هو، في داخله، في باطنه الخفي، معقد جداً. يجب أن يقرأ غوغول في غاية الاهتمام، دون التوقف عند الموضوع والحدث، نافذين إلى أصغر الدقائق والتفاصيل. كان الكاتب والشاعر الروسي الشهير والباحث الأدبي أندريه بيلي يقول أن المحتوى الغوغولي غارق في التفاصيل. وهذا بالطبع، ينطبق، بالدرجة الأولى على «الأنفس الميتة» أعقد أعمال غوغول. والطريق إلى الطبقات العميقة لمحتوى هذا العمل يمتد أيضاً خلال أدق التفاصيل والدقائق.

فلنوضح ذلك بمثال.

في الفصل المخصص للمالك مانيلوف توجد هذه العبارات: «وقد

كان في الواقع يقف، في بعض الأحيان في الشرفة وينقل بصره من الساحة إلى البركة ويقول لنفسه، كم يكون رائعاً في الحقيقة لو أن ممراً شق تحت البركة، وأن ينصب جسر حجري فوق البركة فجأة أيضاً، وأن تقوم في لمح البصر حوانيت، فيها جميع مستلزمات الفلاحين الضرورية».

إذن، جسر حجري فوق البركة! يمكن أن يتصور المرء (مثل هذه الاعتقادات موجودة بالفعل في أدب غوغول) أن هذا التفصيل الصغير قد أوحت به للكاتب انطباعاته الواقعية عن الحياة الإيطالية - قنطرة «ريالته» في البندقية أو «بونته فيكو» في فلورنسا. إلا أن الأمر ليس كذلك، فأن السطور الواردة قد كتبها غوغول قبل سفره إلى ايطاليا.

أن لوصف غوغول معناه الفريد الخاص به، وهذا المعنى قائم على محتوى القصيدة كلها.

وفي حقيقة الأمر أن لجسري البندقية وفلورنسا المذكورين غاية معينة قائمة بذاتها. فالجسر القائم على نهر (أو قناة) هو مركز اتصالات. وساكن المدينة يعبر هذا الجسر مرة في الأسبوع (وربما في اليوم) وتلفت انتباهه الدكاكين الموجودة على جانبيه. ثم أن هذين الجسرين جميلان جداً، وكل من رآهما متيقّن من ذلك.

ولكن لصورة غوغول معنى مختلف تماماً. فهل من المصادفة أن الجسر الذي يتخيله مانيلوف غير قائم على نهر، بل على بركة لا تحتاج له طبعاً؟ ومعنى ذلك أن الباعة والمشترين (الفلاحين، وهذا تفصيل آخر ليس قليل الأهمية عند غوغول) يجب أن يمشوا على الجسر خصيصاً، ليقوموا بمشترياتهم. والجسر الضخم المقام على البركة (مانيلوف يريد أن يبتيه من الصخر!) هو في مغزاه الجمالي منظر سخيف وغير معقول. وبهذه الطريقة يصير مغزى جسر مانيلوف بلا غاية محددة، وبلا معنى.

والموضع الذي أشرنا إليه يميز بناء القصيدة كلها. بل يمكن القول أن هذا جوهر أسلوبها، لأنه قد ثبت عمداً نوعان من انعدام الهدف في عالم مانيلوف وتشيتشيكوف: اقتصادي صرف (عملي) وجمالي. وهما في «الأنفس الميتة» ينبعثان كتيارين، وأحياناً يتحدان سوية.

ولنضرب مثلاً في انعدام الغاية الاقتصادي (العملي) في بيت مانيلوف نفسه، على الأقل، ذلك البيت المقام على «مرتفع منعزل مكشوف، تضرب فيه الرياح من أي ناحية هبت». ومثال انعدام الغاية الجمالي هو بيت مالك آخر، هو سوباكيفيتش. فإن كل شيء في هذا المبنى مريح وراسخ، ولكن على حساب الجمال والتناسق «فقد فشلت جهود المهندس القوية في جعل قمة الهرم فوق مركز البناية لأن المالك أزال إحدى أعمدتها الأربعة الأساسية».

وكلا المبنيين مشترك في السماجة. والشاعرية الغروتسكية للسماجة شائعة في «الأنفس الميتة» إلى حد الدقة المبالغ فيها، إلى حد الكمال الفني البالغ.

ويصير المظهر الخارجي للأشياء، أحداث السفر، وتأملات الشخصيات وأقوالها مجالات لظهور اللامعقولية والسماجة. وحماقة الإنسان، وغياب الفهم الأولي بل والمنطق البدائي تحرز النصر تلو النصر. حين يستنتج مدير البريد (الفصل العاشر - اجتماع عند مدير الشرطة) أن تشيتشيكوف هو الكابتين كوبيكين، غافلاً تماماً أن كوبيكين هذا بلا رجل ولا يد، بينما أطراف تشيتشيكوف كلها، في مكانها، والحمد لله، فإنه بذلك أقام مبنى ذهنياً غير معقول يشبه جسر مانيلوف.

أن شاعرية السماجة مرتبطة أوثق الارتباط بالحدث والموضوع - شراء وبيع «الأنفس الميتة».

(يجب التوضيح هنا أن الفلاح في ظل قانون القنانة في روسيا

كان يمكن أن يباع ويشتري كشيء، كملكية غير منقولة. وإلى جانب ذلك كان عدد الفلاحين - «النفوس المسجلة» - تثبّت بقوائم خاصة توضع وتقدم مرة كل بضعة أعوام. وفي الفترة بين تسجيل وتسجيل يعتبر الفلاحون الموتى أحياء، بل وأن ملاكها ملزمون على دفع ضرائب للسلطة. وعلى هذا الأساس بنيت حسابات تشيتنسيكوف. فأن المالك يتخلى له برحابة صدر عن الفلاحين الموتى حتى لا يدفع عنهم نقوداً إضافية. بينما سيرهنهم تشيتشيكوف في مجلس الرعاية باعتبارهم أحياء ويحصل على مبلغ كبير من المال).

ولكن الحقيقة أنّ كل ما يجري في القصيدة - وحدثها المركزي (التلاعب الاحتيالي بالأنفس الميتة) متزعزع ومشكوك فيه بما فيه الكفاية. وهو مشكوك فيه ليس فقط في المعنى الرفيع للخير الاجتماعي (طفيلية تشيتشيكوف لا تثير أي شك) بل ومن وجهة نظر المنفعة الشخصية أيضاً، من وجهة نظر النجاح الفردي للنصاب. فإن «متاجرة» تشيتشيكوف على مدى القصيدة المنظور لم تؤدي إلى النجاح المرتجى. فهو يغادر البلدة على عجل عائداً من حيث أتى، ولو أنه لم يُفضح. وكانت في انتظاره في المجلدين التاليين، حسب المعلومات المتوفرة، آثام جديدة بل وخيبات ساحقة جديدة. ومهما يكن المبلغ الذي ينزعه تشيتشيكوف من حين لآخر فإن الهدف الأساسي يبتعد عنه أكثر فأكثر، مثل سراب في صحراء رامضة، وهذا السراب قرين لمنشأة مانيلوف الفنتطازيّة.

وغوغول يرتفع إلى التعميمات القصوى، وهو يبسط صيغة السماجة الغروتسكية التي اكتشفها لتشمل معيشة الإنسان نفسها. وهكذا نجد سطوراً فلسفية مريرة عن ضلالات الإنسان وضياعاته: «فكم من الطرق المعوجة المسدودة، الضيقة، المنيعة المنحرفة بعيداً اختارتها الإنسانية في سعيها للوصول إلى الحقيقة الأزلية... وكم من

مرة، حتى بعد أن تزودوا بالرسالة المنزلة من السماء، زاغوا وانحرفوا سواء السبيل، ووقعوا من جديد وفي وضح النهار في مغازات نائية مسدودة، وأنزلوا من جديد غشاء العمى على عيون بعضهم البعض، منجذبين إلى السراب الخادع، ووصلوا إلى حافة الهاوية، ليسأل بعضهم بعضاً فيما بعد: أين المخرج، أين الطريق؟..».

وتنكشف علاقة مباشرة، توافق مباشر بين الصور الصغيرة التي ينتسب إليها وصف جسر مانيلوف، وتراكيب هذا العمل الرئيسية. وتتكشف الفكرة الاصيلة الصادقة لقصيدة غوغول كلها، وهي الحلم الملتهب بطريقٍ حقيقي نزيه للإنسانية وفضحٍ شديد للخطوات الكاذبة السمجة، لكل ما يؤدي إلى انحراف مهلكٍ عن هذا الطريق.

لقد وفى غوغول الكاتب بالكلمة التي أعطاها في بداية حياته: «... صدّقيني، لقد كنت طوال حياتي إلى جانب الخير».

يوري مان

الفصل الأول

انسابت إلى باب فندق في مدينة «ن» عاصمة الولاية عربة أنيقة، متوسطة الحجم ذات لوالب من النوع الذي يقتنيه العزّاب: الضبّاط المتقاعدون من ذوي الرتب المتوسطة والضبّاط الصغار والملاّك الذين يمتلك الفرد منهم قرابة مئة نفس، وباختصار، كل الأشخاص الذين يكوّنون الطّبقة الوسطى. كان يجلس في العربة سيد ليس بالجميل ولا بالقبيح، ولا هو بالكثير السمنة ولا بالكثير النحول، ومع أنه غير بالغ الكبر إلاّ أنّه لم يكن بالغ الصغر أيضاً. ولم يُثر وصوله ضجّة في المدينة ولم يُحدره حدثاً خاصاً، سوى أن فلاحين كانا يقفان صدفة أمام حانة في الجانب المقابل من الفندق، تبادلا بعض الحديث بشأن العربة لا بشأن الرجل الجالس فيها. قال أحدهما «انظر إلى هذه العربة، أتظنُّ أنها بهذه العجلات ستتمكن من الوصول إلى موسكو؟» – فأجاب زميله «أظنُّ ذلك». وسأل الأول «أنا لا أظنها ستصل إلى قازان، أيه؟» فقال الثاني: «لن تذهب بعيدا حتى قازان». وبهذا انتهى الحديث. وعندما كانت العربة تقترب من الفندق، قابلها شاب يرتدي سراويل قطنية بيضاء ضيقة جداً، قصيرة جداً، ومعطفاً طويلاً على الطراز الحديث، وقميصاً معلق فيه دبوس برونزي على شكل مسدّس. وأدار الشاب رأسه عندما مر بالعربة ونظر إليها نظرة فاحصة، رفع يده بعدها ليمسك قبعته (فقد كادت الريح تقذف بها عن رأسه) واستأنف السير في طريقه.

وعند وصول العربة باب النزل وجد راكبها خادم الفندق واقفاً لاستقباله، وكان هذا خفيف الحركة سريعها لدرجة يتعذر على المرء فيها

أن يتبين طابع ملامحه. وهرول حاملاً على يديه فوطة، بمعطف مقسوم من أسفل المؤخرة يغطي ظهره النحيل حتى أعلى عنقه، وهزّ خصل شعره إلى الوراء، ورافق السيد إلى الطابق العلوي عبر رواق خشبي، ليريه غرفة النوم التي انعم الله به عليها. وكانت الغرفة المذكورة ذات منظر عادي جداً، إذ أنّ الفندق كان من نوع الفنادق التي تعجّ بها عواصم الولايات والتي يستطيع المسافر فيها، مقابل روبلين في اليوم أن يستحصل على غرفة تطل فيها الصراصير، الشبيهة بإجاص مجفف من جميع أركانها، وذات باب مستور كالعادة بدولاب ويؤدي إلى الغرفة المجاورة التي يسكن فيها جار صامت، مرخياً أذنيه يتحرق شوقاً لسماع كل هنة عن القادم الجديد. وكان مظهر الفندق الخارجي يدل على مظهره الداخلي: كان طويلاً يتألف من طابقين؛ نصفه السفلي خلو من التبييض، مما جعل الطوب الأحمر القاتم الذي كان مكمداً في الأصل، يزيد اكمداداً تحت تأثير التغيرات الجوية؛ أما النصف العلوي من العمارة فقد كان مطلياً بالدهان الأصفر العادي الذي لا يبهت؛ وكان في الطابق الأول حوانيت تبيع لجم الخيل والحبال والكعك المدور. وفي نافذة الحانوت الواقع في الزاوية أطلّ بائع العسل المخمر بوجهه الأحمر وبالقرب منه سماور نحاسي، حتى يخيل إلى من ينظر إليهما عن بعد أن في النافذة سماورين، لولا أن لأحدهما لحية سوداء كالقار.

وبينما كان المسافر يتفحص الغرفة، أُحضرت أمتعته إليها. أُحضرت أول الأمر حقيبة من الجلد الأبيض تدل وثانتها على أنها قامت بعديد من الأسفار. وكان يحمل هذه الحقيبة رجلان: أحدهما سيليفان، حوذيُّ السيّد (وهو رجل صغير في معطف فرو)، والآخر بيتروشكا، وصيف السيّد، وهو شاب في حوالي الثلاثين من العمر، يرتدي سترة مشعثة بالية، يتضح أنها كانت لصاحبه. وكان له أنف كبير وشفتان غليظتان وكان صارماً قليلاً. وتلا الحقيبة صندوق للمراسلات مصنوع

من الخشب الأحمر مزين الأطراف، ثم صندوق أحذية، ودجاجة مشوية ملفوفة بورقة زرقاء. وبعد أن تم إيداع كل هذه الأشياء، انصرف السائق للعناية بخيوله، وانصرف الوصيف إلى مخدع صغير منزو مظلم كجحر الكلاب، حيث كان قد أعدّ لنفسه عباءة لها رائحتها الخاصة وكيساً مملوءاً بالثياب وركن إلى الحائط. وأقام السرير الضيق، وغطاه بقطعة زهيدة من حشية - قطعة كالفطيرة في رقتها وتفاهتها (وربما في دهنها أيضاً) - لتلك التي تمكن من استجدائها من صاحب النزل.

وبينما كان الأتباع يدبرون أمورهم نزل السيد إلى قاعة الاستقبال العامة. وهذا النوع من قاعات الاستقبال معروف لكل من يقوم بالأسفار. فلها جدران مطلية دائماً، يعلو الاسوداد قسمها العلوي من أثر دخان التبغ ويكتسب القسم السفلي لمعاناً من احتكاك ظهور الزبائن به، وخاصة ظهور أولئك التجار المحليين الذين يدأبون على اللجوء إلى نزل البلدة أيام السوق، واحتساء كوبين معهودين من الشاي فيه. وقاعات من هذا القبيل أيضاً، لها في العادة سقوف قذرة، وثريات بالقذارة نفسها تتدلى منها علاّقات تثب وتفرقع كلما هرول الخادم فوق البساط الزيتي البالي، حاملاً معه طبقاً مليئاً بالكؤوس (وتبدو الكؤوس كأنها سرب من الطير جاثم على شاطئ بحر)، ثم نفس المجموعة من الصور الزيتية. وبإيجاز، هناك أشياء معينة يراها المرء في كل فندق. أما في حالتنا هذه فقد كان أبرز ظاهرة في الغرفة صورة زيتية لحورية برزت أثداؤها بحجم لا يمكن أن يرى القارئ مثله في حياته. تصوير مماثل للطبيعة نراه في الصور التاريخية التي حملها إلينا في روسيا من إيطاليا في وقت ما أناس مجهولون بل ووجهاء في بعض الأحيان يدّعون أنهم خبراء في الفن: وذلك أن الوجهاء المشار إليهم اشتروا ما اشتروه بناء على إرشادات الدليل الذي كان يرافقهم في السفر.

خلع مسافرنا قبعته، ونزع عن عنقه لفاعاً صوفياً ملوناً، من ذلك النوع الذي تحيكه الزوجة لزوجها بيديها وحينما تعطيه إياه توصيه

وصايا معتبرة عن كيفية طيه. والواقع أن العزّاب أيضاً يلبسون لفاعات مماثلة، لكنهم في حالتهم هذه لا يعلم إلا الله من الذي حاكها لهم! فأنا لم ألبسها قط. وطلب السيد الغداء بعد أن نزع اللفاع، وبينما كانت الصحون المختلفة رهن التحضير: حساء الكرنب وفطيرة لها من العمر بضعة أسابيع، وصحن من مخ مع بازلاء، وصحن من المقانق مع الكرنب، ودجاجة مشوية، وبعض الخيار المملّح، والكعكة التي تكون دائماً في محلات كهذه تحت الطلب - أقول، بينما كانت هذه الاشياء تسخّن أو يجلب بعضها بارداً، جرّ السيد الخادم إلى التحدث عن نتف من الأخبار بشأن المالك الأخير للنزل، وشخصية صاحبه الحالي، وكمية الدخل الذي يدرّه النزل. وردّ الخادم على السؤال عن صاحب الفندق بجواب يردّ به دائماً في حالات كهذه، وهو «إنّ معلمي إنسان نصّاب جداً يا سيدي». ومن الغريب أن هناك كثيراً جداً من الناس من الطبقة المستنيرة في روسيا كما في أوروبا المستنيرة لا يستطيعون أن يتناولوا طعاما في فندق دون أن يثرثروا مع الخادم في الحديث بل ويمزحوا معه أحياناً. ومهما يكن من أمر، فلم تكن جميع أسئلته بلا هدف. فقد سأله بدقة عن حاكم الولاية وعن رئيس المجلس المحلي وعن المدعي العام. وباختصار لم ينس موظفاً ذا مكانة. وراح يسأله أيضاً بمزيد من التدقيق إن لم يكن من التعاطف عن الشؤون الخاصة جداً للملاكين في تلك الناحية. فسأله أيهم يملك أقناناً، وكم نفساً يملك؟ وعلى أية مسافة من المدينة يقطنون؟ وما هي شخصية كل مالك؟ وهل له عادة التردد على المدينة؟ واستفهم السيد مدققاً عن الأوضاع العامة في المنطقة. وتساءل أن كانت هناك أمراض كحمّيات متفشية، أو برداء مميتة أو جدريّ أو ما إلى ذلك. وكل ذلك بتفصيل ودقة تخرج عن حدود حب الاستطلاع المحض. إلا أنه ظلّ محتفظاً بهيبته، فكان بين الحين والآخر يتمخط بصوت غاية في الارتفاع. وكان يقوم بهذه العملية بطريقة مدهشة

جداً. فمع أن صوت أنفه كان يشبه البوق في حدته، إلا أن هذا الصوت، باقترانه مع الكبرياء الأصيلة، كان يستثير احترام الخادم الشديد. وقد بلغ هذا مبلغاً كبيراً جداً حتى أن الصوت لم يكد يصل سمع الأجير حتى يهز هذا خصل شعره إلى الوراء ويعتدل بكل احترام، ويسأل من جديد - مع إحناء الرأس ثانية - ما إذا كان عند السيد رغبة في شيء آخر. وبعد الغداء احتسى الضيف فنجان قهوة، ثم جلس على الأريكة وخلفه إحدى الوسائد المكسوة بالصوف، والموجودة عادة في الحانات الروسية، والتي تشبه الطوب أو الصوان. ثم أخذ يتثاءب وطلب أن يوصل إلى غرفته، حيث استلقى بطوله على الفراش، ونام مدة ساعتين نوماً عميقاً. وأفاق عندما دخل عليه الخادم طالباً إليه أن يكتب اسمه ولقبه ومركزه على قصاصة من الورق لإرسالها إلى الشرطة بحسب القانون، ففعل. وانحنى الخادم في الممر على قصاصة الورق، وقرأ فيها ما يلي، مقطعاً مقطعاً: بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف - مستشار، ملاّك، مسافر في مهمّة خاصة. و لم يكد الخادم ينهي قراءتها حتى انطلق بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف إلى المدينة ليستطلع أمرها. ويبدو أنها حازت على رضاه. وفي الحقيقة، كانت على الأقل في المستوى العادي لعواصم الأقاليم. وحيث لم تسرّ مباني الحجر الأصفر عينيه، كان يجد المباني الخشبية ذات اللون الرمادي الأكثر اتزاناً. وكانت البيوت من طابق أو طابقين بعليات دائماً، وهذا ما يُغرم به مهندسو الأقاليم، فكانت تظهر وكأنها ضائعة في الفسحة وفيما اختلط بينها من جدران لا نهاية لها. وفي أماكن أخرى كانت تبدو دلائل أكثر من ذلك على الحياة والحركة. وكانت البيوت هنا تتجمع فوق بعضها البعض، وعليها لوحات اعلان متهرئة أبلتها الأمطار، منقوش عليها صور أحذية أو قطع حلوى أو سراويل زرقاء، وقد كُتب عليها «ارشافسكي - خياط» أو ما ماثل ذلك. وعلى محل صغير فيه مختلف القبعات كتب «فاسيلي

فدروف - أجنبي»، بينما عُلقت على ناحية أخرى لوحة رسمت عليها طاولة بلياردو ولاعبان - وهذان الأخيران يلبسان معطفين اسودين من النوع الذي يرتديه - عادة - الضيوف الذين يدخلون المسرح في نهاية الفصل الأخير. ومع ذلك فقد كان لاعبا البلياردو السابقان يصوّبان إلى الهدف في اهتمام شديد، بأذرع شديدة الالتواء، وسيقان مائلة أدت لتوها حركات راقصة في الهواء. وكان قد كتب في أسفل كل لوحة من هذا القبيل «هذا محل عال العال». وفي بعض الأماكن في الشوارع موائد عليها أكوام من الجوز والصابون وكعك الزنجبيل (والأخير يصعب تمييزه عن الصابون). وعلى جدران أحد المطاعم بدت سمكة سمينة انغرزت فيها شوكة. ولكن أكثر ما كان يشاهد على الجدران هو النسر ذو الرأسين، شعار الدولة آنذاك (بهذه المناسبة، قد تغير الآن هذا الشعار إلى صورة مختصرة لحانة). أما بشأن أرصفة المدينة فقد كان كلها على نسق واحد من السوء. وأطل تشيتشيكوف على حدائق البلدية التي لا تحوى سوى بضع شجيرات بائسة سيئة النمو تسندها دعائم ثلاثية مدهونة بالدهان الزيتي الأخضر الجميل، وليس لها ما تزهو به من الطول أكثر من يراع عادي. إلا أن الجرائد المحلية نشرت في المدة الأخيرة على سبيل الاحتفاء بها تقول «الشكر للحاكم الإداري الذي أصبحت المدينة بمجهوده غنية بالأشجار الظليلة الممتدة الأغصان. فهي تغمرنا بالظلال الوافرة حتى في أشدّ الأيام حراً. وكم هو جميل حقّاً أن نرى قلوب المواطنين تنبض بعرفان الجميل، مثلما يترقرق الدمع في عيونهم اعترافاً بما قدمه حاكمهم في سبيلهم». وبالتالي، بعد أن سأل تشيتشيكوف شرطياً عن أحسن السبل والوسائل للاهتداء إلى الكاتدرائية والدوائر الحكومية والمحاكم المحلية وحاكم الولاية، فيما لو احتاج إليها، ذهب لكي يلقى نظرة على النهر الذي يخترق المدينة. وفي الطريق نزع إعلاناً ملصقاً على عامود كي يتمكن من قراءته على

راحته بعد رجوعه إلى الفندق. وحدث أن كانت سيدة ذات منظر بهيج تسير في ممر خشبي جانبي بصحبة خادم يحمل لها متاعاً، فجاد عليها بنظرة طويلة أيضاً. وأخيراً ألقى نظرة شاملة حوله (كما لو كان يريد أن يثبت صورة المكان في دماغه) وعاد إلى مقرّه. وهناك، بمساعدة الخادم اللطيفة، صعد السلالم إلى غرفته، وشرب قدحا من الشاي، وبعد أن جلس إلى المائدة طلب شمعة. وما أن أُحضرت إليه حتى أخرج الإعلان من جيبه وقربه إلى لهب الشمعة وأخذ يدرس فحواه، مغمضاً عينه اليمنى بعض الإغماض. غير أن الإعلان لم يكن فيه شيء يستحق الاهتمام. فكل ما يتحدث عنه هو أن إحدى روايات كوتزيبو[١] ستمثل قريباً وأن شخصاً معيناً اسمه بوبليفين سيأخذ دورا في الرواية. وهنا دور آخر ستأخذه المدموازيل زيابلوفا، أما الأدوار الأخرى فسيأخذها آخرون أقل شأناً. ومع هذا فقد تتبع السيد الإعلان بكل عناية واهتمام، بل ولم يهمل أسعار التذاكر. ولاحظ أيضاً أن الإعلان مطبوع في مطبعة حكومة الولاية. ومن ثم قلب الورقة على ظهرها ليرى إذا ما كان هناك شيء آخر للقراءة على الصفحة الأخرى. ولما لم ير شيئاً فرك عينيه ووضع الورقة ثانية في محفظته التي يضع فيها كل ما تقع عليه يداه. وأنهى يومه بقطعة من لحم العجل البارد وصحن شوربة من الكرنب المكبوس ونوم عميق.

وكرّس اليوم التالي للزيارات، فزار جميع وجهاء المدينة، وزار حاكم الولاية زيارة بالغة الاحترام. وقد تبيّن أن حاكم الولاية يشبه تشيتشيكوف نفسه من حيث أنه لم يكن بالسمين ولا بالنحيل. وكان يلبس حول عنقه شريطاً مع وسام آنا، وقيل أنه كان مرشحاً للحصول على وسام النجمة. وفيما عدا هذا كان طيباً كبير القلب. ولكن له عادة تنتابه

(١) كوتزيبو – مؤلف دراما ألماني (١٧٦١ – ١٨١٩). الناشر.

أحياناً وهي التسلى بتطريز الدنتلا. ثم زار تشيتشيكوف نائب حاكم الولاية، فبيت المدعى العام، فرئيس المجلس المحلي، فرئيس الشرطة، فرئيس الجباة، فالمدير المحلي لمصانع الدولة. إنّ تذكر كل صغيرة وكبيرة في عالمنا هذا ليس بالأمر البسيط. ولكن زائرنا على الأقل أظهر منتهى النشاط في عمله هذا بالقيام بالزيارات، حتى أنه ذهب إلى مفتش دائرة البلدية الصحي وإلى مهندس المدينة المعماري لتقديم واجبات الاحترام. وبعد ذلك جلس في العربة لوقت طويل مفكراً غارقاً في التفكير فيمن تستحسن زيارته من غير هؤلاء. ومهما يكن من أمر فهو لم يهمل وجيهاً واحداً، وكان يجيد الملق في حديثه مع مضيفيه، كل على حدة. وقد لمّح لحاكم الولاية مثلاً بأن الغريب إذا وصل إلى ولايته يدرك أنه وصل إلى الفردوس بطرقه المخملية. وقد قال تشيتشيكوف «أن الحكومات التي توظف محافظين قديرين لتستحق أجزل فروض المديح» وكذلك، أبدى بطلنا في حديثه مع رئيس الشرطة ملاحظة بشأن الشرطة المحلية كانت موضع عرفان الجميل. بينما أخطأ مرتين في حديثه مع نائب حاكم الولاية ورئيس المجلس المحلي (وكلاهما موظف في الدرجة الخامسة من الوظيفة) بأن ناداهما «يا صاحب السعادة»، فراق لهما هذا الخطأ. وكانت نتيجة هذا كله أن دعاه حاكم الولاية لزيارته ذلك المساء، وتلاه بعض الموظفين فدعوه واحداً بعد الآخر، أحدهم للغداء والآخر لحفلة شاي وما إلى ذلك.

على أية حال، فإنّ المسافر لم يتكلم عن نفسه إلا القليل. وإذا حدث ذلك، فقد كان بصورة عامة وباعتدال شديد. وقد كان في الواقع، إذا ما تطرّق إلى هذا النوع من الحديث، يتناوله بقالب أدبي. فكان يروى أنه غير جدير بأي تقدير من أترابه، نظراً لكونه دودة لا يُحسب لها حساب في هذا العالم، وأنه مرّ بتجارب غريبة عديدة في زمانه، وأنه بناء على ذلك قد عانى كثيراً في سبيل الحقيقة. وأن هناك أعداء كثيرين

يطلبون حياته، وأنه – طلباً للراحة – يقوم الآن بالتفتيش على بقعة يستقرّ فيها. وحيث أنه عثر على هذه المدينة وألفى نفسه فيها، فقد رأى من واجبه الحتمي أن يقدم احترامه إلى السلطات المسؤولة فيها. كان هذا ولا شيء غيره هو ما عرفته المدينة عن القادم الجديد في تلك الآونة. ولم يُضع – بالطبع – فرصة تقديم نفسه في حفلة حاكم الولاية تلك الليلة. وقبل كل شيء، على أية حال، استغرق استعداده لهذه المهمة مدة تزيد على الساعتين، واستلزم أن يعتني بهندامه اعتناء قلّ أن يشاهد له مثيل. وتفصيل ذلك، أنه بعد اغفاءة قصيرة عقب العشاء، طلب الماء والصابون وأمضى وقتاً طويلاً في دعك خديّه اللذين كان بغية ذلك يدعمهما من الداخل بلسانه، ثم في تجفيف وجهه الممتلئ المستدير بفوطة تناولها عن كتف الخادم. وقد نخر في وجه الخادم مرتين وهو يفعل ذلك، ثم استقر أما المرآة، ولبس قميصاً حقيقي المقدمة كاذب الجوانب والمؤخرة، ونتف من أنفه شعرتين بارزتين، وخرج لابساً معطفاً رسمياً ذا لون أحمر. ومن ثم ركب خلال الشوارع الواسعة الضئيلة الإنارة ووصل بيت حاكم الولاية فوجده يتلألأ نوراً كما تعد البيوت للحفلات الراقصة. وعلى الباب كانت عربة مشتعلة المصابيح، وشرطيان متهيئان، ولغط السائقين وصياحهم. وكل ما يبعث الهيبة موجود كما يجب أن يكون. وما وصل الزائر الصالة حتى وجد نفسه مضطراً لإغلاق عينيه برهة وجيزة. فقد كان شديداً جداً ذلك البريق الخليط من المصابيح والشموع وملابس السيدات. كان كل شيء يبدو مخضباً بالنور، والمعاطف السوداء في كل مكان تبرق وتمرق – كما يحوم الذباب في يوم من أيام الصيف القانظ حول قالب من السكر، حين تجلس ربة البيت العجوز أمام النافذة المفتوحة لتقطع القالب إلى مكعبات صغيرة فيتجمع حولها أطفال البيت ليراقبوا حركات يديها الخشنتين وهما تهويان بالمدقة، والذباب يدخل بشجاعة وبملء حريته

في أسراب جوية يحملها النسيم، ويغتنم فرصة ضعف بصر العجوز وتوهج أشعة الشمس في عينيه، فينتشر على قطع السكر زرافات ووحداناً، ومع أن وفرة الشهيات التي يجدها في كل خطوة من خطواته تدعوه للدخول، إلا أنه كان يدخل للتعريف بنفسه أكثر مما يدخل للأكل، فيجري استعراضاً على القالب وهو صاعد نازل عليه، ويفرك أرجله الخلفية وأرجله الأمامية بعضها ببعض، وينظف جسده مما تحت الجناح، أو يفرك أرجله الأمامية فوق الرأس ومن ثم يطير من النافذة ليعود بأسراب نهاية أخرى. وقد كان تشيتشيكوف في الحقيقة يبدأ بالنظر حوله حتى أخذه حاكم الولاية بالذراع ليقدمه إلى زوجته، إلا أن ضيفنا الحديث الوصول احتفظ في رأسه بما يكفي لكي يختلق ويتمتم بعض المجاملات، وهو ما ينتظر تماماً من رجل متوسط العمر، من طبقة ليست بالرفيعة جداً ولا بالوضيعة جداً. وبالتالي، حين تشكلت الأزواج للرقص وتراجع بقية الجمع إلى الحائط، طوى تشيتشيكوف ذراعيه وراءه وأخذ لدقيقتين يتفحص الراقصين باهتمام متزايد. كان بعض السيدات يلبسن لباساً جيداً من طراز حديث، أما بقيتهن فكن يلبسن أخلاقاً هي ما يهب الله عادة لعاصمة الولاية. وكان الرجال هنا أيضاً - كما هم في أي مكان آخر ينتمون إلى صنفين مختلفين متمايزين: صنف يتألف من الرجال المشوقين الذين لا تكاد تميزهم، عند تحويمهم حول السيدات، عن سكان العاصمة. فقد شذبت افوادهم في منتهى العناية ومنتهى الفن، وفي غاية القبول بدت وجوههم البيضاوية الحليقة، وكانت غاية السلاسة طريقتهم في رعاية من يراقصونهن من السيدات، وفي غاية الانطلاق حديثهم بالفرنسية حين يطرحون الأحاجي لصديقاتهم من النساء كما في بطرسبورج. أما الصنف الآخر فيتألف من الأشخاص السمّان أو الذين هم في بنية تشيتشيكوف (أي ليسوا بالكثيري السمنة ولا بالكثيري النحول). وهؤلاء تراجعوا أو حادوا

عن طريق السيدات وأخذوا يحدقون هنا وهناك ليروا فيما إذا كان خدم حاكم الولاية قد أعدوا الموائد الخضراء للعبة الوست. كانت ملامحهم مليئة سمينة، وكان لبعضهم ثآليل ولم يكن أي واحد منهم بشعر أجعد أو متموج أو على الطراز الذي يسميه الفرنسيون «ليأخذني الشيطان»، بل على العكس، فقد كانت رؤوسهم أمّا طويلة أو مشط الشعر عليها فغدت ملساء جداً. أمّا وجوههم فكانت مستديرة رصينة. وهذا الصنف يمثل أكثر الموظفين احتراماً في المدينة. ويمكنني أن أذكر، للأسف، أن الرجال السمان في هذه الدنيا يثبتون دائماً تفوقهم على إخوانهم النحاف في شؤون الأعمال. فالنحاف تعهد إليهم مهمات خاصة في الأكثر إذ يتقاضون رواتب على ذلك لا غير ويعملون ويتسكعون هنا وهناك، وجودهم هوائي تافه هو خيبة الأمل المحضة. وزيادة على ذلك، فالسمان لا يجلسون في مقعد خلفي، ولهم المقعد الأمامي دائماً، ويجلسون بثبات وثقة أينما كانوا، ويأبون التحرك حتى لو تفسخ المقعد وهوى تحت ثقل أجسامهم. وهم لجمال مظهرهم لا يكترثون أبداً، ولهذا لا يستريح المعطف على أكتافهم كما يستريح على أكتاف النحاف. إلا أن السمان دائماً يجمعون الثروة الكبرى. أما النحيف ففي ثلاث سنوات لن تجد عنده فلاحاً لم يرهنه. وإذا نظرت إلى السمين فستجد عنده قصراً في الضاحية مسجلاً باسم زوجته، ثم قصراً أكبر في ضاحية أخرى، ثم ضيعة قرب المدينة، ثم قرية واسعة فيها الخير كله. أي أن السمين، بإرضاء الله وإرضاء الدولة يحوز على احترام الجميع. وتكون نهايته أن يعتزل العمل ويعيد تنظيم حياته من جديد، ويصبح سيداً لطيفاً يوزع الكرم ويحيا حياة بذخ ورخاء، ويكون مصيره أن يخلّف ورثة نحافاً بعد موته، يستولون على أملاكه ويبعزقونها بسرعة على العادة الروسية. أنا لا أنكر أن ما سبق وصفه يمثل إلى حد كبير خلاصة ما كان يدور في مخيلة تشيتشيكوف عندما وقف يراقب

الجمع. وكانت نتيجة هذه التأملات أن صمّم على الانضمام إلى القسم الأسمن من الضيوف، لا سيما وقد عرف بينها وجوهاً عديدة أليفةً لديه، منها وجه المدعى العام (وهو رجل بحواجب بارزة سوداء وغمزة ضعيفة في عينه اليسرى وكأنها تغمز وتقول «تعال إلى الغرفة المجاورة يا صديقي فعندي ما أقوله لك»، إلا أن صاحبها غالباً ما يكون رجلاً مهيباً صموتاً)، ومدير البريد (وهو شخص قصير إلا أنه ذكي وفيلسوف)، ورئيس المجلس المحلي (وهو إنسان على كثير من الوداعة). حيّا هؤلاء الرجال الثلاثة تشيتشيكوف وكأنه أحد المعارف القدماء، ورد على تحياتهم بانحنائة جانبية فيها الكثير من التأهيل. وقد تعرف على ملاّك شديد الألفة والتهذيب اسمه مانيلوف، وعلى ملاّك آخر أكثر خشونة اسمه سوباكيفيتش. وقد بدأ الأخير بالتعارف بعد أن داس بشدة على قدم تشيتشيكوف ثم رجاه العفو. ودعى تشيتشيكوف بعد ذلك إلى لعبة الوست فقبل الدعوة بإحناءة الرأس اللطيفة المعهودة. وحين جلسوا إلى المائدة الخضراء لم ينهضوا حتى موعد العشاء المتأخر. وفي هذه الفترة خيّم الصمت على اللاعبين كما هي عادة الرجال عندما يكرسون أعصابهم لعمل خطير حقاً. حتى أن مدير البريد الثرثار بطبيعته، ما كاد يمسك الورق بيديه حتى بدا على وجهه التفكير العميق، وزمّ شفتيه، وظل محافظاً على هذه الصورة طيلة فترة اللعب. و لم يكن يتكلم إلا إذا لعب لعبة رابحة، عندئذ كان يضرب المائدة بقبضة يده، وإذا كانت الورقة الرابحة هي ملكة الورق يقول – «وبعد، أيتها الكاهنة العجوز»، أما إذا كانت الورقة الرابحة هي ملك الورق، فيقول – «وبعد، يا فلاح تامبوف». وكان رئيس المجلس المحلي يرد دائماً على هذه الصيحات ويقول – «آه، أمسكته من شاربيه، أمسكتها من شاربيها». ومن حوالي المائدة كانت تتعالى صيحات تتناسب مع اللعب، تتخللها كنية أو أخرى يطلقها المشتركون في اللعب على الاوراق

المختلفة. ولا أظن بي حاجة إلى القول بأن اللاعبين تشاجروا في نهاية اللعب، وأن صاحبنا اشترك في الشجار. وقد فعل ذلك بكل حذق ودراية بحيث جعل كل من رآه، على الرغم من دوره الفعال في الشجار، يعتقد أنه قام بدوره هذا في ألطف أسلوب مستطاع. فلم يكن يقول للاعبين قط «لقد لعبت الورقة الفلانية». لا، بل أنه كان يستعمل جملاً كالتالية - «لقد سمحت لنفسك بلعب الورقة الفلانية»، ولقد ظل في الحقيقة محافظاً على الوداد بينه وبين منافسيه، يقدم لهم علبة السعوط المطلية بالفضة (وقد وضع في قعرها زهرتي بنفسج لرائحتهما الجميلة). وقد وجّه القادم الجديد اهتمامه إلى الملاكين مانيلوف وسوباكيفيتش المذكورين سالفاً واستفسر عنهما في الحال حين تنحى برئيس المجلس ومدير البريد. ودلّت الأسئلة التي وجهها إلى هذين الملاكين لا على حب الاستطلاع وحسب، بل على قدر من الذكاء العميق. فقد بدأ بالتساؤل عن عدد الأنفس التي يملكها كل منهما، وكيف تسير أمورهما حالياً، وأخذ يستطلع عن اسميهما وعن عائلتيهما. وفي الحقيقة، لم يستغرق وقتا طويلا حتى خلب عقول أصدقائه الجدد خلباً جميلاً. أما مانيلوف بالذات - وهو رجل لا يزال في عنفوانه وله عينان في حلاوة السكر تغمضان كلما ضحك - فقد وجد نفسه غير قادر على إبداء الكفاية من إعجابه، فتوسل إليه - وهو يحتضن تشيتشيكوف احتضاناً طويلاً - أن يشرفه بزيارة في بيته الريفي الذي قال أنه يقع على بعد لا يزيد عن خمسة عشر فرستاً[٢] من حدود المدينة. وأكد له تشيتشيكوف رداً على ذلك (بانحناءة هي في منتهى اللطافة ومصافحة توحي بغاية الإخلاص) أنه ليس مستعداً لتنفيذ مشيئته وحسب، بل أنه يرى في تنفيذ هذه المشيئة واجباً مقدساً. وقال

(٢) قياس طول روسي يساوي ١,٠٦ كيلومتر. الناشر.

له سوباكيفيتش على طريقته الخاصة وبإيجاز «أتزورني؟» وراح يحرك حذائيه الكبيرين اللذين بلغت ضخامتهما درجة يصعب أن تجد زوجاً بحجمهما - خاصة في هذه الأيام التي أخذ فيها الأبطال القصصيون الخرافيون في روسيا بالانقراض.

وفي اليوم التالي ذهب تشيتشيكوف ملبياً دعوة عشاء وقضى المساء في بيت مدير الشرطة، حيث جلس كل فرد فيه بعد العشاء منذ الساعة الثالثة للعبة الوست وظل في جلسته أياها حتى الساعة الثانية صباحاً. وفي هذه الفرصة كان من بين من تعرف عليهم تشيتشيكوف ملاّك يسمى نوزدريف، وهو إنسان مرح في الثلاثين من عمره. ولم يكد يتبادل معه ثلاث كلمات أو أربعاً حتى راح يخاطبه بالضمير المفرد الثاني. ومع أنه فعل الشيء نفسه مع مدير الشرطة والمدعي العام، إلا أن الجمع لم يكد يستقر في المقاعد على مائدة اللعب حتى بدا هذان الموظفان يراقبان لعب نوزدريف باهتمام ويدقّقان في كل ورقة يلعبها. وأمضى تشيتشيكوف المساء التالي عند رئيس المجلس المحلي الذي استقبل ضيوفه برداء بيتي متسخ مع أن بين الضيوف سيدتين. وتبع ذلك مساء في بيت نائب حاكم الولاية، وحفلة عشاء كبيرة في بيت رئيس الجباة، وحفلة أصغر في بيت المدعي العام وهي حفلة كبيرة في الحقيقة، وحفلة استقبال عند رئيس البلدية. وباختصار، لم يجد تشيتشيكوف ساعة واحدة في اليوم يضطر إلى قضائها في نزله، ولم يعد رجوعه إلى النزل ضرورياً إلا في ساعات النوم. وكيفما كان الأمر فقد استقر به النوى، وظهر في كل مكان على أنه رجل حنكته الحياة. فقد كان دائماً يحافظ على أن يكون له نصيب في الحديث، لا يعيقه عن ذلك مهما كان موضوع الحديث. فلو دار الحديث عن تربية الخيول، فعن تربية الخيول خاصة فهو أهل للكلام. ولو دار عن الكلاب المدربة، فله في الحال رأي جديّ في هذا الموضوع. ولو تطرق الكلام إلى محاكمة قضت فيها حديثاً محكمة التمييز، ففي التو يظهر أنه غير جاهل في شؤون القانون.

ولو أبديّ رأي بشأن البلياردو، فقد كان باستطاعته في هذا الموضوع أن يتحاشى أي خطأ. ولو أثير حديث عن الفضيلة، فمن الفضيلة يفيض بحديث يستنزف الدمع من كل عين. ولو كان موضوع الجدل عن تقطير الخمور، أجل، فهذا أمر عنده فيه العلم الصحيح. ولو ذكر أحد موظفي الجمارك أو أحد المفتشين، ففي اللحظة يسهب في الحديث كما لو كان موظفاً في الجمارك أو مفتشاً. إلا أنه كان عنده أمر ملحوظ، وهو قدرته على أن يجعل كل شيء جدياً وكان يستطيع كبح جماح نفسه في أثناء الحديث، وهو في سبيل ذلك يتكلّم لا عالياً جداً ولا منخفضاً جداً، ولا يزيد عما يكون مناسباً. بكلمة واحدة، كان سيّداً ذا طبائع متميزة، وكان كل موظف يفرح بوصول الوجه الجديد. وكان رأي حاكم الولاية في تشيتشيكوف أنه رجل ذو أهداف سامية، ورأى المدعي العام أنه رجل أعمال بارع، ورأى عقيد الدرك أنه رجل مثقف، ورأى رئيس الشرطة أنه إنسان محترم ومتأدب، ورأت زوجة رئيس الشرطة أن أدب سلوكه لا يعادله إلا حسن تربيته. بل أن سوباكيفيتش الذي كان من مبدئه أن لا يذكر الناس بالحسنى إلا نادراً، قال لزوجته الهزيلة عند عودته متأخراً من المدينة، وبعد أن خلع ملابسه ليتمدد بجانبها على الفراش «تناولت العشاء هذا المساء عند حاكم الولاية، وذهبت إلى بيت رئيس الشرطة، وهناك قابلت من بين المدعوين شخصاً اسمه بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف، وهو من متوسطي الأعيان، وله شخصية محببة جداً» وأجابت زوجته على ذلك قائلة «م.م.م» ولكزته بقدمها.

هكذا كانت آراء المديح التي جناها القادم الجديد في المدينة. وقد ظلت هذه الآراء على ما هي عليه حتى حدثت حادثة غريبة (سيعرفها القارئ فيما يلي) أغرقت سكان المدينة في بحر من الحيرة.

الفصل الثاني

عاش الزائر في المدينة ما يزيد عن أسبوع وسط الولائم والحفلات، حيث أمضى - على حد التعبير الشائع - وقتاً ممتعاً. وصمم أخيراً على أن يمد نطاق زياراته إلى خارج حدود المدينة بالذهاب إلى الملاكين مانيلوف وسوباكيفيتش نظراً إلى أنه وعدهما بشرفه أن يفعل ذلك. إلا أن ما دعاه في الحقيقة إلى هذا الأمر قد يكون سبباً أكثر ضرورة وهدفاً أشد خطورة وغرضاً أقرب إلى قلبه من السبب الذي ذكرت وسيحيط القارئ علماً بهذا الغرض إذا كان لديه من الصبر ما يقرأ به هذا الاستهلال القصصي الذي مهما بدا طويلاً إلا أنه قد يتسع ويزداد طولاً كلما قاربنا العقدة التي قدّر أن يتوّج بها هذا الكتاب. وعلى ذلك فقد تلقى الحوذيّ سيليفان ذات مساء أمراً بإعداد الخيول في وقت مبكر من صباح اليوم التالي؛ بينما تلقّى بتروشكا أمراً بالتخلف للعناية بالحقيبة والغرفة. وقد يرغب القارئ هنا في التعرف على الخادمين المذكورين. طبعاً لم يكونا من الشخصيات التي تستحق الذكر بل مجرد من يسميهم الناس شخصيات ثانوية، أو حتى أقل من ذلك شأناً. وبالرغم من أن جوهر القصة ومحورها لا يعتمد عليهما بل سيمسهما مسّاً رقيقاً فقط أو قد يشملهما أحياناً - إلا أن للمؤلف رغم روسيته غراماً في التفصيل ورغبة في الدقة كما عند الألماني. فمن الضروري إذن أن نزيد قليلاً على ما عرفه القارئ عن أن بتروشكا كان يرتدي عادة سترة بنية منبوذة أصلاً بحجم كبير عليه جداً، وكان له أيضاً - كما هي عادة من هم في صنعته - زوج غليظ من الشفاه، وأنف بارز جداً. وكان بطبعه صموتاً

أكثر منه ثرثاراً، وبه ميل إلى تثقيف نفسه. أعني أنه كان مغرماً بقراءة الكتب وإن لم يكن لديه فرق بين محتوياتها، سواء منها كتب المغامرات البطولية أو الحب أو كتب الصرف والنحو أو الكتب السماوية المقدسة. وكما أقول، فقد كان يتتبع كل كتاب وقع بين يديه بالدرجة نفسها من الاهتمام؛ ولو قدم إليه كتاب في الكيمياء لقبله أيضاً. كان مجرد السلوى التي يستمدها من فعل القراءة - لا الكلمات التي يقرؤها - هو ما يرتاح إليه عقله. على أنه في أية لحظة قد تبرز له في الصفحة الواحدة كلمات شيطانية لا يفرق فيها بين الرأس والذنب. وكان في الغالب يقوم بمهمته هذه وهو مضطجع في مخدعه؛ وهذا ما أدى بفراشه إلى أن يصبح كالفطيرة الرقيقة. وبالإضافة إلى حبه الانكباب على الكتب، كان يزهو بعادتين هما ميزتان أخريان أساسيتان في تكوين شخصيته: أولاهما عادته في أن يأوي إلى مضجعه بملابسه (أي بالسترة البنية السالفة الذكر)، والأخرى في أن يحمل حيث ذهب جوه الخاص ورائحته الخاصة - رائحة بلغت من الاختصاص به مبلغاً كبيراً حتى أنه ما يكاد ينصب فراشه ويجلب معطفه إلى مكان ما - حتى لو كان مسكناً جديداً لم يقطنه أحد بعد - حتى تنبعث رائحة تدل على أنه كان عامراً طوال السنين العشر الخوالي. ومع أن تشيتشيكوف رجل متأنق - أو بالأحرى سريع الانفعال - غير أنه إذا التقطت خياشيمه هذه الرائحة مع أريج الصباح يقطب أساريره فقط ويهز رأسه ويقول: «الشيطان وحده يعلم ما بك. أنك بلا شك تعرق كثيراً، أليس كذلك؟ وأفضل ما يمكن أن تعمله هو أن تذهب فتستحم». ولم يكن بتروشكا يجيب على هذا الكلام بشيء ويحاول أن يشغل نفسه بعمل ما، كان يقترب والفرشاة في يده إلى حيث يكون معطف سيده معلقاً، أو يأخذ بترتيب شيء من الأشياء. بماذا راح يفكر في صمته هذا؟ ربما كان يقول لنفسه «وأنت ما أغربك، ألا تمل من إعادة هذا الكلام أربعين مرة». لا

يعلم ولا يرى كل شيء غير الله، ولهذا فمن المستحيل إطلاقاً أن يعلم كائن بشري كل ما كان يدور في عقل الخادم عندما يعنّفه سيده. ومهما يكن من أمر، فلا حاجة بنا مبدئياً إلى زيادة في القول عن بتروشكا. أما من الناحية الأخرى، فكان الحوذيّ سيليفان شخصاً آخر...

ولكني أود أن أذكر هنا أنني لا أحب أن أشغل بال القارئ بشؤون أشخاص هم من طبقة أحط من طبقته، فقد علمتني التجارب أن لا رغبة لهم في التعرف على الطبقات الدنيا، وأن من طبع الروسي العادي أن يتعرف على أشخاص في درجات السلم الاجتماعي العليا. وفي الواقع فإن تعرفه على أمير أو كونت، حتى ولو بانحنائه لهما، يعتبر في نظره أهم كثيراً من العلاقات المتينة بينه وبين الناس العاديين. ولهذا السبب نفسه فأن مؤلف القصة يشعر بالخوف على بطله لا سيما وقد جعل هذا البطل من متوسطي الأعيان فقط - أي مجرد شخص قد يأنس إليه كبار الأعيان، ولكن من كانوا برتبة جنرال سينظرون إليه نظرتهم إلى كل من لا يتذلل تحت أقدامهم الجليلة. وأسوأ من ذلك، فإن أشخاصاً كهؤلاء ممن يحملون رتبة جنرال، من المحتمل أن يعاملوا تشيتشيكوف بإهمال مقصود، والإهمال المقصود ينفث الموت للمؤلف. مهما يكن من أمر، وعلى الرغم من القنوط الذي توحيه الاحتمالات السابقة، فقد حان الوقت لأن أعود إلى بطلي. فبعد أن أملى على الخدم أوامره الليلية الضرورية، نهض مبكراً واغتسل، ودعك نفسه من الرأس إلى القدم باسفنجة مبتلّة (وهو أمر كان يقوم به كل يوم أحد فقط، وقد حدث أن كان ذلك اليوم بالصدفة يوم أحد) وحلق وجهه بعناية حتى أخذ خداه يشرقان إشراقة الحرير اللماع، وأصبحا ناعمين نعومته، وارتدى أولاً معطفه الرسمي بلون التوت، ومن ثم وضع معطفه المصنوع من جلد الدب وراح نازلاً على السلم والخادم طوال هذه الآونة واقف على خدمته ودخل العربة. وبقرقعة عالية انطلقت العربة من الفندق

إلى الشارع. ورفع كاهن قبعته إذ مرت العربة عليه، وأخذ بضعة من الصبية بملابس كئيبة يصيحون طلباً لشيء من الإحسان لليتامى. ولكن السائق لمح نذلاً منهم يوشك أن يتعلق برفرف العربة، ففرقع بسوطه فقفزت العربة بسرعة متزايدة على الأرض المبلطة. وأخيراً تنفس المسافر الصعداء عندما لمح عن بعد بداية الطريق الحصباء التي تبشره بنهاية الطريق المبلط ونهاية متاعب أخرى شتى. ولم يكد تشيتشيكوف يصدق أن يرى نفسه والعربة تدرج به على الطريق المستوية بعد أن انخبط رأسه بصندوق العربة عدداً غير قليل من المرات. وما كادت المدينة تتباعد في الأفق حتى أخذت جنبات الطريق تعرض مناظرها المختلفة من الأكمات المألوفة وأشجار الشربين وخمائل الصنوبر الصغيرة والأشجار الهرمة ذات الجذوع المجرحة وأيكات العرعر البري، وما ماثل ذلك. وسرعان ما لاحت للأبصار البيوت الريفية المتسلسلة التي كانت قريبة الشبه بأكوام الحطب نظراً لدعاماتها المائلة وسقوفها الرمادية التي كانت تدلي من الجوانب كما تدلي الملاءة على أطراف المائدة. وبالمثل فقد كان الفلاحون بمعاطفهم المألوفة المصنوعة من جلد المعزى يجلسون كالعادة متثائبين على مقاعد نصبت أمام أكواخهم، بينما أطّلت نساؤهم ذوات التقاطيع الممتلئة والنهود الملتفة من الشبابيك العليا، أما الشبابيك السفلى فقد بدا من أحدها عجل متطلع، ومن الآخر بدا فكا خنزير قبيحان. وباختصار، كان المنظر من المناظر العادية المألوفة. وبعد أن مر تشيتشيكوف بالحجر الذي نقشت عليه علامة الخمسة عشر فرستاً تذكر فجأة أن المسافة بين بيت مانيلوف الريفي وبين المدينة هي خمسة عشر فرستاً تماماً كما قال له مانيلوف بنفسه. لكن علامة الفرست السادس عشر مرت أيضاً دون أن يظهر أي أثر للقرية. وفي الحقيقة لو لم يقابل المسافر فلاحين في الطريق لذهبت مهمته من الرحلة عبثاً. ورداً على ما إذا كان قرية زامانيلوفكا تقع في

تلك الضواحي، خلع الفلاحان قبعتيهما، ومن ثم انبرى أحدهما ويبدو أنه معتز بذكائه أكثر من زميله وله لحية تشبه الأسفين، وقال:

– ربما كنت تعني مانيلوفكا – لا زامانيلوفكا؟

– أجل، أجل، مانيلوفكا.

– مانيلوفكا، أية؟ عليك أن تتابع السفر فرستاً آخر، وعندئذ ستراها أمامك مباشرة إلى اليمين.

فردد السائق الصدى يقول «إلى اليمين؟».

فأكد الفلاّح قائلاً «نعم إلى اليمين. أنك في الطريق الصحيح إلى مانيلوفكا، لكن زامانيلوفكا – لا وجود لمكان بهذا الاسم. فالقرية التي تعنيها تدعى مانيلوفكا لأن اسمها مانيلوفكا، لكن لا وجود لقرية باسم زامانيلوفكا. والبيت الذي تعنيه يقع هناك على تلك الرابية، وهو بيت مبنى من حجر ذو طابقين يعيش فيه سيد، اسمه مانيلوف. ولكن زامانيلوفكا غير موجودة في هذه النواحي، ولم تكن موجودة في يوم من الأيام».

وهكذا شرع المسافرون في التفتيش عن مانيلوفكا. وبعد أن ساروا فرستين آخرين وصلا إلى بقعة تتشعب منها طريق فرعية. غير أنهم ساروا في الطريق الفرعية فرستين وثلاثة ثم أربعة قبل أن تلوح لهم أولى علامات البيت الحجري ذي الطابقين. عندئذ تذكر تشيتشيكوف فجأة أن الصديق إذا دعا صديقه إلى زيارته في بيته الريفي وقال له بأن المسافة إليه خمسة عشر فرستاً وجب أن يفهم من ذلك أن المسافة لا تقل عن الثلاثين. إن موقع قرية مانيلوف لا يحلو لكثير من الناس. وكان بيت السيد على مرتفع منعزل مكشوف، تضرب فيه الرياح من أي ناحية هبت. وعلى سفح المرتفع «زرع حشيش أخضر جار المقص عليه في التقطيع، بينما انتشر هنا وهناك حوضان أو ثلاثة أحواض من الزهور

على الطراز الإنجليزي فيها أضغاث من البنفسج والطلح الأصفر. وكانت هناك أيضاً خمس أو ست من أشجار البتولا ذات ذرى هزيلة الأوراق. وتحت اثنتين من هذه الأشجار عريش بقية مسطحة خضراء ودعائم خشبية مدهونة باللون الأزرق، ولوحة كتب عليها «هذا معبد التفكير الوحداني». وعند أسفل السفح كانت بركة مطلية باللون الأخضر - فالبرك ذات الطلاء الأخضر هي المنظر المألوف المتكرر في حدائق الملاكين الروس وعند سفح المرتفع وفي بعض المواضع من منحدره تمتد سلسلة من الأكواخ المبنية من جذوع الأشجار، والتي ابتدأ بطلنا - لسبب لا يعلمه أحد - بإحصائها. وقد أحصى مئتين أو أكثر ولكنه لم يشاهد بينها عرقاً واحداً أخضر. كل ما كانت تقع عليه العين هو جذوع الأشجار التي بنيت منها تلك الأكواخ. لقد كان المنظر كئيباً حقاً لولا امرأتان فلاحتان رفعتا ذيليّ ملابسهما بشكل يسترعيّ الانتباه، وأخذتا تخوضان في ماء البركة حتى ركبتيهما، وهما تجران شبكة صيد متهرئة ذات مقابض خشبية وقد عَلِق بين ثناياها سرطانان وأسماك صغيرة نهرية بقشورها البراقة. ويبدو أن المرأتين كانتا على خصام شديد لسبب ما لأن الجدل الحاد كان قائماً بينهما. ومع الأفق على إحدى ناحيتي البيت كان يبدو شبح غابة الصنوبر الأزرق الأغبش. وحتى الطقس كان منسجماً مع تلك الظروف، فلم يكن اليوم بالصافي ولا بالغائم، ولكن السماء كانت مكسوة باللون الرمادي الذي نعهده في ملابس الجنود الحرس الذين قضوا في الخدمة عهداً طويلاً وتعودوا السكر أيام الآحاد. وإكمالاً للوحة التي وصفناها، كان الديك نذير التقلبات الجوية، موجوداً. ومع أن عرفه كان عارياً، نظراً إلى أن الديوك الأخرى قد نتّفته لأمور تتعلق بالشهامة، إلا أنه رفرف بجناحين أجردين كبرقع قديم، وزعق بالصوت عالياً. وما أن اقترب تشيتشيكوف من البيت حتى وقع بصره على مضيفه مرتدياً معطفاً رسمياً أخضر وواقفاً

على الشرفة، واضعاً أحدى يديه على عينيه لكي يقيهما أشعة الشمس، ويصبح في إمكانه أن يستوضح العربة القادمة. وبالقدر الذي كانت فيه العربة تقترب من الشرفة كان يبدو الابتهاج في عينيّ المضيف وتزداد ابتسامته عرضاً.

وما كاد يقع نظره على تشيتشيكوف وهو يهبط من العربة حتى صاح قائلاً «بافيل ايفانوفيتش. لم يكن يدور بخلدي أننا سنخطر لك على بال».

وتعانق الصديقان عناقاً حاراً، ثم قاد مانيلوف ضيفه إلى قاعة الاستقبال. وسوف أغتنم الفترة القصيرة التي سيقضيانها في اجتياز القاعة والغرفة الأمامية وغرفة الطعام، لأحاول أن أتحدث شيئاً عن رب البيت. ولكن أمراً كهذا مليء بالمصاعب، وهو أكثر سهولة من تصوير شخصية من الشخصيات البارزة التي لا تحتاج عند رسمها إلاّ إلى إضفاء شتى الألوان عليها، كأن نقول: العينان سوداوان ملتهبتان والحاجبان غليظان ناتئان والجبهة تعلوها التجاعيد والعباءة سوداء أو حمراء قانية مرمية على الكتف، وما إلى ذلك. أجل إنّ ملاّكي الأقنان الروس كثيرو العدد جداً، ومتشابهون، ومع أن دراستهم العميقة المتفحصة ستبدي لنا خصائص غريبة عديدة للأفراد منهم، إلا أن وصفهم من الصعوبة بمكان عظيم. وعلى من أراد ذلك أن يستنزف جهده العقلي حتى آخر قطرة قبل أن يصبح في استطاعته معرفة ملامح الوجه الدقيقة التي لا تكاد ترى والتي تتميز بها هذه الطبقة. وباختصار، يتحتم على المرء، قبل أن يقوم بهذا العمل، أن يسبر غور هذا الموضوع أمداً طويلاً بفطنة حادة ونظر بعيد عميق.

الله وحده يعلم حقيقة شخصية مانيلوف. أن هناك فئة من الناس ينطبق عليها المثل القائل «لا هو في العير ولا في النفير». لهذه الفئة يجب أن ننسب مانيلوف. كان مظهره الخارجي على قدر كبير من

الوسامة لا ينقصه شيء من اللطف، ولكن هذا اللطف مضاف إليه قسم كبير من عنصر السكر، بحيث أصبحت كل لمحة من لمحاته وكل وضع من أوضاعه تدل على رغبة في التعارف وشوق لربط أواصر الوداد.

كان ذا ابتسامة مغرية وشعر أشقر وعينين زرقاوين وإذا ما بدأ المرء بالحديث معه، فإن ابتسامته المحببة وشعره الكتّاني وعينيه الزرقاوين تجعل المرء يقول عنه في اللحظة الأولى «يا له من رجل لطيف محبوب»، لكنه في اللحظة التالية سوف يشعر بأنه غير راغب في أن يقول شيئاً، أما في اللحظة التي تلي ذلك فلن يجد أمامه ما يقول إلا «الشيطان وحده يعلم ما هو هذا الإنسان». وإذا لم يسرع المرء بتركه لسبب من الأسباب فمما لا شك فيه أنه سوف يحس بذلك السأم القاتل الذي يشعر به كل إنسان إذا ما عرف أن ليس هناك من جديد أو طريف في وضع من الأوضاع وأن عليه أن لا ينتظر أية كلمة حية أو متعجرفة يتدفق من شفتي إنسان آخر اكتشفت هوايته. ولكل إنسان هواية. فهواية البعض تربية الكلاب، وهواية آخر الاعتقاد بأنه محبّ للموسيقى وأن باستطاعته أن يسبر هذا الفن إلى غوره، وآخر أن يظهر بمظهر الخبير بأنواع المأكولات الطيبة، وهواية آخر الطموح في أن يلعب في هذه الحياة دوراً أكبر من ذلك الذي خصصته له الطبيعة، وهواية آخر (وهذا أقل طموحاً) قد تكون في النوم ليحلم – أنه يتنزه في الشارع مع ضابط كبير أمام أبصار أصدقائه وغير أصدقائه، وقد تكون هواية آخر أن تصبح يده قادرة على خدش طرف الآس في أوراق اللعب، وقد تكون هواية إنسان آخر أن يضع الأمور في نصابها، ويتقرب من شخصية مدير محطة تبديل الخيول أو الحوذيّة. وباختصار لكل إنسان هواية وميل – إلا مانيلوف، فلم يكن له شيء من هذا القبيل. فقد كان في البيت قليل الكلام وكان يقضي القسم الأكبر من أوقاته في التفكير – أما مضمون هذا التفكير فلا يعلمه إلا الله. ولا أستطيع أن أقول بأنه كان يهتم بأمور مزرعته لا في الكثير ولا في القليل، لأنه لم يذهب لتفقدها قط، وكانت المزرعة

عملياً هي التي تدير نفسها. وإذا قال له مأمور أملاكه يوماً «قد يكون من المستحسن أن نعمل الشيء الفلاني» أجابه قائلاً، «نعم أنها فكرة لا بأس بها» ثم يأخذ في تدخين غليونه - وهي عادة اكتسبها أثناء خدمته في الجيش حين كان أترابه ينظرون إليه على أنه ضابط محترم مرفه رقيق الحاشية. ومن ثم يكرر قائلاً «نعم أنها فكرة لا بأس بها». وإذا ما جاءه يوماً فلاح واقترب منه وهو يحك مؤخرة عنقه وقال «سيدي، أتسمح لي بإجازة لكي أذهب واشتغل لنفسي حتى أجمع ضريبتي» كان يجيبه حالاً بقوله، «أجل، أذهب» ولن يتعب نفسه في التفكير عما إذا كان هدف الفلاح الحقيقي الذهاب للسكر في الحانة. وقد كان في الواقع يقف، في بعض الأحيان في الشرفة وينقل بصره من الساحة إلى البركة ويقول لنفسه، كم يكون رائعاً في الحقيقة لو أن ممراً شق تحت البركة، وأن ينصب جسر حجري فوق البركة فجأة أيضاً، وأن تقوم في لمح البصر حوانيت، فيها جميع مستلزمات الفلاحين الضرورية. وفي لحظات كهذه تبدو في عينيه علامات النصر وعلى ملامحه أمارات الرضى العميق. غير أن هذه المشاريع لم تتعدَ مرحلة التأمل إطلاقاً. وبالمثل، ففي مكتبته كتاب مقلوب أبداً على الصفحة الرابعة عشر. أنه الكتاب الذي كان ولا يزال يقرأ فيه في السنتين الأخيرتين! أما قصره الجميل فكان يبدو أن هناك شيئاً ينقصه على وجه التعميم. فمع أن غرفة الاستقبال مثلاً، كانت مليئة بالأثاث الحريري الجميل الذي كلف مبالغ غير قليلة، فقد كان فيها كرسيان لا غطاء لمقعديهما بل حصيرة من ليف، إلاّ أن ربّ البيت كان قد اعتاد في السنوات القليلة الماضية أن يحذر ضيوفه من الجلوس عليهما قائلا «لا تجلسوا على هذين الكرسيين، لم يتم انجازهما بعد». وهناك غرفة أخرى خالية من الأثاث، مع أنه في الأيام الأولى التي تلت عرسه قال لزوجته «غداً يا عزيزتي سوف نجلب بعض الأثاث لهذه الغرفة، ولو كان أثاثاً مؤقتاً». ففي كل أمسية يضع الخدم على مائدة غرفة الاستقبال مشعداناً برونزياً لطيفاً مزيناً بالصدف عليه ثالوث الجمال وشمعداناً عادياً عتيقاً من نحاس تعلوه طبقة كثيفة

من الأوساخ، إلا ان أحداً لم يفكر في هذا الموضوع، لا ربّ البيت ولا ربّته ولا أحد من الخدم. وفي الوقت نفسه كان مانيلوف وزوجته راضيين عن بعضهما البعض كل الرضى. فقد مر على زواجهما أكثر من ثماني سنوات، إلا أن كل واحد منهما كان دائماً وأبداً يقدم للآخر قطعة من التفاح أو الحلوى أو الجوز، وهو - أو هي - يتمتم كلمات عاطفية صادرة من أعماق القلب. كانت الجملة التي يرددانها هي الجملة المحفوظة التالية «افتحي (أو افتح) فمك يا عزيزتي (أو يا عزيزي) ودعني أضع فيه هذه القطعة» وعلى القارئ أن يتأكد أن الفم العزيز كان يتفتح بكل دلال. وإذا جاء عيد ميلاد الواحد منهما كان الآخر يقدم له هدية المفاجأة ككيس مزين بالخرز لحفظ تسليك الأسنان أو ما ماثل ذلك. وإذا ما كانا يجلسان معاً على الديوان فأنه، فجأة ولسبب غير معروف، يضع غليونه جانباً وهي بدورها تلقى ما في يديها من شغل الصوف (إذا حدث أن كان آنذاك بين يديها) ويتعانق الزوجان ليطبع كل واحد منهما على شفتي الآخر قبلة فاترة طويلة يستطيع المرء أثناءها أن يدخن سيجاراً صغيراً. وباختصار، كانا من النوع الذي يطلق عليه «زوجين سعيدين». إلا أنه يجب أن نذكر هنا أن الزواج السعيد يتطلّب أموراً أخرى يهتم بها الزوجان غير المعانقة وإعداد الهدايا المفاجئة. أجل، فهناك أعمال يجب أن تحظى باهتمام الزوجين. فلماذا يظنّ مثلاً، بأن إشراف ربة البيت على شؤون المطبخ أمر معيب أو ماسّ بالكرامة؟ ولماذا لا يصرف الاهتمام الكافي إلى المخازن ومستودعات البيت لكي لا ينقص من مستلزماته شيء؟ ولماذا تعطى الفرصة للقهرمانة في البيت لكي تسرق ما فيه؟ ولماذا يبقى في البيت خدمة المهملون السكارى؟ ولماذا يسمح لهم بالنوم والعربدة طول الوقت؟ لكن لا شيء من هذه الأمور جدير بالاهتمام في عيني مدام مانيلوف لأنها كانت قد تربت تربية راقية. والتربية الراقية - كما نعلم - موجودة في المدارس الداخلية. والمدارس الداخلية - كما هو معروف لدى الجميع - ترى أن أسس الفضيلة تقوم على ثلاثة مبادئ رئيسية هامة، اللغة الفرنسية (وهي أمر

لا غنى عنه للحياة الزوجية)، والعزف على البيانو (وهو أمر ضروري لتسلية الزوج في أوقات الفراغ)، وذلك الفرع من التدبير المنزلي الذي يختص بحياكة المحفظات وإعداد المفاجآت. على أيّة حال، فقد بدأت الإصلاحات والتغييرات تحتل مكانها في هذه المؤسسات في الوقت الراهن لأن الأمور فيها أصبحت تسير وفق رغبات القائمين عليها وحسب أهوائهم الشخصية. ففي بعض هذه المعاهد مثلاً، أصبح العزف على البيانو يحتل المرتبة الأولى والفرنسية تحتل المرتبة الثانية أما التدبير المنزلي المذكور أعلاه فيأتي في المرتبة الأخيرة. بينما نجد في معاهد أخرى أن حياكة هدايا المفاجآت تحتل الدرجة الأولى تليها اللغة الفرنسية ثم العزف على البيانو - إلى هذه الدرجة بلغ الاختلاف في الأنظمة السائدة! ومع ذلك فيمكن أن أقول أن مدام مانيلوف.. لكنني يجب أن أعترف بأنني أخشى دائماً أن أتحدث الكثير عن السيدات. وبالإضافة إلى ذلك فقد حان الوقت لكي نعود إلى بطلينا اللذين كانا واقفين في الدقائق القليلة الماضية أمام باب غرفة الاستقبال يتباريان في تقديم بعضهما البعض في السبق إلى الدخول.

قال تشيتشيكوف «أرجو أن تتكرم بالدخول وأن لا تزعج نفسك بسببي، فسوف أتبعك».

فأشار مانيلوف إلى الباب وقال «لا يا بافيل ايفانوفيتش، لا! أنك ضيفي».

فقال تشيتشيكوف «لا تجعل من هذه المسألة أمراً كبيراً، أرجوك لا تجعل منها أمراً كبيراً وأن تتفضل بالدخول قبلي».

«إنّي لن أفعل، فأرجو عفوك. إنني لن أسمح لنفسي بأن أتقدم على ضيف عزيز مهذب، مثلك، إطلاقاً».

«ولماذا تصفني بالمهذب يا سيدي العزيز؟ أرجوك أن تدخل».

«كلا، لن يكون ذلك، تفضل».

«ولماذا؟»

فابتسم مانيلوف ابتسامته الحلوة، وقال «للسبب الذي ذكرت».

وأخيراً دخل الصديقان سوية بجانبيهما يزحم أحدهما الآخر بعض الشيء.

واستأنف مانيلوف حديثه قائلاً «اسمح لي أن أقدم لك زوجتي». وقال لزوجته «هذا بافيل ايفانوفيتش يا عزيزتي!» وفي تلك اللحظة وقعت عينا تشيتشيكوف على سيدة كان قد سها عن رؤيتها حين كان يتبادل الانحناءات مع مانيلوف في مدخل الباب. لم تكن قبيحة المنظر قط، وكانت ترتدي ثوباً من الحرير الملون، وعندما دخل الزائر الغرفة رمت من يديها الصغيرتين شيئا على المائدة وأمسكت بمنديل من الشيت قبل أن تنهض من على الديوان الذي كانت تجلس عليه. وأخذ تشيتشيكوف يدها بغير قليل من الارتياح، وراح يستمع إليها وهي تحدثه بلثغة بسيطة في اللفظ، وتخبره أنها هي وزوجها يشعران بالامتنان العظيم لمجيئه، وأن زوجها في المدة الأخيرة كان يذكره كل يوم.

وأكد مانيلوف هذا الحديث بقوله «وفي كل يوم كانت تسألني – ولماذا لم يطل علينا صديقك حتى الآن – وكنت دائماً أجيبها قائلاً – انتظري قليلاً يا عزيزتي، فلن يمر وقت طويل حتى يأتي – وها أنت قد جئت، ها أنت قد شرفتنا بهذه الزيارة، وها أنت قد أغدقت علينا البهجة الكبرى، بهجة تجعل هذا اليوم عيداً، أجل أنه عيد ميلاد القلوب».

وما أن سمع تشيتشيكوف أن المسألة قد تطورت بحيث أصبحت عيد ميلاد القلوب حتى اعتراه بعض الارتباك. فأجاب إجابة متواضعة بأنه لا يعتز بأصل ممتاز ولا برتبة ممتازة، ولكن مانيلوف قاطعه بابتسامه الآسرة قائلاً، «إنك لكذلك، بل أكثر من ذلك».

وتساءلت مدام مانيلوفا، «وكيف رأيت مدينتنا؟ هل قضيت فيها وقتاً طيباً؟».

فأجاب تشيتشيكوف «أجل، أنها للطيفة جداً، وقد أعجبني فيها كرم أهلها».

«وما رأيك في حاكمنا؟».

وأضاف مانيلوف «ألا تراه شخصية عظيمة ساحرة؟».

فقال تشيتشيكوف «أنه لكذلك، وهو في الحقيقة رجل يستحق كل احترام. ويا للدقة التي يقوم بها بإنجاز مهامه حسب ما يرشده إليه عقله النيّر! ليت في البلاد الكثير من أمثاله!».

فابتسم مانيلوف وأغمض عينيه نصف إغماضة كالقطة التي يداعبها صاحبها من خلف أذنيها، وقال، «يا للروعة التي يقابل بها كل إنسان».

فأكد تشيتشيكوف هذا بقوله «تماماً. أنه في غاية الأنس والوداعة. ويا له من فنان! لم أكن أتصور أنه يستطيع أن يعمل هذه الأشغال اليدوية المنزلية التي عملها! إن بعض أشغال الأبرة التي أطلعني عليها لا تستطيع سيدة في البلاد أن تجاريه فيها!».

وتساءل مانيلوف مغمضاً عينيه مرة أخرى «ونائب حاكم الولاية، أنه شخص لطيف. أليس كذلك؟».

فأجاب تشيتشيكوف «جداً جداً! أنه شخص عظيم حقاً».

«وما رأيك في رئيس الشرطة؟ أليس هو في الواقع إنساناً طيباً خلوقاً جداً؟».

«طيب، خلوق بكل تأكيد. ويا له من إنسان بارع واسع الاطلاع، لقد لعبت معه ومع المدعي العام ورئيس المجلس المحلي لعبة الوست إلى أن صاح ديك الصباح صيحاته الأخيرة. أنه لشخص رائع.

وتساءلت مدام مانيلوفا «وما رأيك في زوجته؟ أليست شخصيتها من الفخامة على قدر كبير؟» فوافق تشيتشيكوف قائلا «إنها من أحسن من عرفت».

ولم ينسَ الجمع في حديثهم رئيس المجلس المحلي ومدير البريد، حتى مروا بذكر موظفي المدينة كلهم. وقد تبين في كل حالة من هذه الحالات أن هؤلاء الموظفين في أسمى درجات الكفاءة.

ثم تساءل تشيتشيكوف قائلاً، «وهل تقضي وقتك كله في الريف؟».

فأجاب مانيلوف «معظم الوقت، مع أننا أيضاً نقوم بزيارات للمدينة بغية الاختلاط مع الطبقة ذات النشأة الحسنة. إن المرء ليعلوه الصدأ إذا ما سيحيا حياة العزلة».

فوافق تشيتشيكوف قائلاً «إن هذا لصحيح».

فتابع مانيلوف يقول «أجل هذا صحيح، وفي الوقت نفسه سيكون الأمر مختلفاً فيما لو كان هناك جار واع - أي أن يكون هناك صديق مثقف يستطيع الإنسان أن يبحث معه في الأخلاق والآداب أو أن يتجادل معه في فرع من فروع العلم، لكي يحرك المرء عقله. لأن هذه الأمور تبعث الحيوية في الإنسان. أن، أن...» ووجد نفسه ضائعاً في التفتيش عن كلمات يعبر بها عن مشاعره وأشار اشارة تدل على أنه قد ذهب بعيداً في الموضوع، واستمر يقول «إن ما أعنيه أنه لو كان ذلك الشيء موجوداً، فإنني سوف أجد متعة كبيرة في العيش في الريف. ولكن شيئاً كهذا في الواقع غير موجود، وكل ما أستطيع عمله هو أنني في بعض الأوقات أقرأ مجلة «ابن الوطن».

وقد وافق تشيتشيكوف على هذه المشاعر موافقة كاملة، وأضاف إلى ذلك يقول بأن من المبهج حقاً للإنسان أن يحيا حياة العزلة إذا ما استطاع أن يقضي أوقاته بين التأمل في الطبيعة وقراءة الكتب.

فوافق تشيتشيكوف على ذلك أيضاً بقوله «حقاً، حقاً، فما قيمة كنوز العالم كلها بدون صديق. وقد قال أحد الحكماء – الكنز الثمين لا يغنيك عن الصديق الأمين».

هنا بدت على وجه مانيلوف إشراقة ليست حلوة وحسب، وإنما لها صفة المزيج الذي يخلطه الطبيب الحاذق بالدواء المر فيجعله حلواً عندما يريد أن يسقيه للمريض الوجل. وقال «أجل يا بافيل ايفانوفيتش، لا أظنك تستطيع أن تتصور أي سعادة أو على الأصح أي سعادة كاملة شاملة أغدقتها علينا هذه الفرصة الحالية. فهي قد أتاحت لي أن أحظى بسماع حديثك العذب وأن استمتع بهذا الحديث».

فأجاب تشيتشيكوف «إنك تبالغ يا سيدي. أي حديث عذب! ما أنا إلا إنسان ضئيل، إنني في الواقع لا شيء».

فصاح الآخر «كفى يا بافيل ايفانوفيتش، إذا شئت أن أكون صريحاً معك فإنني أقول لك بأنني سأكون سعيداً لو أعطيت نصف ما أملك مقابل أن أحوز على قسم من مواهبك».

«على العكس من ذلك، فأنا اعتبر أن أسمى شرف في العالم..».

ولا يعلم إلا الله طول المدى الذي كان سيمتد إليه هذا الحديث الروحاني المتدفق المتبادل لو لم يدخل أحد الخدم ليعلن لهما أن الغداء جاهز.

وقال مانيلوف «بكل احترام أدعوك لاصطحابنا على المائدة. وإني لألتمس منك المعذرة لعدم استطاعتنا أن نهيئ لك احتفالاً مناسباً كما يفعلون في المدينة أو في العاصمة. فليس لدينا غير حساء الركنب الروسي، ولكننا نقدمه إليك من قلب مخلص. تفضل بكل احترام، أرجوك».

وبعد جدل طويل في تقديم الواحد على الآخر في الدخول إلى غرفة

الطعام، اجتاز تشيتشيكوف الباب وهو يسير وجنبه إلى الأمام. ووجدا طفلين في انتظارهما. كانا ولدي مانيلوف، وهما في سن يسمح لهما بالجلوس على الموائد، إذا ما وضعت لهما الكراسي العالية الخاصة لهذا الغرض. وكان يقف إلى جانب الصبيين معلّمهما الذي ابتسم وانحنى للضيف بكل أدب. ومن ثم جلست ربة البيت أمام طبق حسائها، فأجلس ضيف الشرف بينهما وبين ربّ البيت، بينما أخذ أحد الخدم يربط الفوط البيضاء على عنقيّ الطفلين.

وحدق تشيتشيكوف في الصبيين وقال «يا لسحر هذين الطفلين! كم عمرهما؟».

فأجاب مانيلوف «الكبير في الثامنة أما الصغير فقد أكمل السادسة أمس».

والتفت الأب إلى الأبن الأكبر، وكان يجاهد في تخليص ذقنه من الفوطة التي لفه بها الخادم، وقال «ثيميستوكليوس». وما أن سمع تشيتشيكوف هذا الاسم الإغريقي الصرف (الذي كان الأب لسبب غير معروف يضع في آخره دائماً «يوس») حتى رفع حاجبيه قليلاً، ولكنه سارع في اللحظة التي تلتها إلى استرجاع المظهر الملائم لملامحه.

وقال الأب «ثيميستوكليوس، قل لي ما هي أجمل مدينة في فرنسا؟».

وعندما سمع المعلم هذا السؤال ركز اهتمامه على ثيميستوكليوس، وكان يريد أن تقع عيناه على عينيه. و لم يبدُ على المعلم الهدوء إلاّ عندما لفظ ثيميستوكليوس كلمة «باريس» فخفض رأسه.

وعاود مانيلوف السؤال «وما هي أجمل مدينة في روسيا؟».

وعاد المعلم إلى وضع السابق من الاهتمام والتركيز الشديدين.

وأجاب ثيميستوكليوس «بطرسبورج».

«وما هي المدينة الأخرى؟».

فأجاب الصبي «موسكو».

فالتفت تشيتشيكوف إلى الأب وعلائم الدهشة على وجهه «يا للصغير البارع! ويا لسعة معرفته في سن كهذه السن! علي أن أقول بأن مواهب عظيمة تكمن في هذا الطفل الصغير».

فابتهج مانيلوف وقال «أنك لا تعرفه معرفة صحيحة بعد، فإن حدة ذكائه تفوق التصور. إن أخاه الأصغر ألكيد ليس في هذه الحدة من الذكاء. أما الأكبر فأن عينيه تكادان تخرجان من رأسه كلما رأى شيئاً، مهما كان ذلك الشيء - سواء كان صرصاراً أو جندياً أو أي شيء آخر، ويركض ليمسك بذلك الشيء ويتفحصه. إني أعدّه لمنصب دبلوماسي» والتفت الأب إلى ابنه مرة أخرى وسأله «هل تحب أن تكون سفيراً؟».

فقال ثيميستوكليوس وهو يمضغ قطعة من الخبز ويحرك رأسه من جهة إلى أخرى «نعم، أحب».

وفي هذه اللحظة انبرى الخادم الواقف خلف سفير المستقبل ومسح فمه بالفوطة. وقد أحسن صنعاً بعمله هذا، فلولاه لزاد طبق الحساء الموجود أمامه نقطة غير ظريفة الشكل ولا التكوين. وتحول الحديث بعد ذلك إلى مباهج الحياة الهادئة، لولا أن ربة البيت كانت تقاطعه بالحديث عن التمثيل والممثلين في المدينة. وكان المعلم أثناء ذلك يركز بصره على وجوه المتكلمين، وإذا ما لاحظ أن الجمع على وشك الضحك فتح فمه وأخذ يضحك بحماس. وقد يكون صاحب عرفان بالجميل أراد أن يكافئ مستخدمه على المعاملة الحسنة التي يلقاها في منزله. مهما يكن من أمر، ففي فترة من الفترات علت وجهه أمارات العبوس والتقطيب، وسدد نظره على الولدين الجالسين أمامه وقرع المائدة قرعة رصينة. حدث ذلك عندما رأى أن ثيميستوكليوس عض ألكيد من أذنه، فقطب

ألكيد المذكور عينيه وفتح فمه استعداداً للبكاء بصوت يستدعي الشفقة. وما أن أدرك أن إجراء كهذا قد يترتب عليه حرمانه من طبق أكله حتى سارع إلى إعادة فمه إلى الوضع الطبيعي وراح، والدموع تتساقط من عينيه، ينهش قطعة من عظم سرعان ما غطى دهنها خديه. بينما كانت ربّة البيت بين الآونة والأخرى تلتفت إلى تشيتشيكوف قائلة «إنك لا تأكل شيئاً، إن ما أكلته لقليل جداً». ولكن الضيف كان يجيبها دائماً بقوله «شكراً، لقد أكلت فوق الكفاية. إن الحديث الظريف أحسن من كل أطباق الطعام في العا لم».

ونهض الجمع أخيراً عن المائدة. وكانت معنويات مانيلوف عالية جداً، وقد وضع يده على كتف تشيتشيكوف لكي يسير به إلى غرفة الاستقبال عندما أعلن الأخير فجأة أنه يريد أن يحادثه في موضوع هام جداً.

فقال مانيلوف «إذا كان الأمر كذلك فاسمح لي أن أدعوك إلى مكتبي» وسار به إلى غرفة صغيرة تطل على الغابة الزرقاء، وأضاف قائلا «هذا معتكفي».

قال تشيتشيكوف «يا له من معتكفٍ رائع!» وراح يتفحص الغرفة بعناية.

والواقع أنه لم يكن ينقصها أي جمال. كانت الجدران مطلية بلون بين الأزرق والرمادي. وكان فيها من الأثاث أربعة كراسي ومقعد ومنضدة – وكان على الأخيرة بضعة أوراق بيضاء والكتاب الذي سنحت لي فرصة سابقة أن أتحدث للقارئ عنه. ولكن أهم ميزة للغرفة بارزة فيها بشكل ملحوظ هي التبغ. فقد كان يدو فيها بمظاهر مختلفة – محفوظاً في علب من الورق، وفي أوانٍ خزفية، وعلى شكل أكوام منثورة على المنضدة. أما على حافة الشبابيك فقد صفت أكوام صغيرة

من الرماد مرتبة بشكل لا يخلو من فن وفي صفوف فيها شيء من الانتظام. من الجليّ أن التدخين كان متعة يقضي فيها ربّ البيت أوقاتاً طويلة.

وقال مانيلوف «اسمح لي أن اقدم لك هذا المقعد لتجلس عليه. وسننعم بالهدوء هنا أكثر».

«ولكني أفضل الجلوس على هذا الكرسي».

فاعترض مانيلوف قائلاً «إنني لن أسمح بذلك. وسأحتفظ بهذا المقعد خصيصاً للضيوف. وسواء حلا لك أم لم يحل، فيجب أن تجلس عليه».

وبناء على ذلك انصاع تشيتشيكوف.

«ودعني أقدم لك غليونا».

فأجابه تشيتشيكوف بكل أدب وبمظهر الآسف «إني لا أدخن إطلاقاً».

فتساءل مانيلوف بأدب وبأسف أصيل «ولماذا؟».

«أنني أخشى أن اكتسب هذه العادة. ويقال أنها تورث الرئتين الجفاف».

«إذن فاسمح لي بأن أقول لك بأن هذا غير صحيح. بل أستطيع أن اقول بأن تدخين الغليون هو أحسن للصحة من استنشاق الصعوط. لقد عرفت في كتيبتنا ملازماً مهذباً ممتازاً كان لا يستطيع أن يرفع الغليون من فمه، سواء كان على مائدة الطعام أو كان، لا مؤاخذة، في محلات أخرى. أنه الآن في الأربعين ويتمتع بفضل الله بصحة لا يتمتع بها شخص آخر».

فأجابه تشيتشيكوف بأن هذا الشيء معقول، لأن الطبيعة فيها ألغاز لا يستطيع أكبر عقل بشري أن يجد لها تفسيراً.

ثم قال «اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً» وبدا في صوته نغم غريب أو في الواقع كان غريباً. ولسبب غير معروف نظر من فوق كتفه. ولسبب غير معروف نظر مانيلوف من فوق كتفه أيضاً.

وألقى الضيف سؤاله يقول «منذ متى قدمت للحكومة الإحصاء الأخير؟ [٣]».

«منذ مدة طويلة، طويلة جداً. إنني لا أذكر في الحقيقة متى كان ذلك».

«ومنذ تلك الفترة، هل مات الكثير من أقنانك؟».

«لا أعرف. إذا شئت أن أتأكد لك من ذلك يجب أن اسأل مأمور أملاكي. أيها الخادم، اذهب وناد مأمور الأملاك. كان لا بدّ أن يكون اليوم موجوداً هنا».

وجاء مأمور الأملاك آخر الأمر. كان يقارب الأربعين من العمر، حليق الذقن، يرتدي معطفاً رسمياً، ويبدو على سيماه أنه أليف الراحة. نظراً إلى أن وجهه كان من ذلك النوع الممتلئ الناعم، كان لون الجلد المحيط بعينيه الصغيرتين الشبيهتين بشقين شاحباً مما يدل على أن صاحب هذه الملامح أليف فراش من ريش النعام. وفي لمحة البصر يدرك الإنسان أنه لعب في الحياة الدور الذي يلعبه أضرابه المأمورون الآخرون. أي أنه كان في البداية قناً حاز على قسط من التعليم وتزوج وصيفة أو خازنة أثيرة عند ربة البيت، ومن ثم أصبح نفسه خازناً وارتقى تبعاً لذلك إلى

(٣) كان الملاكون يقدمون للحكومة لائحة بأسماء الأقنان والفلاحين الموجودين لديهم، وبناء على هذه اللوائح كانت توضع الضريبة التي تتقاضاها الحكومة. وكانت هذه اللائحة تقدم كل بضع سنوات. فإذا مات مثلاً، أحد الأقنان ما بين الإحصائين فإن المالك يدفع الضريبة عنه إلى أن يشطب اسمه من اللائحة في الإحصاء التالي. الناشر.

رتبة مأمور. وسار بعد ذلك على الطريقة التي يسير عليها أبناء عشيرته – أي أنه وقف مع الأقنان الأقوياء في المزرعة وجاراهم وأضاف أسماء الفقراء المستضعفين منهم إلى قائمة دافعي الضرائب الإضافية بينما كان هو نفسه يغادر الفراش في التاسعة صباحاً، ينتظر السماور وشرب الشاي في هدوء بال.

وسأله مانيلوف «اسمع أيها الرجل الطيب، كم مات لدينا من الأقنان منذ الإحصاء الأخير؟».

«كم مات منذ الاحصاء الاخير؟ عدد غير قليل». وفاق وضع يد على فمه.

فأيد مانيلوف هذا الخبر بقوله «أجل، هذا ما كنت أتصور؛ فلقد مات عدد غير قليل منهم في الواقع» والتفت إلى تشيتشيكوف وكرر القول مرة أخرى.

فتساءل تشيتشيكوف «كم يبلغ الرقم مثلاً؟».

فردد مانيلوف صداه قائلاً «نعم، كم يبلغ الرقم؟».

فردد المأمور الصدى للمرة الثالثة «كم يبلغ الرقم؟ لا أحد يعرف الرقم الصحيح، لأننا لا نحتفظ بسجلات لهاذ الغرض».

فقال مانيلوف «تماماً كذلك. إني أعرف معدّل الوفيات عالية ولكني أجهل الرقم الصحيح».

فقال تشيتشيكوف «فهل لك أن تسدي لي معروفاً فتهيئ لي لائحة تفصيلية بأسماء الموتى منهم؟».

فوافق مانيلوف «أجل، سأفعل – لائحة تفصيلية».

فقال المأمور «سمعاً وطاعة» وأحنى رأسه وخرج.

وبعد خروجه تساءل مانيلوف «ولأي غرض تريدها؟».

ويبدو أن السؤال قد أحرج الضيف، إذ أن ملامحه تغيرت واحمرّ وجهه كما لو كان يجاهد بغية التعبير عن أمر ليس من السهل وضعه في كلمات. وقد شاء القدر لأذنيّ مانيلوف أن تسمعا أمراً غريباً عجيباً لم يطرق سمع إنسان من قبل.

وراح تشيتشيكوف يقول «تسألني لأي سبب أريد اللائحة؟ إنّ غرضي منها هو هذا - هو أنني أريد أن أشتري بضعة أقنان». قال ذلك وهو يقطع حديثه تقطيعاً.

عندئذ تساءل مانيلوف «ولكن هل لي أن اسألك كيف تريد أن تشتري الأقنان؟ بالأرض التي هي عليها أم تريد أن تنقلهم إلى أرض أخرى - أي أن تشتري النفوس فقط؟».

فأجاب تشيتشيكوف «لا أريد الأقنان الأحياء بل أريد الموتى منهم».

«ماذا؟ أرجو عفوك، إن سمعي ثقيل بعض الشيء. إن كلماتك في الواقع تبدو لي غريبة حقاً».

فقال تشيتشيكوف «إن الذي أريد هو أن أشتري الأقنان الموتى الذين ورد اسمهم في لوائح الإحصاء الأخيرة على أنهم أحياء».

فأسقط مانيلوف غليونه على الأرض وفتح فاه فترة من الزمن. إنّ الصديقين اللذين كانا قبل لحظة يتطارحان عواطف الصداقة ومشاعر الوداد، جلسا الآن ساكنين يحدّق أحدهما في الآخر كصورتين متشابهتين من تلك التي كان توضع منذ قديم الزمن على جانبي المرآة في صالات الاستقبال. وأخيراً، انحنى مانيلوف لكي يلتقط غليونه عن الأرض، ونظر من طرف خفي أثناء ذلك إلى تشيتشيكوف ليرى فيما إذا كان هناك أثر لابتسامة على شفتيه، أي فيما إذا كان الرجل يقصد المزاح. ولكنه لم يلمح أثراً لشيء من هذا القبيل. بل على العكس من

ذلك، رأى وجه تشيتشيكوف صارماً حازماً أكثر منه في أي وقت مضى. وبالتالي، أخذ مانيلوف يفكر فيما إذا كان ضيفه لسبب من الأسباب قد فقد عقله، وراح بناء على ذلك يحدق فيه فترة من الزمن بقلق شديد. ولكن عينيّ الضيف كانتا صافيتين هادئتين خاليتين من تلك الومضة النارية الغريبة التي تحوم في أعين المجانين. كان كل شيء طبيعياً كما يجب أن يكون. وبناء على ذلك، وعلى الرغم من الاتجاه الذي سبحت فيه أفكاره، لم يجد أفضل من أن يجلس نافثاً من فيه دخان التبغ على شكل عامود نحيف يخترق الهواء.

وأكمل تشيتشيكوف يقول «وعلى هذا الأساس أريد أن أعرف فيما إذا كنت تنوي أن تسلمني هؤلاء الأقنان - الذين هم في الواقع موتى ولكنهم بحكم القانون أحياء».

كان مانيلوف في حالة عميقة جداً من الاضطراب النفساني والبلبلة الفكرية بحيث لم يجد ما يفعل إلا أن يحدق في محادثه.

ولكن تشيتشيكوف لاحظ يقول «أظن أنك سادر في اضطراب لا لزوم له».

فتمتم مانيلوف قائلا «أنا؟ أوه. لا! أبداً! إنما أرجو عفوك. فإني لم أفهمك تماماً. فأنا لم أبلغ حدا من الثقافة أكتسب بها هذه الألمعية التي - كما يقولون - تتجلى في كل حركة من حركاتك. حتى أنني لم أكن في يوم من الأيام قادراً على التعبير عما يجول في نفسي بوضوح. وبناء على ذلك فقد يكون هناك احتمال بأن وراء الكلمات التي لفظتها معنى آخر لا استطيع ادراكه، أو من المحتمل أيضاً أن تكون قد جررت هذا الحديث بغية جمال القالب الأدبي الذي استطعت أن تضعه فيه». فردّ تشيتشيكوف مسرعاً «كلا، كلا، إنني أفهم الوضع كما هو عليه، بمعنى تلك النفوس التي ماتت بالضبط».

كان مانيلوف لا يزال يحسّ بأنه ضائع، ولكنه كان يشعر بأن عليه أن يعمل شيئا ما – يجب أن يلقى سؤالاً ما. أما ما هو هذا السؤال؟ فالشيطان وحده يعلم! وانتهى آخر الأمر إلى الاكتفاء بنفث دخان التبغ، لا من فمه وحسب كما كان يفعل من قبل، بل من أنفه أيضاً.

واستأنف تشيتشيكوف الحديث قائلاً «وعلى ذلك إذا لم تكن هناك عقبة تقف في الطريق ففي إمكاننا أن نعقد صفقة البيع».

«ماذا؟ بيع النفوس الميتة؟».

«النفوس الميتة؟ طبعا لا يا عزيزي! إننا سنكتبهم في العقد أحياء لأن هذه هي حقيقتهم كما هي مدونة في سجلات الإحصاء. إنني لا أسمح لنفسي إطلاقاً أن اتجاوز حدود القانون، على الرغم من الأضرار التي لحقت بي في الخدمة من جراء ذلك. أن ارتباط المرء بتنفيذ القوانين في نظري هو شيء مقدّس. إنني أمام القانون لا أبدي حراكاً».

كان مفعول الكلمات الأخيرة في نفس مانيلوف غير قليل، ومع ذلك فإن معنى القضية كلها لم يزل في عينيه غير مفهوم. وانكبّ استجابة لذلك يسحب من غليونه بعنف شديد حتى بدأ الأخير يصدر صوتا كالمزمار. وكأنه يريد أن يستلهم منه الوحي ليدله على التصرف الصحيح في هذه المشكلة التي لم يسمع بمثلها بشر حتى الآن. ولكن الغليون كان يزمر فقط، و لم يكن ينزل من الوحي شيئاً.

وقال تشيتشيكوف «ربما لديك شكّ في هذا العرض؟».

فأجاب مانيلوف «لا، أبداً! ولكن، أجل، أظن أنك ستسمح لي إذا قلت وأرجو أن لا تحمل قولي على أنه انتقاد لشخصك أو تحامل عليك بأن... وأرجو أن تسمح لي... بأن الـ... أي أقصد هذا المشروع.. هذه الصفقة... قد... قد تفشل بالمرة إذا ما وجد أنها تخالف الأنظمة والقوانين وتطور روسيا بالذات».

وراح مانيلوف بهزة بسيطة من رأسه ينظر في وجه تشيتشيكوف نظرة ذات معنى. وكان يبدو على ملامحه -بما في ذلك شفتاه المطبقتان على بعضهما أطباقاً محكماً - مظاهر التفكير العميق الذي لا نراه على محيّا إنسان - اللهم إلا إذا كان وزيراً في الدولة ويناقش في مسألة غاية في الخطورة.

ومع هذا فقد أجابه تشيتشيكوف ببساطة بأن مشروع بيع الأنفس الذي يبتغيه لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع الأنظمة والقوانين الروسية، وأضاف إلى ذلك بأن الدولة نفسها سوف تنتفع من هذه الصفقة لأنها سوف تتقاضى النسبة المئوية القانونية المعتادة.

فقال مانيلوف «وما الذي تراه الآن؟».

«إني أعتقد بأن ذلك سيكون جيداً».

وظهرت الآن على وجه مانيلوف أمارات الاطمئنان الكامل. وقال «إذا كان الأمر كذلك فهذه قضية أخرى ليس لي عليها أي اعتراض».

«اذن فلم يبق إلا أن نتفق على الثمن».

«الثمن؟» - وقطع مانيلوف كلامه فجأة، ثم أستأنفه يقول «وهل استطيع أن أتقاضى ثمناً عن نفوس هي في العدم، على الأقل من وجهة نظر معينة. نظراً لوجود هذه النزوة الغريبة - إذا سمحت لي بأن أستعمل هذا التعبير - المستحكمة فيك إلى هذه الدرجة فإنني من ناحيتي على استعداد لتقديم هذه النفوس إليك دون قيد أو شرط، وسوف أدفع من جيبي كل النفقات اللازمة لإجراء المعاملة».

وسوف يلومني القارئ أشد اللوم فيما لو أغفلت أن أذكر له أن تشيتشيكوف لم يكد يسمع هذه الكلمات من فم مضيفه حتى تلألأ وجهه بأمارات الغبطة والارتياح. وعلى الرغم مما هو عليه من الاتزان والفطنة فقد بذل مجهوداً كبيراً جداً في كبح جماح نفسه عن القفز

من موضعه كما تفعل الشاة التي يعرف الجميع قفزتها العالية جداً في الحالات التي تكون فيها نشوتها قد بلغت الذروة. على أيّة حال، فإنّ تشيتشيكوف، بالرغم من ذلك كله، تحرك حركة سريعة هي أشبه بالقفز، مزق بها غطاء المقعد الذي كان يجلس عليه مما جعل مانيلوف يحدق فيه باندهاش. أما عرفان تشيتشيكوف بالجميل فقد قاده آخر الأمر إلى الانجراف في تيار من الحمد والشكران، تيار عنيف جداً مما أعاد البلبلة إلى مضيفه وجعل خديه يتضرجان بحمرة الخجل ودعاه أن يحرك رأسه استعاذة من أن يكون قد عمل غير الواجب، وأن ينتهي إلى التصريح بأن هذا الاتفاق كله هو لا شيء، وأن رغبته الوحيدة هي في أن يمتثل لما يمليه عليه قلبه تجاه المغناطيسية النفسانية التي يحس بها نحو صديقه، أي باختصار، كان يرى أن النفوس الميتة شيء تافه لا يستحق الذكر.

فأجاب تشيتشيكوف «لا أبداً». وهز يده ضاغطاً عليها. وتنفس بعمق وقد شعر آنذاك بأنه في وضع يستطيع فيه أن يبث مكنونات قلبه، استمر يقول بصوت يفيض بالعاطفة «آه لو عرفت أي معروف أسديت بهذا الشيء الذي «لا يستحق الذكر» لشخص تافه، شخص وحيد حرمه الزمان من الأهل والاقارب! فأيّ مصيبة لم تصبني في هذه الحياة؟ لقد كنت المركب التائه في خضم نوائب الحياة وويلاتها. وأي ثبور وأي خطب لم يمر بي؟ وأي حسرة لم أذق مراراتها؟ ولماذا؟ لأنني كنت دائماً وأبداً أضع الحق نصب عيني. لأنني كنت دائماً وأبداً ذا نية صافية وضمير طاهر. لأنني كنت دائماً أمد يد العون للأرملة الضعيفة واليتيم المحروم». وبعد هذا السيل الجارف من العواطف الفياضة سحب تشيتشيكوف منديله ومسح دمعة تترقرق في عينيه.

ولقد تحركت عواطف مانيلوف حتى أعماق الفؤاد، فأخذ الصديقان يضغطان على أيدي بعضهما البعض مرة تلو الأخرى، وهما

في صمت عميق يحدقان في عيون بعضهما التي كانت تترقرق بالدمع. وفي الحقيقة، لم يكن مانيلوف بقادر على ترك يد بطلنا وإنما كان يتشبث بها بحرارة حتى أن البطل المذكور وجد نفسه في حيرة وهو يفتش عن أحسن الوسائل لتخليص يده. ولكنه آخر الأمر تمكن من سحبها بلطف وقال أن إكمال الصفقة بسرعة أمر لا بأس به، فيستطيع بناء على ذلك أن يعود إلى المدينة لتسوية الأمر. فتناول قبعته ونهض ليلقي تحية الوداع.

فعاد مانيلوف إلى نفسه فجأة، وأحسّ بشيء من الرهبة، وقال «ماذا؟ أأنت ذاهب بهذه السرعة؟».

وإذا بزوجته في تلك اللحظة تخطر داخل الغرفة.

«بافيل ايفانوفيتش يريد أن يتركنا يا عزيزتي ليزانكا» - قال مانيلوف بشيء من التوسل.

فأجابت - «يبدو أننا أورثناه الملل».

فقال تشيتشيكوف واضعا يده على قلبه. «أبداً يا مدام، ففي هذا القلب سأحتفظ بذكرى جميلة للوقت الأنيس الذي قضيته معكم. ثقي بأني لا أجد نعمة أكبر من أن أعيش معكم تحت سقف واحد وعلى الأقل في الجوار القريب».

ويبدو أن هذه الفكرة راقت لمانيلوف جداً، فقال «حقاً؟ كم يكون رائعاً لو جئت تعيش معنا في بيتنا هذا. إننا سنتفيأ ظل شجرة دردار ونجلس معا نتحدث في الفلسفة ونبحث الأشياء من أصولها».

فتنهد تشيتشيكوف وقال «أجل إن هذا يكون جنات النعيم!» ومع ذلك صافح المدام، «وداعاً أيتها السيدة الكريمة»، وصافح المضيف «وداعاً أيها الصديق العزيز. لا تنسى طلبي إليك».

فأجاب مانيلوف «تأكد أنني لن أنسى. وسوف نتقابل في المدينة بعد يومين».

وبهذا تحرك الجمع إلى غرفة الاستقبال.

فوقعت عينا تشيتشيكوف على الصبيين وكانا يلعبان بجندي خشبي مجدوع الأنف مكسور اليد، وقال لهما «وداعاً أيها الطفلان العزيزان، وداعاً أيها الصغيران. اغفر لي هذه المرة أنني لم أحضر لكما هدايا، فما كنت أعلم بوجودكما قبل زيارتي هذه. ولكني عندما أحضر المرة القادمة فلن أنسى أن أحضر لكما الهدايا التي تليق بكما. سوف أحضرك سيفاً يا ثيميستوكليوس. أنت تحب السيف، أليس كذلك؟».

«نعم».

«وأنت يا ألكيد، سوف أحضر لك طبلاً، أتحب الطبل؟» قال هذا وأدار رأسه وأحناه نحو ألكيد. فأرجح الصبي رأسه ولثغ قائلا «معم، تبل».

«إذن فليكن طبلاً، وأيّ طبل جميل سيكون. إذا ما قرعت عليه سيقول ترا ترا ترم ترم ترم... وداعاً يا صغيري». وقبل رأس الصغير، ثم التفت إلى مانيلوف وزوجته بابتسامة تدلهما على مدى إعجابه بصغيريهما.

ثم خطا الثلاثة إلى الشرفة وقال الأب «أظن من الأفضل أن تبقى يا بافيل ايفانوفيتش، أنظر إلى السماء أنها متلبدة بالغيوم».

فقال تشيتشيكوف «إنها غيوم صغيرة لا ضير منها».

«وهل تعرف الطريق إلى بيت سوباكيفيتش؟».

«لا، لا أعرفها ويسرني لو دللتني عليها».

«إذن دعني أخبر السائق عن تفاصيل الطريق». وهنا حضر سيليفان، وكان مانيلوف رقيقاً جداً معه بحيث أخذ يخاطبه بضمير المخاطب الثاني.

وما سمع سيليفان أن عليه أن يتعدى منعطفين ثم يسير في الثالث، حتى قال «حسناً يا سيدي، سنصل إلى هناك بسلام». وانطلق تشيتشيكوف وسط عاصفة من التحيات والهتافات وتلويح المناديل – كان يقوم بها ربّ البيت وربّته، وكان يفعلان ذلك وهما يرفعان نفسيهما على رؤوس الأصابع من فرط الحماس.

ووقف مانيلوف فترة طويلة من الوقت وهو يتبع العربة بنظراته. وقد استمر في الواقع يتبعها بأنظاره وهو يدخن غليونه حتى بعد أن اختفت وراء الأفق بمدّة غير قليلة. ومن ثم عاد إلى غرفة الاستقبال مرة أخرى وجلس على أحد الكراسي مستسلماً للتفكير وكانت القضية التي ابتدأ بالتفكير فيها في الحقيقة، هي فيما إذا كان قد قام نحو الضيف بما هو واجب عليه كمضيف. ثم سرح تفكيره إلى أمور أخرى لا يعلم إلا الله الغياهب التي وصلت إليها. فكر في مباهج الحياة ومسراتها، وفي الصداقة، وكم هو جميل أن يعيش الإنسان مع صديق، على شاطئ نهر مثلاً، وأن يقيم جسراً خاصاً له على النهر، وأن يبني عمارة ضخمة جداً عالية جداً، ببرج بحيث يرى الإنسان من شرفتها العليا مدينة موسكو، وسيجلس على تلك الشرفة هو وصديقه يتناولون شاي الأصيل في الهواء الطليق ويتناقشون في المواضيع الطريفة الشتى. ومن ثم ينطلقون بعد ذلك في عربة أنيقة إلى منتدى يسحرون فيه الجميع بلطف تعاملهما حتى إذا عرف الإمبراطور بصداقتهما خلع عليهما رتبة جنرال، وما إلى ذلك مما لا يعرفه إلا الله. ولكنه أحس فجأة أن طلب تشيتشيكوف الغريب قد قطع عليه حبل الأحلام، ووجد أن عقله أعجز من أن يهضم هذه القضية. فأخذ يقلبها على وجوه مختلفة شتى، ولكنه لم يستطع أن يجد لها تفسيراً. واستمر جالساً في موضعه يدخن غليونه، حتى حان موعد العشاء.

الفصل الثالث

كانت العربة تدرج على الطريق وتشيتشيكوف جالس فيها يشعر بأنه راض عن نفسه تمام الرضى. ولا بدّ أن يكون القارئ قد أدرك من الفصل السابق ما انطوت عليه نفسه وما هو الغرض الرئيسي الذي يهدف إليه. فلا عجب إذن، أن رأيناه ينغمس في الموضوع بالروح والجسد انغماساً كلياً. كانت أفكاره وحساباته ومشاريعه تنعكس على وجهه فتتشارك في إسباغ البشر والمرح عليه، إذ تترك كل واحدة منها – ساعة تخطر – ابتسامة رضى خاطفة تتبع الابتسامة التي تركتها سابقتها. وقد كان في الحقيقة مستغرقاً في هذا الشأن بحيث لم يلحظ أن سائقه – الذي كان مزهوّاً بكرم خدم مانيلوف – كان يتكلّم مع الحصان الأرقط، أحد الخيول الجانبية في الترويكا[٤]. كان هذا الأرقط حيواناً عليماً، فكان يتظاهر بالسحب. بينما كان رفيقاه، الحصان الأوسط (وهو حصان أحمر اللون) والحصان القريب (وهو بني اللون) ويعرف بالمستشار لأن الرجل الذي اشترى منه كان يحمل هذه الرتبة يعملان بشهامة وتظهر في عيونهما الغبطة التي يستمدانها من إجهاد نفسيهما في سبيل قيامهما بالواجب. كان سيليفان يرتفع عن مقعده ليضرب الحصان الكسول بالسوط وهو يقول «أيه أيها السافل، أيه أيها النذل، سوف أربيك. إنك تعرف جيداً ماذا تعمل، أيها الصعلوك الألماني! إن الحصان الأحمر طيب القلب قائم بالواجب، وسوف أزيده علفاً، إنه حصان جدير بالاحترام، والمستشار طيب أيضاً، أما أنت.

---

(٤) الترويكا – عربة تجرها ثلاثة خيول. الناشر.

فلماذا تحرك أذنيك؟ إنك غبي. عليك منذ الآن أن تأخذ حذرك عندما تتلقى أمراً. هذه نصيحة مني إليك أيها الجاهل، وإنها لنصيحة خالصة. أيه، أنك تستطيع السير لو أردت». وأهوى على الحيوان بضربة من سوطه وهو يقول «إذا كنت لعيناً فأنا ألعن منك»، وقال مخاطباً الخيول الثلاثة «هيا يا أعزائي» ومر بالسوط مروراً رقيقاً على ظهري الحصانين الآخرين دلالة على الرضى لا العقاب. ثم عاد إلى مخاطبة الأرقط مرة أخرى «أتظن أنني لا أدري ماذا تفعل؟ إنك تستطيع أن تسلك سلوكا أكثر احتراماً فتجعل المرء يحترمك» وعندئذٍ راح يستيعد بعض الذكريات. وأنشأ يقول «لقد كانوا قوماً كراماً، أولئك الناس في بيت السيد الذي هناك. إني أتوق إلى مؤانسة الرجال الكرام إذا كانوا حقاً كراماً، ومع أمثالهم أترك النفس على سجيّتها. إني أحب أن أشاطرهم شرب الشاي وتناول الحلوى. إن المرء لا يستطيع إلا أن يحترم الإنسان المحترم. وسيدي مثل طيب على ذلك، والكلّ يحترمه، فقد كان في خدمة الحكومة وهو الآن من الأعيان».

وسرح وهو يحادث نفسه على هذه الوتيرة إلى أحلام أكثر بعداً، ولو أنصت إليه تشيتشيكوف لسمع تفاصيل غريبة بهذا الشأن تخصه نفسه. إلا أنه هو الآخر كان مشغولاً عن كل شيء بموضوعه الخاص. ولكن انفجارة مدوية من الرعد أيقظته من أحلامه، فتلفت حوله. كانت السماء مغطاة كلها بالغيوم، وأخذت قطرات المطر تتناثر فوق الأرض المغبرة. ثم انفجر صوت آخر، أقرب وأعلى من سابقه، وانهمر المطر صيباً مدراراً كما لو كان من فوهات القرب. كانت قطراته تضرب سقف العربة بانحراف ثم في جانب، وبعد ذلك تغير شكل هجومها وتصير مستقيمة وتنقر على الحوض فتتناثر مبللة وجهه، بحيث اضطر إلى سحب الستائر الجلدية (وكان في الستائر فتحات مستديرة تمكنه أن يلمح منها جانبيّ الطريق)، واضطر أيضاً إلى الصياح على سيليفان حاثّاً

إيّاه أن يسرع الخطى. وأرى السائق الذي قوطع في منتصف خطابه أن لا يضيع الوقت سدى، فسحب من تحت صندوق المقعد قطعة عباءة قديمة قذرة لفها على كميه وأمسك بالعنان وصاح بفرقته الثلاثية (التي كانت تحت تأثير خطابه قد استرخت استرخاءاً كاملاً حتى أصبحت لا تكاد تقدم رجلاً على أخرى). و لم يستطع سيليفان لسوء الحظ أن يتذكر فيما إذا كان قد تعدى منعطفاً أو منعطفين. وما إن استجمع ذاكرته مراجعاً معالم الطريق حتى أدرك أن عدداً كبيراً جداً من المنعطفات قد مرَّ عليه حتى الآن. وبما أن الروسيّ سريع في اكتشاف أحسن الطرق الواجب اتباعها في اللحظات التي تستوجب سرعة البت في الأمور، فقد طرح سائقنا التساؤل جانباً ودار في المنعطف التالي إلى اليمين وصاح «أيه يا جيادي الحسان». فانطلقت خبباً و لم يدر في خلده لحظة أن يفكر إلى أين تقوده تلك الطريق.

إلا أن المطر ظل يسقط طويلاً وبلا انقطاع حتى اختلط بتراب الطريق فصار أوحالاً علقت بالعجلات، فأصبح معها جرّ العربة على الخيول أمراً ثقيلاً. وبدأ تشيتشيكوف يحس بخيبة أمل في رؤية بيت سوباكيفيتش الريفي. إذ كان يجب أن يصل إليه بناء على حساباته منذ أمد طويل. وأخذ يجيل البصر في كل ناحية، إلا أن الظلمة كانت أكثف من أن يخترقها بصر.

وأطلّ من العربة وصاح «سيليفان!».

فأجابه السائق «ماذا تريد يا سيدي؟».

«هل ترى البيت الريفي في ناحية ما؟».

«لا يا سيدي». ولوّح بسوطه في الهواء وأخذ يغني أغنية من ذلك النوع الذي لا نهاية له. كان في تلك الأغنية موضع لكل شيء، وأعني «بكل شيء» تلك الصيحات المشجعة التي يستحثّ بها عامة الروس

خيولهم وتلك الصفات المختارة التي يلقونها خبط عشواء. ثم انتهى الأمر به إلى أن أخذ يسميها يا حضرات!

وبدأ تشيتشيكوف يلاحظ أن العربة أخذت تتأرجح بشدة مما راح يسبب له بعض الصدمات، وأحس بناء على ذلك بأنها قد حادت عن الطريق إلى حقل محروث. وخيم على عقل سيليفان إحساس من هذا القبيل فأمسك عن الغناء. وسأله تشيتشيكوف «أي طريق سلكت أيها النذل؟».

فأجاب السائق «لا أدري، فماذا يستطيع المرء أن يفعل في وقت بلغت فيه حلكة الليل درجة لا يكاد يرى فيها سوطه؟» وبينما كان سيليفان يتكلم مالت العربة إلى جانب بحيث لم يعد خيار أمام تشيتشيكوف إلا أن يتعلق بيديه وأسنانه. عندئذ عرف يقيناً أن سيليفان كان سكران.

فصرخ عليه «قف، قف وإلا انقلبنا!».

فأجاب سيليفان، «لا، لا يا سيدي، كيف يمكن أن أقلبك؟ أن قلب الناس خطأ، إنني أعرف هذا جيداً، ويستحيل عليّ أن أسلك سلوكاً كهذا». وهنا بدأ يدير العربة قليلاً واستمر يفعل ذلك حتى انقلبت على جانبها انقلاباً كاملاً، فهبط تشيتشيكوف في الوحل على يديه ورجليه. وقد نجح سيليفان، لحسن الحظ في ايقاف الخيول مع أنها كانت ستقف بنفسها بطبيعة الحال نظراً إلى أنها كانت قد أُجهدت غاية الإجهاد. أما السائق - على ما يظهر - فقد أدهشته هذه الحادثة غير المنتظرة. فانزلق من مقعده على الأرض ووقف أمام العربة بينما كان تشيتشيكوف يتخبط ويتمرغ في الوحل، باذلاً جهده عبثاً للخلاص منها. وقال سيليفان مفكراً ومخاطباً العربة «يا لك من عربة، لم أكن أظن أنك ستقلبيننا على هذا الشكل».

فقال تشيتشيكوف متعجباً «أنت سكران طينة!».

«لا، لا يا سيدي. أحقيقة إني سكران؟ أنا أعرف أن السكر مرذول.

إنها مؤانسة مع صديق، هذا كل ما حدث لي. إن كل امرئ يشعر بالأنس إذا ما جلس مع رجل محترم. ليس في ذلك أي خطأ. وقد تناولنا جرعة أيضاً. وليس في تناول الجرعة أي خطأ - لا سيّما إذا كانت مع رجل محترم».

فقال تشيتشيكوف «ماذا قلت لك عندما لقيتك سكران آخرة مرة؟ هل نسيت ما قلت لك؟».

«لا، لا يا سيدي. كيف يمكن أن أنساه؟ إنني أعرف مواضع الأشياء، وأعرف أن السكر غير صواب. وكل ما حدث لي هو مجرد مؤانسة مع إنسان محترم. وذلك لأن...».

«حسناً، فلو لففت السوط الآن حول عنقك لعرفت كيف تؤانس الإنسان المحترم».

فأجاب سيليفان موافقاً «كما تشاء يا سيدي. إذا شئت أن تضربني بالسوط فلك ذلك، ولن أشكو منه. و لم لا تضربني إذا كنت أستحق الضرب؟ لك أن تفعل ما تشاء. وضرب السياط ضروري أحياناً، فكثيراً ما يتمادى الفلاح في هواه، ويجب على المرء أن يحفظ النظام. فإذا استحققته فاضربني، و لم لا تفعل؟».

وقد ظهر أن هذا التعليل في تلك اللحظة سليم لا يدحض، فسكت تشيتشيكوف و لم ينبس ببنت شفة.

وقد شاء القدر أن يكون به رحيماً. فطرق سمعهما من بعيد نباح بعض الكلاب. واستبشر تشيتشيكوف وأصدر أوامره بتعديل العربة والسير بالخيول قدماً. وحيث أن للسائق الروسي ميزة واحدة على الأقل، وهو أنه يستطيع عند الضرورة أن يستعيض عن عينيه بحاسة طريق حادة، وبارشادها يقود عربته اعتباطا ولكنه مع ذلك يصل إلى مكان ما، فقد أفلح سيليفان وهو عاجز عن تمييز أي شيء، في أن يوجه

خيوله إلى بيت ريفي قريب. وقد كان احساسه قوياً جداً حتى أنه لم يوقف العربة إلا لما اصطدم عامودها بجدار الحديقة وتبين أن التقدم خطوة أخرى عاد مستحيلاً. وكل ما استطاع تشيتشيكوف أن يتبينه من خلال القناع الكثيف من المطر المنهمر هو شيء يشبه السقف. ولهذا أرسل سيليفان يفتش عن مدخل المكان. وكانت هذه العملية ستدوم مدة غير محدوة لو لم يقصرها شيء واحد وهو أن كلاب الحراسة في روسيا كثيراً ما تحل محل الحارس. فبدأ عدد كبير من هذه الحيوانات يعلن قدوم المسافر بصوت عال جداً حتى أن تشيتشيكوف اضطر إلى إقفال اذنيه. وبالتالي سطع ضوء من أحد الشبابيك وتسرب على شكل جدول رفيع إلى جدار الحديقة، وهكذا ظهر موضع باب الدخول. ومن ثم انهال سيليفان على الرتاج قرعاً حتى سُحب مزلاج الباب الداخلي وظهر منه شبح ملتف برداء متهدل.

وسمعا صوت امرأة عجوز أبح يقول «من ذا الذي يقرع الباب؟ وما هذه الضوضاء الساعة؟».

فقال تشيتشيكوف «إننا مسافرون أيتها الأم الطيبة. فنرجو أن تسمحي لنا بقضاء الليلة هنا».

فتمتمت العجوز «مستعجل! وقت لطيف من الليل هذا الذي وصلتم فيه! ليس لدينا فندق، نحيطكم علما أن هذا بيت سيدة». «لكن ماذا نعمل يا أماه، فقد أضعنا الطريق ولا نستطيع أن نقضي ليلتنا في العراء في طقس كهذا؟».

وأضاف سيليفان «لا، لا نستطيع فالليل مظلم بارد».

فنهره تشيتشيكوف قائلاً «أخرس يا أحمق».

وتساءلت العجوز «من أنت إذن؟».

«نبيل أيتها الأم الطيبة».

وقد ظهر أن كلمة نبيل - بشكل ما - كانت غذاء لتفكير العجوز، فقالت «انتظر لحظة حتى أخبر سيدتي».

وعادت بعد دقيقتين وفي يدها مصباح.

وفتحت الرتاج، بينما تألق ضوء آخر من نافذة البيت. ودخلت العربة الساحة ووقفت أمام بيت متوسط الحجم. و لم يكن الظلام يسمح بالملاحظة الدقيقة، إنما كان يلوح بأن البيت قد أضيئت نصف نوافذه فقط، فكانت الأشعة تنعكس منها على بركة أمام الباب. هذا بينما استمر المطر في انهماره، فكان يقع بصوت طنان فوق سطح خشبي ومن ثم يسمع صوته وهو ينصب من شؤبوب في إناء كبير. أما الكلاب فلم تنقطع لحظة عن النباح بكل ما في رئتيها من قوة. وأخذ أحدها ينبح وهو رافع رأسه إلى أعلى بكل ما لديه من طاقة وبأطول ما يستطيع من الوقت حتى ليخيل إلى ناظره أنه يطمع في كسب رهان ثمين. والثاني ينبح بسرعة وكأنه قندلفت، بينما أخذ آخر له صوت جرو صغير ينبح بلا ملل بحيث يملأ صوته مقاطع صوت الكلب السابق، وكأنه جرس ساعي البريد. وأخيراً، انبرى كلب كبير ذو مزاج عنيف خاص وأخذ يقوم بالرد عليهم وكأنه قائد جوقة يرد مع جوقته على المغنى الأصيل، وكانت نبحاته تشبه مدير ذلك القائد حينما تكون الجوقة في أوج ترديدها وحينما يرتفع المنشدون مع قائدهم على رؤوس الأصابع وهم يبذلون جهدهم في رفع حدة النغم، ويمد المرتلون رؤوسهم قبل بلوغهم الشأو، ويلصق قائد الجوقة ذقنه الملتحية إلى ياقته ويجمع نفسه في حنكه حتى تحسبه جالساً على الأرض القرفصاء ليخرج نغماً قوياً يهزّ الشبابيك ويرجّ الزجاج. وجوقة من ذوات الأنياب كهذه الجوقة تدل بطبيعة الحال على أن القرية ليست صغيرة.

مهما يكن من أمر، فإن بطلنا المبتلّ المرتجف برداً لم يعر ذلك اهتماماً، فقد كان يشغل عقله شيء واحد وهو الفراش. وفي الواقع لم تكد العربة تقف حتى قفز إلى عتبة البيت و لم يكن بينه وبين الوقوع بشيء كثير.

وقد تصدت لمقابلته سيدة أصغر سناً من الأولى ولكنها تشبهها شبهاً كبيراً. ولما دخل غرفة الاستقبال كانت لمحتان كافيتين لترياه أن الغرفة مكسوة بستائر قديمة مقلمة وجدرانها مزينة بصور الطيور وبعض المرايا الأثرية الصغيرة - والأخيرة موضوعة في إطارات غامقة اللون عليها نقوش تشبه ورق الشجر. وقد ألصق خلف كل مرآة خطاب أو مجموعة قديمة من أوراق اللعب أو بعض الجوارب، بينما علقت على الحائط ساعة بميناء مرصّعة بالأزهار. و لم يستطع تشيتشيكوف، على أيّة حال، أن يتبين أكثر من ذلك لأن جفونه كانت ثقيلة كما لو تلطخت بالعسل. وحضرت ربة البيت بنفسها حالاً - وهي امرأة كبيرة السن تضع على رأسها غطاء (يظهر أنها أسرعت في ارتدائه) وتلف حول عنقها لفاعاً صوفياً.

كانت من طبقة الملاّكات اللواتي يشكين دائماً وأبداً من إخفاق الموسم وما يترتب عليه من خسارة لهن، من طبقة اللواتي يطأطئن رؤوسهن يأساً وقنوطاً وهن كل الوقت يحشين النقود في أكياس مقلمة ويكتنزنها في أدراج الخزائن. فيحشين قطع الروبل في كيس ونصف الروبل في كيس آخر وقطع ربع الروبل في كيس ثالث. وإلا يبدو من منظر الخزانة أن فيها شيئا سوى قطع القماش الكتانية وثياب داخلية وشلل من الصوف وقطعة القماش الرثة التي يقدر لها عادة أن تنقلب إلى ثوب جديد فيما لو احترقت أطراف الثوب الحالي أيام الآحاد عند خبز الكعك والحلويات والطيبات الأخرى، أو فيما إذا تهرأ الثوب من نفسه. ولكن الثوب لا يحترق ولا يتهرأ ابداً، وذلك لأن السيدة محتاطة كل الاحتياط حذرة كل الحذر. وعلى ذلك تظل قطعة القماش الرثة غير مشغولة إلى أن يأتي الوقت لتوزيع التركة فيوصى بإعطائها - مع كمية أخرى من سقط المتاع - لابنة أختها.

واعتذر تشيتشيكوف على ازعاجه البيت بقدومه غير المنتظر.

فأجابت السيدة، «لا، أبداً، لا أبداً، ولكن في أي طقس فظيع بعث الله بكم إلى هنا! أيّ ريح وأيّ مطر هذا! كان من المحتّم أن تضلاّ الطريق. نرجو المعذرة إذ لا نستطيع في هذا الوقت من الليل أن نهيئ لكم الطعام».

وقطع كلام المضيفة فجأة صوت ذو فحيح غريب، صوت عال جداً أجفل الضيف منه خوفاً، وزاد خوفه بازدياد الصوت الذي جعل الغرفة تبدو وكأنها ملأى بالأفاعي. ومهما يكن من أمر، فقد استعاد سكينته حينما رفع بصره إلى أعلى وأدرك أن الصوت صادر عن الساعة التي كانت على وشك أن تدق. وتلا الفحيح شخير دل على أن الساعة تبذل منتهى جهدها حتى ضربت ضربتين كان لهما من القرقعة ما للهرارة حين تهوى على قدر من حديد مكسور. وما أن تمت فعلتها هذه حتى عاد الرقاص إلى تذبذبه من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين.

وشكر تشيتشيكوف المضيفة بلطف وقال لها أنه لا يحتاج إلى شيء، وأن لا دواعي لإزعاج نفسها، فهو لا يريد غير الراحة وإن كان يود أن يعلم أيضاً أين وصل وفيما إذا كانت هناك مسافة كبيرة بينه وبين البيت الريفي للملاّك سوباكيفيتش. وأجابت السيدة على ذلك بأنها لم تسمع بهذا الاسم قط وليس صاحب هذا الاسم في تلك النواحي.

واستمر تشيتشيكوف قائلا «ولكن تعرفين على الأقل الملاّك مانيلوف؟».

«لا، من هو؟».

«ملاّك آخر يا مدام».

« لم أسمع بهذا أيضاً. ليس في هذه النواحي ملاّك كهذا».

«فمن هم الملاكون المحليون إذن؟».

«بوبروف، سفينين، كاناباتيف، خرياكين ترياكين، بليشاكوف».

«هل هم أغنياء؟» – سأل تشيتشيكوف.

«لا، لا أحد منهم. قد يملك أحدهم عشرين نفساً ويملك الآخر ثلاثين، أما من السادة الذين يملكون المئة فلا يوجد أحد».

فطن تشيتشيكوف إلى أنه في منطقة ريفية نائية.

وتساءل «على أية حال، هل المدينة بعيدة؟».

«حوالي ستين فرستاً. كم أنا آسفة إذ ليس لدي ما أطعمك! أتحب أن تشرب الشاي؟».

«شكراً أيتها الأم الطيبة. ولكني لا أريد شيئاً عدا الفراش».

«أجل، بعد رحلة كهذا لا شك في أنك بحاجة إلى الراحة. ستنام على هذا الديوان. فيتينيا، يا فيتينيا، أحضري حشية ريش ومخدات وملاءات. أي طقس أرسل لنا الله! وأي رعد مخيف! ما زلت منذ مغيب الشمس أحرق الشمع أمام الأيقونة في مخدعي. يا الهي! ظهرك وجوانبك ملطخة بالوحل كالخنزير البري. ماذا عملت حتى وصلت إلى هذا الحال؟».

«من حسن حظي أن لا يكون بي أكثر من التلطيخ بالوحل، فلو لا العناية الربانية لكنت مكسر الأضلاع».

«يا إلهي! إن القلب ليجف أن خطرت به الأهوال التي مرت بك. أليس من الأفضل أن أمسح لك ظهرك؟».

«شكراً، شكراً، لا داعي لإزعاج نفسك. يكفيني منك أن تتلطفي فتقولي للخادمة أن تنظف وتجفف ملابسي».

كانت فيتينيا آنذاك. قد لحقت تدخل الغرفة وهي تجر حشية الريش يتطاير الريش منها ليملأ جو المكان. فقالت لها ربّة البيت. «أتسمعين يا فيتينيا؟ خذي هذا المعطف وهذا الصدار، وبعد أن تجففيهما أمام النار

ـ كما كنا نفعل بملابس المرحوم سيدك افركيهما فركاً جيداً واطويهما بعناية)).

فقالت فيتينيا وهي تضع الملاءات على حشية الريش وترتب الوسائد ((سمعاً وطاعة يا مولاتي)).

فقالت ربّة البيت لتشيتشيكوف ((فراشك جاهز الآن. أسعدت مساء يا سيدي، أتمنى أن تُصبح على خير. ألا تريد شيئاً آخر قبل أن أتركك؟ ربما تعودت أن يدغدغ أحد قدميك قبل النوم. إنّ زوجي المرحوم لم يكن يستطيع النوم بغير ذلك)).

ولكن الضيف رفض دغدغة الأقدام هذه، وما كادت تتركه السيدة حتى سارع إلى انتضاء ملابسه كلها، العلوية والسفلية منها على السواء، وتسليمها إلى فيتينيا. وبعد أن حيّته هذه تحية المساء أخذت الملابس المبتلة وانصرفت، فوجد نفسه وحيداً. ونظر إلى الفراش الذي يكاد يصل السقف علوّاً نظرة كلها رضى. من الجليّ أن فيتينيا كانت فنّانة عريقة في تنجيد فراش كهذا الفراش. وترتب على ذلك أنه ما كان يصعد على أحد الكراسي ليرمي بنفسه عليه، حتى هبط به الفراش فكاد يداني أرض الغرفة، وانطلقت من فتحات صغيرة جانبية في حوافّه أسراب كثيفة من الريش أخذت تحلق في سماء الغرفة وتملأ كل زاوية فيها. ولكنه على الرغم من هذا كله، أطفأ المصباح، وسحب على نفسه غطاء من التشيت تقوقع تحته، واستغرق حالاً في نوم عميق. واستيقظ في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. كانت أشعة الشمس من النافذة تصب في عينيه، والذباب الذي كان يجثم في الليل هادئاً على السقف والجدران تنبه الآن لوجود الزائر. فاستقرت إحداها على شفته واستقرت أخرى على أذنه وثالثة أخذت تحلق فوق عينيه كأنها تريد الهبوط فيهما، أما الرابعة فقد جازفت بالرسوّ على منخره، فاستنشقها وهو في حالة الوسن فعطس عطسة شديدة عادت به إلى كامل وعيه.

فنظر إلى ما حوله في الغرفة فوجد أن الصور ليست كلها صور طيور كما عهد في الليلة السابقة، بل كان بينها صورة للقائد كوتوزوف[٥] وصورة زيتية لرجل عجوز بملابس رسمية تزينها شرائط حمراء من النوع الذي كان يرتدي أيام الامبراطور بافيل[٦]. وفي تلك اللحظة فحت الساعة فحيحها المعتاد ودقّت عشر دقّات، بينما أطلّ وجه امرأة من شق الباب وانسحب حالاً، لأن تشيتشيكوف، رغبة في أن يستمتع بالنوم ما استطاع، كان قد نضى كل ما عليه من ثياب. غير أن الوجه كان يبدو أليفاً لديه، فأخذ يسترجع في ذاكرته وجه من يكون. وتذكر أخيراً أنه وجه مضيفته. ووجد ثيابه بالقرب منه جافة ونظيفة فارتداها واقترب من المرآة وعطس مرة أخرى عطسة عنيفة جداً، حتى أن ديكاً هندياً كان قريباً من النافذة (التي لم تكن بدورها تعلو عن الأرض كثيراً) قوقأ جملة قصيرة، قد تعني بلغته الغريبة أنه يحييّ تشيتشيكوف تحية الصباح. ولكن تشيتشيكوف نعته بالغباء ثم تقدم إلى النافذة ليستجلي المنظر الذي تطلّ عليه. وتبين أن المنظر الرئيسي كان خمّاً للدجاج. كانت الساحة ما بين الخمّ والنافذة - على أية حال - مليئة بأنواع الدجاج المختلفة بينها ديك يخطر ويتبختر بخطى متزنة ويثابر على هزّ عرفه والالتفات برأسه كما لو كان يتسمع إلى شيء. وإلى إحدى جوانب الحظيرة جلست خنزيرة وعائلتها مما يضفي على المنظر رونقاً وبهاء. كانت تحفر أول الأمر في كومة من القش ومن ثم أكلت في طريقها فرخة صغيرة وبالتالي أخذت تقضم قطعاً من قشور البطيخ في راحة وهدوء بال. وحول هذه الساحة الصغيرة أقيم سياج خشبي. وفيما وراء ذلك كانت حدائق البيت الكبيرة التي زرع فيها الكرنب

---

(٥) كوتوزوف - القائد الروسي الذي قاوم نابليون بشدة في معركة بورودينو. الناشر.

(٦) أي في أواخر القرن الثامن عشر. الناشر.

والبصل والبطاطا والشمندر والخضروات البيتية الأخرى. وكان في الحديقة أيضاً بضعة أشجار تفاح وفواكه مختلفة وضعت عليها شباك لكي تحفظ ثمارها من العصفور والعقعق. وكان من هذه الطيور أسراب تنطلق وتحوم حول الشباك من نقطة إلى أخرى. وللسبب نفسه نصبت بضعة هياكل من مفزعات الطيور، وعلى رأس واحد منها وضعت قبعة كانت في زمانها الغابر لربة البيت. ومما وراء الحدائق قام عدد من أكواخ الفلاحين. كانت الأكواخ مبعثرة بدلاً من أن تكون منتظمة في صفوف بدت في عيني تشيتشيكوف أنها تضم سكاناً في سعة من العيش، لمظاهر العناية البادية عليها والسقوف الخشبية المتعفنة عادة كانت هنا جديدة، و لم يكن يظهر فيها بأن منحرف أو مخلوع، ومظلات العربات المائلة أمام عينيه كانت تدل، على الأقل، على وجود عربة أو عربتين احتياطية زائدة جديدة تقريباً تقف تحتها.

فقال تشيتشيكوف في نفسه «إن هذه السيدة تمتلك قرية غير فقيرة أبداً»، ولهذا قرر آنئذ أن يتحدث في الموضوع مع مضيفته وأن يوثق معها أواصر المعرفة. ونظر بناء على ذلك من شق الباب الذي أطل منه رأسها قبل قليل، فرآها جالسة إلى منضدة الشاي، فدخل عليها وحيّاها بابتسامة ملؤها البشر والمرح. فنهضت السيدة احتراماً وقالت:

«صباح الخير يا سيدي، كيف كان نومك؟».

كانت ترتدي ملابس أحسن من ملابسها في الليلة السابقة. كانت ترتدي رداء غامق اللون، وعلى رأسها قبعة أخرى غير قبعة الليلة الماضية، وكان عنقها ملوفاً بشيء ما، يخفيه لفاع.

فقال تشيتشيكوف وهو يجلس على كرسي «لقد نمت نوماً هنيئاً جداً. وكيف حالك أيتها السيدة الطيبة؟».

«على غير ما يرام يا سيدي العزيز».

«ولماذا؟».

«لأنني لا أستطيع النوم. إن ألماً يشد وسطي ويمتد إلى ساقيّ مما فوق الكاحلين حتى أخال عظامي تنكسر».

«لك الشفاء، لك الشفاء العاجل بإذن الله. يجب أن لا تعيريه كثير الاهتمام».

«سمع الله دعاءك. على أية حال فقد كنت أفركه بالدهن والتربنتين. ماذا تريد أن تشرب مع الشاي؟ لدي في هذه العلبة بعض الروم».

«عظيم جداً أيتها الأم الطيبة. إذن سأحتسي منه».

ومن المحتمل أن يكون القارئ قد لاحظ أن تشيتشيكوف، على الرغم من رقة قلبه الظاهرية، أخذ يخاطب مضيفته الجديدة بنغمة مختلفة كل الاختلاف عن نغمته التي يبدع فيها؛ نغمة فيها الكثير من البشر وفيها أيضاً من الحرية ورفع الكلفة أكثر من تلك التي استعملها مع مانيلوف ولي هنا أن أؤكد بأن الأجانب مهما كانوا يفوقوننا – نحن الروس – في وجوه عديدة، فإننا على الأقل نفوقهم في مواضع الكلِم ولباقة الحديث. فإننا نستطيع في الواقع أن نضفي على مخاطباتنا وأحاديثنا في المجتمع مختلف الظلال وأن نصبغها بمسحات متعددة تتحدى كل حصر. فالفرنسي أو الألماني يعجز عن تصور أو فهم كل خصائص هذه الظلال أو المسحات لأن نغمته في مخاطبة صاحب الملايين لا تختلف إلا قليلاً جداً عن تلك التي يخاطب بها بائع التبغ الفقير، هذا على الرغم من محاولته الشديدة في التذلل النفساني أمام الأسبق. لكن الأمور عندنا تختلف على أية حال. ففي المجتمع الروسي قوم ماهرون يستطيعون أن يتكلموا بنغمة معينة للملاّك الذي يمتلك مئتي نفس وبنغمة أخرى لذلك الذي يمتلك ثلاثمئة وبأخرى لصاحب الخمسمائة، وهكذا. أي أن الروسي لديه من نغمات الخطاب المختلفة

ما يستطيع أن يخصص منها لكل ملاك حسب درجته حتى ذلك الذي يمتلك مليون نفس. لنفرض أن هناك دائرة حكومية في مكان ما، وفي هذه الدائرة رئيس. أرجو أن تتصوره، أيها القارئ جالساً بين موظفيه المطيعين. إن غطرسته سوف تمنعك من أن تنبس ببنت شفة، فدلائل العظمة والكبرياء الظاهرة على وجهه أكثر من أن توصف. وإذا شئت يوماً أن ترسم له صورة في مخيلتك فلن تجد له شبيهاً بغير بروميثيوس[٧] لأن نظرته نظرة النسر ومشيته مشية الهيبة والاعتداد بالنفس. ولكن ما يكاد النسر يترك الغرفة ذاهباً إلى مكتب رئيسه الأعلى حتى يهرول وهو يلصق الأوراق بأنفه كأي حجل يدرج في الفلاة. ولكنه في المجتمع وفي حفلات المساء (عندما يكون الموجودون أقل رتبة منه) يعود بروميثيوس، بروميثيوس مرة أخرى. أما إذا كان من هو أعلى منه، فإنه سوف يسلك معه سلوكاً لم يحلم به أوفيدي[٨] ويتحول إلى ذبابة وحتى إلى أحقر من ذبابة، إلى حبة رمل. وإذا نظرت إلى رجل كهذا فإنك ستقول «ليس هذا زيداً بكل تأكيد، إنّ زيداً طويل وهذا قميء ضئيل، إن زيداً ذو صوت جهوريّ عميق لا يبتسم أبداً، وهذا الرجل (أي رجل كان) يرتجف كالعصفور ويبتسم طوال الوقت». لكن اقترب من الرجل وانظر إليه مليّاً تجد زيداً بعينه، ولا تستطيع إلا أن تقول «واأسفاه واأسفاه» ولنعد الآن إلى شخصياتنا من الحياة الواقعية. فقد عرفنا أن تشيتشيكوف آنذاك عقد العزم على وضع حد للمجاملات، فأمسك بإناء الشاي وصب عليه الروم وبدأ الحديث كما يلي:

«إنّ قريتك الصغيرة جميلة يا سيدتي، كم نفساً فيها؟».

---

(٧) بطل خرافي يوناني تحدى كبير الآلهة زيوس وأحضر النار لبني الإنسان على الأرض. الناشر.

(٨) شاعر روماني. الناشر.

«أقلّ من ثمانين بقليل، يا سيدي العزيز. ولكن الزمان صعب قاس، وقد فقدت الكثير في قحط السنة الماضية».

«ولكن فلاحيك رجال أقوياء أصحاء. هل لي أن أسألك عن اسمك؟ إنّ وصولي المتأخر في الليلة الماضية جعلني أفقد الصواب».

«كوروبوتشكا، أرملة موظف في الدرجة التاسعة».

«شكراً جزيلاً، واسمك الأول؟».

«ناستاسيا بتروفنا».

«ناستاسيا بتروفنا! يا لها من أسماء جميلة! إنّ لي خالة بالاسم نفسه».

«وما اسمك أنت؟ هل أنت مختار[٩] كما يبدو لي؟».

فأجابها تشيتشيكوف بابتسامة «لا يا سيدتي، لست مختاراً، إنما أنا مسافر في مهمة خاصة».

«إذن يجب أن تكون ممن يشترون المنتوجات؟ يا للأسف لأنني بعت كل ما لدي من العسل لتجار آخرين بثمن زهيد. ولو لا ذلك لبعته لك أيها السيد العزيز».

«لا، لا اشتري العسل أبداً».

«إذن ما الذي تشتريه يا إلهي؟ قنب؟ عندي شيء قليل منه، نصف بود[١٠] أو أكثر بقليل».

«لا يا سيدتي، فإني أتعامل بأشياء أخرى. قولي لي، هل مات في السنين السابقة عدد كبير من فلاحيك؟».

---

(٩) مختار - شخص يختار للاشتراك في أعمال مؤسسة ما في روسيا قبل الثورة. الناشر.

(١٠) البود - ١٦,٣٨ كيلو غراماً. الناشر.

فتنهدت العجوز قالت «أجل، لا أقل من ثمانية عشر، وكلهم من الأقوياء العاملين. لقد نما غيرهم في الواقع ولكني لا أرجو خيراً من الأحداث. إنهم طائشون. وعندما جاءني المختار في المرة الأخيرة رحت أبكي أمامه. كان علي أن أدفع ضريبة عن رجالي الاموات كما لو كانوا أحياء. ومنذ أسبوع فقط توفي عندي الحداد حرقاً. لقد كان في مهنته بارعاً ضليعاً».

«ماذا تقولين؟ هل شب حريق في القرية؟».

«لا، لا، وقانا الله شر ذلك! إن الأمر لم يكن بهذه الدرجة من السوء. إنما الحداد قد أحرق نفسه بنفسه. فقد اشتعلت النار في أمعائه من كثرة الشراب. نعم، فقد بدا فجأة منه لهب أزرق وأخذ لونه يتحول إلى السواد شيئاً فشيئاً حتى أصبح وكأنه قطعة من فحم. لكن أي فلاح بارع كان. ليس لدي الآن خيول تقود العربة، فلا أحد في القرية يستطيع حدوها».

فتنهد تشيتشيكوف وقال «إنها مشيئة الله في كل شيء، يا مدام. وليس لنا أن نرفض مشيئته. أعطني أياهم يا ناستاسيا بتروفنا».

«أعطيك ماذا؟».

«الفلاحين الموتى».

«ولكن كيف يتسنى ذلك؟».

«الأمر بسيط. بيعيهم لي، وسوف أعطيك بدلا منهم نقوداً».

«لكن كيف أبيعهم لك؟ إني لا أكاد أفهم ما تعني! هل تريدني أن أنبش قبورهم وأخرجهم لك»؟

فرأى تشيتشيكوف أن العجوز في بحر من الضياع، وأن عليه أن يوضح لها الأمر. وعلى ذلك أفهمها ببضعة كلمات أن بيع الأنفس

الميتة هذه أو نقلها سوف يتم على الورق فقط، وأنها ستسجل كما لو كانت حية.

فحدقت ربة البيت بعينين شاخصتين وقالت «وما الفائدة التي سوف تجنيها منها؟».

«إن هذا من شأني».

«ولكنها نفوس ميتة!».

«ومن قال أنها غير ذلك؟ إنها مجرد نفوس ميتة تتألمين حزناً عليها وتضطرين إلى دفع الضريبة عنها. وكل ما أريد أن أعمله هو أن أخلصك من هذه الأحزان وأرفع عنك عبء دفع الضرائب. هل فهمت الآن؟ ولن أفعل ذلك وحسب وإنما سوف أعطيك خمسة عشر روبلاً عنها. هل أصبح واضحاً ما أقول؟».

فقالت المضيفة مترددة «نعم – لكن.. لا أعرف. فأنا لم أبع أبداً نفوساً ميتة من قبل».

«تماماً، وسيكون مستغرباً لو فعلت. وهل توقنين في قرارة نفسك بأن الأنفس الميتة ذات فائدة؟».

«أوه، طبعاً لا. وما جدوى الأنفس الميتة؟ إني واثقة من عدم نفعها. إنما الشيء الذي يحيرني هو أنها ميتة!».

فقال تشيتشيكوف في نفسه «إنها لعجوز عنيدة حقاً» وأضاف بصوت عال «أنظري يا سيدتي، فكّري جيداً. ولكنك، بصريح القول، ستجرّين الخراب والدمار على نفسك بالاستمرار في دفع ضريبة عن نفوس ميتة كما لو كانت حية».

فقالت السيدة «يا للهول يا سيدي! لا تتكلم عنها! فمنذ أسابيع ثلاثة فقط دفعت مئة وخمسين روبلاً للجابي ورشوته...».

«ها أنت ترين بأمّ عينك ما يحدث لك. أليس كذلك؟ تذكري أنك إذا أصغيت إليّ لن تضطري في المرة القادمة إلى رشوة الجابي، لأنني أنا الذي سأدفع الضريبة عندئذ - لا أنت - بل أنا سوف أصبح مسؤولاً عنها كلياً، بعد أن أصبح المالك لهذه النفوس بنقودي، ومسؤولاً عن كل ما يترتب عليها. بل وأدفع نقوداً لحق الإمتلاك. هل فهمت أخيراً؟».

مهما يكن من أمر، فإن نفس السيدة العجوز ظلت تساورها. كانت ترى أن بيع النفوس في مصلحتها، ولكن القضية ذات طبيعة غريبة جداً حتى أنها بدأت تتحسب من أن هذا المشتري يريد أن يخدعها. لقد جاء من حيث لا يعلم إلا الله، وهبط على البيت في ظلمة الليل أيضاً.

وقال تشيتشيكوف ناصحاً «هلاّ اتفقنا؟».

«ولكن لم أبع في حياتي قوماً موتى! لقد بعت الأحياء فقط. فمنذ سنوات ثلاث خلت بعت فتاتين للكاهن، كل فتاة بمئة روبل، وقد شكر لي ذلك شكراً جزيلاً، فقد تبين له أنهما عاملتان ماهرتان تصنعان الفوط».

«نعم، ولكن حديثنا لا يتناول الأحياء منهم - أطال الله أعمارهم - إني أطلب إليك الموتى فقط».

«نعم، نعم، بالطبع. ولكني خشيت بادئ الأمر أن تكون لي في الصفقة خسارة - وأن يكون قصدك أن تغلبني يا سيدي العزيز... ربما ثمن النفوس الميتة أغلى مما عرضت».

«اسمعيني أيتها السيدة (كم صعبة أنت!) كيف يمكن أن يكون ثمنها أعلى من ذلك؟ فكري بنفسك. إنها رفات - رفات، هل تفهمين؟ خذي أي شيء تافه مهمل - كقطعة بالية متهرئة من القماش مثلاً، إن لها ثمناً ما، فهي تباع على الأقل لصنع الورق. ولكن الأنفس الميتة هذه - إنها لا تصلح لشيء اطلاقاً. هل تستطيعين أن تذكري لي شيئاً واحداً لها نفع فيه؟».

«لا، لا، إنها لا تنفع لشيء. ولكن الذي يزعجني هو أنها ميتة».

فابتدأ تشيتشيكوف يفقد الصبر وقال في نفسه «يا لها من مخلوقة غبية حقاً، صعبة المراس لا مجال للاتفاق معها. لقد جعلتني أتصبب عرقاً هذه العجوز اللعينة». وهنا سحب من جيبه منديلاً ومسح العرق عن جبينه. بيد أنه ما كان عليه أن ينفعل إلى هذا الحد. فإن كثيراً من رجال السياسة إذا ما جوبهوا بقضية هامة يتكشف المرء مدام كوروبوتشكا أخرى. فإذا حمل في رأسه فكرة معينة فليس من سبيل إلى نزعها أو تغييرها. وقد تدلي له بالحجة تلو الحجة وبالبيّنة تلو البيّنة، وكل منها واضح وضوح الشمس إلا أن حججك وبيناتك ترتد راجعة عن دماغه كما ترتد كرة من مطاط بعد أن تضرب في قطعة من صخر. على أية حال، فبعد أن مسح تشيتشيكوف عرقه قرر أن يكرر محاولته في الوصول بالسيدة إلى ما يريد عن طريق آخر. فقال «اسمعي يا سيدتي، إما أنك لا تفهمين ما أطلب إليك أو أنك تتحدثين لمجرد الحديث فقط. أنا أعطيك نقوداً - خمسة عشر روبلاً ورقياً... هل تفهمين؟ إنها نقود، وليست شيئاً يمكن أن تجديه في قارعة الطريق... قولي لي، بكم بعت عسلك مثلاً؟».

«باثني عشر روبلا لكل بود».

«أيه إنك بهذه الكلمات يا سيدتي تكذبين على نفسك. لأنك لم تبيعي العسل باثني عشر روبلاً».

«بلى والله لقد بعته بهذا الثمن».

«لا بأس، لا بأس، إن العسل هو العسل. ولكنك قد جمعته في مدة طويلة من الزمن قد تكون سنة كاملة بذلت فيها من العناية والجهد ما لا نهاية له. كنت تهتمين بأمره وتروحين وتأتين إليه، وحفظت النحل وأطعمته في خلاياه طيلة أيام الشتاء والبرد. ولكن النفوس الميتة التي أتحدث عنا لم تبذلي فيها أي مجهود. مشيئة الله هي التي وضعت

حداً لحياتها على الأرض وأنقصت عدد الأقنان في قريتك. ففي الحالة الأولى، استلمت أثني عشر روبلاً لكل بود (كما تقولين) عن تعبك ومجهودك في العسل. ولكن في الحالة الثانية ستأخذين - لا اثني عشر روبلا - بل خمسة عشر. وسوف لا اعطيها لك روبلات فضية، بل روبلات من العملة الورقية»[11].

لم يكن هناك شك لدى تشيتشيكوف في أن هذه الحجج الدامغة سوف تغري العجوز بالاستسلام بكل تأكيد.

فأجابت العجوز تقول «يا لغرابة الأعمال التي تعترضني وأنا أرملة عديمة الحيلة! قد يكون من الأفضل لو انتظرت بعض الوقت فقد يمر بعض المشترين الآخرين وأرى فيما إذا كانوا سيدفعون ثمناً آخر، وأقارن عندئذ بين الأثمان».

«يا للعار يا سيدتي! يا للعار! هل تفكرين فيما تقولين؟ فمن هو الذي سيشتري هذه النفوس؟ وأي فائدة يمكن أن يجنيها إنسان منها؟».

فأخذت العجوز تفكر بصوتٍ عالٍ وتقول «إذا كان الأمر كذلك فقد يتبين أن لها فائدة لي». ومن ثم جلست تحدق في تشيتشيكوف بفم مفتوح ووجه متوتر تنتظر ماذا سيكون رد الفعل عند محدثها.

فقال تشيتشيكوف متعجباً «فائدة ترتجى من الموتى في عقر بيت. ماذا؟ ما الذي يمكن أن تفعليه بهم؟ تنصبينهم على أعمدة لتختفي العصافير في الحديقة؟».

فقالت وهي تصلب على نفسها «أحفظنا يا رب! لكن ما هذا الذي تقول؟».

«أجل، ماذا ستفعلين بهم؟ إنهم أصبحوا الآن عظاماً وقبوراً لا شيء

---

(١١) كانت قيمة العملة الورقية أكثر من قيمة مثيلتها الفضية. الناشر.

آخر. وانتقالهم سيكون على صفحات الورق فقط. كفى! هيا أعطني الجواب الأخير».

وراحت العجوز مرة أخرى تستشير نفسها.

فقال تشيتشيكوف «ما الذي تفكرين به يا ناستاسيا بتروفنا؟».

«إني لا أكاد أعرف ماذا سأفعل. قد يكون من الأفضل أن أبيعك تيل قنب؟».

«وما الذي أريده من تيل القنب؟ اسمحي لي... عندما اقترح عليك اقتراحاً، أرى أنك تطنطنين لي بقصة تيل القنب. تيل القنب هو تيل القنب. وقد أحتاج منه شيئاً في زيارتي القادمة، أما الآن فأريد أن أعرف ما هو رأيك في الاقتراح الذي هو موضع البحث».

«أظن أنها مساومة غريبة جداً، فلم أسمع بشيء كهذا اطلاقاً!».

عندئذ فقد تشيتشيكوف ما تبقى لديه من الصبر، فقلب الكرسي على الأرض وقال لها أن تنصرف إلى الشيطان. ولكن ذكر الأخير جعلها ترتجف هلعاً. فشحب لون وجهها وقالت «أتوسل إليك، لا تذكره! عفا الله عنه! كانت الليلة الماضية ثالث ليلة يظهر لي فيها في المنام. فبعد أن انهيت صلاة المساء خطر لي أن أعرف حظي في ورق اللعب. يجب أن يكون قد أرسله الله لي عقاباً على ذلك. كان منظره مرعباً جداً وقرناه أطول من قرني الثور!».

«لا أدري لماذا لا ترين عشرات من الشياطين في أحلامك. قد يكون جاء عطفاً عليك ورأفة بك يخبرك بأنك عجوز فقيرة سائرة في طريق الدمار وستنتهين في القريب العاجل إلى العوز والفاقة. هيا - إلى جهنم بك وبقريتك!».

فنظرت العجوز إلى ضيفها برعب وهلع وراحت تقول «يا للإهانات!» فأكمل تشيتشيكوف قوله «لا أجد في الحقيقة الكلمات

المناسبة لأصفك بها. إنك كالكلب المربوط إلى المِذْوَد، لا يأكل العلف ولا يدع غيره يأكل منه. كل ما كنت أريده منك هو أن أشتري بعض المنتجات من قريتك، لأنني متعهد للحكومة بمثل هذه الحاجات».

ذكر هذه الفكرة الأخيرة، عابراً، لأنها مرت في خاطره كفكرة حلوة دون أن يكون له من ورائها هدف بعيد. ولكن ذكر تعهدات الحكومة كان له تأثير قوي على ناستاسيا بتروفنا، فسارعت تقول بنغمة متضرعة كأنها في صلاة «ولماذا اشتد بك الغضب عليّ؟ لو كنت أعلم أن الغضب سيساورك من هذا الحديث لما ناقشتك فيه».

«لا عجب أن غلا غضبي، إن الأمر لتافه جداً، ولكنه قد يصل بالإنسان أحياناً إلى درجة الغليان».

«سوف أعطيك النفوس، بخمسة عشر روبلاً ورقياً، على أن تعدني عند التعهدات أن تذكرني في أي وقت تحتاج فيه إلى الحنطة والجويدار أو الجريش واللحوم المجففة».

«لا، لن أنساك أبداً يا سيدتي». وأخذ يمسح عن جبهته ثلاثة جداول من العرق تصبّ على وجهه. ثم سألها إذا ما كان لها في المدينة أي قريب أو وكيل تستطيع أن توكل إليه التوقيع على الصفقة، وأن ينوب عنها في كل ما تتطلبه العملية من إجراءات في دوائر الحكومة».

فأجابت السيدة كوروبوتشكا «طبعاً، ابن قسيسنا الأب كيريل، هو نفسه محام».

عندئذٍ رجاها تشيتشيكوف أن تكتب للرجل المذكور صيغة التوكيل، وذهب بنفسه تيسيراً للأمور في التو والساعة لكتابة التوكيل المطلوب.

بينما راحت السيدة تفكر في نفسها قائلة «من المستحسن أن أغريه بشراء طحيني وحيواناتي لتعهدات الحكومة. وعليّ أن أجد طريقة

أشجعه فيها على ذلك. لدينا عجين من الليلة الماضية. سأذهب إلى فيتينيا وأجعلها تقلي له بعضاً. ولا بأس أن أقدم له منها فطيرة بالبيض. إننا نحسن صنع هذه الأكلة هنا، وهي لا تأخذ وقتاً طويلاً». وهكذا انطلقت تترجم أفكارها هذه إلى حيز التنفيذ، ولكي تزيد على الفطير أشياء أخرى من محتويات المطبخ. أما تشيتشيكوف فقد عاد إلى صالة الاستقبال - حيث قضى ليلته السابقة - ليحضر من صندوق رسائله أوراق الكتابة اللازمة. كانت الغرفة قد أعيد ترتيبها ورفع منها فراش الريش الضخم ووضعت منضدة أمام الديوان. فوضع صندوق رسائله على المنضدة. ثم تنهد تنهدة لطيفة عندما أحس أنه مبلل بالعرق كما لو غطس في نهر. كانت كل ملابسه من القميص إلى الجوارب تنقط عرقاً. وبعد أن استراح لحظة قال «أه»، كم أتعبتني، هذه الشمطاء اللعينة!» ثم فتح صندوق الرسائل. وقد يكون عند بعض قرائي، على الأقل، رغبة في معرفة محتويات هذا الصندوق والشكل الذي رتبت عليه. ولماذا لا ألبي هذه الرغبة؟ كان أولاً في وسط الصندوق صحن لقطعة الصابون يحيط بها ستة أو سبعة جيوب صغيرة لأمواس الحلاقة، وتلى ذلك قواطع مربعة الشكل لعلبة الرمل[١٢] وللمحبرة وما بينهما قاطع مستطيل لريشة الكتابة ثم قاطع آخر لشمع الأختام وما احتاج إلى مجال كبير وأخيراً كانت قواطع أصغر للأشياء الصغرى كبطاقات الزيارة وشهادات الدفن، وتذاكر المسارح وما احتفظ به تشيتشيكوف على سبيل الذكرى. وهذا القسم كله من الصندوق يمكن أن يرفع إلى الخارج حيث يظهر تحته مكان للأوراق وصندوق سريّ صغير للنقود. والأخير يمكن أن يسحب من الجانب. وكان يفتحه ويسده بسرعة لكي لا يعرف أحد كم لديه من النقود. وشرع تشيتشيكوف ينظف ريشة

(١٢) كان الرمل يستعمل لتجفيف الحبر قبل وجود ورق النشاف. الناشر.

ليكتب بها وإذا بالمضيفة تدخل عليه مبدية إعجابها بالصندوق، وقالت وهي تجلس على مقعد مجاور «ما هذا الصندوق الجميل يا سيدي؟ هل اشتريته من موسكو؟».

فأجاب تشيتشيكوف دون أن يقطع حبل الكتابة «نعم، من موسكو».

«لقد عرفت ذلك، فالمرء يستطيع أن يشتري أشياء جيدة من هناك. من ثلاثة أعوام اشترت أختي بعض الأحذية الجيدة لأبنائها. وقد كانت بضاعة جيدة جداً، إلى هذا اليوم يلبسها الأولاد. آه، كم لديك من الأوراق بشعار الحكومة! (قالت هذا وأخذت عيناها تبصبصان داخل الصندوق فوجدت كمية غير قليلة من الورق المذكور). أتسمح لي بأخذ ورقة منها؟ ليس عندي منها شيء، وعلي أن أقدم طلباً إلى المحكمة وليس من شيء أكتب عليه».

عندئذ أوضح لها تشيتشيكوف بأن هذا الورق ليس من النوع الذي تبغي، فهو مطبوع خاصة لبيع الأقنان ولا يصلح لتقديم طلبات أخرى. ومع ذلك فقد أعطاها بغية إرضائها ورقة عليها طابع بروبل واحد. ثم سلمها الرسالة لتوقعها، وطلب إليها لقاء ذلك نسخة عن لائحة بأسماء الفلاحين. ولكن لائحة من هذا القبيل، لسوء الحظ، لم تكتب في يوم من الأيام، والطريقة الوحيدة هي أنها كانت تحفظ أسماءهم عن ظهر القلب. مهما يكن من أمر، فقد طلب إليها أن تملي الأسماء عليه. وقد اندهش بطلنا من أسمائهم كما اندهش من بعض الألقاب أيضاً. وقد وقف لحظة عندما سمع اسم - «بيتر سافيلييف غير المحترم للطست» وقال لا إرادياً «أي سلسلة من الأسماء هذه». وكان لقب قن آخر «حجرة البقرة» ولقب ثالث «عجلة إيفان». على أية حال، فقد أكمل اللائحة أخيراً وتنفس الصعداء. وفي عمليته الأخيرة هذه التقط أنفه رائحة شهية لشيء مقليّ بالدهن. فرفع رأسه وألقى نظرة على المائدة، فإذا بها ملأى بالفطر والفطير واللحوم المختلفة.

«أرجوك أن تتناول لقمة. جرب هذه الفطيرة الطازجة المقلية بالبيض» فامتثل تشيتشيكوف للأمر. وبعد أن أكل أكثر من نصف ما قدم له أخذ يمدح الفطير مطنباً. كان في الواقع لذيذ الطعم، وقد يزيد من لذة طعمه أنه جاء بعد المجهود العنيف والمصاعب الهائلة التي مر بها مع مضيفته.

وقالت السيدة «وبضعة من الفطائر الصغيرة أيضاً؟».

ورداً على ذلك طوى تشيتشيكوف ثلاثاً مع بعضها البعض وغمسها في صحن الزبدة ووضعها في فمه دفعة واحدة ثم مسح يديه وفمه بالفوطة. وأعاد هذه العملية ثلاث مرات أيضاً، ثم طلب من مضيفته أن ترسل لإعداد العربة. ولما طلبت السيدة من فيتينيا أن تذهب لتنفيذ الأمر قالت لها أن تحضر معها عند عودتها طبقاً جديداً من الفطائر الساخنة. فأخذ تشيتشيكوف يقوم بمهمته في الطبق الجديد عند وصوله وهو يقول «إنها عظيمة حقاً».

فقالت السيدة «أجل، إننا نتقن في صنعها هنا. ولو لم يكن موسم الحصاد سيئاً هذا العام والطحين غير جيد، مما منعني أن...» ورأته يمد يده إلى قبعته وقالت: «ولكن علام تستحث الخطى يا سيدي؟ إن العربة غير جاهزة بعد».

«لكن هذا لا يستغرق وقتاً طويلاً، وإني بحاجة إلى دقيقتين كي أحزم متاعي».

«كما تشاء يا سيدي، لكن لا تنسى من تلك التعهدات الحكومية».

فهرع تشيتشيكوف مهرولاً إلى القاعة وهو يقول «لا، لقد قلت لك أنني لن أنساك».

فتبعته مضيفته وهي تقول «ألا تريد أن تشتري شيئاً من شحم الخنزير؟».

«شحم الخنزير؟ أوه، طبعاً، ولم لا؟ إنما... إنما سأترك ذلك للمرة القادمة».

«سيكون لديّ قسم منه جاهزاً بعد عيد الميلاد».

«أجل، أجل يا سيدتي. سوف أشتري آنئذ كل شيء بما في ذلك الشحم».

«وربما كنت بحاجة إلى الريش أيضاً؟ سيكون جاهزاً عندي للبيع في عيد القديس فيليب».

«حسناً جداً، حسناً جداً يا سيدتي».

وخرجا إلى الشرفة. فقالت «ها أنت ترى أن العربة ليست جاهزة بعد».

«ولكنها سرعان ما تجهز. إلا أني أرجوك أن تدليني على الطريق الرئيسي».

«وكيف لي أن أفعل ذلك يا سيدي؟ ففي هذه الناحية عدد كبير جداً من المنعطفات. على أية حال، سوف أرسل فتاة تدلّك عليها. تستطيع أن تجد لها موضعا قرب مقعد السائق، أليس كذلك؟».

«بلى، بلى».

«إذن سأرسلها معك، أنها تعرف الطريق جيداً. إنما لا تذهب بها بعيداً، فقد فقدت إحدى فتياتي إذ أخذها مني بعض التجار المتجولين».

فطمأن تشيتشيكوف روعها بهذا الشأن. فاطمأنت وأخذت بناء على ذلك تتفحص الساحة. فوقع بصرها على إحدى خادماتها وهي خارجة من مخزن المؤن تحمل في يديها إناء خشبياً مليئاً بالعسل، ورأت فلاحاً آخر يتلكأ قرب الرتاج. وهكذا انغمست بنفسها شيئا فشيئا في شؤونها المنزلية وأصبحت متهمكة فيها. ولكن لماذا نعير كوروبوتشكا اهتماماً؟ تباً للأرملة كوروبوتشكا ومدام مانيلوفا والحياة المليئة والحياة

الفارغة! فمن ذا الذي يهتم بهذه الأمور؟ لكن في الدنيا من الغرابة شيئاً كبيراً. وإن المرء إذا ما فكر في أمر وابتسم له، ما يكاد ينهي ابتسامته هذه، حتى يكون فكره قد انتقل إلى أمر آخر قد يكون محزناً. الله وحده يعلم الافكار العديدة التي تبرق في ذهن الإنسان في اللحظة الواحدة. وقد تفكر أيها القارئ في لحظة كاللحظة التي نحن فيها فتقول – هل صحيح أن مدام كوروبوتشكا تقف في سلّم الكمال الإنساني على درجة منحطّة جداً؟ وهل هناك في الحقيقة هوّة كبيرة تفصل بينها وبين أختها التي تقبع محسودة بين جدران أربعة في بيت فخم ارستقراطي، مليء بالعطور، ذي سلالم من حديد مزين بالتحف النحاسية مؤثث بالخشب النفيس، مفروش بالسجاد، تقضي معظم أوقاتها تتثاءب خلف كتب لم تكمل قراءتها، تنتظر زيارة شخص متميز اجتماعياً لكي تطلعه على قطنتها وتشرح له أفكارها المحفوظة المعادة التي سبقت معرفتها والتي شغلت المدينة منذ أسبوع مضى والتي لا علاقة لها إطلاقاً بشؤونها المنزلية أو شؤون مزرعتها اللتين دبّ فيهما الفوضى والخراب نتيجة جهلها بما هو هام في الحياة. إنها تناقش الإنقلاب السياسي الذي تتهيأ فرنسا للقيام به، والاتجاه الحديث الذي أخذت تسير فيه الكاثوليكية الجديدة. تباً لهذه الأمور! ولماذا نتكلم عنها؟ ولكن لماذا يكون الإنسان في لحظة من اللحظات سعيداً هنيئاً خالي البال والتفكير ويحس فجأة بموجة من الهمّ تمرّ عليه لا يعلم لها مصدراً؟ ولا تكون الابتسامة قد فارقت ملامحه ويشعر فوراً أن هناك فرقاً بينه وبين زميله الذي يجلس معه، ويشعّ وجهه بإشعاع مختلف جداً.

ولما رأى تشيتشيكوف العربة تتقدم ببطء صاح «ها هي العربة». ثم لسيليفان «يا للغبي، لماذا تتلكأ هكذا؟ أرى أن خمرة الأمس لم تتبخر من رأسك بعد».

ولم ينبس سيليفان ببنت شفة.

وخاطب تشيتشيكوف السيدة قائلاً «وداعاً يا مدام. ولكن أين البنت؟».

فصاحت «ها هي، بيلاغيا». وأشارت إلى فتاة في الحادية عشرة من عمرها ترتدي ملابس مغزولة ومصبوغة في البيت ولها قدمان عاريتان يكسوهما الوحل الكثيف، إذا نظر إليهما الإنسان من بعيد يحسبها تنتعل خفّاً.

«هيا يا بيلاغيا، اذهبي ودلّي السيد على الطريق».

وساعد سيليفان الفتاة في الصعود إلى مقعده. فوضعت قدماً على الرفرف الذي يصعد عليه السيد وملأته بالوحل. ثم صعدت واحتلت مكانها المقرر قرب السائق. وحذا تشيتشيكوف حذوها (مما جعل العربة تميل من ثقله) واستقر في مقعده الخلفي وهو يقول «كل شيء على ما يرام، وداعاً يا مدام». وانطلقت الجياد خبباً.

كانت الجهامة ظاهرة على سيليفان ولكنه كان متنبهاً متيقظاً لعمله. وكانت هذه عادته الدائمة عندما يرتكب خطيئة أو يسكر. وكان يبدو على الجياد أيضاً أنها نظيفة أكثر من المعتاد، فإن طوق أحدها كان مرتباً جداً، مع أن في السابق الطوق نفسه بلغ درجة بعيدة في القِدم بحيث أخذت حشوته تخترق الجلد وتبرز من خلال الثقوب. أما الصمت فكاد يكون كاملاً. كان سيليفا يلوّح بسوطه فقط ولم يكن يتكلم مع الجياد، مع أن الأرقط كان على استعداد - كما هي العادة - لسماع إرشاد طويل لا سيما وأن الأعنّة كانت رخوة في يد السائق الفصيح والسوط يجول جولات بريئة فوق ظهر الترويكا بحكم العادة. مهما يكن من أمر، فإن الإنسان كان يستطيع أن يسمع من شفتي سيليفان الكئيبتين، الصيحة البذيئة المعتادة «امشوا أيها الحيوانات. امشوا أيها الحيوانات». حتى الكميت والمستشار لم يكونا يشعران بالرضى لأنهما لم يسمعا النداء المألوف «أيها العزيزان»، أو «أيها البطلان». ثم أخذ الأرقط يتلقى ضربات عنيفة على كفله العريض الواسع. فراح يهز

أذنيه ويقول في نفسه «ما الذي غير من طبع سيدي؟ إنه يعرف جيداً أين يضربني. لا يضربني على الظهر، إنما يفتش عن المواضع الحساسة كالاذنين أو البطن».

ورأى سيليفان طريقاً موحلة تمتد على استقامتها ما بين الحقول الخضراء، فأشار إليها وهو يسأل الفتاة «إلى اليمين، أليس كذلك؟».

فأجابت «لا، لا، سأريك الطريق متى يحين الحين».

وسارت العربة شوطاً، وسأل الفتاة مرة أخرى «أي طريق إذن؟».

فأشارت إلى الطريق السالفة الذكر، وقالت «هذه».

فقال السائق «عليك لعنة الله، ولكن هذه ذاهبة إلى اليمين، إنك لا تعرفين يمينك من شمالك».

كان الطقس جميلاً ولكن الأرض كانت موحلة جداً بحيث اكتست عجلات العربة بطبقة من الوحل كما لو كان لها غطاء من اللباد فوق عجلات الحديد، وهذا ما زاد في ثقل العربة. و لم تستطع أن تتخلص من ضواحي القرية قبل حلول الظهيرة، ولو لا مساعدة الفتاة أيضاً لكان العثور على الطريق مستحيلاً، لأن عدداً كبيراً من الطرق يتفرع إلى كل ناحية كسراطين مصادة طلعت من الكيس ولولا المساعدة المذكورة لراح سيليفان يتصرف بحكمته الخاصة. وأخيراً اشارت الفتاة إلى بناية بعيدة وقالت «تلك هي الطريق العامة».

فسألها سيليفان «وما هي تلك البناية؟».

فقالت «حانة».

«إذن نستطيع السير وحدنا. أنزلي وأرجعي إلى البيت».

عندئذ أوقف العربة وساعدها على النزول وهو يقول «أيتها القذرة، ذات الأقدام السوداء».

وأضاف تشيتشيكوف إلى هذا الكلام قطعة عملة نحاسية، فانصرفت البنت مسرورة بركوبها في عربة السيد.

الفصل الرابع

وإذ بلغ تشيتشيكوف الحانة عرج عليها. وقد دعاه إلى ذلك سببان - أحدهما أنه كان يبغي إراحة الخيول، والآخر أنه كان نفسه بحاجة إلى استعادة النشاط بتناول شيء خفيف من الطعام. ويجد المؤلف نفسه هنا ملزماً بالاعتراف بأن شهية مثل هؤلاء الرجال وسعة بطونهم أمران يحسدان عليهما. أما أولئك الناس من أهل موسكو وبطرسبورج، الذين هم في يسر من العيش والذين يقضون أوقاتهم يحسبون ماذا سيأكلون في الغد، وماذا سيأكلون بعد الغد، والذين لا يجلسون إلى المائدة أبداً دون أن يجرعوا حبة دواء ثم يلتهمون المحار والسرطان وكمية أخرى من المخلوقات الغريبة والذين يؤول أمرهم إلى الذهاب للاستشفاء في كارلسباد أو القوقاز - أما بشأن هؤلاء فليس للمؤلف فيهم إلا رأي زهيد. أجل ليس هؤلاء بالقوم الذين يبعثون في النفس الحسد. إنما تلك الفئة من الطبقة المتوسطة، الفئة التي تطلب قديد الخنزير في نزل، ولحم الخنزير المشوي في نزل آخر وتطلب في نزل ثالث شريحة من السمك أو فطيرة مخبوزة مع البصل والتي تستطيع بعد ذلك الجلوس إلى المائدة في أية ساعة كما لو أنها لم تتناول وجبة طعام في حياتها من قبل، وتستطيع أن تلتهم جميع أنواع الأكل وجميع أصناف السمك المختلفة وتمضغها بشكل تقصد منه زيادة الشهية، هؤلاء أقول، هم الجماعة الذين يتمتعون بنعمة السماء التي ما بعدها نعمة. وللبلوغ إلى هذه النعمة السماوية العلوية نجد أن الجماعة العظام الذين ذكرتهم فيما سبق، على استعداد للتضحية بنصف عبيدهم ونصف أملاكهم. المرهونة وغير المرهونة، بما أدخل عليها من إصلاحات أجنبية وإصلاحات وطنية، في سبيل الحصول على معدة كتلك التي تحظى بها الطبقة المتوسطة. لكن

لسوء الحظ، لا المال ولا الأملاك، سواء أدخلت عليها التحسينات أو لم تدخل، بقادرة على شراء معدة كهذه.

كانت الحانة الخشبية الصغيرة بستارها الضيق - وإن كان منظر مضياف - المعلّق بصاريين منقوشيّن نقشاً غير مصقول كشمعداني كنيسة قديمين، تلوح وكأنها تدعو تشيتشيكوف إلى الدخول. كانت البناية في الواقع كوخاً روسياً وحسب، من الطراز العادي، لكنها كانت كوخاً ذا أبعاد أكبر من المعتاد، وقد رسمت ونقشت حول نوافذه وسقفه الهرمي أفاريز من خشب بألوان زاهية خففت من عتمة ظلال الجدران وانسجمت انسجاماً كلياً مع الأصص ذات الزهور التي رسمت على دفات الشبابيك.

وصعد تشيتشيكوف السلم الخشبي الضيق إلى الطابق العلوي فوصل إلى فسحة متسعة ووجد نفسه أمام باب ذي صرير وامرأة عجوز بدينة ترتدي رداء مقلماً طُبعت أقلامه طباعة. وقالت «هذه الطريق، من فضلك». فوجد تشيتشيكوف في الغرفة المهيأة له أصدقاءه القدامى الذين يجدهم المرء دائماً في الفنادق القائمة على جنب الطريق كهذا الفندق، ألا وهي - سماور أشيب، وأربعة جدران ملساء مخدّشة من خشب الصنوبر الأبيض، ودولاب مثلث الزوايا فيه أكواب وأباريق شاي، وأوان للبيض من الصيني المذهّب واقفة أمام أيقونات معلقة بأربطة حمراء وزرقاء، وقطة أنجبت حديثاً وأصبحت لها عائلة، ومرآة تعكس للناظر فيها عيوناً أربعاً بدلاً من اثنتين وفطيرة بدلاً من وجه، وبجانب الأيقونات وضعت أضغاث من الأعشاب والقرنفل مغبرة ذابلة إذا حاول المرء شمها انطلق عاطساً.

وسأل تشيتشيكوف ربّة البيت وهي واقفة أمامه في الانتظار «هل عندك لحم خنزير رضيع؟».

«نعم».

«وفجل أبيض ولبن؟».

«نعم».

«أحضريها إذن».

فانطلقت السيدة لهذا الغرض، وعادت بطبق وفوطة (منشّاة لدرجة أصبحت فيها كاللحاء المجفف) وسكين بمقبض من عظم بدأ يحول لونه إلى الصفرة، وشوكة بشعبتين في رقة الرقاق، ومملحة لا تقف معتدلة.

واتباعاً للعادة الجارية، دخل بطلنا في حديث مع المرأة، وتساءل فيما إذا كانت هي التي تشرف على الحانة أو إذا كان هناك مشرف آخر، وكم هو مدخل الحانة، وفيما إذا كان أولادها يعيشون معها، وهل الأكبر أعزب أو متزوج، ومن هي تلك التي تزوجها الأكبر، وهل كان المهر الذي دفعته كبيراً، وهل كان أبو العروس راضياً، وفيما إذا لم يشتك أبو العروس المذكور من صغر الهدية عند العرس. وباختصار، طرق تشيتشيكوف كل نقطة يمكن أن تمر بالبال. وقد أبدى – بالطبع – رغبة في معركة الملاّكين في تلك الناحية، وتأكد من أسمائهم فإذا بها بلوخين، بوتشيتاييف ميلنوي، العقيد تشيبراكوف، سوباكيفيتش. فقال «إذن تعرفين سوباكيفيتش؟» فأجابته بأنها لا تعرفه وحسب، وإنما تعرف أيضاً مانيلوف الأكول أكثر من سوباكيفيتش، فمانيلوف يطلب دائماً فرخة مشوية وقطعاً من لحم العجل ولحم الخروف ثم يتذوق لقمة صغيرة من كل منها ويترك الباقي، أما سوباكيفيتش فإنه يطلب طبقاً واحداً فقط لكنه يأكله ثم يطلب طبقاً آخر من النوع نفسه وبالثمن نفسه.

وبينما كان تشيتشيكوف يتجاذب أطراف الحديث مع ربّة النزل ويأكل لحم الخنزير الرضيع حتى لم تكد تبقى منه غير قطعة واحدة سمع صوت عربة تقترب. فرأى وهو يرنو من النافذة عربة خفيفة تجرها

ثلاثة خيول جيدة تقف بباب الخان. ونزل منها رجلان - أحدهما طويل أشقر الشعر يرتدي معطفاً أزرق غامقاً والآخر هزيل البنية أسود الشعر ذو معطف مقلّم. ووقفت خلف العربة عربة أخرى، لكنها فارغة مهملة، تجرها أربعة جياد طويلة الوبر وأطواق متهرئة لجمها من حبال. و لم يلبث الأشقر أن اتجه إلى السلالم وراح يصعد عليها بينما ظل صاحب الشعر الأسود يتسكع حول العربة كأنه يفتش عن شيء فيها ويتكلم أثناء ذلك مع سائق العربة الواقفة إلى الخلف ويؤشر للعربة خلفهم. وبدا لتشيتشيكوف أن صوت الرجل ذي الشعر الأسود أليف لديه. وبينما كان يلقي عليه من النافذة نظرة أخرى ليتأكد منه، دخل صاحب الشعر الأشقر عليه الغرفة. كان القادم الجديد عالي البنية ذا شارب صغير أحمر ووجه بارز التقاطيع تعلوه حمرة تدل على أن لصاحبه صلة وثيقة جميلة إن لم تكن بدخان البارود فعلى الأقل بدخان التبغ. على أية حال، فقد حيّا تشيتشيكوف بأدب وردّ الأخير بانحناءة. وقد كاد الرجلان في الواقع يدخلان معاً في حديث ويتعارفان على بعضهما البعض (لا سيما وقد كان يبدو عليهما الارتياح إلى أن مطر الليلة السابقة قد رسب الغبار على الأرض فغدت سياقة العربات على الطرق لطيفة ممتعة)، لو لا أن دخل ذو الشعر الأسود ورمى بقبعته على المنضدة وأزاح من فوق جبينه خصلة مشعثة سوداء من شعره إلى الوراء. كان آخر الواصلين معتدل الطول مقداماً منسجم الشكل له خدان في غاية الاحمرار وأسنان في بياض الثلج وفودان في سواد الفحم. كانت ملامحه في الحقيقة غضّة حتى تكاد تحسبها مكونة من الدم واللبن، بينما كانت الصحة ترقص في كل قسمة من قسماته. وصاح وقد تفتح للعناق عندما رأى تشيتشيكوف «ها، ها، ها. أي حظ أرسلك إلى هنا؟».

عندئذ عرف تشيتشيكوف نوزدريف - الرجل الذي قابله في وليمة المدعي العام، والذي أصبح في ظرف دقيقة أو دقيقتين من تعارفهما

أليفاً جداً لزميله في الضيافة حتى راح يخاطبه بالضمير المفرد الثاني على الرغم من أن تشيتشيكوف لم يعطه المجال لذلك.

وسأله نوزدريف يقول «أين كنت اليوم؟» ودون أن ينتظر جواباً استمر يقول «أما أنا فعائد من السوق حيث نظفوا جيبوي. لم يحدث لجيوبي أن صبحت خالية خاوية كهذه المرة. وهذا ما اضطرني في الواقع إلى أن أعود بخيول الأجرة! انظر من الشباك ترها بأم عينيك». وأدار رأس تشيتشيكوف بشدة إلى الجهة المقصودة حتى كاد يصدمه بأطار النافذة. «هل رأيت في حياتك مثلها عجباً؟ أنني لا أكاد أصدق أن هذه الخيول التعيسة استطاعت أن توصلني إلى هذا المكان. والواقع أنني اضطررت في الطريق إلى الانتقال إلى عربة صاحبنا هذا». وأشار إلى زميله بإصبعه. «بالمناسبة، ألا تعرفان بعضكما؟ أنه ميجويف، صهري. في صبيحة هذا اليوم كنت أكلمه عنك. لقد قلت له – سوف نقابل تشيتشيكوف اليوم، وسترى. يا آلهي، كم هي جيوبي خالية الآن! لم أخسر أربعة جياد أصيلة وحسب، بل خسرت ساعتي وسلسلتي أيضاً». وقد لاحظ تشيتشيكوف في الواقع أن محدثه تنقصه الأدوات المذكورة، كما لاحظ أيضاً أن أحد جانبي فودى نوزدريف كان قصيراً مشعثاً أكثر من الآخر. واستمر نوزدريف يقول «لو كان في جيبي عشرون روبلاً أخرى لاسترجعت كل ما خسرت، ولربحت ثلاثين ألفاً. نعم، أقسم لك بشرفي على هذا».

فقال الرجل الأشقر «ولكنك قلت الشيء نفسه حينما قابلتك المرة الماضية، واقرضتك خمسين روبلاً آنذاك وخسرتها كلها».

«ولكني لم أكن لأخسرها هذه المرة لو لم أرتكب جحافة، حقاً، ما كنت سأخسر. أنني أقول لك أنني لم أكن لأخسرها فلو سحبت الورقة الصحيحة لربحت كل النقود».

فأجاب الأشقر «ولكنك لم تسحب».

«نعم، وذلك لأني لم العب الورقة الرابحة. ولكن كيف كان لعب صديقك الغالي حضرة الرائد؟».

«سواء كان لطيفاً أم لم يكن، فهو على الأقل قد تغلب عليك».

«يا للسخرية! ولكنني سوف أتغلب عليه. دعه يلعب معي «بالثنائية» وسوف أريك أي لاعب هو! أيه أيها الصديق تشيتشيكوف، لقد قضينا وقتاً رائعاً أول الأمر، فقد نجحت السوق نجاحاً هائلاً جداً. كان التجار أنفسهم في الواقع يقولون بأن ازدحاماً كهذا لم يحدث في سوق من قبل. أما من ناحيتي فقد دبرت بيع جميع منتوجات أملاكي بسعر محترم. يا لعظمة الوقت الذي قضيناه هناك! تباً لي، فإنني لا استطيع إلا أن أفكر فيه! لكن واأسفاه لأنك لم تكن هناك! تصور على بعد ثلاثة فرستات من المدينة تعسكر فرقة من الفرسان، ولا تكاد تستطيع أن تصدق عدد ما فيها من الضباط. هناك على الأقل أربعون ضابطاً يترددون على المدينة ويشربون فيها. وضابط الفرسان بوتسيلويف بالذات، إنه إنسان عظيم حقاً! كان عليك أن ترى شاربه فقط! أجل، إنه يسمى الخبير الفرنسي المعتق سقط المتاع. ويصيح على النادل يقول هاتِ بعضاً من سقط المتاع. والملازم كوفشينيكوف، أيضاً! إنه غاوي ولائم تماماً. لقد قضينا وقتنا كله معه. ولك أن تتصور تجارة الخمّار بونوماريف. على أية حال، فهو سافل كما تعرف، ويجب أن لا يعامله أحد، لأنه يضع جميع أنواع النفايات في مشروباته - الخشب الهندي والفلين المحروق وعصير البيلسان... ذلك النذل، ومع هذا كله دعه يحضر لك زجاجة مما يسميه المخدع الخاص فستجد نفسك عندئذ في السماء السابعة. ويا للكميات الهائلة من الشمبانيا التي شربناها! إذا قارنتها بمشروب حاكم الولاية حسبته شراباً عفناً لا يذاق. لم نشرب خمرة الكليكوت وحسب بل شربنا الكليكوت - الماترادورا - أي كليكوت مضاعفة المفعول. وقد أحضر بونوماريف زجاجة من الخمر

الفرنسي يسميها بون بون. وستسألني بالطبع عن رائحتها. كانت في رائحة ورد البستان أو أي رائحة عطرة أردت. يا لعظمة الوقت الذي قضيناه! وما كدنا نترك محل بونوماريف حتى وصل أحد الأمراء إلى المدينة وأرسل في طلب بعض زجاجات الشمبانيا. ولكن لم تكن هناك زجاجة واحدة، لأن الضباط شربوها كلها! أجل، فقد أتممت بنفسي سبع عشرة زجاجة في جلسة واحدة!».

فقال الأشقر «مه، مه. ليس في وسعك أن تشرب سبع عشرة».

فتمتم نوزدريف قائلا «ولكني فعلت. أقسم لك بشرفي».

«تخيل ما يحلو لك، ولكنك لم تشرب حتى عشر زجاجات في الجلسة الواحدة».

«أتراهن أنني سأفعل؟».

«لا، فما الفائدة من الرهان على ذلك؟».

«راهن على الأقل بالبندقية التي اشتريتها».

«لا، لن أفعل شيئاً من هذا القبيل».

«أدخل في المراهنة كمجرد تجربة فقط».

«كلا».

«من الأفضل أن لا تفعل لأنك ستخسر عندئذ البندقية والذخيرة معا. على أية حال، أيها الصديق تشيتشيكوف، فقد كان من المؤسف أن لا تكون هناك. إنك لو كنت لوجدت نفسك غير قادر على مفارقة الملازم كوفشينيكوف. ستبلغان – هو وأنت – من العظمة شأوها! إنه من جنس آخر يختلف كل الاختلاف عن جنس المدعى العام وموظفينا المدنيين البخلاء الآخرين الذين يرتجفون في أحذيتهم قبل أن يصرفوا كوبيكاً واحداً. إنه على استعداد للعب بالورق – أية لعبة شئت وفي

أي وقت أردت. لماذا لم تأت معنا؟ أنت تستحق على هذه الفعلة أن أسميك خنزيراً أو راعي ماشية[١٣]. لكن لا عليك. ضمني إليك. أنني أحبك كثيراً. ميجويف، هل ترى الطرافة التي انتهت إليها الأمور؟ ليس هناك من مصلحة تربطنا فتجمع بيننا، ولكن القدر شاء أن نكون صديقين، فهبط من حيث لا يعلم إلا الله ونزل في البقعة التي أنا فيها! ولك يا صاحبي أن تعلم كم كان عدد العربات هائلاً في السوق! لقد ذهبت هناك لكي ألعب لعبة روليت فربحت فيها جرتين من المرهم العطري وإبريق شاي صينياً وقيثارة. وقامرت بعدئذ بأشياء أخرى، كالمجنون، وخسرتها كلها وخسرت فوقها ستة روبلات. أي زير نساء كوفشينيكوف هذا! قد اشتركنا معاً في حفلات الرقص كلها تقريباً وكانت ذات مرة فيها امرأة فاخرة الثياب - يا لها من أبّهة! لقد اكتفيت بأن قلت لنفسي - ليأخذها الشيطان - ولكن كوفشينيكوف، ذلك الماجن، جلس بقربها وبدأ يسرد أمامها سلسلة من المدائح بالفرنسية. مهما يكن من أمر، فإنه لم يترك حتى السيدات العاديات - مع أنه يسمي هذا العمل قطف التوت. وأية أسماك عجيبة قدموا لنا بهذه المناسبة، معي قطعة شهية من السمك. وهذا كل ما أعدته معي! لقد كنت في الواقع سعيد الحظ إذ اشتريت هذه السمكة قبل ضياع نقودي. إلى أين أنت قاصد؟».

«أنوي زيارة صديق» - قال تشيتشيكوف.

«ومن هو هذا الصديق؟ فليذهب إلى الشيطان: «تعال معي إلى منزلي بدلا منه»».

«لا، لا أستطيع فإن لي عملاً أريد انجازه».

«أوه: ويا له من عمل!».

---

(١٣) يقول نوزدريف لتشيتشيكوف أنه حيوان على طريقته في التحبب. المترجم.

«إن لي عملاً يجب أن انجزه. إنه عمل عاجل جداً».

«إنني أراهن أنك تكذب، وإذا لم يكن ذلك فأخبرني من ستزور».

«سوباكيفيتش».

عندئذ انفجر نوزدريف في ضحكة لا يستطيعها إلا الرجل العفي السليم الذي لا يزال كل سن في ثغره كالسكر في بياض اللون. أعني بذلك ضحكة الخدين الراجفين، الضحكة التي تجعل الجار النائم على بعد ثلاث غرف والذي يفصل بينه وبينها بابان يقفز من فراشه ويفرك عينيه ويقول «يا للكلب! الفرحة تدغدغ ضلوعه».

فسأله تشيتشيكوف وقد اعتراه شيء من الغضب «وما الذي يستدعي الضحك؟».

لكن نوزدريف راح يضحك غير مكبوح الجماح أكثر من قبل ويقول «أوه! ارحمنا يا الله! فالأمر ممتع جداً، أكاد أموت منه!».

فردد تشيتشيكوف يقول «قلت لك أن لا داعي للضحك، فأنا ذاهب إلى سوباكيفيتش رغبة في الوفاء بوعد قطعته على نفسي».

«إنك ستضيق ذرعاً بالحياة إذا ما وصلت إلى هناك، لأنه أبخل مخلوق في هذه الضواحي. أه، لو عرفت! على أية حال، إذا كنت تظن أنك ستجد لديه لعبة ورق أو زجاجة بون بون فأنت على خطأ. استمع لي يا صديقي العزيز، دع سوباكيفيتش يذهب إلى الشيطان! وتعال إلى منزلي حيث ستجد على الأقل قطعة من السمك أقدمها لك في عشائك. لقد قال لي بونوماريف وهو يودعني – هذه هي القطعة التي تليق بك، ولو رحت تفتش السوق كلها لم تجد أحسن منها. ولكنه بالطبع مخادع فظيع. أما أنا فقد أجبته رأساً، وقلت له – أنت وجابي الضرائب أقذر مخلوقين في الوجود. ولكنه ربت على لحيته فقط ثم ابتسم. كنت أتناول فطوري كل يوم مع كوفشينيكوف في حانوته ولكني كدت أنسى أن

أخبرك شيئاً... نعم، إنني لن أتنازل لك عنه، حتى ولا بعشرة آلاف روبل – أخبرك بذلك سلفاً. ولو كنت أعرف أنك الآن لن تتخلى عنه».

وانطلق عندئذ يركض صوب النافذة ويصيح على خادمه (وكان هذا يمسك في يد سكيناً وفي اليد الأخرى لقمة من خبز وقطعة من سمك – وقد تمكن من اختلاس الأخيرة بينما كان يفتش العربة عن شيء آخر) «أي بورفيري! أحضر ذلك الجرو أيها الوغد! يا للجرو الرائع! إن صاحب الفندق اللص لم يكن يريد أن يبيعه بأي ثمن، مع أنني وعدته أن أعطيه المهرة السمراء التي قايضت عليها خفوستيريف – كما تذكر». غير أن تشيتشيكوف في الوقاع لم يكن قد رأى في حياته المهرة السمراء ولا خفوستيريف مطلقاً.

وتساءلت ربة النزل وهي تدخل «هل تريد شيئاً للأكل يا سيدي؟».

«لا، لا شيء أبداً. أيه أيها الصديق تشيتشيكوف! أية أوقات قضينا! نعم أيتها العجوز أعطيني كأساً من الفودكا. قولي لي أي نوع لديك؟».

«ذات اليانسون».

«إذن هات لي كأساً منها».

وأضاف ذو الشعر الأشقر يقول «وواحدة أخرى لي أيضاً».

واستمر نوزدريف في حديثه قائلاً «وفي دار التمثيل كانت هناك ممثلة تغني، المحتالة. كالعصفور الكناري. وقال لي كوفشينيكوف وكان يجلس بجانبي – من الأفضل لك يا عزيزي أن تذهب وتقطف تلك التوته. أما أجنحة التمثيل التي أقيمت في السوق فلا أتجاوز الحقيقة إن قلت لك بأن عددها قد بلغ الخمسين. فيناردي الجمبازي ظلّ يدور أربع ساعات كالرحى». وعند هذه النقطة من حديثه توقف ليتناول كأس الفودكا من ربّة النزل، التي انحنت شكراناً له على عمله هذا.

وفي اللحظة نفسها دخل بورفيري، وهو رجل يرتدي مثل سيده (أي معطفاً مبطناً متسخاً بالدهن) وكان يحمل الجرو بين يديه.

فأمره نوزدريف قائلاً: «أنزل الحيوان هنا على الأرض».

فوضع بورفيري الحيوان على الأرض حيث أخذ يلعب كعادة الكلاب.

وصاح نوزدريف «إليك هذا الجرو». وأمسكه من ظهره ورفعه. فصاح الجرو صيحة تدعو للرثاء. وألقى نوزدريف نظرة على بطن الحيوان واستمر يقول لبورفيري «إنني أراك لم تعمل ما أمرتك به. فقد نسيت أن تنظفه بالفرجون».

فاحتج بورفيري بقوله «لقد فعلت».

«إذن من أين جاءت هذه البراغيث؟.

«لا أعلم. قد تكون قفزت إليه من العربة».

«يا لك من كذاب، لم يخطر ببالك أن تنظفه، بل وأظن أنك، يا غبي عبرت له بعض براغيثك. ومع ذلك، انظر يا تشيتشيكوف إلى هاتين الأذنين. المسهما فقط».

«وما الداعي لذلك؟ إنني أرى أنه حسن المنبت دون أن أفعل».

«وإن يكن، أمسك أذنيه والمسهما».

ففعل تشيتشيكوف ما طلب منه صاحبه مجاراة له وقال «أجل، يظهر أنه حسن الأصل».

«والمس برودة أنفه! ضع يدك عليها فقط».

فلمس تشيتشيكوف الجرو راغباً في عدم أثارة محدثه، وقال «ستكون له في يوم من الأيام حاسة شم جيدة».

«نعم، أليس كذلك؟ إنه الأنف المناسب لذلك. لقد كانت بي رغبة منذ أمد طويل إلى جرو كهذا. بورفيري، أرجعه ثانية».

فرفع بورفيري الجرو من جنبه وحمله إلى العربة.

واستأنف نوزدريف الحديث قائلاً «اسمع يا تشيتشيكوف، يجب عليك أن تأتي إلى منزلي. إنه يقع على بعد خمسة فرستات فقط ونستطيع أن نذهب إلى هناك بسرعة الريح، وتستطيع أن تزور سوباكيفيتش فيما بعد».

فأخذت نفس تشيتشيكوف تساوره - «أأذهب إلى منزل نوزدريف أم لا؟ وهل في الإمكان أن يكون فيه خير أكثر من الباقين؟ إن فيه على الأقل من الأمل مثل ما فيهم. لقد خسر في المقامرة كخاسر جلى و لم يأبه لها. إنه يفعل ما يحلو له ولا يبالي. وقد يعطيني ما أريد دون مقابل». وأضاف بصوت عال «حسن جداً، سآتي معك، ولكن لن نبقى طويلاً لأن وقتي ثمين جداً».

فصاح نوزدريف «عظيم! عظيم! سنذهب ثلاثتنا، دعني أقبلك على هذه الفكرة العظيمة». ورمى بنفسه على عنق تشيتشيكوف.

فتدخل الرجل ذو الشعر الأشقر وقال «أما أنا فأرجو أن تعفيني من الذهاب، لأن علي أن أعود إلى بيتي».

«كلام فارغ! كلام فارغ! لن أسمح لك».

«ولكن زوجتي ستثور عليّ. وعليكم أن تسافروا في عربة السيد..».

«قلت لك أن الأمر لا يحتاج إلى التفكير. هيا بنا، هيا بنا».

كان الرجل ذو الشعر الأشقر من الناس الذين تلمح في شخصيتهم لأول نظرة شيئاً من الجدّ والرزانة بحيث تجدهم على استعداد لمناقشة كلمات المرء حتى قبل أن يلفظها. إنهم يعترضون على كل شيء يمكن

أن يتعارض مع رأيهم الخاص. فهم يرفضون مثلاً، أن تسمى الحماقة حكمة، ويرفضون الرقص على أي نغم غير نغمهم الذي يعزفون عليه. مهما يكن من أمر، ففي شخصيتهم تظهر دائماً نقطة من الضعف، بحيث يقبلون آخر الأمر ما رفضوه في أوله ويصفون ما هو أحمق بأنه معقول ثم يرقصون أحسن مما يفعل الآخرون، على نغم لحنه غيرهم. باختصار، هم يبدأون على العموم صواباً وينتهون دائماً على أسوأ ما يرام.

وقال نوزدريف جواباً على اعتراض آخر لصهره «كلام فارغ!».

وبالتأكيد لم يكد نوزدريف يخبط قبعته على رأسه حتى بدأ الرجل ذو الشعر الأشقر يتبعه وزميله.

فانبرت العجوز قائلة «ولكن السيد لم يدفع ثمن الفودكا».

«أجل، أيتها الأم الطيبة. اسمع يا صهري، ادفع لها إذا سمحت. فليس في جيبي كوبيك واحد».

فسألها الصهر «كم تريدين؟».

«ثمانين كوبيكا من فضلك».

«هذا كثير! أعطها نصف روبل، فيه الكفاية».

فاحتجت السيدة قائلة «قليل يا سيدي»، ولكنها أخذت النقود بامتنان وركضت إلى الباب لتفتحه للسادة. و لم تخسر شيئاً في حقيقة الأمر، فقد تقاضت أربع مرات زيادة عما تستحق الفودكا من ثمن.

ومن ثم استقر المسافرون في مقاعدهم. وقد كان في إمكان الرجال الثلاثة أن يتجاذبوا أطراف الحديث أثناء سيرهم، لأن عربة تشيتشيكوف كانت تسير محاذية للعربة التي جلس فيها نوزدريف وصهره. وكانت عربة نوزدريف الصغيرة تسير خلفهم متأخرة دائماً بخيولها العجفاء وبورفيري والجرو.

وبما أن الحديث الذي جرى بين المسافرين لا يعني القارئ في شيء، فمن الأفضل أن أتحدث عن نوزدريف شيئاً ولو قليلاً، لا سيما وهو سيلعب دوراً غير بسيط في قصتنا.

سيكون وجه نوزدريف مألوفاً للقارئ، فمما لا شك فيه أن كل إنسان قد قابل مثيلاً له. والناس من هذا القبيل، حتى في الصبا وأيام المدرسة يشتهرون بأنهم رفاق طيبون (وهم مع ذلك يتلقون ضربات قوية) لأن وجوههم تبدي عنصراً من الصراحة والاستقامة والإقدام مما يشجعهم بسرعة على خلق الصداقات، فيبدأون بمخاطبتك بالضمير المفرد الثاني قبل أن يرتد إليك طرفك. إلا أنهم بينما هم يوطدون صداقات أبدية كهذه أثناء النهار، تجدهم دائماً يبدأون بالشجار في الليلة نفسها، لأنهم طيلة الوقت قوم رغّائون مشتتون محبّون للظهور ذوو معنويات عالية. وفي الحقيقة كان نوزدريف وهو في الخامسة والثلاثين مثله تماماً وهو في الثامنة عشرة أو في العشرين - كان مثله تماماً في دعارته وانهماكه في الملذات. ولم يغيره زواجه بحال من الأحوال، وقل أثر ذلك عنده عندما تركته زوجة إلى الدنيا الأخرى وتركت خلفها طفلين لم تكن له بهما رغبة ولهذا عهد بهما إلى مربية جميلة. ولم يكن يستطيع مطلقاً أن يبقى في بيته أكثر من يوم واحد لأن حاسة الشم عنده كانت تتعدى فرستات عديدة وتكتشف الأسواق الموسمية التي ينتظر فيها الحفلات الراقصة والتجمعات البشرية. وبناء على ذلك يكون هناك في لمح البصر، مشاجراً خالقاً البلبلة على مائدة القمار (فهو كمن هم على شاكلته، ذو ميل كبير للورق). ولم يكن لعبه بالقذر جداً ولا بالنظيف جداً. ومع أنه كان أرعناً طائشاً إلا أنه كان في الوقت نفسه قديراً على القيام بسرقات خفية ووسائل محظورة أخرى. وكانت اللعبة تنتهي عادة بنوع آخر من التسلية مختلف تماماً. أي أنه إما أن يتلقى ضربات بالحذاء لا بأس بها، أو أن يسحب أحد جانبي لحيته الجزلة الرائعة الجمال. وتكون نتيجة ذلك

أن يعود إلى بيته في بعض الأحيان، وأحد جانبي لحيته منتوف بكل تأكيد. إلا أن خديه الممتلئين بالصحة والعافية كانا يتدفقان بالشباب والحيوية حتى أن الجانب المنتوف يبدأ حالاً بالنمو محل القديم بل يفوق سابقه. وبالإضافة إلى ذلك (وهذه ظاهرة خاصة بروسيا) ما يكاد ينقضي وقت قصير حتى يعود إلى أصحابه القدامى الذين صفعوه منذ أمد قريب، وينخرط معهم كأن لم يكن بينهم شيء مطلقاً، ولا يشير إلى الموضوع أية اشارة، ويلوذون هم بالصمت أيضاً.

باختصار، كان نوزدريف رجل شغب ومشاكل. فلم يحضر اجتماعاً دون أن يثير فيه البلبلة، وتكون النتيجة إما أن تُستدعى الشرطة لطرده من المكان أو أن يقذف به أصدقاؤه إلى الشارع. على أية حال، فإذا لم يحدث أحد هذين الأمرين يكون قد قام بعمل لا يحدث لغيره. كان يسكر في الحفلات بحيث يعجز، إلا عن الضحك، أو يكذب بشكل فظ يجعله يخجل من نفسه في بعض الأحيان. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الرجل يكذب دون أي داع إلى ذلك الكذب. فيبدأ مثلاً بسرد قصة طويلة ينتهي فيها إلى أنه يمتلك حصاناً ذا لون أحمر أو أزرق، حتى تجد مستمعيه في النهاية مضطرين إلى تركه قائلين «إن قصتك جميلة أيها الشيخ!» وبالإضافة إلى ذلك فإن رجالاً من أمثال نوزدريف بهم رغبة في أهانة القريبين منهم دون سبب يدعو إلى ذلك (وفيما يتعلق بهذا الشأن، فإنك تجد رجلاً ذا مركز عال ومظهر محترم - رجلاً ذا نجمة على صدره مثلاً، يتقدم إليك ذات يوم ضاغطاً على يدك ويبدأ بالحديث معك في مواضيع تستحق التفكير، إلا أن هذا الرجل يبدأ بشتمك في وجهك بأسلوب يليق بكاتب بسيط لا برجل تحلّي النجمة صدره. كل ما يستطيع المرء أن يفعله في هذه الحالة هو أن يهز كتفيه هزة استغراب. وقد كان عند نوزدريف مثل هذا الضعف تماماً. فكلما ازدادت صداقته مع إنسان أسرع في توجيه الإهانة إليه وأصبح على

استعداد لنشر الشائعات التي تمس سمعته وتؤدي إلى تخريب حفلات الزفاف والصفقات التجارية المربحة. مع ذلك فهو يعتبر نفسه دائماً صديقاً للرجل المهان، وإذا ما قابله مرة أخرى حياه بألطف أسلوب مستطاع وقال له «لماذا انقطعت عن زيارتي أيها السافل!» وهكذا، فإننا إذا نظرنا إلى نوزدريف من جميع الوجوه نجده شخصاً متعدد المظاهر ومتعدد الإمكانيات. ففي مقولة واحدة وفي نفس المقولة يقترح عليك أن يذهب معك إلى حيث تريد «حتى إلى أبعد أطراف الدنيا لو أردت» أو أن يشترك معك في أي مشروع من المشاريع أو أن يبادلك أي سلعة بأي سلعة أخرى ذكرتها. فالبنادق والخيول والكلاب كلها قابلة للمقايضة ليست للربح منك. وهذه الخصال تكون في الغالب نتيجة ثورة في مزاجه، وتظهر جليّة إذا ما قابل إنساناً ساذجاً بسيطاً في سوق موسمية وسلبه، فإنه يأخذ عندئذ بشراء أول ما تقع عليه يداه من أشياء – لجم الخيل، وولاعات السجائر، وملابس لمربية أطفاله، ومهر الخيل والزبيب والأباريق والقماش الهولاندي والحنطة والتبغ والمسدسات والسمك المجفف والصور والمشاحذ الحجرية والأواني الخزفية والأحذية وما إلى ذلك حتى يستهلك آخر قطعة من النقود في جيبه. إلا أن هذه الأغراض نادراً ما كانت تصل إلى بيته. إذ أنه كان دائماً يخسرها في اليوم نفسه إذا ما قابل مقامراً أبرع، ويخسر زيادة عليها غليونه والكيس الذي يحفظ التبغ فيه ومبسمه وعربته بخيولها الأربعة وسائق العربة. وتكون النتيجة، وقد جرد من كل شيء، أن يستدين من أحد الاصدقاء أجرة عربة يعود فيها. هكذا كان نوزدريف. وقد يقول البعض أن شخصيات كهذه قد انعدمت، وأن لم يعد وجود لأمثال نوزدريف في يومنا هذا. يا للأسف! إن قولاً كهذا هو عين الخطأ، لأن أياماً عديدة سوف تنقضي قبل أن يختفي أمثال نوزدريف عن أبصارنا. إنهم في كل مكان بيننا، والفرق بين القديم منهم والجديد

هو الفرق في اللباس فقط. ويكاد ذوو النظرات السطحية أن يعتبروا الرجل الذي غير معطفه رجلاً آخر يختلف عما كان عليه.

ولنكمل الحديث. لقد درجت العربات الثلاث حتى أعتاب بيت نوزدريف ونزل راكبوها. ولم يكن البيت على استعداد لاستقبال الضيوف، وقد وقف فلاحان على مصعدين خشبين في منتصف قاعة الطعام يدهنان جدرانها بالجير ويسترسلان في أغنية لا نهاية لها، بينما هما يلطخان الأرض بالجير الذي يدهنان به. فأمرهما نوزدريف أن يذهبا بمصعدهما بسرعة وذهب إلى غرفة مجاورة ليلقي أوامر أخرى. وسمع المدعوون رنين صوته واضحاً جداً وهو يأمر بأعداد الطعام حتى أن تشيتشيكوف – وكان قد بدأ يحس بالجوع مرة أخرى – استطاع أن يقدر أن إعداد أي نوع من الأنواع التي يطلبها لن يتم قبل الساعة الخامسة. وعند رجوع نوزدريف دعا صديقيه لمشاهدة ما في قريته. فرَّجهما على كل شيء حتى لم يبق ما يستحق الفرجة في قريته. وبدأت الرحلة بإلقاء نظرة على الاسطبلات، حيث كانت فرسان أحداهما رمادية والأخرى سمراء وحصان كميت. وقال نوزدريف أن الحيوان الأخير – مع بعده الشائع عن الجمال – قد كلفه عشرة آلاف روبل.

فقال صهره متعجباً «إنك لم تدفع عشرة آلاف روبل في هذه الدابة. إنها لا تساوي حتى الألف».

فأكد نوزدريف حديثه بقوله «قسماً بالله لقد دفعت عشرة آلاف!».

فقال الآخر «لك أن تقسم ما تشاء».

فسأله نوزدريف «أتراهن أنني لم أفعل؟» ولكن الصهر رفض العرض.

ومن ثم أخذ نوزدريف ضيفيه إلى ناحية من الاسطبل وأراهما مرابط فارغة ادعى أن قد كان فيها خيول جميلة منذ أمد وجيز. ورأيا أيضاً

تيساً ما لا تزال الخرافة القديمة تعتبر وجوده ضرورياً في محلات كهذه مع أنه لا نفع فيه ولا عمل له إلا التبختر جيئة وذهاباً أمام الخيول كما لو كان سيد المحل. ومن ثم أخذ المضيف ضيفيه لمشاهدة ذئب صغير مقيد بالسلاسل، وقال موضحاً، «أننا لا نطعمه سوى اللحم النيء. لأنني أريده على أشرس ما يرام». ثم ذهبت الزمرة لرؤية بركة قال نوزدريف أن فيها سمكاً بحجم ضخم جداً فلا يستطيع حمل السمكة الواحدة منه إلا رجلان قويان يتعاونان في هذه المهمة. واستقبل الصهر هذه المعلومات باستهجان جديد. ولكن نوزدريف لم يعبأ بذلك، وراح يقول «دعني الآن يا تشيتشيكوف أريك زوجا من الكلاب فخماً حقاً. صوفهما كالإبر وصلابة عضلاتهما سوف تدهشك».

وقادهما وهو يقول ذلك إلى سقيفة صغيرة، لكنها حسنة البناء، تحيط بها أسيجة عالية من جميع نواحيها. وشاهد الزائران لما دخلاها عدداً من الكلاب من جميع الألوان والحجوم والأنواع والأسماء. وبدا نوزدريف بينها كربّ بيت بين عائلته. وبصبصت الحيوانات أذنابها - أو «أصولها» كما يسميها هواة الكلاب. وألقى عدد منها مخالبه على كتفي تشيتشيكوف. وقد دفعت الصداقة أحد الكلاب في الواقع، إلى أن يقف على رجليه الخلفيتين ويلعق شفتي تشيتشيكوف مما اضطره إلى البصاق. وبعد أن تم ذلك شاهد الزائران زوج الكلاب الذي سبق ذكره وأبديا دهشتهما من متانة العضلات. وقد كانا في الحقيقة حيوانين جميلين. وبالتالي رأت الزمرة الكلبة القرميّة[١٤] التي كما يقول نوزدريف - رغم عماها وإشرافها على الفناء - كانت كلبة رائعة حقاً منذ سنتين لا غير، وعند فحصهم لها تبين أنها عمياء بالفعل. ثم ألقيا نظرة على طاحونة الماء التي ينقصها موضع حجر الرحى اللولبي

(١٤) نسبة إلى شبه جزيرة القرم.

الذي كان يجب أن يدور فيه الحجر العلوي «مرفرفاً» - حسب التعبير الظريف الذي يصفه به الفلاحون الروس. وقال نوزدريف «لا عليكم من هذا، ولنذهب إلى محل الحدادة». وإلى ذلك المكان سارت الزمرة. ولما أصبح المحل تحت أنظارهم أشار نوزدريف إلى حقل أمامه وقال:

- في هذا الحقل رأيت عدداً من الأرانب البرية غطى وجه الأرض بحيث أخفاها عن البصر. والواقع أنني أمسكت ذات يوم أرنباً بيدي من رجليه الخلفيتين.

فعلق صهره قائلا «تمسك أرنباً بيديك من رجليه الخلفيتين؟ إنك لم تفعل ذلك مطلقاً».

وأكد نوزرديف كلامه قائلاً «ولكني فعلت. مهما يكن من أمر» والتفت إلى تشيتشيكوف وقال «أريك الحد الذي تنتهي عنده أرضي».

وبدأ يقود ضيوفه وهو يقول ذلك، غير حقل يتكون غالبه من نتوءات حيث بدأت الزمرة تنتقي مواضع أقدامها بين أخاديد محروثة من الأرض وأخاديد مغطاة بالعشب الزحاف. وابتدأ تشيتشيكوف يحس بالتعب لأن الأرض كانت منخفضة جداً حتى كان يسمع صوت الماء يخفق تحت أقدامهم في مواقع عديدة. ومع أن الزائريّن ظلا برهة من الزمن وهما يراقبان مواطئ الأقدام وينقلان الخطى بحذر شديد، إلا أنهما أدركا وشيكاً أن عملاً كهذا لن يجدي، فأنكفأ كل منهما على وجهه دون أن يختار أو يتجنب المواقع التي قد يكون الوحل فيها عميقاً أو ضحلاً. وبعد لأيّ، أي بعد أن قطع الجمع مسافة غير قليلة، وقعت أنظارهم على صارية الحدود وخندق ضيق.

وقال نوزدريف «هذه هي الحدود. وكل ما تريان على هذه الناحية من الصارية هو لي، بما في ذلك الغابة التي تقع على الناحية الأخرى وما وراء الغابة».

فسأله صهره «متى أصبحت هذه الغابة لك؟ يظهر أنك اشتريتها حديثاً جداً، لأنها لم تكن لك من قبل اطلاقاً».

فقال نوزدريف «نعم، لم يمر على شرائي لها أمد طويل».

«متى لحقت أن تشتريها بهذه السرعة؟».

«متى! لقد اشتريتها منذ ثلاثة أيام، والشيطان يعرف أني دفعت فيها ثمناً باهظاً».

«حقاً؟ لكنك منذ ثلاثة أيام كنت في السوق؟».

«يا للغباء! إلا يستطيع المرء أن يكون في السوق وأن يشتري أرضاً في الوقت نفسه؟ أجل، كنت في السوق واشترى مأموري الأرض في غيابي».

فقال صهره وقد لاح الشك في محياه وهز رأسه «أيه! مأمورك اشتراها!».

وعاد القوم من الطريق الواعرة التي جاءوا منها. وبعد أن وصلوا البيت قادهما إلى مكتبه الذي لم يكن فيه أثر لما يوجد عادة في غرف كهذه - كالكتب والورق. بل على العكس، فالأدوات الوحيدة الموجودة فيها كانت سيفاً وبندقيتين أحداهما تبلغ قيمتها ثلاثمائة روبل والأخرى حوالي ثمانمائة. وتفحص الصهر الأدوات المذكورة وهز رأسه كالعادة. ثم شاهد الزائران خناجر تركية أصلية. حفر على أحدها النقش التالي خطأ «الصانع سافيلى سيبيرياكوف - سكّان»[١٥]. وجاءت بعد ذلك أرغن يدوية بدأ نوزدريف يلعب عليها أحد الانغام. ولبرهة من الزمن لم تكن الأنغام كثيرة الإزعاج، لكن ظهر فجأة نوع من خطأ، فصدرت نغمة «المازوركا» تلتها نغمة «مالبورغ ذهب إلى

(١٥) صانع السكاكين. المترجم.

الحرب» ثم تبع هذه نغمة «فالس» معروفة قديمة. وزيادة على ذلك، فقد كان أحد أنابيب الآلة ذا صوت حاد غير منجسم مع بقية الانابيب أثناء العزف فراح يصدر صفيراً جامحاً حسب ما شاء له الهوى حتى بعد أن أوقف نوزدريف إدارة المقبض بمدة طويلة. وتلا ذلك عرض غلايين التبغ - غلايين من الفخار ومن الخشب ومن طين الخفان، غلايين مستعملة وغير مستعملة، غلايين ملفوفة بجلد الشموا وغير ملفوفة، ثم شبوق ومبسمة من الكهرمان (وهو صفقة ربحها حديثاً في الورق) وكيس للتبغ (ادعى أن كونتيسه وقعت في حبه في محطة قد شغلته له، وكانت يداها كما يؤكد نوزدريف «الفيض السامي» - تعبير في القاموس النوزدريفي يدل على ذروة الإتقان). وأخيراً، بعد أن أكلوا بعض الكوامخ من ظهور السمك، وأشرفت الساعة على الخامسة، جلسوا إلى المائدة. و لم يكن الطعام بأي حال من الأحوال من الأشياء الرئيسية في حياة نوزدريف، و لم يهتم بالطبخ نظراً إلى أن بعض الأطباق كانت مطبوخة أكثر من النضوج وبعضها الآخر يبدو وكأنه لم يطبخ أصلاً. وكان من الواضح أن صانع الطعام كان يثق أكثر مما يثق بالايحاء - فكان يمسك بأول شيء تقع يداه عليه، فلو كان الفلفل أقرب شيء إليه فأنه يضيف الفلفل بغير حساب. ولو حدث أن وقعت يداه على قطعة من كرنب لحشرها بين أصناف الطعام. والشيء نفسه يقال عن اللبن ولحم الخنزير والفاصوليا. باختصار، كان شعاره «أعمل طبقاً ساخناً من أي نوع كان، فلا بد أن يكون له طعم هو أي طعم كان». أما فيما عدا ذلك، فقد انكب نوزدريف بشدة على احتساء الخمر. حتى قبل أن يقدم الحساء كان قد صبّ لكل ضيف كأساً من النبيذ وأتبعها بكأس أخرى من شراب السوترن المفتخر (لم يكن شراب السوترن العادي يوجد في الأقاليم). ثم طلب زجاجة من نبيذ الماديرا - («أروع ما سكر به مارشال في الجيش»). ولكن كل ما فعلته الماديرا هو أن لذعت

الحلوق، وذلك لأن صانعيها لمعرفتهم بأذواق سادتنا الملاّكين (الذين يتعشقون الماديرا الطيبة) يطعمونها دائماً أثناء صنعها بكميات كبيرة من الروم والفودكا القيصرية(١٦)، أملاً في أن تتحمله المعد الروسية وبعد هذه الزجاجة جاء نوزدريف بزجاجة من صنف «خاص جداً» أدعى أنه يتكون من خليط من البرغاندي والشمبانيا. وراح يصب كميات وفيرة منها في كأسي تشيتشيكوف وصهره اللذين جلس أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله. وقد لاحظ تشيتشيكوف أن نوزدريف صبّ لنفسه في كأسه نزراً يسيراً من الخليط فعزم بطلنا أن يكون على حذر، ولهذا كان يغتنم كل فرصة كان فيها نوزدريف يصب كأس صهره ويتحدث معه، فيقلب كأسه (أي كأس تشيتشيكوف) بما فيها في طبقه. ومن ثم أحضرت إلى المائدة قارورة نبيذ من حبوب غبيراء ادّعى ربّ البيت أن طعمه يقارب طعم القشطة، لكن – من الغريب أن طعمه في الواقع كان أقرب إلى طعم الفودكا المصنوع في البيت. وبالتالي التهم الجمع نوعاً من المشروب غاب عني الآن اسمه الحقيقي، إلا أن المضيف ذكر اسماً آخر في الفرصة التالية التي أعيد فيها ذكره مرة أخرى. وبعد أن انتهيت وجبات الطعام وجربت أنواع الخمور ظل الضيوف جالسين في أماكنهم – وهو أمر سبب الارتباك لتشيتشيكوف نظراً إلى أنه لم يكن يرد أن يعرض مشروعه الأثير أمام صهر نوزدريف الذي كان غريباً تماماً بالنسبة إليه. فهذا الموضوع يستدعي حديثاً وديّاً خاصاً. ومع ذلك فقد لاح أن وجود الصهر لا ينذر بخطر كبير لأنه كان قد تمادى في السكر وبدأ يغفو على مقعده. وأدرك الصهر بنفسه بعد لأي أنه ليس في وضع أمين أبداً، فنهض وبدأ يطلب الإذن بالرجوع إلى البيت بنغمة الناعس الوسنان حتى كاد ينطبق عليه المثل الروسي القائل «يشد الطوق على الحصان بالكلاّبة».

---

(١٦) الفودكا القيصرية – خليط من بعض الحوامض المركزة يستعمل في الكيمياء. الناشر.

فصاح نوزدريف «لا، لا! لن أدعك تذهب».

فأجاب الصهر «لكن يجب أن أذهب. لا تحاول أن تمنعني. إنك تزعجني جداً».

«كلام فارغ! سوف نلعب لعبة المصرف».

«لا، لا، يجب أن تلعبا دوني أيها الصديقان. إن زوجتي تنتظرني في البيت. يجب أن أذهب وأحدثها بكل شيء عن السوق. يجب أن أذهب إذا كنت سأحافظ على رضاها. فلا تحاول أبقائي».

«زوجتك؟ لكن هل هنالك في الحقيقة شأن هام بينك وبينها؟».

«لا، لا، أيها الصديق. فالسبب الحقيقي هو أنها امرأة طيبة أمينة تضحّي كثيراً في سبيلي. إن الدموع تثب إلى عيني كلما فكرت في إخلاصها. فلا تحاول إبقائي. إنني أقول لك قولة الرجل الشريف - يجب أن أذهب. وعليك أن تتأكد من صفاء نيتي».

فتدخل تشيتشيكوف بهدوء يقول «أيه، دعه يذهب. فما الفائدة في بقائه؟».

فقال نوزدريف «أجل، أجل، لعنة الله على الذين يفقدون عقولهم» ثم التفت إلى صهره وقال «اذهب يا فيتوك[١٧]. إلى الشيطان بك وبزوجتك وبأحاديث النساء».

فقال الصهر «لا داعي إلى الإهانات توجهها لي بلقب فيتوك. فإني أدين لها بحياتي، وهي عزيزة عليّ، أثيرة عندي، أغدقت عليّ من عطفها الشيء الكثير - عطفاً لا أكاد أذكره حتى تغرورق عيناي بالدموع. وهي ستسألني عما رأيت في السوق وعلي أن أخبرها بكل شيء، لأنها غالية جداً، عزيزة جداً».

---

(١٧) فيتوك - كلمة روسية يقصد بها الأهانة، لأن الحرف الأول منها يرمز إلى كلمة أخرى شائنة. المترجم.

«إذن اذهب إليها بجعبة كذبك. إليك قبعتك».

«لا يا أيها الصديق الطيب، لا تذكرها على هذا النحو. إنك تسيء لي كثيراً بعملك هذا - فهي غالية جداً، عزيزة جداً».

«إذن هيا إليها ركضاً».

«نعم، ها أنا ذاهب. فأعذراني لأني لا أستطيع البقاء. كان بودي أن أظل معكما، ولكني لا أستطيع».

واستمر الصهر يردد معاذيره المرة تلو الأخرى دون أن يلاحظ أنه جلس في العربة وأنها اجتازت به الباب وأنه أصبح في الطريق العام. ويمكننا أن نفترض تجاوزاً أن زوجته استطاعت أن تلتقط منه نتفاً من الأنباء عن السوق.

وقال نوزدريف وهو واقف في الشباك يراقب العربة الراحلة «يا له من دنيء! إلا أن حصانه الجانبي لا بأس به. منذ أمد طويل وأنا أريد الحصول عليه. لكن ذلك مستحيل من هذا الرجل. نعم، أنه فيتوك، فيتوك بكل ما في الكلمة من معنى».

وبهذا عادا إلى الصالة حيث وجدا بورفيري يشعل الأنوار، ورأى تشيتشيكوف مضيفه يعد رزمة من الورق.

وراح نوزدريف يضغط على جوانب الرزمة ويثنيها قليلا حتى غدت تفرقع وطارت منها ورقة، وقال «ما رأيك في أن أكون أمين اللعبة بثلاثمائة؟».

فتظاهر تشيتشيكوف بأنه لم يسمعه، ولكنه قال بلهجة الذي يتذكر شيئاً كان قد نسيه - «لقد غاب عن بالي أن لي طلباً إليك».

«وما هو الطلب؟».

«عدني أولاً أن تلبيه».

«ما هو أذن؟ تكلم».

«إذن أنت تعدني بأعطائه؟».

«بكل تأكيد».

«أتقسم بشرفك؟».

«أقسم بشرفي».

«إذن هذا هو طلبي – أظن أن لديك عدداً كبيراً من الأقنان الموتى الذين لم تشطب أسماؤهم من لوائح الإحصاء الأخيرة؟».

«أجل لدي، ولكن لماذا تسأل عنهم؟».

«لإنني أريد منك أن تحولهم على اسمي».

«وما حاجتك بهم؟».

«لا عليك. فلي مأرب فيهم.

«وما هو ذلك المأرب؟».

«أمر يخصني وحدي. موجز القول إني بحاجة إليهم».

«يظهر أن عقلك قد تمخض عن مشروع لطيف جداً. إليّ به الآن! أرني ما في جعبتك».

«وكيف أتمخض عن مشروع كالذي تقول؟ إن تفاهات كهذه لا تكون مصدر إيحاء للمشاريع العظيمة».

«إذن لماذا تريد الأقنان؟».

«ما هذا الفضول يا رجل! أراك لا تكتفي بتلمس الشيء إنما تود أن تحشر أنفك فيه».

«ما الذي يمنعك من أن تكشف عن مشروعك إذن؟».

«وما جدوى معرفتك به؟ أنها مجرد نزوة تستولي عليّ».

«وإذا لم تخبرني برأيك لن أحولهم إلى اسمك».

«هذا كل ما في الأمر. وأنت لست على حق فيما تفعل الآن. فقد وعدتني بشرفك، وها أنت تحاول أن تنقض الوعد».

«هذا ما تريد أنت. وسأظل على رفضي حتى أعرف مأربك».

وراح تشيتشيكوف يفكر. «ما الذي سأقوله لهذا الإنسان؟». وبعد فترة قصيرة من الزمن أخذ يقول له بأن هدفه من وراء الحصول على الأنفس الميتة هو أن يرفع من مركزه في المجتمع لأنه في الوقت الحاضر لا يمتلك أراضي واسعة ولذلك فهو يحتاج إلى حفنة صغيرة من العبيد لا غير.

ولكن نوزدريف - حتى قبل أن يتم كلامه - قاطعه قائلا «إنك تكذب، نعم، إنك تكذب أيها الصديق المحترم».

فأدرك تشيتشيكوف أن دليله كان ضعيفاً وحجته كانت واهية. فاستجمع أفكاره وأضاف بصوت عال يقول لنوزدريف «سأطلعك على الحقيقة على أن لا تطلع عليها أحداً. كل ما في الأمر هو أنني عازم على الزواج. ومن سوء حظي أن والد خطيبتي ووالدتها قوم أخذت منهم الغطرسة مأخذها فهم يشترطون أن يكون العريس مالكاً لثلاثمائة نفس على الأقل، وليس في حوزتي غير مائة وخمسين، وهو عدد غير كاف كما ترى».

«أنت تكذب أيضاً».

«اسمع يا هذا. إنني الآن لم أكذب حتى إلى هذا الحد». وأشار بقسم ضئيل من طرف اصبعه الأصغر.

«ومع ذلك فإنني أراهن على رأسي بأنك كنت تكذب في كل كلمة قلتها».

«كفى! كفى! هذا غير لائق منك. ولماذا أكذب؟».

«لأني أعرفك، وأعرف أنك وغد أصيل. أقول لك هذا بدافع الصداقة. ولو كانت لي سلطة عليك، لشنقتك على أقرب شجرة».

واستاء تشيتشيكوف من هذا القول. فقد كان يكره التعابير النابية التي تجرح الكرامة، ولم يكن يسمح لأي إمرئ - باستثناء أصحاب النفوذ والمراكز العالية - أن يسلكوا معه سلوك الإلفة التي تتجاوز الحدود. ولهذا بلغ استياؤه في تلك اللحظة أشده.

وراح نوزدريف يكرر كلامه ويقول «أي والله، كان يجب أن أشنقك. وأنا أقول لك هذا لا رغبة في الاساءة إليك إنما للصراحة التي فطرت عليها، الصراحة التي يجب أن تكون بين الصديق والصديق».

فأجاب تشيتشيكوف بجفاف «إن لكل شيء حداً، وإذا كنت تنوي أن تستعمل هذه التعابير فمن الأفضل لك أن تعود إلى ثكنات المعسكر».

وسادت بينهما فترة من الصمت. تابع تشيتشيكوف بعدها قوله «إذا كنت لا تريد أن تهديني العبيد فلماذا لا تبيعهم لي؟».

«أبيعهم؟ إني أعرفك أيها السافل! إنك لن تدفع فيهم شيئاً يستحق الذكر. أليس كذلك؟».

«أمر ظريف حقاً! أصغ لي يا هذا. ما هي قيمتهم عندك. جواهر نفيسة على ما أظن؟».

«هذا ما كنت أقدر. ألم أقل لك إني أعرفك؟».

«أيه يا أخي، هذه التطلعات اليهودية، كان يتوجب عليك أن تهديهم لي».

«على العكس مما تظن، فليس في نيتي أن استغلك، ولكي أثبت

لك ذلك فسوف لا أطلب حتى كوبيكا واحدة مقابلهم. كل ما أطلب هو أن تشتري المهر الذي رأيت وسأعطيك العبيد فوق الصفقة دون مقابل».

فقال تشيتشيكوف مندهشاً جداً للاقتراح «لكن ما حاجتي إلى مهرك؟».

«ما حاجتك له؟ مه. لقد اشتريته بعشرة آلاف روبل وإني على استعداد لكي أعطيك أياه بأربعة آلاف فقط».

«دعني أكرر سؤالي مرة أخرى - أي فائدة يمكن أن أجنيها من المهر؟ أنا لا أقتني الجياد ولا احتفظ بأسطبل لها».

«يبدو أنك لم تفهمني. دعني أهون الأمر عليك. ادفع الآن مقدماً من الثمن ثلاثة آلاف روبل، ولنؤجل الألف الأخرى إلى ما بعد».

«ولكني قلت لك لا أريد أن أشتري ذلك المهر، الله يحفظه».

«إذن فأشتر المهرة الشقراء».

«لا، حتى ولا هذه».

«إذن اشتر المهرة الشقراء والجواد الرمادي اللذين رأيتهما في الإسطبل بألفي روبل فقط».

«لا حاجة بي للخيول مطلقاً».

«ولكنك تستطيع أن تبيعها مرة أخرى. وباستطاعتك أن تحصل على ثلاثة أضعاف الثمن في أول سوق تنعقد».

«إذن بعها بنفسك ما دمت واثقاً هذه الثقة من هذا الربح العظيم».

«أجل، سأبيعها في أسرع وقت، إنما كنت أريدك أنت أن تستفيد من هذه الصفقة».

فشكر تشيتشيكوف محادثه شكراً جزيلاً، ولكنه صمم على رفض الحصان الرمادي والمهرة الشقراء.

ثم قال نوزدريف «إذن فاشتر بعض الكلاب. سأعطيك زوجاً منها ناعمة الاهاب منتصبة الآذان ممتلئة الصدر والأرداف لم تقع على مثلها عين إنسان من قبل. لها مخالب متجمعة إذا سارت عليها تحسبها لا تكاد تمس الأرض».

«وما فائدة الكلاب لي، لست صياداً».

«لكنني أريد أن تكون من هواة تربية الكلاب، لا، إذا كنت لا تريد الكلاب ففي أمكانك أن تشتري الآلة الموسيقية. إنها آلة فخمة حقاً. أقسم لك بشرفي أنني اشتريتها عندما كانت جديدة بألف وخمسمائة روبل. خذها بتسعمائة».

«مه! مه! وما الذي اعمله بها؟ لست ألمانياً حتى أحملها على كتفي وأتجول بها في الشوارع لكي استجدي بها الكوبيكات».

«ولكن هذه آلة تختلف عن تلك التي يتجول بها الألمان. إنها أرغن أصيل. اذهب وافحصها بنفسك. إنها مصنوعة من أجود أنواع الخشب. هيا معي لتلقي عليها نظرة أخرى».

وأمسك بيد تشيتشيكوف وسحبه إلى الغرفة الأخرى حيث اضطر الأخير – على الرغم من تأكيده لنوزدريف أنه على علم بجودة الأرغن – إلى الاستماع مرة أخرى إلى كيفية ذهاب مالبروغ إلى الحرب.

ثم راح نوزدريف يقول «إذا كنت لا تريد أن تعطيني نقوداً، فاستمع إلى هذا الاقتراح. سوف أعطيك الآلة الموسيقية وكل ما لدي من الأنفس الميتة وتعطيني مقابل ذلك عربتك وثلاثمائة روبل أخرى».

«استمعوا للرجل! وما الذي يبقى لي للانتقال من مكان إلى آخر؟».

«ايه! سأعطيك عربة أخرى. تعال معي إلى المرأب وسوف أريك التي أعني. إنها لا تحتاج إلا إلى الدهان لكي تصبح فاخرة جداً».

«يا للشيطان الهائج غير مكبوح العنان». قال هذا تشيتشيكوف لنفسه التي صمم في قراراتها أن يتخلص من صفقات العربات والآلات الموسيقية وكل أنواع الكلاب مهما كانت ممتلئة الصدور والأرداف أو متجمعة المخالب ومنتصبة الآذان.

وأعاد نوزدريف يقول «وستأخذ بدلاً منها هذه العربة والآلة الموسيقية وكل الانفس الميتة».

فقال تشيتشيكوف «كلا، لا أريد».

«ولماذا؟».

«لأنني لا أريد، هذا كل ما في الأمر».

«أنني أعرف أنك وغد سافل لا تعرف كيف تسير الأمور بين الأصدقاء. ها إني أرى أنك رجل مزدوج».

«ماذا تعني هل أنا مجنون؟ فكر في الأمر بنفسك. كيف أشتري أشياء لا حاجة لي بها؟».

«كفى! كفى!! من فضلك. لقد عرفتك على حقيقتك. إنك وبش أصيل. ولكن استمع الي، هل تلعب الورق؟ إنني على استعداد للمقامرة بالأنفس الميتة والآلة الموسيقية إذا أحببت».

«لا، فاللعب بالورق معناه أن يسلم الإنسان نفسه للمجهول» كان يقول تشيتشيكوف وأخذ ينظر من طرف خفي إلى رزمة الورق التي كانت في يد نوزدريف. وقد خامره شيء من الشك عندما رأى الطريقة التي كان زميله يقطع الرزمة بها.

وسأله نوزدريف «وماذا تعني بالمجهول؟ ليس هناك شيء اسمه

المجهول. إذا حالفك الحظ فستربح ما لا يعلمه إلا الشيطان. أيه! يا للحظ! يا للحظ! أنظر. ها هي وحدها. تلك التسعة الملعونة التي خسرت بسببها كل شيء في تلك الليلة. لقد أحسست عندئذ أنها ستخدعني ولكني قلت لنفسي – هيا، أرني خيانتك. وليأخذك الشيطان».

وبينما كان نوزدريف يتكلم ويلعب بالورق، دخل بورفيري يحمل زجاجة شراب أخرى. ولكن تشيتشيكوف رفض أن يشرب ويلعب.

فسأله نوزدريف «ولماذا ترفض اللعب؟».

«لأني لا أحس بالرغبة فيه. وبالإضافة إلى ذلك فأنا لا أحب اللعب».

«ولماذا لا تحبه؟».

فهزّ تشيتشيكوف كتفيه، وقال «لإنني لا أحبه».

«إنك لا تجيد شيئاً من الأشياء على ما أظن».

«وما العمل إذا كان الله خلقني هكذا؟».

«إنك في الحقيقة فيتوك، ولا شيء غير ذلك. لقد حسبتك إنساناً محترماً من قبل، ولكني أرى أنك لا تفهم أصول اللياقة ولا تعرف الآداب. إن المرء لا يستطيع أن يعتبرك صديقاً ولا أن يتكلم معك على هذا الاساس لأنك عديم الصراحة، عديم الاخلاص. إنك سوباكيفيتش حقيقي بائس».

«لأي سبب تطلق لسانك عليّ بالشتم والمسبات؟ هل هناك من خطأ إذا ما رفضت لعب الورق؟ بعني الأنفس وحدها إذا شئت أن تكون دقيقاً في تصرفك».

«ليأخذك الشيطان الأحمق! كنت سأعطيك هذه الأنفس بلا مقابل، ولكني لن أعطيكها الآن اطلاقاً، ولو أعطيتني ثلاث ممالك بدلاً منها. لم تعد أي رابطة تربطني بك، أيها النذل القذر! بورفيري، اذهب وأخبر السائس أن لا يضع لخيول السيد شوفاناً ولا شعيراً، تبناً فقط».

لم يكن تشيتشيكوف يتوقع أن تتطور الأمور إلى هذا الحد.

وأكمل نوزدريف يقول «وأنت، اغرب عن وجهي».

وعلى الرغم من ذلك كله فقد تناولا العشاء معاً - ولكن الخمور ذات الأسماء الرفيعة لم تكن تزيّن المائدة هذه المرة. كان كل ما هنالك زجاجة واحدة من النبيذ العادي جداً يشبه الخل أكثر مما يشبه النبيذ. وبعد العشاء قاد نوزدريف تشيتشيكوف إلى غرفة جانبية أعد له فيها الفراش وقال له «هنا ستنام، ولا رغبة بي في أن أتمنى لك ليلة سعيدة».

وأحس تشيتشيكوف، بعد أن تركه نوزدريف، أنه في حالة نفسانية لا يحسد عليها. فأخذ يلوم نفسه بمرارة، وهو يغلي حنقاً، على مجيئه لرؤية هذا الرجل وصرف وقته الثمين سدى. ولكنه لام نفسه أكثر من ذلك لأنه أطلعه على مشروعه، فتصرف بذلك تصرف الأطفال والمجانين. فالمشروع بكل تأكيد، ليس مما يسرّ به لأمثال نوزدريف الشخص التافه الذي قد يخلق الأكاذيب حوله، ويزيد عليها الحواشي، وينشر قصصاً لا يعلم إلا الله مدى الفضائع التي تترتب عليها. وأخذ يقول لنفسه «إنه أمر سيء حقاً! ويا لي من غبي!» وقضى بناءً على ذلك ليلة مؤرقة مضنية. وقد كان ضغثاً على ابالة أن انطلقت عليه اعداد غفيرة من حشرات لاذعة صغيرة تناولته باللذع والقرص حتى لم يكن يستطيع أن يعمل شيئاً إلا أن يحك مواضعها ويقول «ليأخذك الشيطان أنت ونوزدريف!» واستيقظ في الصباح الباكر، وكان أول عمل قام به (بعد أن لبس خفه ورداءه) أن اجتاز حظيرة البيت إلى الإسطبل لكي يأمر سيليفان بإعداد العربة. وبينما كان راجعاً من مهمته تلك، تقابل مع نوزدريف مرتدياً رداءه وممسكاً بغليونه بين أسنانه.

وحيا ربّ البيت ضيفه كما يفعل الأصدقاء، وسأله كيف كان نومه. فأجاب تشيتشيكوف برنة عليها مسحة من جفاف «لا بأس به».

فقال نوزدريف «أما أنا يا أخي فأية أفكار لعينة مقيتة للغاية ظلت تدور في رأسي طوال الليل. وفي فمي طعم كريه من شراب البارحة. وكنت أحس من أثر ما عملناه في الليلة الماضية وكأن فرقة من الجنود تعسكر على صدري حتى أنني حلمت بأنني أُجلد. أيه! ومن تظن ذلك الذي حلمت بأنه يجلدني؟ لا أظنك ستعرف. إنه الضابط بوتسيلويف وكوفشينيكوف!».

فقال تشيتشيكوف لنفسه «ليت هذا الجلد كان حقيقة لا حلماً».

واستمر نوزدريف يقول «وقد شعرت أنني مريض جداً. وما كدت أنام حتى جاء شيء ولسعني. قد تكون البراغيث هي التي فعلت ذلك. والآن اذهب وارتد ملابسك وسأكون عندك حالاً. عليّ أولاً أن أذهب إلى المأمور السافل وازجره».

وذهب تشيتشيكوف إلى غرفته ليغسل وجهه ويرتدي ملابسه. وما أن أتمّ هاتين العمليتين حتى دخل إلى غرفة الطعام فوجد على المائدة معدات الشاي وزجاجة روم. كان من الجليّ أن مكنسة لم تمس المكان بعد، فقد ظلت آثار الليلة السابقة من غداء وعشاء ماثلة على شكل فتات منتشرة على الأرض ورماد تبغ على ملاءة المائدة. حتى ربّ البيت، عندما دخل، كان لا يزال يرتدي الرداء البيتي الذي كان يكشف عن صدر أشعر. وعندما جلس ممسكاً غليونه في يده، يشرب الشاي من قدح في اليد الأخرى كان نموذجاً صالحاً للرسامين الذين يحبون رسم غير المتأنقين ويكرهون رسم الرجال الذين يذهبون إلى الحلاق ليمسد لهم شعرهم بالمشط والفرشاة ويضع عليه مختلف الروائح والعطور.

وبعد فترة من الصمت أخذ نوزدريف يقول «ما رأيك الآن؟ ألا تحب أن تلعب معي على تلك النفوس؟».

«لقد قلت لك أنني لا ألعب الورق أبداً. فإذا كانت النفوس للبيع فإني سأشتريها».

«إنني أربأ بنفسي أن أبيعها. فهذا شيء لا يليق بين الأصدقاء. أما إذا لعبنا عليها لعبة فإن وجه المسألة سيتغير. دعني أقطع الورق».

«لقد قلت لك أنني لن ألعب».

«ألا توافق على المبادلة أيضاً؟».

«كلا».

«إذن أصغ لي. ما رأيك في أن نلعب الداما؟ إذا ربحت فالأنفس لك. إن هناك كثيراً منها في اللائحة أريد شطبه. بورفيري، أحضر رقعة الداما».

«إنك تضيع وقتك. فلن ألعب الداما أيضاً».

«ولكن لعب الداما يختلف اختلافاً كبيراً عن لعب الورق. فليس فيه مجال لا للحظ ولا للغش. إن كل شيء فيه يعتمد على المهارة. وعليّ أن أبلغك منذ الآن أنني لن أستطيع أن أجاريك في اللعب إلا إذا سمحت لي بحركة أو حركتين أسبقك بهما».

وراح تشيتشيكوف يفكر. «ولم لا ألعب معه. لقد كنت في وقت من الأوقات لاعباً ماهراً في الداما. وليس في هذه اللعبة فرصة للخديعة».

وأضاف بصوت عالٍ يقول «حسناً، هيا بنا إلى الداما».

فقال نوزدريف «وستكون النفوس مقابل مئة روبل؟».

«هذا كثير! خمسون روبلاً تكفي».

«لا، وما نفع الخمسين. ولكني سأضيف مقابل الروبلات المئة جرو كلب لا بأس به.. أو الأفضل من ذلك سلسلة ذهبية لساعتك».

فوافق تشيتشيكوف قائلاً «حسن جداً».

«إذن بكم حركة ستسمح لي أن أسبقك؟».

«ولماذا؟ طبعاً لن أسمح بشيء».

«اسمح لي بحركتين على الأقل».

«لا، لن أسمح بشيء. فأنا ضعيف فيها».

فقال نوزدريف وهو يحرك قطعة منها «إني أعرفك وأعرف لعبك الضعيف».

فأجاب تشيتشيكوف وهو يحرك قطعة أخرى «منذ مدة طويلة لم تلمس يدي قطعة داما».

فكرر نوزدريف وهو يحرك قطعة أيضاً «ايه، إني أعرفك واعرف لعبك الضعيف».

فحرك تشيتشيكوف بدوره قطعة وقال «أجل، منذ مدة طويلة لم تلمس يدي قطعة داما».

فقال نوزدريف للمرة الثالثة وهو يحرك القطعة الثالثة. «ايه، إني أعرفك وأعرف لعبك الضعيف».

وفي الوقت نفسه، بينما كان يقول ذلك كان كم قميصه يحرك قطعة أخرى من موضعها.

بينما كان تشيتشيكوف يقول «أجل منذ مدة طويلة لم... هه! ما هذا؟ أرجع القطعة إلى موضعها!».

«أية قطعة؟».

«هذه».

وأشار إلى القطعة التي هي موضع الجدل، ولكنه وجد في الوقت نفسه أن هناك قطعة أخرى غيرها قد طلعت داما، ولا يعلم إلا الله ما الذي جاء بالقطعة الجديدة إلى موضعها ذلك.

فنهض تشيتشيكوف عن المنضدة وهو يصيح «لا، لا، من المستحيل أن يلعب المرء مع رجل مثلك. فالناس لا يحركون ثلاث قطع دفعة واحدة».

«كيف، ثلاث قطع! إنه مجرد خطأ بسيط، فقد تحركت إحدى قطعي بالصدفة. وإذا شئت سأعيدها إلى حيث كانت».

«ومن أين جاءت القطعة الثالثة؟».

«أية قطعة تعني؟».

«تلك التي طلعت داما».

«هل نسيت حركة هذه؟».

«لا، لا، يا صديقي. لقد حسبت كل حركة وأستطيع أن أذكرها لك واحدة واحدة. وتلك القطعة قد أضيفت حديثاً إلى الرقعة. هيا أرجعها إلى مكانها».

«مكانها؟ وما هو مكانها؟ – واحمر وجهه احمراراً شديداً – أراك ملفّقاً كبيراً!».

«لا، لا أيها الأخ العزيز. إنك أنت الملفق، ولكنك ملفق فاشل كما أرى».

«ما الذي تعتقده فيّ إذن؟ أنني أغشك؟ أليس كذلك؟».

«أنا لا أعتقد فيك شيئاً. وكل ما أقول هو أنني لن ألعب معك».

فاشتعلت ثورة نوزدريف وقال ولكنك لا تستطيع أن تفعل. فاللعبة قد ابتدأت».

«ومع كل هذا، فلي الحق أن أترك اللعب ما دمت لا تلعب لعباً شريفاً».

«إنك تكذب، وكيف تجرؤ على هذا القول؟».

«أنت الذي يكذب».

«أنا لم أغش. وبناء على ذلك لا تستطيع أن تترك. وعليك أن تكمل اللعبة إلى نهايتها».

فقال تشيتشيكوف ببرود «إنك لا تستطيع أن ترغمني على اللعب». والتفت إلى رقعة الداما ومر بيده عليها وخلط بين قطعها.

فاقترب نوزدريف من تشيتشيكوف وعلى محياه أمارات الوعيد بحيث تراجع الأخير خطوتين إلى الوراء.

وقال نوزدريف «سوف ارغمك على اللعب. إن خلط رقعة الداما لن يجديك شيئاً، لأنني أتذكر كل حركة من الحركات. سوف نعيد القطع إلى مواضعها كما كانت».

«لا، لا، يا صديقي. لقد انتهت اللعبة، ولن ألعب معك بعد».

«تقول أنك لن تلعب؟».

«نعم. فأنت ترى بنفسك أن أمراً كهذا أصبح مستحيلاً».

«أأنت مصمم على هذا؟ هيا قل مرة ثانية أنك ترفض اللعب معي». وتقدم نوزدريف عند قوله هذا من تشيتشيكوف خطوة إلى الامام.

فقال تشيتشيكوف «أجل، لا أريد». وفي الوقت نفسه رفع يديه دفاعاً أمام وجهه، لأن سير الأمور أصبح حامياً. والواقع أن عمله هذا كان له ما يبرره، لأن نوزدريف هجم عليه رافعاً قبضته. وكان من المحتمل أن يتلقى بطلنا على خده الممتلئ النضير لكمة لا تنسى لو لم يتجنبها بأن هجم على ذراعي نوزدريف الذي كان يلوح بهما، وأمسك بهما بين يديه.

وأخذ نوزدريف يصيح بجنون وهو يتهالك على تخليص يديه «بورفيري! بافلوشكا!».

وعندما سمع تشيتشيكوف هذا الصياح ترك يدي نوزدريف. وقد أفلتهما في الواقع لسببين - أولهما أنه لم يحب أن يرى الخدم هذا المنظر الذي لا يشرف أحداً، وثانيهما أن الإمساك بيدي نوزدريف لم تعد فيه جدوى. وما كاد يفعل، حتى دخل الغرفة بورفيري ومعه بافلوشكا - عملاق من الأوباش ليس التعرض له من الحكمة في شيء.

فقال نوزدريف «هل تريد أو لا تريد أن تكمل اللعبة؟ أعطني الجواب حالاً».

فأجاب تشيتشيكوف وهو ينظر من النافذة «لا، ليس إنهاء اللعبة بالمستطاع». ورأى أن العربة جاهزة في انتظار إشارة، وسيليفان على أهبة الاستعداد ليتقدم بها إلى سلّم البيت. ولكن لم يكن من الغرفة مناص لأن الخادمين العملاقين ماثلان بالباب.

وأعاد نوزدريف قوله وقد احمر وجهه كالنار «إذن أنت لا تريد إنهاء اللعبة؟ أليس كذلك؟».

«كنت أودّ إنهاءها لو لعبت لعباً شريفاً، أما والحالة هذه فكلا».

«إنك لن تستطيع أيها الوغد! أنك تترك اللعب لمّا وجدت نفسك مغلوباً على أمرك، وعرفت أي الحظ قد تخلف عنك! اضرباه يا شباب!» وجه الجملة الأخيرة إلى بورفيري وبافلوشكا، وسحب بنفسه قصبة من خشب الكرز. أما تشيتشيكوف فأصبح لونه كالملاءة البيضاء. كان يحاول أن يقول شيئاً ما إلا أن شفتيه كانتا ترتعشان دون أن تصدرا صوتاً.

وصاح نوزدريف للمرة الثانية «هيا اضرباه!» واندفع هاجماً وهو يتصبب عرقاً وقد اجتاحته نوبة عاصفة من الحماس تليق بالفارس المغوار عندما يهجم على حصن حصين. وصاح مرة أخرى «اضرباه!» بصوت الضابط المتهور الذي يبعث الحماس في جنوده للهجوم على الهدف

المعيّن بقوله «إلى الأمام أيها الرفاق!» لما عرف عنه رؤساؤه من تهور وطيش فصمموا على كف يده عن العمل إذا ما عاد إلى طيشه وتهوره. مهما يكن من أمر، فإن رأس الضابط - وقد اجتاحته حميّة المعركة، - يأخذ باللف والدوران، وتلوح أمام عينيه صورة البطل سوفوروف[١٨]. فيتقدم الجنود ويصيح بصوت مسعور «إلى الأمام أيها الشجعان!» غير حاسب للنتائج حساباً، وغير مفكر فيما إذا كان عمله هذا سوف يخرب خطة الهجوم العام، وغير عابئ فيما إذا كانت فوهات ملايين البنادق مصوبة من كوى في السور في انتظار الصيد المرقوب، وغير مقدر أن يذهب هجومه أدراج الرياح وأن تكون في تلك اللحظة قد صدرت من فوهة إحدى البنادق الرصاصة التي كتب لها في اللوح المحفوظ أن تطبق على حنجرته فتسكتها إلى الأبد. على أية حال، فإذا كان نوزدريف يشبه ذلك الضابط اليائس العنيد الذي رسمناه هاجماً على الحصن الحصين، فقد كان الحصن في قصتنا بعيداً عن أن يكون حصيناً ولا يمت للحصن الذي سبق وصفه بأية صلة. وواقع الأمر أن الرعب والهلع استوليا على حصننا فهوت روحه إلى حذائه. قبل كل شيء ما كاد تشيتشيكوف (الحصن الذي نتكلم عنه) يمسك بكرسي لكي يدافع به عن نفسه حتى انتزعه من قبضته أحد العبيد، ومن ثم أطبق أجفانه، وهو يحس بأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ليتلقى ضربة من عصا مضيفه. ولا يعلم إلا الله ما الذي كان سيحدث لكتفيه وخصره وظهره لو لم يتدخل القدر لإنقاذه بمعجزة من المعجزات. فعلى حين غرة، ودون أن يتوقع ذلك أحد، سمع صوت رنين أجراس عربة وقرقعة عجلات تقترب من مدخل البيت، وما أن وقفت حتى سمع صوت لهاث الخيول ونخيرها، وكأن هذه الأصوات قد هبطت من السماء. فنظر الكل دون إرادة من النافذة ورأوا رجلاً ذا شوارب يلبس

---

(١٨) سوفوروف - قائد روسي عظيم حاز على شهرة كبيرة في حرب السنوات السبع. الناشر.

معطفاً عسكرياً وهو نازل من العربة. وبعد أن ألقى سؤالاً أو سؤالين في القاعة دخل إلى غرفة الطعام في اللحظة التي كان فيها تشيتشيكوف يكاد يغشى عليه من الهلع، ويجد نفسه يمر في أحرج المواقف التي يمر بها إنسان فان.

ألقى الرجل المجهول نظرة حائرة على الرجلين – نوزدريف (وهو لا يزال رافعاً عصاه في يده) وتشيتشيكوف (الذي كان قد بدأ يستجمع نفسه من الفعل التعيس) وتساءل قائلاً «أرجوكما أن تخبراني أيكما هو السيد نوزدريف».

فتقدم نوزدريف إلى الضابط وقال له «أرجو أن تخبرني من تكون».

«أنا رئيس شرطة الريف».

«وماذا تريد؟».

«جئت أؤدي مهمة كلفت بها. وهي أن أبلغك عن وضعك تحت الحراسة إلى أن تقرر المحكمة مصير قضيتك».

«هراء! هراء! وأي قضية هذه؟».

«أنت متهم بأنك اعتديت وأنت في حالة السكر وباستعمال قضيب على الملاّك ماكسيموف وأحدثت في جسمه أضراراً بليغة».

«إنك تكذب! إني أقول لك في وجهك! طوال حياتي لم تقع عيناي على الملاّك ماكسيموف».

«سيدي المحترم، اسمح لي أن أذكرك بأنني موظف حكومة. وهذا النمط من الكلام تستطيع أن توجهه لخدمك، لا لي».

وعند الكلمة الأخيرة سحب تشيتشيكوف قبعته، ودون أن ينتظر جواب نوزدريف، زلق من وراء ظهر الضابط، واندفع إلى المدخل، وقفز في العربة، وأمر سيليفان أن يسوق العربة بسرعة الريح.

الفصل الخامس

ارتعب تشيتشيكوف بالتأكيد بكل ما في الكلمة من معنى. فمع أن العربة كانت مندفعة في سيرها لا تلوى على شيء حتى اختفى بيت نوزدريف خلف الروابي والأسيجة إلا أن بطلنا ظل يتلفت وراءه بعصبية وانفعال كما لو كان ينتظر أن يرى خلفه مطاردة عنيفة بين الفينة والأخرى. كان يتنفس بصعوبة ولما وضع يده على قلبه شعر به يخفق كأنه طائر السلوى عندما يقع في الشباك. وراح يخاطب نفسه ويقول «أي ضنى أورثني هذا المخلوق». بينما تخامر رأسه نزعات عارمة طاغية. وكانت التعابير التي فاه بها في الواقع أبعد ما يمكن أن تكون عن الكياسة. ولكن ما العمل؟ لقد كان روسياً وعلاوة على ذلك خرج عن طوره. و لم يكن الأمر بعد ذلك كله هزلاً. وخطر بباله: لولا رئيس الشرطة ما بقيت لي عينان تنظران ما خلق الله من ضوء النهار ولتلاشى وجودي كفقاعة في غدير، وما تركت أثراً أو ذرية أو ملكاً أو اسماً شريفاً يرثه أحفادي (ويظهر أن بطلنا كان حريصاً جداً على ترك ذرية تخلفه).

أما سيليفان فقد سرح فكره وهو يسوق العربة، وأنشأ يقول «أي سيد سافل هذا! لم أر في حياتي سيداً مثله! كم كنت أتمنى لو بصقت في وجهه. إترك الرجل للجوع أفضل من أن تحرم حصانه الطعام الذي يليق به. الحصان بحاجة إلى شوفانه مثلما يحتاج الإنسان إلى طعامه والضرورة تقضي أن تقدم له ذلك دائماً».

وقد ظهر أن الجياد كانت تشاطر سيليفان رأيه الخاص في نوزدريف.

فلم يكن الكميت والمستشار وحدهما يعربان عن استيائهما وحسب، بل كان الأرقط أيضاً يتقمص روح الاشمئزاز. حقاً، إن الارقط لم يكن يجد في البيت علفاً غير أردأ أنواع الشوفان، ولم يكن يعلفه سيليفان دون أن ينعته بالسافل، لكن علفه على الأقل كان شوفاناً لا تبناً - كان مادة يستطيع أن يمضغها بشيء من اللذة. وهناك حقيقة أخرى أيضاً، فقد كانت تسنح له بعض الأحيان فرصة يمد فيها بوزه الطويل إلى مِذْوَدي زميليه (خاصة عندما يكون سيليفان غائباً عن الإسطبل) ويتذوق عليفهما. ولكن في بيت نوزدريف لم يكن هناك غير التبن! وهذا ليس من العدالة في شيء. وأحست الخيول الثلاثة باستياء شديد.

ولكن تأملات الساخطين انقطعت فجأة بشكل عنيف لم يكن في الحسبان. لقد أعادهم إلى الواقع اصطدامهم اصطداماً شديداً بعربة تجرها ستة خيول، بينما أنهالت على رؤوسهم صرخات سيدات داخل العربة وعاصفة في الشتائم والمسبات من سائقها. وصاح السائق قائلا «ما الذي جرى لك أيها المجنون اللعين! لقد صحت عليك بأعلى صوت! ابتعد يا غراب الشؤم، والزم يمينك هل أنت سكران؟» وأدرك سيليفان أنه كان السبب لأنه كان عديم الإكتراث، ولكن لأن الروسي لا يقبل الإعتراف بخطائه بحضور الأغراب، رد عليه بكبرياء «لماذا دخلت علينا؟ هل تركت عينيك خلفك في آخر حانة وقفت فيها؟» وبذلك بدأ يسحب العربة إلى الخلف بغية أن يخلصها من أطواق العربة الأخرى. ولكن ذلك لم يكن بالإمكان، لأن العربتين كانتا قد اشتبكتا اشتباكاً لا رجاء فيه. وراح الأرقط آنذاك يتشمم باستغراب معارفه الجدد الذين تسمروا على جانبيه. بينما راحت سيدتان كانتا داخل العربة تتطلعان إلى منظر الاصطدام وعلى وجهيهما سيماء الرعب والفزع. كانت إحداهما عجوزاً والأخرى فتاة في نحو السادسة عشرة. وسقطت خصلة من شعر الفتاة الذهبي برقة وأناقة عن رأسها

الصغير وانحدرت على الوجه البيضاوي الجميل. كان وجهها كالبيضة لا في الإنسجام وحسب، بل في لونها الأبيض الشفاف الذي تراه ربّة البيت حين تمسك بيديها بيضة وضعت حديثاً وتضعها على عينها لترى أشعة الشمس وهي تتخلل قشرتها. وكانت المسحة نفسها تطغى على أذنيها اللتين كانتا توهجان تحت نور الشمس. باختصار، وبما ترقرق في عينيها الواسعتين الآسرتين من دموع بدت صورة فاتنة جذابة جداً، حتى أن بطلنا القى عليها نظرة أكثر من عابرة قبل أن ينتبه إلى الجلبة التي كانت قائمة بين الجياد والسائقين. وصاح السائق الغريب «ارجع إلى الخلف يا غراب البين!» فشد سيليفان الأعنة، وحذا الآخر حذوه، فتقهقرت الخيول قليلاً إلى الوراء ولكنها عادت لتشتبك مرة ثانية. وقد بدا في الواقع أن الأرقط كان مسروراً جداً بأصدقائه الجدد حتى أنه رفض أن يتحرك من مكانه الذي رماه فيه حظ خفي مشكور. وألقى بخطمه تحبباً على عنق أحد معارفه الجدد، وبدأ كأنه يهمس شيئاً في أذن ذلك الصديق - شيئاً على ما يبدو كان كله سخفاً وهراء لأن المهموس في أذنه راح يحرك أذنيه استخفافاً.

وعلى حين غرة تجمع فلاحون من قرية مجاورة للحادث واندمجوا في الورطة القائمة. وبما أن منظراً كهذا المنظر عند الفلاحين الروس ممتع كصحيفة أخبارية أو كاجتماع في ناد عند الألمان فسرعان ما أصبحت العربتان مركزاً لتجمع جمهور غفير، وغدت القرية خلواً إلا من النساء والأطفال. وانفصل العمودان المتشابكان آخر الأمر، وكانت بضع صفعات على أنف الأرقط كافية لتجعله يتراجع إلى الخلف. وبعد ذلك رتبت فرق الخيول وفصلت بعضها عن بعض. ومع ذلك كله فقد رفضت الفرقة الغريبة أن تحرك ساقاً من موضعها رفضاً باتاً، وقد يكون ذلك لمجرد العناد، أو قد يكون أسفاً على فراق الأصدقاء الجدد. فساطها سائقها ولكنها ظلت واقفة كما لو كانت مسمرة في الأرض.

وبعد لأيّ، ارتفعت جهود الفلاحين المشتركة إلى درجة من الحماس لم يسبق لها مثيل. فبدأوا يصيحون جوفات، بأوامر كالتالية «اسحب يا اندروشكا رأس الحصان الأمامي إلى اليمين، بينما يركب العم متياي الحصان الأوسط. انهض يا عم متياي». وعلى ذلك نهض العم متياي وهو نحيل طويل أحمر اللحية وركب الحصان الأوسط وظهر في وضعه الجديد كأنه برج القرية أو دولاب الناعورة. وساط السائق الجياد مرة أخرى. وثبت أن العم متياي كان عديم الجدوى. وصاح الفلاحون ثانية «توقف، توقف». «اركب يا عم متياي الحصان الأمامي وليركب العم منياي الحصان الأوسط». «وأسرع العم متياي، وهو فلاح ذو كتفين عريضين ولحية سوداء كالفحم وبطن كالسماور الضخم الذي يخمر فيه شاي العسل للتجار المحليين أيام السوق - أسرع بامتطاء الجواد الأوسط، وكاد الأخير أن يهوي إلى الأرض تحت ثقله. وصرخ الفلاحون «سيسيرون الآن سيراً حسناً! اضربه حامياً! اضربه حامياً! أعط ذلك الحصان الأشقر ضربة سوط، ودعه يتلوى كالأفعى(١٩)» ومع هذا، فلم تتقدم الأمور بحال من الأحوال. عندئذ وقد تبين أن لا فائدة من السوط، لجأ القوم إلى إسلوب آخر. فامتطى العمّان متياي ومنياي الأشقر وجلس اندروشكا على ظهر الحصان الأمامي، وجدَّ القوم في العمل دون جدوى. بعد هذا كله فقد السائق الصبر، فصرف العمين في سبيلهما لأنه أدرك قبل فوات الأوان أن الخيول تلهث لهاثاً شديداً وكأنها قطعت شوطين دون استراحة. فأعطى الخيول برهة تستريح فيها. وما تم ذلك حتى تحركت بملء اختيارها. وكان تشيتشيكوف طوال ذلك الوقت يحدق في الفتاة المجهولة بانتباه شديد، حتى أنه جرب مرة أو مرتين أن يدخل معها في حديث، لكن محاولته ذهبت

---

(١٩) في الأصل "كما تتلوى الكوراموار" وهي حشرة كالبعوض طويلة الجسم نسبياً كثيرة التلوي. المترجم.

أدراج الرياح. وعند ذهاب السيدتين كان في الواقع كأنه في حلم ساهم البصر في وجود الفتاة الأنيس وتقاطيع وجهها الانيقة وقدّها النحيل وهي تختفي عن أنظاره. كان كأنه في حلم إذ عاد لا يرى أمامه سوى نفسه والطريق والعربة والخيول الثلاثة وسيليفان والحقول الخالية الخاوية. في كل أرجاء الحياة - من أبسط مراتب المجتمع وأقذرها، إلى أعلى المراتب وأوجهها - يقع الإنسان على ظاهرة تختلف اختلافاً كلياً عن كل ما عهده في حياته، وتظهر فيه أحاسيس تختلف اختلافاً كلياً عن كل احساس مر به حتى ذلك الحين. وفي كل مكان من هذا الوجود، من خلال خيوط البؤس التي نسجت منها حياتنا، قد يشع فجأة خيط لامع براق من الفرح والسرور. مثل ذلك مثل شارع قرية مسكينة بائسة أحنى عليها الدهر بكلكله، لا تمر به إلا عربة المزرعة البالية، تظهر فيه فجأة عربة فخمة لماعة الدهان أنيقة الخيول براقة الزجاج، يقف الفلاحون لها فاغري الأفواه ساهمي الأبصار وينسون أن يعيدوا قبعاتهم إلى رؤوسهم إلا بعد أن يتوارى الموكب عن أنظارهم بزمن طويل. وهكذا، فقد كان ظهور الفتاة ذات الشعر الذهبي في قصتنا على غير انتظار، كما كان اختفاؤها على غير انتظار أيضاً. ولو لم يكن صاحب الشأن تشيتشيكوف، وكان فتى ذا عشرين ربيعاً - فارساً أو تلميذاً أو أي رجل آخر في ربيع الحياة - فأي فكر كان سيدور في ذهنه وينبثق من نفسه وينطبق في أعماقه؟ ولأي مدى من الزمن كان سيقف ذاهلاً محدقاً في الآفاق، ناسياً دواعي رحلته وما عليه من واجبات واحتمال ما يسببه التباطؤ من خسران، ناسياً نفسه ومركزه والعالم وكل ما فيه؟

أما في حالتنا هذه فقد كان البطل متوسط العمر ذا مزاج صلب على قدر من الحرص شديد. أجل، فقد أمعن النظر في الأمر إمعاناً شديداً ولكن بشكل أكثر رزانة مما يفعل الشباب. فلم تكن تأملاته بالطائشة

ولا بالرعناء. وفتح علبة السعوط ونشق منها وانشأ يقول لنفسه «كانت آنسة جميلة، إنما الأهم من ذلك، هل هي آنسة لطيفة أيضاً؟ هناك شيء واحد ظاهر من حسناتها، إذ يبدو عليها أنها قد تركت المدرسة حديثاً ولم يكن لها من الوقت ما تصبح به إمرأة بالمعنى السيئ. إنها الآن كالطفل. كل شيء فيها ساذج بسيط. فهي تقول ما تفكر فيه وتضحك إذا أحست إنها بحاجة إلى الضحك. آنسة كهذه يستطيع المرء أن يصوغها في القالب الذي يشاء، قد تغدو أعجوبة أو تغدو تافهة مبتذلة لا قيمة لها. وأُرجّح الحالة الأخيرة إن كان لها أم ولوعة بها ورهط من العمّات والخالات ومن لفّ لفهنّ - نسوة في مدى سنة واحدة يملأن نفسها بأفكار النساء وخيالهن حتى لا يعود والدها يعرفها. وسوف يضفن إلى ذلك كله أصول التصنع وقواعد الكبرياء. وستبدأ بمراعاة القوانين المتبعة، وتجهد فكرها في كيف تتكلم وكم ولمن ومتى وما أشبه ذلك. وستجدها في كل لحظة متهيبة مبلبلة خشية أن تكثر من الحديث. وأخيراً تتطور فتصبح مراوغة حاذقة طوال حياتها وتنتهي إلى ما لا يعلمه غير الشيطان!» وصمت هنيهة ثم استمر يقول «إلا أنني مع هذا كله أود أن أعرف من هي، ومن أبوها وفيما إذا كان ملاّكاً غنياً ذا مركز مرموق أو مجرد وجيه نال ثروة من خدمة الحكومة. وهل سيمنحها عند زواجها مهراً، ولنفرض مائتي ألف روبل؟ إنها ستكون صيداً ثميناً في الواقع. وسيكون في إمكانها عندئذ أن تسعد حقاً أي رجل أصيل». وقد كانت فكرة مائتي ألف روبل في الحقيقة جذابة جداً، وبدأت ترقص في مخيلته، وشعر بوخزة من اللوم في قرارة نفسه لأنه لم يسأل السائق أثناء الجلبة عن المسافرات. ولكن رؤية بيت سوباكيفيتش الريفي شتتت أفكاره واضطرته إلى العودة إلى موضوع تفكيره المستديم.

كانت قرية سوباكيفيتش ذات اتساع لا بأس به وقد قامت على جانبيها مساحات من أشجار الصنوبر والبتولا الخضراء. كانت البناية

الخشبية نفسها ذات جدران رمادية دكناء وسقف هرمي أحمر لإنها كانت من ذلك النوع من المساكن التي تبنيها روسيا عادة لرجال الجيش المتوطنين وللألمان المستعمرين. وكانت تبدو هناك ظاهرة جليّة واضحة وهي أن ذوق المهندس كان يختلف اختلافاً واضحاً عن ذوق صاحب الملك. إذ كان الأول متحذلقاً في الانسجام، راغباً فيه. بينما كان الأخير يطلب راحته فقط. وعلى ذلك فقد أغلق (أي صاحب الملك) كل النوافذ التي كانت في أحد جانبي العمارة، وعمل بدلاً منها كوة صغيرة قصد منها بلا شك إنارة مخزن كان سيكون مظلماً لولاها. وبالمثل فقد فشلت جهود المهندس القوية في جعل قمة الهرم فوق مركز البناية لأن المالك أزال أحد أعمدتها الأربعة الاساسية. من الجليّ أن المتانة كانت موضع الاهتمام في كل شيء. فالساحة كانت محاطة بسور خشبي متين عال جداً، وكلا الاسطبلين ومرأب العربات والمطابخ كانت تقوم على دعائم تكفل بقاءها قروناً طويلة - وحتى أكواخ الفلاحين الخشبية كانت مدهشة في متانتها، فلم يكن فيها جدار واحد أملس، وليس عليها أي رسم محفور أو أية زخرفة أخرى. كان كل شيء على ما يرام. حتى أن بئر المنزل كان بابها من خشب البلوط الذي نعرف أنه يستعمل عادة للسفن والمطاحن. وباختصار، فحيثما وقعت عينا تشيتشيكوف كانتا تريان كل شيء خلواً من الرثاثة مرتباً بمهارة وعناية. وإذ اقترب من سلّم المدخل وقع نظره على وجهين يحدقان من نافذة. كان أحدهما وجه امرأة بقبعة وتقاطيع كالخيارة استطالةً وضيقاً. أما الآخر فكان وجه رجل ذي تقاطيع عريضة جداً قصيرة جداً كالقرعة المولدافية (المسماة غورليانكى) التي تصنع منها البالالايكا - وهي نوع من الآلات الموسيقية الخفيفة ذات وترين تكون مصدراً للسرور والكبرياء لفتى ممراح في العشرين من عمره حين يجلس غامزاً مبتسماً لفتيات بيض الأعناق بيض الصدور وقد تجمعن حوله

يتسمعن إلى رنين صوته الشجيّ. وما ألقى هذه النظرة الفاحصة حتى انسحب الوجهان وظهر على سلّم المدخل مأمور يرتدي سترة رمادية بياقة صلبة زرقاء أدخل تشيتشيكوف إلى القاعة حيث قابله سيد البيت نفسه وسار به إلى داخل البناية.

نظرة خفية على سوباكيفيتش تبين منها بطلنا أن مضيفه يشبه دباً متوسط الحجم شبهاً شديداً. واستكمالاً للمشابهة، كان معطف سوباكيفيتش الطويل وسراويله المعبعبة بلون إهاب الدب بالضبط، بينما تعمل ساقاه حركة تقاطع إذا ما دلف ماشياً على الأرض. وله بالإضافة إلى ذلك عادة لا تتغير أبداً وهي أن يدوس على قدم مرافقه. أما وجهه فكانت عليه تلك المسحة من الحمية والحرارة التي تجدها على البياتاك[٢٠]. أشخاص من هذا القبيل – أشخاص لم تخصص الطبيعة قسماً كافياً من فكرها لصياغتهم، و لم تستعمل في هندسة أشكالهم آلات دقيقة كالمثقب والمبرد وما إلى ذلك – ليسوا بالقليل الوجود. أشخاص كهؤلاء تنحتهم الطبيعة نحتاً سريعاً لا صقل فيه. ضربة بالبلطة وإذا هناك أنف، وضربة أخرى بالمطرقة وإذا هناك شفتان، وغرزتان بالمثقب وإذا هناك عينان. وأخيراً تصدر هذا الإنسان للعالم قائلة دون أن تكمل انجازه: «ليكن!» كان سوباكيفيتش على هذا القدر من الهلهلة، ذا شكل خُلط ببعضه خلطاً. على أن المثال السابق ينطبق على نصفه العلوي أكثر مما ينطبق على نصفه السفلي. وكنتيجة طبيعية لهذا التكوين، كان نادراً ما يدير رأسه لينظر إلى من يحادثه، بل كان في الغالب يصوب عينيه إلى زاوية الموقد، أو إلى الباب مثلاً. صوب تشيتشيكوف نظرة أخرى إلى زميله عندما كان الضيف والمضيف يجتازان غرفة الطعام، وقال لنفسه «إنه الدب بعينه ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير الدب». و لم يكن في الواقع

(٢٠) عملة نحاسية قيمتها خمسة كوبيكات.

مناص من هذه المقارنة الغريبة. ومن عجيب الصدف أن الاسم الأول لسوباكيفيتش كان ميخائيل سيميونوفيتش[٢١]. وقد أخذ تشيتشيكوف الحذر الشديد من عادته في الدوس على أقدام الآخرين. ولهذا أخذ يحسب موضع قدمه ويترك مضيفه يمشي أمامه دائماً. وقد تبين في الواقع أن سوباكيفيتش نفسه كان شاعراً بهذه المثلبة، إذ كان يقول بين الفترة والأخرى «أرجو أن لا أكون آلمتك؟» فيجيبه تشيتشيكوف مع كلمة شكر بأنه لم يصبه أذى بعد.

وصلا قاعة الاستقبال بعد لأيّ، فأشار سوباكيفيتش إلى كرسي كبير دعا ضيفه إلى الجلوس عليه. وأخذ تشيتشيكوف يحدق باهتمام في الجدران والصور. كانت كلها رسوماً لشباب أصحاء وهم لجنرالات يونانيين أمثال مافروجورداتو (مرتدياً بدلة رسمية وسراويل حمراء) وميائولس وكنارس[٢٢]. وآخرين. وقد رسم كل هؤلاء الأبطال بجبروت في الهيكل وغزارة في الشوارب تجعل الناظر إليهم يرتعش خوفاً. وقد حشرت بين هذه الصور – لسبب غير معروف وتنظيم غير معروف – صورتان. أولاهما صورة الأمير باجراتيون[٢٣]، وهو طويل نحيف رسمت تحته مجموعة من الأعلام الصغيرة والمدافع، وحشر كل ذلك ضمن إطار الصورة الضيق. وثانيتهما صورة البطلة اليونانية بوبيلينا التي بدت بساقين ضخمتين جداً – أضخم من أجسام جميع متأنقي الصالونات في يومنا هذا. كان جليّاً أن رب البيت ذا الصحة والعافية لم يكن يحب أن يزين غرفاته إلا برجال في قوته وضخامته.

---

(٢١) الروس يسمون الدب العم ميخائيل. المترجم.

(٢٢) مافروجورداتو – رجل السياسة اليوناني الذي وضع دستور سنة ١٨٢٢. أما ميائولس وكنارس فهما قائدان من قادة الثورة اليونانية ضد الأتراك. الناشر.

(٢٣) الأمير باجراتيون – أحد الأبطال الروس في معركة بورودينو ضد نابليون، واستشهد في المعركة في عام ١٨١٢.

وأخيراً، كان قرب الشباك قفص معلق حذاء بوبيلينا، الكتف بالكتف، وكان يطل منه على فترات شحرور أبيض الترقيط. كان ككل شيء في الغرفة، شديد الشبه بسوباكيفيتش. وعندما كان الضيف ورب البيت قد بدآ الحديث مدة دقيقة أو دقيقتين دخلت ربة البيت، وهي سيدة طويلة بقبعة مزينة بشرائط بيتية التلوين والصنع. دخلت بتروٍّ ورفعت رأساً مستقيماً كجذع النخيل.

وقال سوباكيفيتش «هذه زوجتي فيودوليا ايفانوفنا».

فاقترب تشيتشيكوف منها وصافحها. ولما رفعت يدها إلى مستوى شفتيه أدرك أنها قد شطفتهما ساعتئذ بزيت الخيار المخلل.

وأضاف سوباكيفيتش «عزيزتي، اسمحي لي أن أقدم لك بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف. لقد كان لنا شرف التعرف عليه عند حاكم الولاية وعند مدير البريد».

وعلى ذلك طلبت فيودوليا ايفانوفنا من ضيفها أن يجلس، وأرفقت هذه الدعوة بانحناءة من النوع الذي تفعله الممثلات اللواتي يلعبن أدوار الملكات. وبالتالي أخذت مجلسها على الصوفا وسحبت عليها شالها المصنوع من صوف المارينو[٢٤] ومكثت كذلك دون أن تحرك ساكناً. أما تشيتشيكوف فرفع بصره ورأى للمرة الثانية كنارس بفخذيه الغليظين وشاربيه اللذين لا حد لهما وبوبيلينا والشحرور الأسود. وخيّم الصمت على الجميع خمس دقائق كاملة لم يكن يسمع فيها غير صوت منقار الطير وهو يقرع أرض القفص الخشبية إذ يحاول أن يلتقط حب القمح منها. وفي هذه الآونة تفحص تشيتشيكوف الغرفة للمرة الثالثة، فرأى أن كل شيء فيها ضخم أخرق في أعلى درجات الضخامة والخرق، وأن كل شيء منسجم مع رب البيت انسجاماً غريباً. كان في

---

(٢٤) الماعز الأسباني. المترجم.

زاوية من زوايا الغرفة مثلا، مكتب من خشب البندق بارز البطن واقف على أربع أرجل ضخمة - صورة ناطقة عن الدب. وكانت الأخونة والكراسي على القدر نفسه من النشوز والغلظ. كانت كل أداة في الغرفة كأنها تصيح قائلة «أنا أيضاً سوباكيفيتش!» أو «إنني نسخة طبق الأصل عن سوباكيفيتش!».

ولما رأى تشيتشيكوف أن أحداً لم يفكر في البدء بالحديث قال «لقد مر ذكرك ذات يوم حينما كنت أزور رئيس المجلس المحلي. كان ذلك يوم الخميس الماضي. وكانت ليلة بهيجة حقاً».

فأجاب سوباكيفيتش «نعم. فلم أكن هناك في تلك المناسبة».

«كم هو لطيف هذا الرجل!».

فتساءل سوباكيفيتش وهو ينظر إلى زاوية الموقد «من ذاك؟».

«رئيس المجلس المحلي».

«وهل هذا هو رأيك فيه؟ أن هذا هو مظهره فقط، أما في الحقيقة، فعلى الرغم من كونه ماسونياً إلا أن العالم لم يشهد له في الغباء مثيلاً».

فأجفل تشيتشيكوف قليلاً لهذا الانتقاد اللاّذع القتالي، ولكنه تمالك نفسه ثانية واستمر يقول:

«بالطبع لكل رجل نقاط ضعف. إلا أن حاكم الولاية إنسان ممتاز».

«حاكم الولاية ممتاز؟».

«نعم. أليس هذا رأيك فيه أيضاً؟».

«لا، إنه أكبر محتال على وجه البسيطة».

«حاكم الولاية؟ محتال؟» وغدا تشيتشيكوف في حيرة من أمره. إذ كيف يمكن أن يعتبر الموظف المذكور في عداد اللصوص. وأكمل يقول « لم أكن أتصور ذلك مطلقاً. واسمح لي أن أقول بأن سلوكه لا

يكاد يحتمل رأيك فيه. إنه يبدو في الواقع لطيفاً جداً». وذكر برهاناً على ذلك المحفظات التي حاكها حاكم الولاية وأطنب في الحديث عن لطافة ملامحه.

فقال سوباكيفيتش «أن له وجه اللص. ولو أعطيته سكيناً وأفلته لحز عنقك بكوبيك. والشيء نفسه يذكر عن مساعده. إنهما يأجوج ومأجوج».

فقال تشيتشيكوف في نفسه «يلوح أنه على غير وفاق معهما. من الأفضل أن انتقل إلى الحديث عن رئيس الشرطة، فقد يكون معه على وئام». وأضاف بصوت عال بناء على حدسه هذا، يقول «أما من ناحيتي الخاصة فإني أفضل رئيس الشرطة. يا لطبيعته الصريحة الفصيحة! ويا لعنصر البساطة الذي يبدو في ملامحه!».

فأجاب سوباكيفيتش «أنه وضيع في صميمه. يبيعك ويغشك ويأكل على مائدتك. نعم، أعرفهم كلهم وأعرف أن كل فرد منهم لص مختلس. والمدينة وكر لسفلة مشغولين بسلب بعضهم بعضاً. وليس فيهم رجل إلا وهو مستعد لبيع المسيح. لكن، رويدك قليلاً، هناك إنسان محترم واحد - هو المدعي العام. ومع ذلك، فحتى هو، إذا أردنا أن نقول الحقيقة، لا يفضل الخنزير إلا قليلاً».

بعد هذا الإسهاب في التقريظ والكيل في المديح، لم ير تشيتشيكوف فائدة من تكملة قائمة الموظفين، لا سيما وقد رأى بأم عينه أن سوباكيفيتش لم يذكر حتى صديقه بالخير.

وتدخلت فيودوليا ايفانوفنا قائلة لزوجها «لنذهب إلى الغداء يا عزيزي».

وقال سوباكيفيتش «أرجوك، تفضل».

وتقدّم الجمع أول الأمر إلى مائدة وضعت عليها الفودكا وبعض

المشهيات. واحتسى الضيف والمضيف كأسيّ الفودكا وتناولا من أطايب المشهيات المختلفة التي توضع عادة لفتح الشهية في المدينة والقرية وفي جميع أنحاء الامبراطورية الروسية الواسعة. ومن ثم دلفا إلى غرفة الطعام تحت قيادة المضيفة التي كانت تبحر أمامهما كأنها أوزة تسبح في عرض البحيرة. كانت مائدة الطعام الصغيرة معدّة لأربعة أشخاص. وكانت تجلس في الكرسي الرابع أنثى في الثلاثين من عمرها، بدون قلنسوة وعلى كتفيها لفاع مبرقش وكان من الصعب التكهن بشخصيتها ومعرفة ما إذا كانت فتاة أو امرأة متزوجة أو قريبة أو خادمة أو أي طفيلية أخرى. أن بعض الناس يعيشون في هذا الوجود لا كشخصيات مستقلة قائمة بذاتها بل كالبقع واللطخ على شخصيات الآخرين. فتجدهم دائماً في الوضع نفسه، جالسين في المحل نفسه، رافعين رؤوسهم بزاوية معينة لا تتغير، حتى ليكاد المرء يحسبهم جزءاً من الأثاث، ويتصور أنهم منذ أن خلقوا لم ينبسوا ببنت شفة، بينما هم في حجرة الوصيفات أو في حجرة المؤونة صنف آخر تماماً.

والتهم سوباكيفيتش حصته من «التشي» وقال «أن حساء الكرنب اليوم فاخر يا عزيزتي» ووضع في طبقة كمية كبيرة من «النيانيا» - ويتكون من معدة الماعز المحشوة بالثريد والمخ والتوابل، وأضاف قائلاً «أي نيانيا هذه! لن تستطيع الحصول على مثلها في المدينة حيث لا يعلم ما يقدم للمرء إلا الشيطان!».

فقال تشيتشيكوف «ومع ذلك فإن مائدة حاكم الولاية لا بأس بها».

فغمغم سوباكيفيتش قائلاً «نعم. لكن هل تعلم مم يصنع طعامه؟ أنك لو علمت لما مسسته».

«لست بالطبع في وضع يمكنني من أن أقول كيف يحضر، ولكن شرائح الخنزير والسمك المسلوق على الأقل كانت عظيمة».

«ايه! لك أن تظن ذلك. إلا أنني أعرف الطريقة التي تشتري بها هذه الأشياء من السوق. يشتريها وغد يسمى طباخاً علّمه رجل فرنسي أن يسلخ السنور ويقدمه على أنه أرنب».

فتدخلت السيدة قائلة «أوف! ما هذه الفظاعة التي تقول؟».

«أجل يا عزيزتي، هكذا تجري الأمور، وليس الخطأ خطأي إن كانت كذلك. وزيادة على ذلك، فكل ما ترميه خادمتنا اكولكا، كل ما تقذفه (وأرجو العفو لذكر ذلك) في سطل الأوساخ، يستعمله هؤلاء الناس في صنع الحساء».

فاعترضت شريكة حياته قائلة إنك على المائدة دائماً تبدأ بهذا الحديث».

فقال سوباكيفيتش «بالطبع، يا روحي، فلو كنت أنا الذي صنعت هذا. ولكنني أقول لك بصراحة - إنني لن آكل هذه القذارة. فمهما وضعت من السكر على الضفدع فلن أقدر أن أمر به على شفتي. ولن ألتهم محاراً لأني أعرف ما الذي يشبهه المحار. لكن... تناول بعض لحم الخروف أيها الصديق تشيتشيكوف. إنها كتف الخروف، وهي تختلف جداً عن اللحم الذي يطبخ في مطابخ النبلاء - لحم كان يتأرجح في الأسواق أربعة أيام أو يزيد. كل هذه الأنواع من الطبانخ هي من اختراع الأطباء الفرنسيين والألمان. كم كنت أتمنى لو أشنقهم كلهم جزاء عملهم هذا. فهم لا ينفكون يصفون الأغذية والعلاج بالصيام كان ما يناسب أعضاءهم الالمانية المترهلة يناسب المعدة الروسية. لا، لا، أن هذه الوسائل لا خير فيها...» وهنا هزّ رأسه علامة الاستياء. «وأشخاص على هذه الشاكلة يتكلمون عن المدينة والتقدم. كما لو كان أمر كهذا من المدنية في شيء! أوف! وربما كان صيحة التعجب الأخيرة التي لفظتها أقوى من ذلك لو لم أكن جالساً إلى المائدة. أما من

ناحيتي فلن أذوق شيئاً كهذا أبداً. فعندما أريد أن آكل لحم الخنزير في طعامي يجب أن يقدم لي الخنزير كله، وأن كان لحم خروف فالخروف كله، أو لحم الأوز فالطير كله. طبقان أفضل من ألف إذا استطاع المرء أن يأكل منهما قدر ما يشتهي».

وراح يضع النظرية موضع التطبيق بأن أخذ نصف كتف الخروف ووضعه في طبقه وراح يلتهمه حتى آخر قطعة من الغضروف والعظم.

أما تشيتشيكوف فأخذ ينظر إليه ويقول في نفسه «قسماً إن للرجل لطاقة جبارة!».

وقال سوباكيفيتش وهو يمسح يديه بالفوطة «طبعاً، إنني لن أرضى أن تكون حياتي كحياة ذلك الشخص المدعو بلوشكين الذي يمتلك ثمانمائة نفس بينما يأكل أسوأ مما يأكل الراعي عندي».

فتساءل تشيتشيكوف «ومن بلوشكين هذا؟».

«إنسان بخيل، بخيل لدرجة لا تستطيع أن تتصورها. حتى المساجين في غياهب السجون يحيون حياة أفضل من حياته. إنه يعيش هو وخدمه يتضورون جوعاً».

فصاح تشيتشيكوف باهتمام كبير «حقيقة؟ هل تعني إذن أن الموت يفقده الكثير من فلاحيه؟».

«بالتأكيد، فلا ينفكون يموتون كالذباب».

«وعلى أي بعد يقطن من هنا؟».

«حوالي خمسة فرستات».

فقال تشيتشيكوف متعجباً وهو يحس قلبه يخفق فرحاً «خمسة فرستات فقط؟ وهل على المرء عندما يترك باب بيتك أن يتجه إلى اليمين أو إلى الشمال؟».

فقال سوباكيفيتش «إنني آسف إذ أدلك على بيت إنسان خسيس كهذا الإنسان. من الأفضل جداً للمرء أن يذهب إلى جهنم من أن يذهب إلى بلوشكين».

فأجاب تشيتشيكوف «تماماً كذلك. إنما السبب الوحيد الذي سألتك من أجله عنه هو أنني أحب أن أتعرف على أي نوع وعلى كل نوع في هذه النواحي».

وتبع كتف الخروف فطائر كل واحدة منها أكبر من طبق، وديك رومي محشو ببيض وأرز ومعاليق وحجمه حجم العجل الصغير. وكل هذا أتخم معدة تشيتشيكوف أشد الإتخام حتى لما قام بعد انتهاء الغداء شعر وكأن في بطنه أربعين رطلاً من الطعام. وفي غرفة الاستقبال ينتظره صحن مربى صغير من الفواكه المجهولة فلا هي بالإجاص ولا بالخوخ ولا بأي فاكهة أخرى وكلها لم يمسسها ضيف ولا ربّ البيت، أما ربّته فخرجت لتضع المربى في صحون صغيرة أخرى. واغتنم تشيتشيكوف فرصة غيابها فالتفت إلى سوباكيفيتش (وكان هذا منبطحاً على كرسي ذي متكأ، ولم يعد في استطاعته بعد غدائه الثقيل إلا أن يتجشأ ويزفر أنفاسه، وكان يرسم إشارة الصليب ويضع يده على فمه كلم فعل ذلك) وأسر إليه رغبته في التحدث معه حديثاً خاصاً قصيراً في شأن من الشؤون. وفي تلك اللحظة عادت ربة البيت.

وقالت «إليكما بعض الحلويات الأخرى، تفضلا وتناولا شيئا من الفجل المنقوع بالعسل».

فأجاب سوباكيفيتش «فيما بعد، فيما بعد. لو تذهبين إلى غرفتك، إذ أود أنا وبافيل ايفانوفيتش أن نخلع معطفينا ونغفو قليلاً».

وأبدت السيدة عندئذ استعدادها لإرسال فراش ووسائد من الريش، ولكن زوجها قال إنه يفضل النوم على كرسي ذي متكأ، وبهذا غادرت

الغرفة. وما كادت تفعل ذلك حتى أحنى سوباكيفيتش رأسه استعداداً للاستماع إلى مهمة ضيفه.

وابتدأ بطلنا الحديث بأسلوب مفكك، بادئاً أول الأمر بالإشادة بالامبراطورية الروسية ومدى ضخامتها قائلاً بأن الامبراطورية الرومانية القديمة كانت أقل منها اتساعاً. بينما كان سوباكيفيتش يجلس مطاطئ الرأس وكله آذان صاغية. وبعد ذلك تطرق تشيتشيكوف إلى القول بأن من قوانين الامبراطورية الروسية (التي لا فخر فيها لأحد) أن الفلاحين الذين فارقوا الحياة تبقى أسماؤهم مسجلة حتى وقت الاحصاء الجديد في اللوائح الجديدة كما لو كانوا أحياء، وهذا يضمن إراحة المكاتب الحكومية من هذه التفاهات فهي تعقّد ميكانيكية الدولة التي فيها الكفاية من التعقيد. وقال تشيتشيكوف بأن هذا القانون مهما حاولنا أن نعزو العدالة له، فإنه مجحف بالملاّكين فعلاً لأنه يضطرهم إلى دفع الضريبة عن الأنفس التي لا وجود لها كما يدفعونها عن الأنفس الحية الأخرى. وبناء على ذلك (وهذا هو بيت القصيد)، فإنه (أي تشيتشيكوف) نظراً للاحترام الشخصي الذي يكنه لسوباكيفيتش على استعداد لأن يخفف عنه العبء المشار إليه. ومن الواجب علينا أن نذكر أن تشيتشيكوف في حديثه هذا كان يتكلم بمنتهى اللباقة وفي غاية الحذر. فلم يكن يستعمل كلمة الأنفس الميتة بل كان يقول الأنفس التي لا وجود لها.

كان سوباكيفيتش أثناء ذلك حاني الرأس إلى الأمام منصتاً كل الإنصات، إلا أن المرء لا يستطيع أن يلمح في وجهه أثراً لاستجابة أو انفعال. كان جسمه الساكن يبدو خالياً من الروح، أو إذا كانت له روح فيبدو أنه كان يحتفظ بها في محل آخر لا حيث يجب أن تكون، بل كانت مدفونة تحت الجبال أو مغلفة في بروج مشيدة لن تحدث حركتها في الأعماق أي رجة على الأديم.

وقال تشيتشيكوف بصوت لا يخلو من رعشة التهيب للاجابة المنتظرة «والآن؟».

فقال سوباكيفيتش بكل بساطة ودون أن يبدو في صوته أي أثر للدهشة، وكأنه يتحدث حديثاً عادياً عن الحنطة، «إذن أنت تجري وراء الأنفس الميتة؟».

فأجاب تشيتشيكوف «نعم» ثم قال بصوت أكثر نعومة «الأنفس التي لا وجود لها».

فقال سوباكيفيتش «إنها موجودة، و لم لا؟».

«اذن ستكون مسروراً طبعاً بالخلاص مما قد يكون لديك منها؟».

«نعم، فلا مانع لدي أن أبيعها». ورفع رأسه قليلاً، إذ خطر بباله أن الشاري لا بد أن تكون له مصلحة من ورائها بكل تأكيد.

فقال تشيتشيكوف في نفسه «يا للشيطان! أنه يبيعها كأية بضاعة عادية حتى قبل أن يكون لي مجال أتكلم فيه كلمة واحدة» وأضاف بصوت عال «وكم سيكون الثمن؟ فهذه الأشياء ليست مما يعتد بها».

فقال سوباكيفيتش «لن أطلب غالياً، هل يناسبك مائة روبل للرأس؟».

«ماذا؟ مائة روبل للرأس؟» وحملق تشيتشيكوف في مضيفه فاتحاً فمه مستريباً فيما إذا كان صحيحاً ما سمع أو أن لسان سوباكيفيتش البطئ الحركة قد استعاض سهواً كلمة بأخرى.

ولكن سوباكيفيتش بادره بالقول «نعم، هل هذا كثير؟» ثم أضاف «ما هو سعرك؟».

«سعري؟ أظن أننا لا نتفاهم الآن، إذ لا شك أنك نسيت ماهية البضاعة. إنني ويدي على قلبي أقول بأن ثمانين كوبيكاً لكل نفس ستكون سعراً مناسباً، جداً».

«ماذا؟ ثمانون كوبيكاً؟».

في رأيي أن عرضاً أعلى من هذا سيكون مستحيلاً».

«ولكنني لست بائع أحذية».

«لا، ولكنك نفسك توافق على أن هذه الأنفس ليست مخلوقات حية».

«أظن أنك تنتظر أن تجد مجنوناً مستعداً لبيعك أنفساً مسجلة في لوائح الإحصاء، كل نفس ثمانين كوبيكاً؟».

«أرجو عفوك. ولكن لماذا تجعل من تسجيلها في لوائح الاحصاء ميزة ترفع من سعرها؟ فالأنفس نفسها قد صعدت إلى بارئها و لم تخلف وراءها غير أسمائها فقط. ولكي لا أجعل للجدل المزعج مكاناً فإني أدفع روبلاً ونصف الروبل لا أكثر».

«يجب أن تخجل من ذكر سعر كهذا. فما دمت تتعامل في هذه البضائع أذكر لي سعراً معقولاً».

«لا أستطيع يا ميخائيل سيميونوفيتش. صدقني إنني لا أستطيع. وما لا يستطيع المرء أن يفعله فليس هو بفاعله». واستمر الحديث بينهما إلى أن زاد تشيتشيكوف نصف روبل أخرى للرأس.

وقال سوباكيفيتش «ولكن لماذا تحرص كل هذا الحرص على نقودك؟ فلست أطلب في الحقيقة منك شيئاً كثيراً. قد يخدعك سافل غيري بأن يبيعك أنفسا قديمة بالية بدل الطيب الاصيل منها، بينما أنا على استعداد لأعطائك أحسن ما لدي. أنظر مثلاً إلى صانع العجلات ميخيف. لم يوجد مثله إنسان في تركيب لوالب العربات. و لم يكن عمل يديه كما هو الحال عندكم في موسكو – أي ما يصلح لساعة فقط، لا فقد كان يعمل كل شيء بنفسه، حتى الطلاء».

وفتح تشيتشيكوف فمه ليذكر بأن ميخيف المذكور، مع كل هذا، قد فارق الحياة منذ أمد طويل، إلا أن طلاقة لسان سوباكيفيتش كانت شديدة في اندفاعها بحيث لم تكن تسمح بالمقاطعة.

واستمر ربّ البيت يقول «وانظر أيضاً إلى بروبكا ستيبان النجار. إنني أراهن برأسي أنك لن تجد عاملاً مثله أينما فتشت. أي رجل قوي كان! لو دخل الجندية لا يعلم إلا الله ماذا كان مصيره فيها. كان طوله يزيد على ثلاثة ارشينات(٢٥)».

وحاول تشيتشيكوف أن يذكره بأن بروبكا ميت ولكن لسان سوباكيفيتش كان مندفعاً في تيار من الثرثرة لم تكن له من حيلة أمامها إلا أن يستمع.

«وميلوشكين البناء! كان يستطيع أن يبني موقداً في أي بيت شئت! وماكسيم تيلياتنيكوف الحذّاء! يصنع أحذية ونعم الأحذية مع أنه لا يذوق الخمرة خلافاً لعادة الحذّائين. ثم إريمي سوركوبليخين، أيضاً! كان أحسن المجموعة كلها، وكان يشتغل في موسكو بتجارته الخاصة حيث كان يدفع خمسمائة روبل ضريبة. أجل فهناك تشكيلة من العبيد لك! تشكيلة تختلف اختلافاً كبيراً عما سيبيعه لك بلوشكين!».

وقد ذهل تشيتشيكوف لهذا الطوفان العارم من الثرثرة التي بدت بلا نهاية، فقاطعه بسرعة يقول «لكن إسمح لي، إسمح لي أن أتساءل عما يحدوك إلى تعداد هذه المواهب في جماعة موتى. وما داموا كلهم موتى فلا معنى لهذا التعداد. والمثل يقول – لا يصلح الجسد الميت إلا لدعم السياج».

فأجاب سوباكيفيتش «بالطبع هم ميتون». وكأن هذه الفكرة لم

---

(٢٥) ارشين – ٧١ سنتمتراً تقريباً.

تخطر بباله إلا تلك اللحظة، ولكنها أذكت من تفكيره في ناحية أخرى فقال «لكن قل لي الآن فما هي الفائدة حتى الفلاحين الباقين أحياء وكأنهم ذباب لا بشر».

فقال تشيتشيكوف «أجل ولكن هم أحياء أما الأنفس الميتة فإنها خيال لا غير».

«لكن لا، لا يمكن أن تكون خيالاً. فلن تجد حيثما ذهبت عاملاً قديراً مثل ميخيف. وكان عملاقاً وقوته قوة الحصان في ساعديه. وأين وجدت خيالاً مثله». وبهذه الكلمات التفت سوباكيفيتش تعزيزاً لكلامه إلى صورة باجراتيون وكولوكوتروني، كما يحدث عادة بين فريقين في حميّة الجدال حين يلجأ أحدهما إلى الاستشهاد بشخص غريب ليس مجهولاً لديه وحسب، بل لا علاقة له بموضوع الجدل اطلاقاً. وتكون النتيجة أن يتردد الخصم في أن يجيب أو يخلي له المكان.

وقال تشيتشيكوف «ومع ذلك فلن أستطيع أن أعطيك أكثر من روبلين للرأس الواحد».

«حسناً، بما أنني لا أريد منك أن تقول عني أنني طلبت غالياً، وبما أنني لا أود أن أقابلك في منتصف الطريق، فما رأيك – لأجل الصداقة – أن تدفع خمسة وسبعين روبلاً ورقاً؟».

فقال تشيتشيكوف في نفسه «يا للسماوات! هل يعتبرني هذا الرجل غبياً؟» وأضاف بصوت عالٍ «إن الأمر ليبدو لي غريباً كما لو كنت تمثل كوميدياً على مسرح. وما من تفسير آخر لهذا. لكنك تبدو رجلاً عاقلاً وعلى قسط من الثقافة. فالأمر بسيط جداً. والسؤال الآن هو – ما قيمة الأنفس الميتة؟ وهل فيها فائدة لأي إنسان؟».

«فيها فائدة لك، وإلا لما كنت تشتريها».

فعض تشيتشيكوف على شفتيه وأسقط في يده أن يجيب. وجرب أن يقول شيئاً عن العائلة والأمور البيتية التي دعته إلى شراء الأنفس الميتة، ولكن سوباكيفيتش قاطعه قائلاً «لا رغبة لي في معرفة شؤونك الخاصة، ولا أحب أن أحشر نفسي في هذه الأمور. كل ما أعرفه هو أنك بحاجة إلى الأنفس الميتة وأنا على استعداد لبيعها. وأظن أنك ستندم إن لم تشترها».

فأعاد تشيتشيكوف قوله «سعري روبلان».

«مه! مه! لقد ذكرت هذا السعر من قبل، وها أنت تعود إلى ذكره من جديد. هيا قل سعراً لا غبن فيه».

وقال تشيتشيكوف لنفسه «ليأخذه الشيطان! على أية حال، سأزيد نصف روبل». وفعل.

فقال سوباكيفيتش «حقيقة؟ حسناً، كلمتي الأخيرة هي خمسون روبلاً ورقاً. وهذا يعني مجرد خسارة لي، لأنك لا تستطيع أن تحصل في العا لم كله على أنفس أحسن مما لدي».

وقال تشيتشيكوف لنفسه «يا للعجوز الجشع!» ثم أضاف بصوت منفعل «أصغ الي، فكأن الأمر مهم بالفعل. إن أي إنسان غيرك سيكون شاكراً للتخلص من هذه الأنفس. ولن يتمسك بها، ويدفع الضرائب عنها غير غبي».

«نعم، لكن عليك أن تذكر (وأقول هذا بمحض الصداقة) أن صفقات من هذا القبيل ممنوعة في العادة وأن الناس سيقولون عمن يتعاطى هذه الأمور أن له قصداً يدعو إلى الارتياب».

فقال تشيتشيكوف لنفسه «الوغد يريد تخويفي» ثم أضاف بعدم اكتراث بالغ «أنا لا أشتريها لأربح منها كما تحسب أنت، بل إرضاء لأفكار تعن عليّ. روبلان ونصف هو أكثر ما استطيع أن أدفعه».

وفكر سوباكيفيتش: «إنه لا يغير رأيه!» وقال: «أعطني على الأقل ثلاثين روبلاً ورقاً، وخذ الجميع».

«لا، أرى أنك لا تنوي البيع، وعلي أن أقرنك السلام».

فقال سوباكيفيتش متلهفاً «انتظر لحظة! انتظر لحظة!» وتشبث بيد ضيفه، وداس في الوقت نفسه على قدمه بشدة جعلت تشيتشيكوف يشهق ويرقص من الألم.

فقال سوباكيفيتش بسرعة «أرجو عفوك، من الجلي أنني آلمتك، فأرجو أن تجلس مرة أخرى». وفي هذه اللحظة اجلسه على كرسي بحذاقة الدب الذي تدرب على مختلف الألعاب في السيرك.

«لا، فإني أضيع وقتي لا غير. يجب أن أذهب».

«أوه! اجلس لحظة أخرى فقط. لدي قول يسرك». واقترب من ضيفه وهمس في اذنه كما لو كان يبوح له بسر وقال «ما رأيك في خمسة وعشرين روبلاً؟».

فقال تشيتشيكوف متعجباً «لا، لا، لا! لن أعطيك حتى ربع هذا المبلغ! لن أزيد كوبيكاً واحداً».

وظل سوباكيفيتش صامتاً برهة من الزمن، وتشيتشيكوف أيضاً. ودامت هذه الحال من دقيقتين كان فيهما أنف باجراتيون الأقنى مطلاً من على الحائط كما لو كان يتتبع المساومة.

وقال سوباكيفيتش فجأة «ما هو آخر سعر لديك؟».

«روبلان ونصف».

«يظهر أنك تقدر النفس البشرية بسعر قطعة اللفت المغلية. أعطني على الأقل ثلاث روبلات».

«لا، لا أستطيع».

«أرجو عفوك. يظهر أنك رجل صعب المعاملة جداً. مهما يكن من أمر، ومع أن هذا يعني خسارة فادحة لي ومع أنك لم تظهر روحاً طيبة في هذا الشأن، إلا أنني لا أستطيع إلا أن أرضي صديقي. فمن الأفضل أن نتخذ إجراءات البيع لكي نضع الأمور في نصابها».

«طبعاً».

«إذن يجب علينا لهذا الغرض أن نذهب إلى المدينة».

وانتهى أمرهما إلى الإتفاق على الذهاب إلى المدينة في اليوم التالي لتدبير صفقة البيع. وبالتالي طلب تشيتشيكوف قائمة بالفلاحين، فوافق سوباكيفيتش عليها فوراً. وذهب في الحقيقة إلى مكتبه حيث بدأ يسجل قائمة لا بأسماء الفلاحين وحسب، بل بمؤهلاتهم أيضاً.

ولما لم يكن لدى تشيتشيكوف ما يعمل فوقف ينظر في تلك الأثناء إلى هيكل مضيفه الضخم. ولما حدق في ظهره العريض كظهر الحصان وفي ساقيه الضخمتين كالأعمدة الحديدية التي تقوم على جوانب الطرقات، لم يتمالك أن هتف في نفسه، «حقاً لقد حباك الله بالكثير! مع أنه حرمك اللطافة إلا أنه في أقوى صورة ما شاء ركّبك! وإني لأعجب منك إن كنت قد وُلدت دباً بالوراثة أو اكتسبت ذلك من خلال حياتك البالية بما فيها من فلاحة الحبوب والمتاجرة مع الفلاحين! لكن، لا أعتقد أنك حتى ولو كانت لديك الثقافة المناسبة وكنت مندمجاً في المجتمع عشت في بطرسبورج لبقيت ذلك الكولاك[٢٦] الذي هو أنت. والفرق الظاهر في الحالين هو أنك تستطيع هنا أن تزيد مائدتك بكتف خروف، أما في بطرسبورج فكنت ستأكل الكفتة بالصلصة. والفرق في الحالين أيضاً أن لك هنا عدداً من الفلاحين تحت إمرتك تعاملهم معاملة حسنة لأنهم ملكك وطوع بنانك، أما في الحالة الأخرى فسيكون تحت

(٢٦) الفلاح الغني. المترجم.

إمرتك صغار الموظفين الذين كنت ستستبد بهم لأنهم ليسوا ملكك. وكنت ستنهب خزينة الدولة أيضاً، لأن الكولاك دائماً نهّاب للنقود. وإذا علمت الكولاك شيئاً فسيزداد الأمر سوءاً. وإذا حاولت أن تزيده شيئاً من العلم أو ترفع مقامه رأيته يضطهد المتبحرين بالعلوم حقاً، ويصدر أمراً يجعل أوضاعهم أسوأ. تلك هي طبيعة الكولاك!

وقال سوباكيفيتش ملتفتاً «القائمة جاهزة».

«حقاً؟ دعني أرها من فضلك». وألقى تشيتشيكوف نظرة على الوثيقة و لم يتمالك إلا أن يندهش من ترتيبها ودقتها. فقد سجل فيها، بالإضافة إلى اسم الفلاح، عمره ومهنته ونسبه وملاحظات على هامش الصفحة بشأن سلوكه وأخلاقه. لقد كان النظر إليها متعة تسر النفس.

قال سوباكيفيتش «هل تسمح الآن وتعطيني عربوناً مقدماً؟».

«نعم. ولكن لماذا تريد ذلك؟ باستطاعتك تسلم المبلغ دفعة واحدة حالما نصل إلى المدينة».

«ولكنها العادة دائماً، كما تعرف».

«لن أستطيع أتباعها الآن لأنني لا أحمل نقوداً. على أية حال إليك عشرة روبلات».

«عشرة روبلات فقط؟ كان عليك على الأقل أن تعطيني خمسين».

وبدأ تشيتشيكوف مرة أخرى ينكر أنه يحمل نقوداً، ولكن سوباكيفيتش ألح عليه بشدة وأكد له أن الأمر غير ذلك (أي أنه يكذب في إنكاره النقود) حتى سحب الضيف خمسة عشر روبلا أخرى وأضافها للعشرة الأولى.

وقال «أرجو أن تعطيني وصلاً بالنقود».

«وصلاً؟ و لم أعطيك وصلاً؟».

«ذلك أفضل حتى نتحاشى الأخطاء».

«حسن جداً، لكن سلمني النقود أولاً».

«النقود؟ ها هي معي. اكتب الوصل فتصير النقود لك».

«أرجو عفوك، ولكن كيف أكتب الوصل قبل أن أراها؟».

فوضع تشيتشيكوف الأوراق المالية في يد سوباكيفيتش، حينئذ اقترب المضيف من المكتبة وأضاف إلى قائمة الاقنان حاشية يقول فيها أنه تسلم لقاء الفلاحين المذكورين في القائمة مبلغ خمسة وعشرين روبلاً كمقدمة. وما كتب ذلك حتى أخذ يعد النقود مرة أخرى.

وأمسك ورقة منها في الضوء وقال «هذه ورقة قديمة جداً، وهي ممزقة أيضاً. على كل حال، في الصفقات بين الأصدقاء لا يجوز التشدد كثيراً».

ففكر تشيتشيكوف في محادثة وقال لنفسه «أي كولاك هذا؟ وأي مخلوق وحشيّ هو؟».

وتساءل سوباكيفيتش «ألا تريد أنفساً من النساء؟».

«أشكرك، لا».

«أقدر أن أعطيك بعضاً بسعر رخيص - ولنقل بيننا كأصدقاء - روبلاً للرأس؟».

«لا، لا حاجة لي بها».

«إذا كان كذلك فليس لدي ما أقوله. لكل إنسان ذوقه الخاص. والمثل يقول «واحد يحب الكاهن وآخر يحب زوجة الكاهن».

ونهض تشيتشيكوف مستأذناً بالذهاب وقال «أطلب إليك مرة أخرى أن يظلّ الأمر بيننا».

«طبعاً، طبعاً. فما يجري بين الأصدقاء يظل كما يجب، ما دامت الصداقة متبادلة. مع السلامة. أشكر لك زيارتك وأرجو أن تحضر إلى الغداء معنا كلما كان لديك متسع من الوقت. فقد نستطيع أن نقدم لك خدمة أخرى».

وما إن ركب تشيتشيكوف العربة حتى أخذ يناجي نفسه قائلاً «ما كنت قد جئت لو عرفت! ما كنت قد جئت لو عرفت أن هذا الكولاك الوحش سيعتصر مني روبلين ونصف الروبل على النفس الواحدة!».

لقد شعر بعدم الارتياح والامتعاض من سلوك سوباكيفيتش. فمع أن الرجل صديق وقد التقيا عند حاكم الولاية وعند رئيس الشرطة إلا أنه سلك سلوك الغريب، فأخذ النقود مقابل تفاهات لا قيمة لها.

وإذ كانت العربة تترك الحظيرة تلفت تشيتشيكوف وراءه فلمح سوباكيفيتش لا يزال واقفاً في الشرفة. من الجليّ أنه وقف يراقب الطريق التي ستسلكها عربة الضيف.

وتمتم تشيتشيكوف بين أسنانه «يا للوغد العجوز! لا يزال واقفاً يراقب». ثم أمر سيليفان أن يسير بالعربة بحيث تختفي عن رؤية صاحب البيت. وحقيقة الأمر أنه كان يهدف إلى زيارة بلوشكين (الذي كان أقنانه على حد تعبير سوباكيفيتش تموت عادة كالذباب) ولم يكن يريد من مضيفه أن يعرف مرماه.

وبناء على ذلك، لم يكد يصل إلى طرف القرية الأقصى حتى حيّا أول فلاح قابله، وكان يحمل على كتفيه جذع شجرة ضخماً ليسير به إلى كوخه كما تسير النملة بحملها إلى عش النمل، وقال له:

«ايه! كيف يمكنني أن أصل إلى بيت الملاك بلوشكين دون أن أمر من أمام المنزل الذي هناك؟».

فوقف الفلاح مرتبكاً أمام السؤال.

وتساءل تشيتشيكوف «ألا تعرف؟».

فأجاب الفلاح «لا أيها السيد».

«ماذا؟ ألا تعرف بلوشكين البخيل الذي يجيع أقنانه؟».

فقال الرجل «طبعاً أعرفه». وأضاف إلى تعبيره هذا تعبيراً بذيئاً لا يستعمل عادة في مجتمع مهذب. ولنا أن نقدر أن التعبير كان ظريفاً لأن تشيتشيكوف ظل يضحك في العربة حتى بعد أن اختفى الرجل عن أنظاره بوقت طويل. ولغة الشعب الروسي في الواقع دائماً عنيفة في تعابيرها. فإذا ما خُلع لقب على إنسان، فأنه سيظل ملتصقاً به طوال حياته وينتقل إلى خلفه، وسيظل يجرجره في الخدمة، وعند التقاعد، وفي بطرسبورج، وفي آخر العالم. ومهما سيحاول فيما بعد التحايل وإضفاء النبل على لقبه، وحتى لو جعل الكتبة يرجعونه لقاء أجر معلوم، إلى سلالة أميرية قديمة، فلن ينفعه شيء. فإن هذا اللقب سينعق بكل عقيرته كاشفاً عن نفسه، ويوضح بجلاء من أين طار الطير. فإن الكلمة المنطوقة النابتة في موقعها كالكلمة المكتوبة لا يمكن أن تبتر بفأس. وما أرسخ كل ما يخرج من أعماق روسيا، حيث لا يوجد ألمان ولا فنلنديون، ولا أي قبيلة أجنبية أخرى، بل كل شيء أصيل، حيّ، وعقل روسي ثاقب، حيث لا تعوزه حكمة، ولا يقعد عليها، كما تقعد الدجاجات على بيضها، بل ينحتها رأساً لتصير كالهوية طوال العمر، وما من حاجة بعد ذلك إلى أن يصف أي أنف لك أو شفتين فبضربة واحدة رسمك من رأسك إلى قدميك.

ومثلما يوجد عدد لا يحصى من الكنائس والأديرة بقبابها ورؤوسها وصلبانها متناثرة في أنحاء روسيا المقدسة التقيّة يوجد أيضاً عدد لا يحصى من القبائل والأجيال والشعوب تتزاحم زاهية الألوان وتنطلق على وجه البسيطة. وكل شعب ينطوي على ضمان القوة، ويمتلئ

بقدرات الروح الخلاقة، وخاصيته اللامعة وهبات الرب الأخرى، يتميز عن كل شعب آخر في طريقته الخاصة بكلمته التي تعكس، لدى تعبيره عن أي موضوع، جزءاً من خلقه. إن كلمة يقولها بريطاني تفصح عن بصيرة قلب ومعرفة حكيمة في الحياة. وعبارة الفرنسي القصيرة الأجل تلمع مثل غندور خفيف الدم، تختضى. والألماني يبتكر بحذاقة الكلمة الهزيلة بذكائها وغير مفهومة لكل إنسان أيضاً. ولكن ما من كلمة طاغية ذربة، نابعة من القلب، جيّاشة زاخرة بالحياة تضاهي الكلمة التي ينطقها روسي.

الفصل السادس

في زمن بعيد، في سِنيّ صباي، في سِنيّ طفولتي التي مرت خطفاً بلا عودة، كنت أشعر بالفرح حين أقبل على مكان غريب لا أعرفه من قبل، سواء أكان ذلك قرية صغيرة، أو بلدة بائسة هي مركز قضاء، أو دسكرة أو حاضرة. فقد كان بصري الطفولي الفضولي يكتشف فيها الكثير من الأشياء الممتعة. فإن كل مبنى، كل شيء يحمل خاصية تلفت النظر، كل شيء كان يجعلني أتوقف وأنبهر. وسواء أكان ذلك مبنى حكومياً حجرياً، ذا معمار معروف، ونصف واجهته مغطاة بنوافذ زائفة، يقف بمفرده وسط بيوت صغيرة ذات طابق واحد من الروافد الخشبية غير المسحوجة، أو قبة مدورة منسقة، مصفحة كلها بصفائح حديدية بيضاء، سامقة فوق كنيسة جديدة ناصعة البياض كالثلج، أو سوقاً ريفية، أو غندوراً ريفياً كان يتمشى وسط البلدة، وما من شيء كان يفلت من انتباهي المرهف الغض، فقد كنت اخرج أنفي من عربتي السائرة، وأتطلع إلى فتحة سترة لم تقع عليها عيني من قبل، وإلى الصناديق الخشبية التي تحتوي على المسامير أو الكبريت الاصفر الذي كنت ألمحه من بعيد، والزبيب والصابون، وكل ذلك كنت ألمحه خطفاً من باب حانوت خضروات مع علب الملبسات الموسكوفية الناشفة، وأتطلع إلى ضابط مشاة يسير في ناحية، والله وحده يعرف من أية ولاية جاء إلى هذه البلدة الريفية المضجرة، وإلى تاجر لاح بمعطفه السيبيري في عربة صغيرة، فتحملني أفكاري وراءهم إلى حياتهم البائسة. وما إن يمر بي موظف من موظفي الأقاليم حتى آخذ أفكر إلى أين ذاهب الآن،

لقضاء أمسية مع رجال من صنفه، أو إلى بيته ليجلس عند مدخل البيت نصف ساعة، حتى يشتد ظلام المساء، ويقعد ليتناول عشاء مبكراً مع أمه وزوجته وأخت زوجته وكل العائلة، وعمّ سيجري الحديث بينهم، عندما تجلب الخادمة بقلادتها من قطع النقود المعدنية أو الخادم بسترته السميكة شمعة على شمعدان قديم، بعد الحساء. وحين كنت أقترب من قرية أحد ملاكي الأراضي كنت أنظر بحب استطلاع إلى برج الناقوس الخشبي العالي النحيل، أو إلى الكنيسة الخشبية القديمة العريضة المظلمة. من بعيد كان يلوح لي في إغراء ومن خلال خضرة الأشجار بيت الضيعة بسقفه الأحمر ومداخنه البيضاء، فكنت أنتظر بنفاد صبر حدائقه تنداح متراجعة على كلا الجانبين. وينهض البيت بكل مظهره الذي لم يكن رغم تصوري مبتذلاً أبداً، وأحاول أن أحدّس منه أي مالك أرض هو مالكه، وهل هو سمين، وهل له أولاد، أم بنات ست لهنّ ضحك صبوي رنان، وهل أعينهم سود؟ وهل هذا المالك ضحوكٌ بشوش أم أنه عابس متجهّم كيوم من أيام أيلول الأخيرة في بلاد الشمال؟ تُراه يضحك أم يعبس، وهو يتحدّث عن القمح والشعير، وينظر في روزنامته، وحديثه مملّ بارد، بالنسبة للشباب.

واليوم وقد انقضى عهد الشباب، والوهن أصاب الروح قبل الجسد، واللامبالاة هيمنت على نفسي. أسافر إلى ضيعة أو دسكرة، لا يثير اهتمامي منظرها الواهن السقيم تراني غير مبال، بردت النار داخل نفسي وأمست رماد. نظري يرجع إليّ حاسراً ذليلاً، لا مستقر له على الأرض، لا شيء يُدخل السرور إلى نفسي ويفرحني وكل ما كان يوقظني في السنين الخوالي ويبعث فيّ الحياة، ويُحيي الإبتسامة على شفتي والكلمات، الآن لا يحرّك في بحر صمتي ساكناً، وعلى شفتي ماتت العبارات وذبلت زهورها في وادي الصمت السحيق. رحم الله أيام الشباب الماضية و الآمال العذبة الذاوية والأماني البكر والأحلام الربيعية..

انشغل تشيتشيكوف مفكّراً بينه وبين نفسه، ضاحكاً ملء شدقيه على الكلمة التي تفوّه بها الفلاح، واصفاً بلوشكين، و لم ينتبه أنه أصبح وعربته وسط ضيعة كبيرة تناثرت أكواخها، وشوارعها عديدة. لكن الضربات التي كان يحدثها الرصيف ذو الألواح الخشبيّة أيقظته من بحر تفكيره وضحكه؛ ضربات قويّة من جراء اصطدام أجزاء العربة بخشب الرصيف، فأخشابه كمفاتيح البيانو في علوّ وهبوط دائمين. وراكب العربة الذي ينسى أن يتخذ الاحتياطات اللازمة ستصيبه بالتأكيد ضربة على الظهر، أو ستحدث به لطخة زرقاء على الجبين نتيجة ضربة قضيب، أو عضّة لسان بالأسنان يقاصص نفسه بنفسه رغماً عن إرادته.

ولاحظ تشيتشيكوف أن جميع البيوت هنا أصابها الهرم، فإذا هي مغبرة واهنة. سقوفها الخشبيّة بهتت ألوانها، واغبرّت مع مرور الزمن. سطوح نخرت نخراً فبدت كغربال قديم. بدت بأعوادها الباقية كضلوع هيكل عظميّ. وبدا أن أصحاب الأكواخ وساكنيها نزعوا من سقوفها الألواح. ربما كان عملهم هذا نتيجة تفكير. فكّروا وأحسنوا صنعاً بما فكّروا وعملوا. في أيام الشتاء لن تردّ هذه السقوف عنهم المطر، وفي أيام الصحو لن ينالهم أذاها. إذن لماذا الجلوس والمكوث تحتها طالما يمكنهم الجلوس في الحانة والحقول الشاسعة الواسعة مع قارعة الطريق.. أما نوافذ هذه الأكواخ فكانت غالباً بلا زجاج، وبعضها مستور بخرق وأسمال. الشرفات والأفاريز التي لا يعلم أحد لأي شيء صُنعت، اسودّت وشاخت فلا تسرّ النظر ولا تفرح القلب.

أكياس الحنطة كُدّست متراكمة فوق بعضها البعض، وامتدت صفوفاً صفوفاً وراء الأكواخ، وقد تُركت تحت السماء ليفعل الله بها ما يشاء. تراها وقد حوّلت الأيام لونها الحقيقي إلى لون مغبّر كلون القرميد المحروق. نمت الأعشاب الطفيلية فوقها وبجانبها، وأصابها العطن والعفونة على مرّ السنين. هذا قمح سيّد الضيعة ومالكها على ما يبدو.

وبدت من وراء الأكواخ وأكداس الحنطة كنيستا الضيعة واحدة خشبية وثانية حجرية تناطحان السماء، وكانتا تبدوان مرّة إلى اليمين ومرّة إلى اليسار، حسب تكويعات العربة. ها هما تبدوان عن قرب كنيستان مقفرتان بجدران قديمة صفراء شرّختها السنون. هاهو يطل عليك بيت سيد الضيعة ومالكها، يقع قرب أكواخ هدمتها يد الطبيعة، وأزالتها من على وجه الأرض. محولةً مكان هذه الأكواخ لحديقة خضروات أو حقل كرنب محاط بسياج واطئ محطم في بعض الأماكن. وتلك القلعة الغريبة، الطويلة طولاً هائلاً كانت تبدو مثل مريض مقعد، وكانت من طابق واحد في بعض الأماكن، ومن طابقين في أماكن أخرى. وعلى سطحها القاتم الذي تخلى القدم عن حمايته في بعض المواضع برز مبنيان أحدهما يقابل الآخر، وكلاهما متداع أيضاً، انسلخ عنه الطلاء الذي كان يغطيه. وكانت جدران البيت قد سقط عنها الملاط في بعض الأماكن، ولاحت التشبيكة التي أضرها كما يبدو، مختلف أنواع سوء الطقس، والامطار، والعواصف والانقلابات الخريفية. وكان ثمّة نافذتان مفتوحتان، من بين كل النوافذ التي احكمت عليها صفاقاتها بل وسمرت بالألواح. وحتى هاتان النافذتان كانتا، من ناحيتهما، نصف مغلقتين ألصق على أحداهما مثلث من ورق السكر الأزرق.

كان البستان القديم الواسع يمتد خلف البيت، إلى ما وراء القرية، حتى يتصل في الحقل بعد ذلك، وقد نما فيه العشب، وظهر عليه الإهمال، يضفي لوحده نضارة على هذه القرية الواسعة، وكان وحده الشيء البهيج حقاً في رحابته الجميلة. وكانت ذرى الأشجار المتشابكة الممتدة في حرية تبدو مثل غيوم خضر وقباب شعث مهتزة الاوراق على خلفية السماء. وقد برز من هذه الخضرة الكثيفة جذع شجرة بتولا ضخم أبيض، بلا قمة، وقد حطمته عاصفة أو زوبعة ووقف في الهواء مثل عمود مرمري مدور متناسق لمّاع. وكان رأسه المائل المنتهي به بمثابة تاج

يلوح أسود إزاء بياضه الناصع، وكأنه قبعة أو طائر أسود. والحشائش التي كانت تغطي على أجمات البلسان ورماد الجبل وشجر البندق في الإسفل، ترتقي بعد ذلك على قمة سياج الأوتاد وتتسلق أخيراً إلى الأعلى، وتلتف حتى منتصف شجرة البتولا المقطوعة الرأس. وبعد ذلك تتدلى من هنا إلى الأسفل، وتأخذ بالتشبث بقمم أشجار أخرى أو تتدلى في الهواء، وتلتف لولبياتها الرقيقة المتشبثة لتصير حلقات يؤرجحها الهواء قليلاً. وكانت الكثافة الخضراء المضاءة بالشمس تنفرج هنا وهناك، ويظهر التجويف بينهما عميقاً مثل شدق قاتم. والظل يسربله كله، لا يكاد يلوح في قعره الداكن درب ضيق يختفي في مكان ما، وأسيجة محطمة، وتعريشة صيف متداعية، وجذع صفصافة متفسخة وأجمة هرمة تخرج كثاء من وراء الصفصافة عساليجها اللدنة الكثيفة أوراقها، وتتشربك وتلتف، وتذبل بسبب حياتها الحمقاء الفظيعة في هذا المكان، وأخيراً غصن غض لشجرة قيقب تمد من جانب أوراقها الخضراء ولا أحد يعرف كيف تسرب ضوء الشمس تحت واحدة منها وحوّلها إلى شفافة وهّاجة تتألق بأعجوبة في ذلك الظلام الكثيف. وفي ناحية، في أحد طرفيّ البستان، كانت بعض أشجار الحور العالية بشكل لا يناسب ارتفاع الأشجار الأخرى تحمل على ذراها المتمايلة أوكار غربان ضخمة. وكانت لأشجار أخرى أغصان مكسورة لم تنفصل بعد فكانت تتدلى إلى الأسفل مع أوراقها اليابسة. وباختصار كان كل شيء بديعاً لا تستطيع الطبيعة أن تبتدعه ولا الفن، ولا يمكن أن يكون إلا حين يتحدان سوية، حين تمرر الطبيعة إزميلها في لمسة نهائية على عمل الإنسان المتراكم في غير نفع غالباً. وتخفق الكتل الضخمة، وتقضي على التماثل المحسوس بشكل فظ، والثغرات البائسة التي يلوح من خلالها المخطط عارياً لا يخفى، وتمنح الدفء الرائع لكل ما خلق في النقاء الموزون والدقة.

بعد أن انعطفت العربة مرة أو مرتين وجد بطلنا نفسه أمام البيت الذي بدا الآن أشد بؤساً. كان الطحلب الأخضر يغطي خشب الحظيرة والرتاج البالي. وكان على جنبات الحظيرة عدد من المباني المهجورة الخربة التي كانت على الارجح في يوم من الأيام مساكن للخدم والمخازن. كانت المظاهر تدل على أن حياة فخمة كانت تحفل في هذا المنزل في سالف الأزمان، أما في الآونة الحاضرة فكانت تبدو عليه مظاهر البؤس والتعاسة. لم يكن ثمة شيء يبهج النظر، فلا أبواب مفتوحة ولا خدم يطلعون من مكان ما، ولا أمارات تدل على مشاغل البيت. كان الرتاج مفتوحاً لأن عربة محملة كانت تخرج منه. ورأى تشيتشيكوف فجأة شخصاً غريباً كان على ما يبدو يتشاجر مع سائق العربة. و لم يستطع لفترة غير قصيرة أن يعرف هل أن الشخص رجل أم امرأة. كان يرتدي ملابس لا يستطيع المرء أن يعرف منها جنس هذا الشخص. الصوت وحدة بدأ له قوياً قليلاً بالنسبة لصوت امرأة. «آه! إنها امرأة» - فكر مع نفسه، وأضاف رأساً «لا، لا يمكن!» وأخيراً قال وقد تمعن أكثر «صوت امرأة بالطبع». كما أنها من جانبها أمعنت النظر فيه. وبدا وكأن الضيف، بالنسبة لها، ظاهرة عجيبة، لأنها لم تجيل البصر فيه وحده، بل في سيليفان، وفي الخيول من الذيل حتى البوز. ومن المفاتيح التي كانت وراء حزامها، وشتمها الفلاح بكلمات مقذعة بما فيه الكفاية رجّح تشيتشيكوف أن تكون خازنة المنزل. فتقدم إليها يسألها عن ربّ البيت.

ولكن قبل أن يتم تشيتشيكوف سؤاله أجابته قائلة «غير موجود». وأخذت تنظر إليه بحذر شديد، ثم أكملت كلامها تقول «وماذا تريد منه؟».

«بعض الأعمال»..

«إذن اتبعني».

وأدارت المرأة ظهرها فبدا معطفها البالي مشقوقاً من أسفله ملطخاً بالطحين من أسفله وأعلاه. فتبعها إلى قاعة كبيرة مظلمة باردة كالقبر ومنها إلى غرفة مماثلة في الإظلام لا ينيرها إلا ما يتسرب من أشعة الضوء من تحت الباب. ولما فُتح الباب ودخل المزيد من الضوء ذهل تشيتشيكوف من الفوضى التي كانت تسود الغرفة. كان يبدو أن أرض الغرفة كانت تغسل، وأن الغرفة نفسها كانت مستودعاً لكل ما يمكن أن يخطر ببال مخلوق. فعلى منضدة وضعت بقايا كرسي مكسور وساعة لا بندول لها، وكل ذلك مغطى بنسيج العنكبوت. وبالقرب من الحائط كان خوان مليء بالأواني الفضية القديمة والزجاجية والصينيّ. وكان هناك منضدة للكتابة مرصعة بالصدف انتزع معظمه وترك موضعه فتحات صفراء قائمة محشوة بالطين. وفوق المنضدة كانت رزمة من أوراق الكتابة، وحاملة ختم من الرخام الذي استحال لونه إلى الخضرة، وكتاب بغلاف من جلد أحمر الأطراف، وحبة من الليمون جفت وانكمشت قشرتها وأصبحت بحجم حبة اللوزة ورجل كرسي مكسورة، وقدح فيه حثالة من سائل وذبابات ثلاث (والكل مغطى بقطعة من الورق)، وكومة من خرق بالية وقطعة من شمع الختم وريشتان جافتان ملطختان بالحبر ومسواك للأسنان وصفاره يدل على أن صاحبه قد استعمله على الأقل قبل مجيء نابليون إلى موسكو.

أما الجدران فقد عُلّق عليها خليط من الصور. كان من بينها صورة طويلة محفورة على الخشب ظهر فيها جنود بقبعات مثلثة الزوايا وهم يصيحون وطبول ضخمة وخيول غارقة وكانت الصورة عديمة الزجاج موضوعة في إطار برونزي على زواياه حلقات برونزنية. وقد علّقت بجانبها صورة زيتية كئيبة بدت فيها بعض الزهور والفواكه ونصف بطيخة ورأس خنزير والبطة الميتة المتدلية. وقد تدلت من السقف ثريا بغطاء هرميّ علاه الغبار حتى تكاد تحسب الثريا دودة الحرير تخرج

من شرنقتها. وأخيراً، في زاوية من زوايا الغرفة كانت كومة كبيرة من الأدوات يبدو وكأن لم يكن لها موضع على المنضدة. أما محتويات هذه الكومة فيصعب التكهن به، لأن أي يد تمتد إليها ستخرج وكأنها لابسة قفازاً لما على الكومة من غبار. ولكن برز من الكومة شيئان بروزاً جليّاً، أحدهما عصا بجرفة والآخر أخمص حذاء أثري. ولم يكن يمر ببال إنسان أن هذه الغرفة يدخلها أحد لو لا قبعة بيتية كانت موضوعة على طرف المنضدة. وبينما كان تشيتشيكوف يجيل البصر في هذه الفوضى الغريبة، فتح باب جانبي ودخلت منه الخازنة التي قادته أول الأمر إلى هذه الغرفة. ولكن تشيتشيكوف رأى الآن أن هذه السيدة كانت رجلاً لا امرأة، فليس للنساء لحىّ، ولكن الشعر قد نبت على خدي هذه وذقنها بشكل أصبحت فيه كالمسحة التي تستعمل في تنظيف الخيول. فوقف تشيتشيكوف وقفة المتسائل ينتظر ما يمكن أن يقوله الشخص الواقف أمامه. ولكن الخازن فعل الشيء نفسه. ولما اندهش تشيتشيكوف من سوء التفاهم تساءل بعد لأي يقول.

«هل ربّ البيت موجود؟».

«نعم».

«أين هو إذن؟».

«هل أنت أعمى يا سيدي؟ أنا ربّ البيت».

عندئذ لم يتمالك تشيتشيكوف إلا أن يتراجع إلى الوراء وأخذ يحدق فيه. كان بطلنا رحّالة واخا سفر وقد رأى أصنافاً عديدة متنوعة من الرجال لم تتح رؤيتها لا للكاتب ولا للقارئ، ولكن البطل لم تقع عيناه على هذا النوع الغريب الجديد من قبل. لم تكن في وجه الرجل العجوز أية علامة مميزة. كان يعلوه الذبول كوجه أي عجوز متهرئ. كانت ذقنه بارزة جداً إلى الأمام فكان مضطراً إذا ما تكلم أن يمسحها

بمنديل مخافة أن يسيل لعابه عليها، وعيناه الصغيرتان اللتان لم يتطرق إليهما الغباء بعد، كانتا تبرقان تحت حاجبيه البارزين بريق عيون الفيران عندما تطل برأسها من الجحر بأذنين منتصبتين وشاربين حساسين لترى فيما إذا كان هناك قط أو صبي يعبث في الجوار ويتشممان الهواء بارتياب. لا، إن مظهره المميز كان في ملابسه فقط. فلم تكن هناك من وسيلة لمعرفة نوع القماش الذي صنع منه معطفه لأن أطراف المعطف وأكمامه كانت متمزقة متسخة على صورة تتحدى كل وصف، وبدلاً من أن يكون في خلفه شق واحد يقسم ظهره إلى قسمين، كان هناك شقّان إضافيان يقسمان مؤخرته إلى أربعة أقسام تتدلى من تحتهما قصاصة جريدة ممزقة. وحول عنقه يلتف شيء قد يكون جورباً أو لفافة ساق أو لفافة بطن ولكنه ليس ربطة عنق بكل تأكيد. وخلاصة القول، أن تشيتشيكوف لو رآه أمام باب الكنيسة لم يتردد في الإحسان عليه بكوبيك (فلكي ننصف بطلنا يجب أن نقول أنه كان ذا قلب رحيم و لم يكن يتوانى في إعطاء الصدقات للمساكين)، لكنه في حالتنا هذه لم يكن أمام سائل شحاذ؛ بل كان أمام ملاّك – ملاّك يملك ألف نفس بالتمام والكمال يفوق كل جيرانه الملاكين الآخرين بما لديه من حنطة وطحين وما تضمه جدران المستودعات من أقمشة كتانية مغزولة وجلود الماعز التي دبغت و لم تلبس والأسماك المجففة وكل نتاج يستطيع أن يدركه العقل. فلو ألقى شخص نظرة إلى فنائه الشغيل، حيث أعدت للاحتياط مختلف المصنوعات الخشبية وآنية لم تستخدم قط لتوهم أنه في سوق الخردوات في موسكو، حيث كل يوم الحموات والكنات الحاذقات تتبعهن طباخاتهن لشراء ما يحتجن إليه من الأدوات المنزلية، وحيث تتكدس أكوام من مختلف الاخشاب المسحوجة والمسمرة والمغراة كالبراميل والأجانات والطناجر الخشبية بأغطيتها، والجفان الخشبية، والأواني الخشبية، والسلال من الخوص،

والسلال الخشبية التي توضع فيها الأشياء المملحة وكل ما تستخدمه روسيا الغنية والفقيرة. فما الذي أحوج بلوشكين إلى كل هذه الكمية الهائلة من المصنوعات؟ لا أظنه سيحتاج إلى استعمالها حتى لو كانت له ضيعتان من مثل ضيعته. ولكن حتى هذا بدا قليلاً عليه. فكان يجوب شوارع قريته كل يوم في غير رضى يبصبص تحت الجسور وتحت ألواح الأرصفة، ويأخذ كل ما يصادفه، سواء أكان ذلك نعالاً قديماً، أو خرقة من سمل إمرأة، ومسماراً حديدياً، أو قحف آنية خزفية، ويحمل كل ذلك إلى بيته ليضمه إلى الكومة التي لاحظها تشيتشيكوف في ركن في غرفته. وكان الفلاحون يقولون حين يرونه خارجاً للقنص «ها هو الصياد قد خرج ثانية للاصطياد». وبالفعل لم تكن هناك حاجة لكنس الشارع بعد خروجه. فإذا ما صادف أن أضاع ضابط عابر سبيل مهمازه، فأن هذا المهماز سيجد طريقه في الحال إلى تلك الكومة إياها. وإذا ما نسيت إمرأة جردلها وهي تهوّم عند البئر، فإنه سيستل الجردل منها. وعلى العموم، إذا ظفر به فلاح، متلبساً بذلك، فإن بلوشكين لن يحاججه، ويتخلى له عن الشيء الذي استولى عليه، ولكن حين ينضم هذا الشيء إلى تلك الكومة في حجرته فإن مسألته قد انتهت. فإن بلوشكين سيقسم بأن هذا الشيء ملكه، اشتراه في التاريخ الفلاني، من الشخص الفلاني، أو تركه له جده. وفي حجرته كان يرفع من الأرض كل ما يجده هناك، قطعة شمع، قصاصة ورق، ريشة، ويضعها كلها على مكتبه، أو على إفريز النافذة.

ذلك لأن حيناً من الزمن مرّ كان فيه بلوشكين مديراً حريصاً على أمور ضيعته! كان متزوجاً وصاحب عائلة، يقصده أحد جيرانه ليتناول الغداء معه، ويستمع إليه، ويتعلم منه إدارة الأمور، والاقتصاد الحكيم. وكان كل شيء يسير نشيطاً، ويتم بطريقة موزونة. كانت طواحينه في حركة، وكانت معامل الأجواخ، والنجارة، والغزل، تعمل. وكانت

عين صاحب العمل الثاقبة في كل مكان تراقب كل شيء. مثل عنكبوت مجتهد كان يجري مشغولاً ولكن بكفاءة في أرجاء شبكته العاملة. وكانت المشاعر القوية جداً لا تنعكس على ملامح وجهه، ولكن الحصافة كانت تطل من عينيه. وكان كلامه مشبعاً بالخبرة ومعرفة الدنيا. فكان الجار يرتاح حين يسمعه. وكانت زوجته المحتفية المحبة للكلام معروفة بحسن الضيافة. وكانت ابنتاه، وكلتاهما شقراء نضرة كوردة، تخرجان لاستقبال الضيوف. كما كان يخرج ابنه، وهو خفيف الحركة نشيط، ويقبل الجميع، دون أن يلتفت كثيراً إلى أن ذلك يرضي الضيف أو لا يرضيه. وكانت النوافذ مفتوحة في البيت كله. وكانت حجرات الطابق العلوي مسكناً للمعلم الفرنسي الذي كان يحلق وجهه بشكل رائع، ويجيد الرماية بروعة. فكان دائماً يجلب دجاجة أرض أو وزاً بريّاً للغداء، ولكنه في بعض الأحيان لا يأتي بغير بيض العصافير، حيث يطلب أن يقلى له، لأنه الوحيد الذي كان يأكل ذلك من بين أهل البيت جميعاً. وكانت تسكن معه في نفس الطابق ابنة وطنه، مربية الابنتين. وكان ربّ البيت يأتي إلى الغداء في سترة فراك لطيفة الشكل، وإن كانت مستهلكة بعض الشيء، غير أن الكوعين كانا سالمين خاليين من أية رقعة. ولكن ربة البيت الطيبة وافاها الأجل، فانتقل إلى رب البيت قسم من المفاتيح، ومعه مشاغل صغيرة. وصار بلوشكين أكثر قلقاً، وأكثر ارتياباً وبخلاً، مثل جميع الأرامل. ولم يكن في إمكانه أن يعتمد على ابنته الكبرى ألكسندرا ستيبانوفنا في كل شيء، وكان محقاً في ذلك لأن ألكسندرا ستيبانوفنا هربت بعد وقت قصير مع ملازم أول في فوج فرسان غير معروف، وسرعان ما عقدت قرانها عليه في كنيسة قروية، وهي تعلم أن أباها لا يحب فصيلة الضباط لاعتقاده القديم بأن جميع العسكريين مقامرون ومبذرون. أرسل الأب اللعنات، في أثرها، ولكنه لم يتعب نفسه في ملاحقتها.

وصار البيت أكثر خواء. وصار البخل يظهر على المالك أكثر من ذي قبل، ومعه الشيب المصاحب الوفي للبخل، صار يتلألأ في شعره، وساعد على زيادة بخله. وأعفي المعلم الفرنسي من وظيفته، لأن الابن وصل إلى سن الوظيفة، وطردت الفرنسية أيضاً لأنها لم تكن مبرأة من مسألة هروب ألكسندرا ستيبانوفنا. وأرسل الابن إلى المدينة مركز الولاية ليحتل وظيفة في دائرة العدل التي هي حسب رأي أبيه، خدمة حقيقية، ولكنه بدلاً من ذلك ألحق في وظيفة في فوج، وكتب إلى أبيه يخبره عن تعيينه، طالباً النقود لحوائجه وملابسه. وطبيعي أنه تلقى على ذلك ما يسمى بالتعبير الدارج علقة. وأخيراً ماتت ابنته الأخيرة التي بقيت معه في البيت، ووجد العجوز نفسه الحارس والحافظ والمالك الوحيد لثرواته. وأعطت حياة الوحدة زاداً دسماً للبخل الذي طبع عليه، حسب ما هو معروف، جوع الذئب، وكلما التهم أكثر صار لا يشبع. والعواطف الإنسانية التي لم تكن في الأصل عميقة في نفس صاحبنا صارت تضحل كل دقيقة، فكان يتهاوى في كل يوم شيء في هذه الشخصية المحطمة. وفي مثل هذا الوقت حدث، وكان ذلك تأكيداً متعمداً لآرائه في العسكريين، أن ابنه خسر فلوسه في القمار، فبعث إليه من صميم قلبه لعنته الأبوية، ولم يعد يهتم بأن يعرف هل أن ابنه في الوجود أم لا. وفي كل عام كانت تسمر نوافذ في بيته، حتى لم يبق أخيراً غير نافذتين، إحداها، ألصق عليها الورق، كما يعرف القارئ الآن، وفي كل عام كان المزيد والمزيد من الأقسام المهمة في ضيعته تفلت من بصره، حتى صار بصره الضئيل لا يرى غير قصاصات الورق والريشات التي كان يجمعها في غرفته، وأخذ يزداد تصلباً مع المشترين الذين كانوا يأتون إليه لشراء منتجاته. كان المشترون يماكسون ويماكسون إلى أن يتخلوا عنه أخيراً قائلين أن هذا شيطان، وليس إنساناً. فكان التبن والحبوب تتعفن والمستودعات والشون تتحول إلى روث تماماً لا يصلح

إلا لتسميد الكرنب، وكان الطحين في الأقبية يتصلب كالحجارة فلا بد أن يكسر. وكان من الفظاعة أن تمس الأجواخ والأنسجة القطنية والمواد المنزلية، فإنها ستتحول في الأيدي إلى رفات. وكان هو نفسه قد نسي كم كان له من هذا الشيء أو ذاك. و لم يعد يتذكر إلا موضع قارورة النقيع في الدولاب وقد علم بنفسه على ما تبقى منه، حتى لا يشرب منه أحد بطريقة لصوصية، إضافة إلى موضع الشمع والريشة. وخلال ذلك كان الدخل من المزرعة يجمع كما في السابق. الفلاح يأتي باللّزمة، وكل إمرأة ريفية تجلب الحصة المعتادة من الجوز، وكل إمرأة تعمل نساجة تجلب القدر المخصص من منسوجها. وكان كل ذلك يرمي في المستودعات، ويتفسخ ويمتلئ بالثقوب، والمالك نفسه قد تحول أخيراً إلى ثقب في جسم الإنسانية. جاءت ألكسندرا ستيبانوفنا لرؤية أبيها مرة أو مرتين ومعها ابنها الصغير وهي تحاول أن تحصل من أبيها على شيء ما. والظاهر أن حياة التجوال مع زوجها ضابط الفرسانِ لم تكن جذابة كما بدت عند الزفاف. وغفر لها بلوشكين، على كل حال، بل وسمح لحفيده الصغير بأن يلعب بزر كان ملقى على الطاولة، ولكنه لم يعطها أي شيء من النقود. وفي مرة أخرى جاءت الكسندرا ستيبانوفنا مع طفلين، وجلبت لأبيها كعكاً ليؤكل مع الشاي، وروباً جديداً، لأن الروب الذي كان يلبسه بلوشكين كان مخجلاً بل ومعيباً. داعب بلوشكين حفيديه كليهما، وأجلس أحدهما على ركبته اليمنى والثاني على اليسرى، وهزّهما، وكأنهما على صهوة حصان. وقبل الكعك والروب، ولكنه لم يعط لابنته أي شيء البتة. وبذلك عادت ألكسندرا ستيبانوفنا من حيث أتت.

ذلك هو المالك الذي وقف أمام تشيتشيكوف! ويجدر القول أن مثل هذه الظاهرة نادرة في روسيا حيث يحب الجميع أن يفردوا أنفسهم أكثر من أن ينكمشوا، ومما يزيد الدهشة أنك يمكن أن تصادف

بجوارك مالكاً ينفق ممتلكاته على ما تشتهي النفس الروسية من مباذل وقصف ومجون، ويؤجج لهب الحياة على حد التعبير السائر. إن المسافر غير المجرب سيقف في دهشة من أمره، حين يرى منزله، ويسائل نفسه في حيرة من ذلك الأمير بالوراثة الذي وجد نفسه فجأة وسط هؤلاء المالكين الصغار الغامضين. فإن بيوته الحجرية البيضاء بمداخنها التي لا تحصى، والبلفيدرات، والمراوح التي تحدد اتجاه الريح، والأجنحة الملحقة بالبيت ومختلف المباني للضيوف الوافدين تبدو قصوراً بالنسبة لما حولها من البيوت. ماذا يعوزه؟ المسارح، حفلات الرقص. الحديقة المنسقة مضاءة طوال الليل تتلألأ بالأنوار والمسارج، وتمتلئ بهدير الموسيقى. نصف سكان الولاية هنا في قشيب الثياب، يتنزهون في مرح تحت الأشجار وما من أحد سيجد ما يثير استهجانه وخوفه، في هذه الإضاءة الباهرة، حين يطلع من كثافة الأشجار، وبشكل مسرحي، غصن مضاء بضوء اصطناعي، وقد تخلت عنه خضرته الساطعة. والسماء الليلية في الأعلى أكثر قتاماً، وجفاء، وأخطر بمائة مرة، والأشجار التي ترفرف أوراقها في الأعلى، تتراجع أعمق فأعمق في الظلام الحالك، معبرة عن استيائها من هذا اللألاء المبهرج الذي يضيء جذورها في الأسفل.

وظل بلوشكين مطبقاً فاه دقائق عديدة بينما كان تشيتشيكوف مذهولاً في مظهره ومن كل شيء آخر في الغرفة، فلم يعد قادراً على البدء في الحديث، بل راح يفكر في الكلمات المناسبة التي يفسر فيها الغاية من زيارته. كان يفكر فيما إذا كان من المناسب أن يقول له أنه سمع الكثير عن كرمه ومزاياه فرأى من واجبه أن يقوم بهذه الزيارة لتقديم واجبات الاحترام. لكن حتى تشيتشيكوف رأى أن في هذا القول من المبالغة ما لا يحتمل. بعد أن ألقي نظرة أخرى على ربّ البيت وعلى الغرفة، وبناء على ذلك بدّل جملته هذه إلى جملة أخرى يتحدث فيها عن اقتصاده وحسن ادارته. وبعد أن أعد الجملة في عقله قال له أنه سمع الكثير عن

مواهبه الحازمة في إدارة أملاكه وفي تنظيمه لسير الأمور فيها ورأى من الواجب عليه أن يتعرف عليه وأن يهنئه بنفسه على ذلك. (ولا حاجة بي إلى القول بأن تشيتشيكوف كان يستطيع أن يجد سبباً آخر أوجه من هذا الذي ذكر، ولكن قريحته في تلك اللحظة لم تلد شيئاً آخر).

فرد بلوشكين على ذلك من بين شفتيه لخلو فمه من الأسنان بتمتمة لم يُفهم المقصود منها بالضبط إلا أن آخرها كان يترك الحرية للشيطان لكي يأخذ تشيتشيكوف وتهانيه. على أية حال، فأن قواعد الضيافة الروسية لا تسمح حتى لتعيس بائس أن يخترقها، ولذلك فأن بلوشكين أضاف إلى ما سبق دعوة ترحيب يطلب فيها من الضيف أن يجلس.

وراح يقول «منذ وقت طويل لم استقبل زائراً ما، ولكني يجب أن أقول أنني لا أشعر بفائدة من زيارتهم. فإذا ما بدأت عادة الزيارات اللعينة وأخذ الناس يترددون على بيت فإن إدارة الأملاك ستؤول إلى الدمار ويضطر صاحب الملك إلى علف خيوله بالتبن وحده. منذ مدة طويلة - طويلة جداً تناولت وجبة طعام مع أن مطبخي في حالة لا يحمد عليها، لأن المدخنة أصبحت في وضع إذا احميت فيه زيادة عما تحتمل فإنها سوف تشتعل كلها دفعة واحدة».

فقال تشيتشيكوف في نفسه «يا للوحش! لقد كنت حسن الحظ فقد تناولت كتف الخروف وطيبات الأكل عند سوباكيفيتش!».

واستمر بلوشكين يقول «وبالإضافة إلى ذلك، فإني أشعر بالخجل إذ أقول لك أن ليس في بيتي حفنة واحدة من العلف. ولكن كيف يمكنني أن أحصل على العلف؟ فأراضيّ صغيرة والفلاحون كسالى يكرهون العمل ولا يفكرون إلا في الحانة. وستكون نهايتي بناء على ذلك أن أقضي بقية عمري ضارباً في أنحاء الأرض لا أجد المأوى».

فقال تشيتشيكوف «ولكنهم أخبروني أنك تمتلك ألف عبد أو يزيد».

«ومن قال لك ذلك؟ ليكن من كان، ولكن كان عليك أن تقول له أنه يكذب. لا شك أنه كان مهرجاً يريد أن يضحك منك. ألف نفس! احسب لنفسك الضرائب التي تدفع عنهم وما الذي يتبقى من وراء ذلك! كانت الحمى الملعونة في السنوات الثلاث الأخيرة تقتل أقناني بالجملة».

فتساءل تشيتشيكوف باهتمام كبير «تقول بالجملة؟».

فأجاب الرجل «أجل، بالجملة».

«أتسمح لي أذن أن أسألك عن الرقم الصحيح؟».

«ثمانون بالتمام والكمال».

«حقيقة؟».

«هذا هو الواقع».

«هل لي أن أسألك أيضاً ما إذا كان رقمك هذا منذ الاحصاء الأخير؟».

«أجل منذ ذلك الاحصاء، لعنة الله عليه! ومنذ ذلك التاريخ والضرائب تستنزف دمي عن مائة وعشرين نفسا».

«حقيقة؟ عن مائة وعشرين نفسا؟» وبدا تشيتشيكوف في حالة من الدهشة والزهو حتى ظل بعد قوله هذا فاتحاً فاه.

«نعم يا سيدي. إنني طاعن في السن فلا أكذب عليك. فلقد تجاوزت السبعين منذ أمد وجيز».

مهما يكن من أمر، فقد شعر المضيف بالامتعاض لملامح الفرحة التي بدت على تشيتشيكوف. ولكن الأخير تدارك الأمر بأن أرسل تنهدة عميقة وأخبره بأنه يشعر بأن كل عواطفه معه في مصائبه تلك.

«ولكن العواطف ليست شيئاً يوضع في الجيب يا سيدي. إنها لا

تسمن ولا تغني من جوع. لي قريب مثلاً وهو نقيب يقض مضجعي باستمرار بأمور كهذه. إنه ضابط في الجيش، لعنة الله عليه، وليس له عمل طوال يومه إلا أن يناديني «أيها العم العزيز» وينكب على يدي مقبلاً ويغمرني بسيل من عواطفه حتى أجدني مجبراً على إغلاق أذنيّ. وجهه أحمر تماماً وولعه بشرب الخمر شديد. أعتقد أنه بعزق أمواله أثناء خدمته في الجيش وجن جنونه بأحدى الممثلات. ولا هم له الآن إلا أن يغرقني بعواطفه الفياضة!».

فسارع تشيتشيكوف إلى القول بأن عواطفه تختلف اختلافاً أساسياً عن عواطف الضابط، فهو لا يكتفي بكلمات طنانة وحسب، وإنما بالعمل الملموس. وهو مستعد - إثباتاً لما يقول، وقطعاً للأخذ والرد، ووضعاً للأمور في نصابها - أن يتحمل منذ اللحظة عبء دفع الضرائب عن الأقنان المذكورين الذي وافاها الأجل المنكود فنقلها إلى العالم الآخر. ولقد وقع هذا الاقتراح على بلوشكين وقوع الصاعقة، ففغر فاه محملقاً بعينيه. ولكنه تمالك نفسه بعد لأي وتساءل قائلاً، «هل كان سيدي العزيز ضابطاً في الجيش في يوم من الأيام؟».

«لا، ولكنني كنت في خدمة الحكومة».

فبدأ بلوشكين يحرك شفتيه كما لو كان يمضغ شيئاً، ثم قال «أيه! في خدمة الحكومة؟ وهل تعني أن تنفذ الاقتراح الذي قلت؟ أي هل أنت على استعداد لتحمل الخسارة التي تترتب عليه؟».

«نعم، إذا كنت أعلم أني بذلك سأدخل السرور إلى قلبك».

وصاح بلوشكين بسرور: «آه يا سيدي العزيز، يا ولي نعمتي! أي سلوى وضعتها في قلب شيخ عجوز!» ولم ينتبه إلى سقوط قطعة سعوط من أنفه وكان السعوط يشبه حثالة القهوة، وأن معطفه قد انفرج من المقدمة عن ثياب داخلية لا تسر النظر. «أي سلوى وضعتها في قلب

شيخ عجوز! والله على ما أقول شهيد!» ومضت هنيهة لم يكن يستطيع أن يقول فيها شيئاً. ولكن لم تكد تمر دقيقة واحدة حتى اختفت فجأة من ملامحه الخشبية تلك المشاعر الفياضة - اختفت بالفجاءة التي تجلّت بها. وعاد إلى وجهه تعبير الضنى، حتى أنه مسح وجهه بمنديله ثم لف المنديل على شكل كرة وأخذ يروح به ويغدو على شفته العليا.

ثم قال «أرجو أن لا أزعجك إذ أطلب منك أن تعيد الاقتراح مرة أخرى. هل تعني أنك على استعداد لدفع الضريبة المستحقة على هذه الأنفس، وأن تقوم بدفع النقود لي أو للخزينة؟».

«أجل، هذا هو ما سأعمل. سنكتب عقد بيع كما لو كانت هذه النفوس ما تزال حية وقمت ببيعها لي».

فانغمس بلوشكين في أفكاره وراح يحرك شفتيه حركة المضغ، وقال «إذن هكذا. عقد بيع. ولكن عملاً كهذا سيجر نفقات ومصروفات معينة والمحامون لا ضمير لهم! وهم في الواقع شرهون جشعون، كانوا يطلبون من قبل نصف روبل وكيساً من الطحين أما الآن فحمولة عربة من الطعام إضافة إلى النقود، يا لهم من حب الفضة. من الغريب أن أحداً من الكهنة لم يلتفت إلى ظلم هذا النظام. موعظة على الأقل، إذ لا يمكن الوقوف ضد كلمة الرب مهما يكن من شيء».

ففكر تشيتشيكوف مع نفسه «أظنك ستقف ضدها». عندئذ بين له تشيتشيكوف أنه نظراً للاحترام الشديد الذي يكنه للمضيف سيقوم بتحمل نفقات البيع بنفسه.

وهذا ما أدى ببلوشكين أن يعتبره غبياً لا ضمير له يدعي أنه كان في خدمة الحكومة لكنه في الحقيقة كان ضابطاً في الجيش يجري وراء الممثلات، وبناء على ذلك لم يعد هناك داع لإخفاء سروره بل راح يصب دعوات الرحمة على تشيتشيكوف وعلى أبنائه (ولم يكن قد

سأل تشيتشيكوف فيما إذا كان متزوجاً وله أبناء). ومن ثم أسرع إلى النافذة وقرع على لوح زجاجها وهو ينادي «بروشكا!» وسمع صوت أقدام تركض في القاعة وهي تخبط الأرض خبطاً ودخل شخص إلى الغرفة. وكان الداخل بروشكا - فتى في الثالثة عشرة من العمر غاطس في حذاء واسع الأبعاد يكاد يبتلع ساقه حتى الركبة إذا ما دلف ماشياً فيه. وسبب دخوله في هذا الحذاء هو أن بلوشكين كان قد خصص حذاء واحداً لجميع الخدم. كان هذا الحذاء العالمي راسياً دائماً في القاعة، فإذا ما استدعى خادم إلى المنزل كان عليه أن يتهادى في طين الساحة حافي القدمين وينتعله، حتى إذا قام بمهمته التي طلب إليها، خلعه ووضعه في موضعه المعروف وخرج إلى الساحة على طبيعته الحافية السابقة. ولو أُتيح لإنسان في يوم خريفي أن يلقي نظرة على الساحة ورأى خدم بلوشكين وهم يسيرون فيها لعرف أنهم يقومون برقصات تزحلقية رائعة لا يكاد يجاريهم فيها الراقصون المحترفون.

وقال بلوشكين لتشيتشيكوف وهو يشير إلى بروشكا «انظر إلى وجه هذا الغلام! أن فيه الكفاية من الغباء. إنما ضع شيئاً من الأشياء على ناحية فستجده قد سرقه في لمح البصر. أيه أيها الشاب، ماذا تريد؟».

وصمت لحظة أو لحظتين ولكن بروشكا لم يحر جواباً.

واستمر الرجل العجوز يقول «هيا! هيا جهز السماور، ثم أعط مافرا مفتاح غرفة المخزن، إليك هو، وقل لها أن تحضر شيئاً من الكعك الذي جلبته ألكساندرا ستيبانوفنا مع الشاي. ما بك أيها المجنون، انتظر لحظة أخرى. هل يدغدغ الشيطان قدميك حتى تريد أن تفر هارباً؟ استمع إلى ما سأقوله إليك. قل لمافرا أن أطراف الكعك قد اصابها بعض التلف، وعليها أن تنزع القسم التالف بقشره بالسكين، وقل لها أنك لن تدخل الغرفة وإلا ضربتك ضرباً لا تنساه. جرب أن تدخلها، وسترى ما الذي سيحدث لك. سوف أراقبك من هذه النافذة. وأضاف موجهاً كلامه

إلى تشيتشيكوف «إن المرء لا يستطيع أن يأمن إلى هذه الاشكال».

وما كاد الحذاء وبروشكا يغادران الغرفة حتى أخذ بلوشكين يحدق في ضيفه تحديق المستريب. كان كرم تشيتشيكوف غريباً يدعو للتساؤل. وأخذ يقول لنفسه «ومن يكون الرجل بعد ذلك كله. لعله لص من اللصوص. يمنيك بالآمال الجسام لكي تنعم عليه بقدح من الشاي». وانتهى بعد مناجاته هذه لنفسه بأن قال لتشيتشيكوف بأنه يفضل أن تجري عملية بيع الأنفس حالاً، فلا يجب أن يثق الإنسان كثيراً بالآخرين، ولا يدري من يعيش اليوم أن كان غداً سيموت.

فوافق تشيتشيكوف على هذا الرأي بملء رغبته، إنما طلب أولاً تزويده بلائحة الأسماء. وهذا ما أعاد الطمأنينة إلى قلب بلوشكين عن نية ضيفه فأخرج مفاتيحه واقترب من خزان وفتح بابه وأخذ يفتش بين ما فيه من كؤوس وأكواب ثم قال:

«لا أظن أنني سأجدها الآن، لكن كانت لدي زجاجة مشروب فاخرة. ربما شربها الخدم، فهم لصوص أصيلون، لا، ربما كانت هذا!».

فرفع تشيتشيكوف بصره ورأى بلوشكين يسحب دورقاً مغطى بالغبار.

واستمر الشيخ العجوز يقول «كانت زوجتي المرحومة هي التي صنعت المشروب. لكن هذه الخازنة السافلة رمت قسماً منه، حتى دون أن ترجع غطاء الدورق إلى موضعه. فدخل فيه بسبب ذلك بعض البق والحشرات الكريهة الأخرى. ولكني نظفته، وأرجوك أن تتناول منه كأساً».

كانت فكرة الشرب من إناء كهذا أكبر من أن يقبلها تشيتشيكوف فاعتذر بحجة أنه صائم عن تناول الغداء.

فقال بلوشكين «إذن فأنت الآن صائم عن الغداء؟ هكذا يكتشف

للإنسان أن في العالم رجالاً محترمين. إن الشخص المحترم لا يأكل شيئا إطلاقاً ويقول دائماً بأنه سبق وأكل. وأسلوبه يختلف اختلافاً واضحاً عن أساليب الأنذال الذين مهما أطعمتهم لا يكتفون. والضابط مثلاً، لا يزال يرجوني أن أطعمه، يقول «يا عمي، أعطني شيئاً آكله» وتسميته لي عمي لا تختلف عن تسميتي له جدي. وكما هو الواقع، لا يكون في بيته لقمة من شيء فيزور البيوت الأخرى. ولكن كنت تسألني عن لائحة الانفس التافهة، كان لدي لائحة رائعة أعددتها للإحصاء القادم».

ومن ثم وضع بلوشكين نظارته على عينيه وراح ينبش الأوراق في الخزان والغبار يتطاير أثناء جمع الأوراق مع بعضها حتى أن ضيفه انفجر عاطساً. وانتزع آخر الأمر ورقة كتب عليها أسماء الفلاحين الموتى بخط صغير محشور فوق بعضه حشراً كأنه غمامة من بعوض؛ فقد كان فيها مائة وعشرون إسماً. فهمهم تشيتشيكوف فرحاً لرؤية هذه المجموعة. ثم دسّ الورقة في جيبه قائلاً إن إتمام الصفقة يستوجب الذهاب إلى المدينة.

فقال بلوشكين «إلى المدينة؟ ولماذا؟ وكيف أستطيع أن أترك المنزل ما دام خدمي ما بين لص ووغد؟ إنهم يسرقون كل يوم شيئاً، ولن يمضي طويل وقت حتى لا أجد معطفاً أضعه على كتفي».

«فهل لك أذن معارف في المدينة؟».

«معارف؟ لا. فكل الذين أعرفهم إما تركوني أو ماتوا. لكن، انتظر لحظة. إني أعرف رئيس المجلس المحلي. حتى في شيخوختي جاء مرة أو مرتين يزورني. فقد كنت وإياه زميلين في المدرسة وكنا نتسلق الجدران معاً. أجل، إياه أعرف. هل اكتب له كتاباً؟».

«بلا ريب».

«نعم، إياه أعرف معرفة جيدة، فقد كنا اصدقاء في المدرسة».

وأشرق من ملامح بلوشكين الخشبية شعاع من الدفء - شعاع إن لم يكن يعبر عن شعور فهو على الأقل صورة شاحبة لذلك الشعور. ظاهرة كهذه يمكن أن يراها المرء في لحظة خاطفة عندما يرى الغريق يبرز على صفحة ماء النهر فجأة، وتصدر من حناجر الجماهير المصطفة على الشاطئين صيحة الأمل راجية أن تمتد يدا الغريق اللتان أجهدهما الإعياء وتلتقطان الحبل الذي رموا به إليه - تلتقطانه قبل أن يعود السكون الأزلي المرعب إلى سطح المادة الجارية. ولكن الأمل يحيا لحظة خاطفة واليدان تختفيان. ويصمت كل شيء. وبعد ذلك يصير السطح الهادئ أرهب وأكثر إقفاراً. مثل هذا لاح في وجه بلوشكين، فبعد أن أشرقت على وجهه بوادر الإحساس هنيهة اختفت سريعاً وعاد إلى وضاعته وتبلده أكثر من ذي قبل.

وأخذ يقول «لقد كان على المنضدة ورقة نظيفة للكتابة، ولكن أين راحت؟ لست ادري. كل هذا من الخدم، فيا لهم من أوغاد!».

وبهذا أخذ يبحث تحت المنضدة ويصيح «مافرا، مافرا!» ولبث النداء بعد برهة إمرأة تحمل بين يديها طبقاً من الحلوى التي سبق ذكرها. وبدأ عندئذ الحوار التالي:

«ما الذي عملته بورقة الكتابة التي كانت هنا، أيتها السارقة؟».

«أقسم أنني لم أر الورق هنا إلا القطعة التي كنت تغطي الدورق بها».

«إن وجهك ينطق بأنك أنت التي أخذتها».

«ولماذا آخذها؟ أنها ليست بذات فائدة لي. فأنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة».

«إنك لتكذبين! لقد أخذتها إلى القندلفت ليبعث بها».

«إذا أراد القندلفت ورقاً ففي إمكانه الحصول عليه بنفسه. ولكن ورقتك لم تقع عليها عيناي ولا عينا القندلفت».

«إن الله يمهل ولا يهمل، ولسوف يشويك الشياطين يوم الحساب على سفافيد من حديد. هذا هو مصيرك».

«ولكن لماذا يشوونني وأنا لم ألمس ورقتك؟ قد أُتّهم بنقيصة نسائية أخرى أكثر مما أُتّهم بالسرقة».

«إن الشياطين سيشوونك بلا ريب، وسيقولون لك «يا عجوز السوء، لماذا كنت تسرقين سيدك؟ ويزيدون النار أواراً».

«ولكني مع ذلك سأظل أقول لهم «حرام ما تصنعون، فأنا لم أسرق في حياتي شيئاً» ولكن.. ها هي هناك على المنضدة! لقد كنت تتهمني ظلماً وعدواناً!» والواقع أن الورقة كانت ملقاة أمام عيني بلوشكين. فأخذ يمضغ شفتيه في هدوء، ثم قال:

«ولماذا تفتعلين هذه الضجة؟ إذا قال لك المرء كلمة واحدة أجبته بعشر. اذهبي وأحضري شمعة أختم بها كتاباً. واحترسي أن تحضري الشمعة المصنوعة من الشحم، وأحضري علبة ثقاب».

ولما انصرفت مافرا جلس بلوشكين وأخذ ريشة وراح يقلب الورقة على وجهيها المرة تلو الأخرى كما لو كان يفكر في أن يقتطع منها جزءاً. ورأى آخر الأمر أن من المستحيل أن يفعل ذلك، فغمس الريشة في المزيج المكون من الحبر والذباب الذي تحتويه المحبرة، وأخذ يكتب بحروف ظاهرة جداً كأنها الرموز الموسيقية، بينما كان بين الآونة والأخرى ينظر إلى سرعة يده لئلا تندفع فتأخذ الكثير من الورقة، ويزحف من سطر إلى سطر زحفاً فعل النادم على ترك بعض الفراغ في الصفحة.

ولكن إلى هذا الدرك من التفاهة والحقارة والوضاعة يمكن أن ينحط

الإنسان ويتغير بهذا القدر! وهل لذلك شبه بما يجري في الحقيقة؟ نعم، إنه كذلك، كل شيء يمكن أن يحصل للإنسان. إن شاباً ملتهباً من شباب اليوم سيتراجع رعباً لو أن أحداً عرض له صورته، وهو في شيخوخته. خذوا معكم إذن، حين تنتقلون من أعوام الصبا الناعمة، إلى الرجولة المتقسية الصارمة، خذوا في رحلتكم هذه كل المشاعر الإنسانية، ولا تتركوها في عرض الطريق، فإنكم لن تسترجعوها بعد هذا! فإن الشيخوخة الرهيبة المريعة التي تهددكم في المستقبل لن تعيد لكم شيئاً أخذته! والقبر أرق قلباً منها! فهم يكتبون عليه «هنا يرقد إنسان!» ولكن لا شيء يمكن أن يقرأ في الملامح الباردة الخالية من العاطفة لشيخوخة غير إنسانية.

ولما انتهى منها طواها، وسأل قائلاً «هل تعرف أحداً بحاجة إلى عبيد آبقين؟».

فشهق تشيتشيكوف باهتمام كبير وقال «ماذا؟ عندك عبيد آبقون أيضاً؟».

«بلا شك. وقد ذهب صهري وقدم الشكوى ضدهم إلى الدوائر المختصة، ولكنه يقول بأن ملاحقتهم أصبحت فاترة. على أية حال فهو رجل عسكري أيضاً ولا يصلح إلا لركوب الخيل، ولا نفع منه في تقديم قضية إلى محكمة».

«وكم عبداً هارباً لديك؟».

«قرابة السبعين».

«صحيح؟».

«نعم بكل أسف، لا تمر سنة واحدة دون أن يفر عدد منهم. وهم مع ذلك جشعون كسالى، لا عمل لهم إلا الأكل وتكاد تنفجر بطونهم منه، بينما أنا نفسي لا أكاد أجد شيئا يقيم الأود. سأقبل أي سعر تعرضه

عليّ لقاءهم. أخبر أصدقاءك ومعارفك عنهم فإذا ما وجدت بعضهم فستتلقى تعويضاً حسناً، لأن ثمن العبد الحي في لائحة الإحصاء في هذه الأيام يبلغ خمسمائة روبل».

فقال تشيتشيكوف في نفسه «ربما كان ذلك، ولكني لن أدع شخصاً يدس في هذا الشأن إصبعه» وقال لبلوشكين بأن أصدقاء ومعارف من هذا النوع لا وجود لهم، والمصاريف القانونية التي تتطلبها هذه العملية سوف تجعله يبيع معطفه قبل أن يتخلص من المحامين.

وأضاف تشيتشيكوف يقول «ومع ذلك، وبما أنك في حاجة شديدة إلى النقود، وبما أنني شديد الاهتمام بمصلحتك، فإنني أشعر بدافع يدعوني إلى أن أدفع لك ثمناً رمزياً تافهاً لا يستحق الذكر».

فراحت يدا بلوشكين ترتعشان كقطرة الزئبق، وقال موافقاً «وكم سيكون؟».

«خمسة وعشرون كوبيكا لكل نفس».

«ماذا؟ وهل ستدفعها فوراً».

«نعم، فوراً».

«ومع ذلك، أرجوك أن تنظر إلى فقري الذي أنا فيه وتجعلها أربعين».

«سيدي المحترم لو كان في استطاعتي أن أدفع لك لا أربعين كوبيكا بل خمسمائة روبل لفعلت، ولدفعت هذه القيمة بكل سرور. فلقد عرفت أنك شيخ عجوز محترم يعاني الكثير بسبب قلبه الطيب».

فرفع بلوشكين رأسه وحركه ببطء من جهة إلى أخرى وقال «أي والله، هذا هو الصحيح، هذا هو الصحيح. وكل ما عملت في حياتي كان صادراً عن رقة القلب».

«ها أنت ترى كيف عرفت طبيعتك حالاً! فيجب أن يكون واضحاً

لديك الآن لماذا لا اقدر أن أدفع لك خمسمائة روبل للرأس الهارب. ولا بد أنك قد أدركت الآن أنني لست على قدر كبير من الغنى. ومع ذلك كله فأنا على استعداد لزيادة خمسة كوبيكات، بحيث يكلفني كل عبد آبق في آخر الأمر ثلاثين كوبيكاً».

«كما تشاء يا سيدي. لكن مطّها قليلاً وزد كوبيكين آخرين».

«تفضل، قلت كم عبداً لديك؟ سبعون؟».

«لا، ثمانية وسبعون».

«ثمانية وسبعون، كل واحد سيكلف ثلاثين كوبيكاً، فيصبح المجموع» - ووقف بطلنا لحظة قصيرة فقط لأنه كان قوياً في الرياضيات، ثم قال «فيصبح المجموع أربعة وعشرين روبلاً وستة وتسعين كوبيكا»[٢٧].

ثم طلب من بلوشكين أن يكتب له وصلاً وسلّمه النقود. فتسلمها بلوشكين بكلتا يديه، وحملها إلى خوان قريب بحذر شديد جداً كما لو كان يحمل بين يديه سائلاً يخشى كل لحظة أن يترشش في وجهه، ووصل إلى الخوان ونظر حوله مرة أخرى، وحشا النقود في أحد الأكياس الخاصة بذلك، حيث قدر لها بلا شك أن تظل مدفونة هناك إلى أن تأتي الساعة التي يقوم بها الأب كارب والأب بوليكارب (الكاهنان الموكلان بالقرية) بعملية دفنه وسط نشوة السرور الكبرى التي تجتاح ابنته وصهره (وربما «ابن أخيه» الضابط أيضاً). وبعد أن قام بلوشكين بمهمة إخفاء النقود، رجع وجلس على كرسي ذي مسند مرة أخرى وبدا في حيرة من أمره لا يجد موضوعاً جديداً لحديث. ورأى

(٢٧) ومع ذلك فقد أخطأ تشيتشيكوف الحساب. فالمبلغ الحقيقي هو ثلاثة وعشرون روبلاً وأربعون كوبيكا. وعلى هذا يكون تشيتشيكوف قد غش - نفسه بروبل وستة وخمسين كوبيكاً. المترجم.

تشيتشيكوف يتحرك حركة بسيطة في موضعه، ومع أنها كانت لمجرد إخراج منديل من جيبه إلا أنه قال «هل تنوي الذهاب؟» وكان سؤاله هذا كافياً لتذكير تشيتشيكوف بأن لم يعد هناك مبرر للتباطؤ.

فأخذ قبعته وقال «نعم، علي أن أذهب».

«والشاي؟».

«شكراً، سأتناول شيئاً منه في زيارتي القادمة».

«ماذا؟ مع أنني قد طلبت إعداد السماور؟ أنا نفسي لا أهتم كثيراً بالشاي، وأعتقد أنه مشروب غالٍ. وزيادة على ذلك فإن سعر السكر قد ارتفع هذه الأيام ارتفاعاً فاحشاً». ثم نادى بصوت غالٍ «بروشكا، لا حاجة بنا إلى السماور، أرجع السكر إلى مارفا وقل لها أن ترجعه إلى موضعه مرة أخرى. لكن، لا. هات السكر هنا وسأعيده بنفسي إلى موضعه». ثم وجه الخطاب إلى تشيتشيكوف يقول «وداعاً يا سيدي العزيز، وليباركك الرب. أعط الكتاب إلى رئيس المجلس المحلي، ودعه يقرأه. فهو صديق قديم، عرفنا بعضنا منذ أيام المدرسة».

وبهذا القول، سارت هذه الظاهرة الغريبة، سار هذا الشيخ العجوز الذابل لمرافقة ضيفه إلى رتاج الساحة، وبعد أن انصرف الضيف أمر بإقفال الرتاج ودار دورة حول البناية ليتأكد من أن الحرس العديدين في مراكزهم الموجودين في كل زاوية يضربون بالعصي البراميل الفارغة بدلاً من قطع الحديد وأطل برأسه في المطبخ (ودخله متظاهراً بالإشراف على طعام الخدم ليكون كافياً ولكنه بهذه الحجة عمل لنفسه عشاء خفيفاً من حساء الكرنب والثريد) وراح يشتم الخدم بلسانه البذيء شتماً قاسياً لسرقاتهم وسوء سلوكهم، ثم عاد إلى غرفته. وجلس في وحدانيته يفكر في كرم ضيفه الذي لا حدّ له، وكيف يمكن أن يجزيه على ذلك وقال في فكره «سوف اهديه ساعة فضية جيدة الصنع،

وليست كالساعات الأخرى المصنوعة من المعادن الرخيصة. ومع أن فيها بعض العطب إلا أنه يستطيع اصلاحها بسهولة. والشباب بحاجة دائماً إلى ساعات يبرزونها لخطيباتهم». وبعد تفكير أعمق مما سبق قال لنفسه «لا، سوف أترك له الساعة في وصيتي كذكرى».

أما بطلنا فقد كان أثناء ذلك يدرج على الطريق بمعنويات عالية. كانت غنيمته من الأنفس الميتة ومن العبيد الآبقين كهدية مرسلة من السماء وكلها بالمجموع لا تزيد عن مائتي نفس إلا قليلاً. وحتى قبل أن يصل إلى قرية بلوشكين كان يتوقع أن يكون موفقاً في مهمته، ولكن لم يكن يتوقع التوفيق الذي حصل عليه في الواقع. وما إن تقدمت العربة قليلاً في سيرها حتى أخذ يصفر، ثم وضع يده على فمه على شكل بوق وانطلق يغنّي أغنية تسترعي الانتباه، حتى أن سيليفان بعد أن استمع إليها برهة من الزمن طأطأ رأسه وقال «يا آلهي! سيدي يجيد الغناء».

وفي الوقت الذي وصل فيه الركب إلى المدينة كان الظلام قد أرخى سدوله وتغيرت طبيعة المناظر التي كانت تمر أمام العين. كان الحاجز المخطط قد فقد لونه المحدد؛ شاربا الجندي الذي في الحراسة لاحا وكأنهما على جبينه وأعلى بكثير من عينيه، أما أنفه فبدأ وكأنه غير موجود البتة. وكانت القرقعة والنطات توحي بأن العربة كانت تسير على درب مرصوف. مصابيح الشوارع لم توقد بعد، ونوافذ البيوت وحدها كانت تنار هنا وهناك بينما كانت الأزقة والشوارع الخلفية مسرحاً لمشاهد وأحاديث لا تختلف عما يجري في مثل هذا الوقت، في كل المدن التي يوجد فيها العديد من الجنود، والحوذية، والشغيلة، والأصناف المعينة من المخلوقات على شكل سيدات في لفاعات حمر، وأحذية بلا جوارب، يمرقن كالخفافيش في مفارق الطرق. لم يلحظهم تشيتشيكوف؛ بل و لم يلحظ مثل هذه الكثرة من الموظفين ذوي العصوات الذين كانوا، على الأرجح، يتنزهون وراء المدينة، وهم

الآن في طريقهم إلى بيوتهم. ومن حين إلى آخر كان يصل إلى سمعه هتافات بأصوات نسائية، كما يبدو: «هذا السكير، يكذب، وأنا لم اسمح له قط أن يرتكب مثل هذه الفظاظة!» أو «لا تضربني، يا جلف، تعال إلى القسم بشرف، وهناك سأعرف كيف اثبت لك!» وباختصار إنها نفس الكلمات التي تسمط شاباً حالماً في العشرين من العمر عائداً من مسرح، يتخيل شارعاً في إسبانيا، ليلاً، وامرأة رائعة ذات خصلات تحمل قيثارها. وما أكثر ما يتخيل هذا الشاب، وهو محلق في السماوات، عائداً من زيارة لشيللر، وإذا بمثل هذه الكلمات المنحوسة تصدر فوق رأسه، فيجد نفسه وقد عاد إلى أرض الواقع، وحتى إلى ساحة مدينته، بل وقريباً من حانة، والحياة تسري أمامه من جديد في ثيابها الاعتيادية.

بدأت العربة تتراقص على بلاط الطريق الحجري، ثم انعطفت بعد لأي ودخلت ساحة النزل، حيث كان بتروشكا في الاستقبال. وقد ساعد سيده على النزول من العربة وهو يضم طرفيّ معطفه بإحدى يديه (فقد كان يكره أن يرى طرفيّ المعطف متباعدين). وهرول خادم النزل وهو يحمل في يده مصباحاً ويضع على كتفه فوطة. ومن المستحيل أن نقول فيما إذا كان بتروشكا مسروراً بعودة سيده، أو غير مسرور لكنه على أية حال تبادل غمزة عين مع سيليفان وأشرق مؤقتاً مظهره الكئيب المألوف.

وقال خادم النزل وهو يضيء السلم «إذن كنت في سفر بعيد يا سيدي».

«نعم، وهل حدث شيء في هذه الآونة؟».

فأجاب الخادم منحنياً «لا شيء يا سيدي، إنما وصل الليلة السابقة ضابط ملازم ونزل في الغرفة رقم ستة عشرة».

«ملازم؟».

«نعم. جاء من ريازان، بعربة ذات ثلاثة خيول لونها كميت».

وقال تشيتشيكوف لخادم النزل:

«حسناً، تصرف كذلك في المستقبل». وعندما دخل تشيتشيكوف إلى الغرفة وضع يديه على أنفه وسأل تابعه لماذا لم يفتح النوافذ قط. أجابه بتروشكا «ولكنّي فتحتها بالفعل». ومع ذلك فقد كانت هذه كذبة، كما كان تشيتشيكوف يقدر، إلا أنه لم يفتح باب الجدل لأن تعبه كان شديداً. وبعد أن طلب عشاء خفيفاً من لحم الخنزير الرضيع وأكله، نضا ثيابه، واندسّ في الفراش وغرق في نوم عميق لا يتمتع به إلا المحظوظون الذين لا يقلقهم الباسور ولا البرغيث ولا عمل الفكر الشديد.

الفصل السابع

سعيدٌ ذلك المسافر الذي يرى، بعد سفر طويل مضجر ببرودته ووحولته وحمئه، ومدراء محطات تبديل الخيول الناعسين وجلجلة أجراسه، وتصليحات عربته، وتبادل الشتائم، والحوذية، والحدادين وأوغاد الطريق على مختلف أنواعهم، يرى أخيراً السطح الذي يعرفه، والأضواء المقبلة عليه، وتظهر أمامه الحجرات المألوفة له، والصيحة الفرحة للراكضين إلى لقائه، وضجيج وتراكض الأولاد، والكلمات الخافتة المهدئة التي تتخللها القبلات الحارة القادرة على محو كل ما هو منغّص من ذاكرته. سعيدٌ ربّ العائلة الذي له مثل هذا المأوى، ولكن الويل للأعزب!

سعيدٌ ذلك الكاتب الذي يتعرف، دون الإلتزام بالشخصيات المضجرة المنفرة التي يصعقنا واقعها المؤسي، على شخصيات تعكس كرامة الإنسان الرفيعة ويختار من الدوامة العظيمة للشخصيات المتتابعة أمامه كل يوم بعض الإستثناءات، دون أن يخلّ، ولو مرة واحدة، بالنسق السامي لقيثارته، ولا ينزل من عليائه إلى إخوانه في القلم البائسين التافهين، وينغمس، دون أن يمس الأرض، في صورة المنقاة المرتفعة عنها كثيراً. إن قدرة الرائع هذا محسود حسداً مضاعفاً: فهو بينهم كأنما بين أهله، بينما مجده يطوّف في الآفاق عالي الصدى. فقد غشى عينيه الإنسانيتين ببخور نشوان، وتألق بهما بإعجاز، مغطياً على ما هو محزن في الحياة مظهراً بهما الإنسان الرائع. كل الممجدين يلاحقونه ويندفعون وراء عربته المنتصرة. وينعتونه بالشاعر العالمي الكبير، المحلّق

عالياً فوق جميع عباقرة العالم الآخرين، تحليق النسر فوق جميع الطيور المحلّقة الأخرى. إن مجرد ذكر اسمه يبث الرعشة في القلوب المشبوبة الفتية، ويدر دموع الإستجابة من كل العيون... إنه منقطع النظير في قوته. إنه آلة! إلا أن ثمة قدراً مختلفاً، ومصيراً آخر للكاتب الذي تجرأ على أن يكشف كل ما يظهر في كل لحظة أمام الأبصار، ولا تراه العيون اللاابالية، كل الطفح المريع المذهل للصغائر التي تحيط بحياتنا، كل عمق الشخصيات الباردة المهشمة التي نراها كل يوم، والتي يحفل بها طريقنا الدنيوي، المرير المضجر في أغلب الأحيان، الكاتب الذي أقدم بما لإزميله الذي لا يهادن من قوة صلبة على أن يُظهر هذه الشخصيات بارزة ساطعة أمام أنظار الشعب كله. إنه محروم من كسب إطراءات الناس ورؤية دموع الإمتنان، والبهجة الشاملة تعمّ نفوسهم التي أثر فيها. ولن تندفع نحوه فتاة في السادسة عشرة دّوارة الرأس، بطولية الحماس، ولن يغيب في السحر الحلو للأصوات التي حركها، كما لن يتخلص أخيراً، من محاكمة معاصريه، محاكمة معاصريه النفاقيّة الخالية من التعاطف، والتي تدمغ مخلوقاته المدللة من قبله بالتفاهة والوضاعة، وتفرد له ركناً محتقراً في صف الكتاب الذين يهينون الإنسانية، وتخلع عليها صفات الأبطال التي صورها، تنزع منه القلب والروح ولهب الموهبة الإلهي. لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن الزجاج الذي ترى من خلاله الشموس عجيب بمقدار ما هو عجيب الزجاج الذي ترى من خلاله حركات حشرات مجهرية؛ لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن تصوير الحياة الوضعية وتحويله إلى لؤلؤة إبداع يحتاج إلى عمق الشعور ودخيلة النفس؛ لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن الضحك البهيج الرفيع جدير بأن يقف على صعيد واحد مع العاطفة الشاعرية الرفيعة، وأن هناك هوّة شاسعة بين هذا الضحك والضحك التهريجي الرخيص! إن محكمة معاصريه لا تعترف بذلك، وتحوّل كل شيء إلى

تقريع وهزء بالكاتب غير المعترف به. وسيبقى وحده على قارعة الطريق بلا مشاركة، ولا استجابة، ولا تعاطف، كالصعلوك المتشرد. إن مهنته لشاقة، ووحدته لمريرة.

ولزمن طويل آخر كتبت عليّ سلطة عجيبة أن أسير يداً بيد مع أبطالي الغريبين، وأن استعرض الحياة المندفعة بكل جسامتها، إن استعرضها خلال الضحك المرئي للعالم، والدموع غير المنظورة وغير المرئية لهذا العالم. وما يزال بعيداً ذلك الزمن الذي سترتفع فيه زوبعة الإلهام المريعة بدفق آخر من رأس محاط بالألق والرعب المقدس ويشعر الناس بالهدير الجليل للكلمات الأخرى، وهم في رعدة الإرتباك.

فإلى السفر! إلى السفر! وسحقاً للغضون التي حفرت جباهنا، وللظلّ الجهم المرتمي على الوجه! ولننغمر في الحياة، فجأة ودفعة واحدة بكل قرقعتها المكتومة ورنين أجراسها ولنر ما سيفعله تشيتشيكوف.

لما استيقظ تشيتشيكوف تمطّى فاستيقن أنه نام نوماً هنيئاً. واضطجع على ظهره لحظة أو لحظتين ومن ثم صفق بيديه فجأة إذ تذكر أنه أصبح الآن مالكاً لحوالي أربعمائة نفس. وقفز حالاً من الفراش ولم يذهب إلى المرآة ليرى نفسه فيها، أي أنه خرق القاعدة التي لم يكن في غير هذا اليوم يمد إليها يعد العبث. فقد كان دائماً شديد الاهتمام بقسمات وجهه، وخاصة بالذقن التي كان يزيد اهتمامه بها إذا ما كان في جمع من الأصحاب؛ وأكثر من ذلك إذا ما دخل عليه شخص وهو مشغول بحلاقتها. كانت الجملة التي يستعملها في هذه المناسبة هي أن يقول «أنظر ما أشد استدارة ذقني!» أما في الحالة الراهنة، على أية حال، فلم ينظر إلى ذقنه ولا إلى أية قسمة أخرى، إنما انتعل نعله المطرز بالزهور والمصنوع من الجلد المراكشي (والفضل في ذلك لحب الروس حياة الراحة وقضاء معظم الوقت في الملابس البيتية فقد أصبحت مدينة تورجوك تقوم بصناعة ضخمة من هذه النعال)، وارتدى قميصاً قصيراً

لا غير على نمط الاسكتلنديين ونسي كبر سنه وكبرياءه وقفز قفزتين ماسكاً ظهره بكعبه. ولم يبدأ بعمله إلا بعد أن أجرى كل ذلك. ومن ثم غرس نفسه أمام صندوق المراسلات وفرك يديه ببعضهما البعض دلالة على الرضى العميق، كما يفعل القاضي الريفي الذي لا شائبة تشوب سمعته حينما يؤجل جلسة المحكمة إذ يحل موعد الغداء. ومن ثم انتزع من الصندوق رزمة من الورق. وقرر أن لا يودع أوراقه هذه إلى محام بغية الإسراع في الأمور والتوفير في النفقات وراح بنفسه يرتب وينسخ كل المعلومات الضرورية في صفقات كهذه. ولما كانت لديه الخبرة الكافية في هذا الشأن فقد أخذ يكتب التاريخ بحروف كبيرة، ثم اسمه ورتبته بحروف أصغر. وفي الساعة الثانية كان كل شيء ناجزاً. وما إن نظر إلى الأسماء التي تدل على فلاحين غابرين كانوا قد حرثوا واشتغلوا أشغالاً حرفية متنوعة وخدعوا أسيادهم وجلبوا وحملوا وسكروا (مع أن بعضهم قد يكون سلك سلوكاً حسناً) حتى طغى عليه إحساس غريب لا تفسير له. وبدا لعينيه أن كل قائمة من قوائم الأسماء هذه ذات طابع خاص بها. حتى الفلاحون فيها كأفراد، كانوا يبدون وكأنهم اتسموا بصفات خاصة بهم. فإن مدام كوروبوتشكا مثلاً، كانت تلحق بأسماء معظم أقنانها ألقاباً وإضافات أخرى. وكانت قائمة بلوشكين تتميز بالدقة في الإيضاح بحيث أن بعض الأقنان لا يستدل عليها إلا بالإسم الأول واللقب ونقطتين وراءهما. وكانت قائمة سوباكيفيتش مدهشة في اتساعها ودقة تفاصيلها، بحيث لم تترك ميزة خاصة لأي فلاح دون أن تذكرها: كأن تقول عن الفلاح الفقيد أنه كان «رائعاً في فن التخشيب» أو «رزين وشديد الانتباه إلى عمله». وفي قائمة سوباكيفيتش أيضاً سُجلت ملاحظات عن والد الميت ووالدته وكيف كان سلوكهما. قنٌّ واحد فقط يدعى فيودوتوف سجل بالقرب منه ما يلي «الأب مجهول، الأم الخادمة كابيتولينا. الأخلاق

والأمانة جيدتان». هذه التفاصيل ألقت على الوثيقة روحاً من الجِدّة تشعر بأن الفلاحين المذكورين كانوا أحياء إلى الأمس فقط. وإذ تفحص تشيتشيكوف القائمة طغت على روحه موجة ناعمة من الحنان فتنهد وقال:

«إيه أيها الاصدقاء! أي جمع منكم هنا! وكيف قضيتم حياتكم يا إخواني، وكيف غادرتم هذا العالم؟».

وإذ كان يتكلم وقعت عيناه على اسم معين – هو بيتر سافيلييف غير المحترم للطست، الذي كان في يوم من الأيام ملكاً لمدام كوروبوتشكا. فلم يتمالك أن يصيح متعجباً:

«أي سلسلة من الألقاب هذا! إنها تحتل سطراً كاملاً! بيتر سافيلييف، إني لأعجب منك أن كنت حرفياً أو فلاّحاً عادياً. وإني لأعجب أيضاً كيف لقيت حتفك. في حانة أم عندما ذهبت لتنام في قارعة الطريق فداستك قافلة من عربات الشحن. وإني لأرى أيضاً اسم بروكا ستيبان، نجار، وقور جداً. يجب أن يكون هذا هو البطل الذي يتمنى الحرس أن يخدم فيه. إني لأراه جيداً وهو يجوب في خلاء منطقته كلها وحذاؤه فوق كتفيه يعيش طوال يومه على ما يساوي بضعة كوبيكات من الخبز والسمك المجفف، ثم يعود إلى بيته حاملاً في محفظته قطعة من فئة المائة روبل، أما قطعة الألف روبل فيخيطها في سراويله أو يخبئها في حذائه! على أي شكل وصلت إليك نهايتك يا بروبكا ستيبان؟ أكنت سعياً وراء الرزق تعلو سقالة عند قبة كنيسة القرية فجربت أن تتسلق على القبة فزلت قدمك عن لوح الخشب فوقعت تهوي إلى الأرض، ولم يشهد هذه الكارثة غير العم ميخاي – ذلك العم الطيب الذي حكّ قفاه وتمتم قائلاً «آه يا فانيا، لقد كنت ماهراً جداً!» وثم ربط نفسه بحبل وانتقل إلى المحل الذي وقعت فيه حالاً؟... ماكسيم تلياتنيكوف، إسكاف. أحقاً أنت إسكاف؟ يقول المثل «سكير كإسكاف». إني لأعرف على

أية شاكلة كنت أيها الصديق. وإذا شئت أنبأتك بقصتك كلها. لقد التحقت بسيد ألماني أطعمك وأطعم رَبْعك على مائدة واحدة، وضربك بالسوط وسجنك كلما أتيت خطأ، وتكلّم عنك لزوجته وأصدقائه بأقوال لا تحسد عليها. وأخيراً، لما انتهت مدة التعاقد بينك وبينه قلت لنفسك «إنني سأنشيء نفسي بنفسي منذ الآن، ولن أجمع كوبيكاً من هنا وكوبيكاً من هناك كما يفعل الألماني، ولكنني سأغتني بسرعة».

ومن ثم استأجرت دكاناً بأجرة مرتفعة، واستحضرت بضاعة كثيرة وشرعت في العمل – تشتري الجلد المتعفن الذي تصنع منه زوج احذية بربح مضاعف. ولكن زوج الأحذية تفلّع في إسبوعين، وجر على رأسك سيلاً عارماً من اللعنات. وكانت نتيجة ذلك أن خلا محلك من الزبائن تدريجياً، فانطلقت تتجول في الطرقات صائحاً «أن الدنيا لبائسة حقاً! لا يستطيع الروسيّ أن يعيش والألماني ينافسه». حسناً، حسناً... إليزابيتا فوروبي! لكن هذا اسم امرأة! كيف تسنى لها أن تكون في القائمة؟ لا بد أن يكون النذل سوباكيفيتش قد حشرها خلسة دون علمي». كان تشيتشيكوف على حق. كانت إمرأة بالفعل ولا أحد يعرف كيف جاءت إلى هنا. ولكن اسمها قد كتب ببراعة، بحيث كان الممكن من بعيد أن تعتبر رجلاً. ومع ذلك فإن تشيتشيكوف لم ينظر إلى ذلك بعين الإحترام. فشطب اسمها.

واستمر يقول «جريجوري رُح ولن تجيء». عجبا! ما أغرب اسمه! أي نوع من الرجال كنت؟ هل كنت حمالاً فاستطعت أن تعد عربة ذات مظلة بفرقة من ثلاثة خيول، ثم تركت بلدك ومسكنك المتواضع إلى الأبد ورحت تشتغل في نقل بضائع التجار؟ هل كنت سائراً على الدرب حين أسلمت روحك إلى بارئها، أو كنت قبل ذلك قد وقعت في حب زوجة أحد الجنود وكانت فتاة سمينة محمرة الوجه وقتلوك نتيجة ذلك؟ وهل استهوت عربتك أحد قطاع الطرق لما رأى فرقتها

من الخيول المخشوشنة الممتلئة الأكفال؟ أم كنت مضطجعاً على فراشك المتواضع تفكر في أمور الدنيا وتوسعها تفكيراً حتى رأيت أن من الواجب عليك طوعاً أو كرهاً أن تلجأ إلى الحانة تخبط فيها خبط عشواء؟ أيه يا فلاحنا الروسي! إنك لن ترحب بالموت الطبيعي أبداً!».

ثم التفت إلى الورقة التي سجل فيها أقنان بلوشكين الفارين، وأخذ يقول «وأنتم يا اصدقائي! إنكم لا تزالون أحياء، ولكن أية فائدة ترجى منكم؟ إنكم عملياً ميتون. وإني لأعجب أين ألقت بكم عصا الترحال؟ هل كنتم عند بلوشكين تتألمون من شظف العيش فآثرتم الفرار أو أن طبيعة أهوائكم قادتكم إلى تفضيل التجوال في البراري والقفار وسلب من يعترضكم من المسافرين؟ وهل انتم الساعة في السجون أو تحرثون أرض أسياد آخرين؟ أيرمي كارياكين، نيكيتا فولوكيتا، وأنطون فولوكيتا (ابن السابق) إذا حكمنا عليكم بألقابكم فسوف تكونون ذوي أصل جوال. بوبوف خادم في البيت. من المحتمل أن تكون رجلاً مثقفاً أيها الطيب بوبوف، فتروح تسرق بأدب ولباقة تتميز عن ذلك النوع الوحشي من السرقة الذي يصحبه حزّ الحلاقيم. إني لأتصورك بأم عيني رئيس شرطة الريف يتحداك لأنك لا تحمل جواز سفر فتلقي كلّ ما في جعبتك دفعة واحدة. ويسألك الرئيس من سيدك؟ وقد يضيف إلى سؤاله هذا كلمة قاسية أخرى. فتقول عارماً «الملاّك الفلاني أو الفلاني» ويستمر الرئيس سائلاً «وماذا تعمل هنا؟» فيكون جوابك السهل السياب أن تقول «لقد أخذت إذناً بالذهاب لأجمع ضريبتي» «إذن أين جواز سفرك؟» - «عند المواطن بيمينوف». - «بيمينوف؟ لنستدع بيمينوف إلى هنا! إذن أنت بيمينوف نفسه؟» «نعم، أنا بيمينوف نفسه». - «هل أعطاك جواز سفره؟» - «لا، لم يعطيني جواز سفره». فيصبح الرئيس عالياً «ما هذا؟ ما هذا؟ إنك تكذب». فيكون جوابك المستكلب «لا، لا أكذب، لم أستطع الليلة الماضية أن أعيد إليه جوازه

لأنني رجعت إلى البيت متأخراً، وعلى ذلك فقد سلمته إلى أنتيب بروخوروف، قارع الأجراس ليحفظه له»، – «قارع الأجراس؟ حقاً! هل هو الذي أعطاك جوازاً؟» «لا، لم يعطني أي جواز» وهنا يضيف الرئيس مسبة أخرى، ويقول «ماذا؟ كيف تجرؤ على الاستمرار في الكذب؟ أين جوازك الشخصي؟» فتجيب بخبث «لقد كان لي جواز ويظهر أنه سقط مني في الطريق عندما كنت آتياً» ويضيف الرئيس كلاماً وقحاً ويقول «وما قضية معطف الجندي؟ من أين حصلت عليه؟ وما قولك في خزنة الراهب والنقود النحاسية؟» فتجيب مستكلباً «لا علم لي بهذه الأشياء، ولم أرتكب في حياتي جريمة سرقة أبداً» – «إذن كيف تفسر وجود المعطف عندك؟» – «لا أعرف! فمن المحتمل أن يكون قد وضعه إنسان هناك». فيصبح الرئيس هازاً رأسه ورافعاً قبضته عليه «أيها السافل! أيها السافل! قيّدوه بالحديد وخذوه إلى السجن» فتجيب «بكل سرور» وتخرج علبة السعوط من جيبك وتقدم منها للجنديين اللذين يصفّدانك، وتروح وتسألهما عن الوقت الذي سُرّحا فيه من الجيش وفي أي الحروب اشتركا. وتظل في السجن حتى ينظر في قضيتك. عندئذ يصدر القضاء أمره بنقلك من تساريفكوكشايسك إلى سجن كيت وكيت. ثم يصدر قضاء آخر أوامر أخرى بنقلك إلى (فسيجونسك) أو إلى محل غيره. وتروح متنقلاً من سجن إلى سجن، وتقول كل مرة إذ ترى السجن الجديد «كان السجن السابق أنظف من هذا بكثير، وكان باستطاعة المرء هناك أن يلعب «البابكي[٢٨]» وأن يمد رجله وأن يرى جمعاً من الناس».

وبعد صمت قليل استمر يقول «أباكوم فيروف، ما شأنك أيها الأخ؟ أين تلهو الآن وبأي عزم تلهو؟ هل ذهبت إلى شواطئ الفولجا فأطبقت عليك حياة الحرية فانضممت إلى المراكبية؟».

---

(٢٨) لعبة الكعاب. المترجم.

وهنا أمسك تشيتشيكوف فجأة عن الكلاّم واستغرق في تأملاته الصامتة. ما الذي كان يدور في فكره آنذاك؟ هل كان يفكر فيما جرى لأباكوم فيروف أم كان يفكر كما يفكر كل روسي إذا ما انصرف ذهنه إلى حياة التحرر والانعتاق؟ وبالفعل أين فيروف الآن؟ إنه يتخطر مرحاً صخاباً في رصيف الحبوب، يماكس التجار. إن جماعة المراكبية كلها تمرح والزهور والأشرطة على رؤوسها تودي معشوقاتها وزوجاتها الطويلات الممشوقات، يتحلين بالقلائد من قطع النقود والأشرطة؛ رقصات وأغان، الساحة كلها تمور بالحياة، والحمّالون في غضون ذلك، ووسط الصيحات والشتائم والعجلة، يغرزون خطاطيفهم في حمولة تسعة بودات ويحملونها فوق ظهورهم، ويدلقون الحمّص والقمح بصخب في بطون المراكب العميقة، أو يكومون أكياس الشعير والذرة، حتى أن أكوام الأكياس ترى بعيداً في أرجاء الساحة، مصفوفة في هرم مثل قنابل المدافع، وترسانة الحبوب كلها تبدو هائلة حتى تنقل إلى بطون المراكب على نهر سورا، ويتحرك الاسطول الهائل من المراكب مع أناسه المرحين! عندئذ سيكون أمامكم عمل كبير، يا مراكبية! ومثلما كنتم تمرحون وتصخبون مجتمعين، ستشمرون للعمل والعرق ساحبين المراكب على إيقاع أغنية واحدة لا نهاية لها كروسيا نفسها.

ثم نظر إلى ساعته وتنهد وقال «أيه! لقد بلغت الساعة الآن الثانية عشرة. لماذا نسيت نفسي هكذا؟ لا يزال عليّ الكثير من العمل وأنا منزوٍ هنا مطلقاً لتفكيري العنان! أي غبي أنا!».

قال ذلك ونهض فأبدل زيّه الاسكتلندي (الذي يتكون من قميص واحد فقط) بزيّ ذي طابع أوروبي. ثم شد الصدار على معدته الممتلئة ورش على نفسه ماء الكولونيا وزمّ أوراقه تحت ذراعه وأخذ قبعته ذات الفرو وانطلق شطر مكاتب البلدية بغية إتمام تسجيل النفوس. و لم يكن إسراعه في الذهاب خوفاً من تأخره، فهذا أمر لا يكترث إليه فتيلاً (لأن

رئيس المجلس المحلي صديق حميم، وباستطاعته كأي موظف كبير آخر أن ينجز الأمر بسرعة شديدة أو أن يطيل فيه كما يشاء، كما كان يفعل زيوس الذي جعله هوميروس قادراً على تقصير الليل والنهار أو تطويلهما إذا أصبح من الضروري أن يضع حداً لقتال أبطاله المحبوبين أو أن يترك لهم المتسع من الوقت لإكمال المعركة)، لكنه كان يحس بأن عليه أن ينجز الأمر بأسرع ما في الإمكان نظراً لأن الأمر كان شاقاً مقلقاً من بدايته إلى نهايته. وبالإضافة إلى ذلك، لم يستطع أن يتخلص من فكرة يحملها وهي أن نفوسه شيء غير مادي. بناء على ذلك كان يفضل في هذه الظروف أن يزيح هذا العبء عن كاهله دون أي تأخير. ولبس معطفه القرفّي اللون المخطط كجلد الدب وخرج. و لم يكد يخطو إلى الشارع مستغرقاً في التفكير حتى اصطدم بسيد يرتدي معطفاً وقبعة من الفرو لها عذبتان فوق الأذنين. عندئذ صاح الرجل صيحة تعجب. وإذا به مانيلوف. طوت الصديقين ضمة عنيفة وظلاّ ملتحمين على هذا الشكل خمس دقائق كاملة. وقد كانت القبلات التي تبادلاها في الواقع شديدة جداً حتى أنهما ظلاّ يشكوان من ألم أسنانهما مدة كبيرة من ذلك اليوم. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان سرور مانيلوف في الأوج حتى لم يعد يظهر من وجهه غير الأنف والشفتين، واختفت عيناه اختفاءً تاماً. وقضى بعد ذلك ربع ساعة وهو ممسك بيد تشيتشيكوف يفركها بشدّة. وأخيراً، أخذ يبوح لصديقه، بأفخر التعابير الممكنة وأروعها، بأنه كان في طريقه إلى معانقة بافيل ايفانوفيتش. وتبع ذلك إطراء من النوع الذي يليق أن تخاطب به سيدة عندما يدعوها زميل تشاركه في الرقص. وفتح تشيتشيكوف فمه للإجابة – لكنه شعر (حتى هو) بأنه ضائع لا يدري كيف يجيب على ما قيل، إلى أن أنقذه مانيلوف بأن أخرج من تحت معطفه رزمة من الورق مربوطة بشريط أحمر.

وتساءل تشيتشيكوف «وما تلك؟».

«قائمة نفوس».

«ايه!» وفتح تشيتشيكوف الوثائق ومرر نظره عليها، و لم يستطع إلا أن يندهش لتلك الأناقة الرائعة التي كتبت بها.

وقال «إن الخط رائع جداً. ولا حاجة في الواقع إلى نسخها. ولها هامش على الأطراف! من عمل هذا الهامش الرائع؟».

فقال مانيلوف «لا تسألني».

«هل عملته أنت؟».

«لا، زوجتي».

«يا الهي! يا الهي! لم أكن أتصور أن أزعجها إلى هذا الحد».

«لا شيء يمكن أن يكون إزعاجاً إذا كان من أجل بافيل ايفانوفيتش».

فانحنى تشيتشيكوف شكراناً. وبالتالي، لما علم مانيلوف أنه كان في طريقه إلى دوائر البلدية لإنجاز عملية النقل أبدى استعداده لمرافقته. فاشتبك الإثنان ذراعاً بذراع وانطلقا. وكان مانيلوف أثناء سيرهما إذا ما قابلا نتوءاً طفيفاً من الأرض - حتى أقل تعرج أو اختلاف في المستوى - يسند تشيتشيكوف بقوة تكاد ترفعه من قدميه، ويرفق جميل صنعه هذا بابتسامة مضمونها أنه لو لا مساعدته لكان وقوع بافيل ايفانوفيتش أو انزلاقه أمراً حتمياً. ومع ذلك فقد بدا هذا السلوك يحرج تشيتشيكوف إما لأنه لم يجد الكلمات المناسبة لاعترافه بالجميل أو لأنه وجد هذا التصرف أمراً متعباً. ولهذا أحس بالراحة إذ أطلّ على ساحة مكاتب البلدية - حيث تقوم بناية مؤلفة من ثلاثة طوابق بيضاء كالطباشير، قد ترمز بذلك إلى طهر النفوس التي تقيم فيها. و لم يكن في الساحة أية بناية أخرى تضاهيها حجماً، لأن المباني الأخرى كانت تتكون فقط من مظلة للحارس ومأوى لسائق أو سائقين ولوحة طويلة للإعلانات تزينها النشرات المألوفة والبيانات وتثبيجات أخرى

بالطباشير والفحم. ولم يكن ثمة من شيء آخر في هذه الساحة المعزولة أو الجميلة، كما توصف عندنا. ومن نوافذ الطابقين الثاني والثالث كانت تطل بين الفينة والأخرى رؤوس كهنة تيميس[٢٩]. النزيهة – تطل بسرعة وتنسحب بالسرعة نفسها، وقد يكون سبب ذلك أن موظفاً كبيراً دخل الغرفة آنذاك. وكان الصديقان في هذه الآونة يصعدان السلّم، لا بل يكادان يطيران، لأن تشيتشيكوف كان يسرع الخطى لكي يتخلص من ذراع مانيلوف التي تسنده أبداً، ومانيلوف يندفع إلى الامام حتى يقي صاحبه أي زلّة قد تزلها قدماه وعلى هذا، ما كادا يصلان أول دهليز حتى كادت تتقطع منهما الأنفاس. ويمكن أن نذكر – عابرين – أن لا الدهليز ولا الغرف أبدت من النظافة والنقاء ما أبداه ظاهر العمارة، لأن سجايا كهذه لا تسترعي الاهتمام في الداخل وكل ما كان متسخاً ظلّ على ما كان عليه، ولم يكن يتخذ مظهر الاحترام. كان كما لو أن تيميس تستقبل زائريها بإهمال وهي ترتدي رداء البيت. وكان بود المؤلف أن يصف المكاتب المختلفة التي مر بها بطلنا لو لم يكن يخشى (أي المؤلف) الملاحقات القانونية. وحتى إذا صادف وأن وجدها في ألمع وأحشم مظهر، بأرضيات ومناضد مصقولة، فقد كان يحاول أن يمر بها بأسرع ما يمكن، غاضاً ومخفضاً بصره إلى الأرض بوداعة، ولهذا السبب لا يعرف كلياً كيف اتخذت هذا المظهر اللامع الزاهر. إن أبطالنا رأوا العديد من الأوراق مكتوبة وبيضاء، والرؤوس المحنية على المناضد، والأقفية العريضة، وستر الفراك، والجاكتات من النمط الإقليمي، وحتى جاكتة بسيطة رمادية فاتحة كانت العين تلتقطها بوضوح شديد، وقد مالت الرأس إلى جانب، وكادت تمس الورق، وهي تستنسخ بنشاط وطريقة تلفت النظر محضراً عن أراض منزوعة

---

(٢٩) تيميس (أو طاميس) آلهة العدل والقسطاس. المترجم.

الملكية أو جرد ضيعة استولى عليها ملاّك وديع ليقضي فيها بقية حياته بهدوء، وبينما تكون القضية معروضة في المحاكم، يكون هو قد خلف الأولاد والأحفاد أثناء المحاكمة. ومن حين لآخر كانت تسمع عبارات مقتضبة منقطعة يطلقها صوت أجش «لو تتكرم، وتعطيني الاضبارة رقم ٣٦٨، يا فيدوسي فيدوسيفيتش» - «دائماً أنت تحشر غطاء قارورة حبر الدائرة في مكان ما!» وأحياناً يصدر صوت أكثر مهابة، هو، بدون ريب، صوت أحد الرؤوساء، قائلاً بلهجة آمرة «هاك. استنسخ. وإلا جعلتك تخلع جزمتك وأبقيتك هنا ستة أيام بلا طعام». كان صريف الريش عالياً، وكأن عدة عربات محملة بالأغصان المقطوعة تمر في غابة تراكمت على أرضها أوراق الشجر اليابسة بعمق ذراع.

واقترب تشيتشيكوف ومانيلوف من أول مكتب صادفه ورأى موظفين شابين كانا يجلسان خلفه، وطلبا إليهما أن يتلطفا فيدلاّ، أين تتم عملية نقل الأقنان.

فالتفتا إليهما الشابان الموظفان وقالا «ما هو نوع العمل الذي تريد، بالضبط؟».

«أريد أن أقدم طلباً».

«بخصوص الشراء؟».

«لكنني أريد أن أعرف قبل كل شيء المكتب المختص بنقل الأقنان. هل هو هنا أو في محل آخر؟».

«يجب أن تخبرنا أولاً عن الشيء الذي اشتريته، وعن سعره، وعندئذ يسرنا أن نعطيك ما تبغي من معلومات».

وأدرك تشيتشيكوف أن ما دفع الموظفين إلى ذلك كان مجرد الفضول كما يحصل دائماً مع صغار الموظفين الذين يريدون أن يظهروا بشخصية أكبر أهمية وأكثر وقعاً مما هم عليه.

فقال «اسمعا يا سيّدي. إنني أعرف أن نقل الأقنان مهما اختلفت قيمتها تجري في مكتب واحد. وبناء على ذلك أطلب إليكما أن تدلاّني على ذلك المكتب. وإذا لم تعرفا عملكما فإني سأسأل غيركما بكل سهولة طبعاً».

و لم يجب الموظفان على هذا بأكثر من إشارة إلى إحدى زوايا الغرفة حيث كان رجل عجوز مشغولاً في تصنيف بعض الأوراق، فانسل تشيتشيكوف ومانيلوف من بين المكاتب إليه. وازداد العجوز عندئذ انشغالاً.

فسأله تشيتشيكوف منحنياً «هل تتفضل فتخبرني إذا كان هذا هو المكتب المختص بشؤون الأقنان؟».

فرفع العجوز عينيه وقال بخشونة «لا ليس هذا مكتب شؤون الأقنان».

«أين هو إذن؟».

«في دائرة الأقنان «.

«وأين تكون دائرة الأقنان هذه؟».

«في عهدة ايفان انطونوفيتش».

«وأين ايفان أنطونوفيتش؟».

فأشار الرجل العجوز إلى زاوية من زوايا القاعة، وإليها وجه مانيلوف وتشيتشيكوف الخطى. وإذ تقدما إلى ايفان انطونوفيتش التفت إلى الوراء ثم نظر إليهما متسائلاً ثم عاود الكتابة بحمية متجددة.

وسأله تشيتشيكوف منحنياً «هل تسمح فتخبرني إذا كان هذا هو المكتب المختص بشؤون الأقنان؟» بدا وكأن ايفان انطونوفيتش لم يسمع شيئاً ولهذا دفن رأسه كليةً بين أوراقه و لم يحر جواباً. وقد اتضح

لهما من مظهره فوراً أنه كان على الأقل في سن الوقار وليس من أولئك الثرثارين الفارغين الطائشين. ومع أن شعره كان أسود كثيفاً إلا أنه قد تخطى الأربعين منذ أمد بعيد. كان كل وجهه منحرفاً باتجاه أنفه، أي ما يشبه عادة بالجرة.

وكرر تشيتشيكوف كلامه قائلا «هل تسمح فتخبرني إذا كان هذا هو المكتب المختص بالأقنان؟».

فقال ايفان انطونوفيتش «هذا هو». وأحنى رأسه الذي يشبه الجرة مرة أخرى، وعاود الكتابة.

«إذن اريد أن أجري معاملة، فقد اشتريت من ملاّكين مختلفين في هذه المقاطعة عدداً من الفلاحين وأريد أن أنقلهم إلى اسمي. هذه لائحة المشتريات ولا تحتاج إلا إلا التسجيل».

«هل البائعون معك هنا؟».

«بعضهم معي، ومعي توكيل من الباقين».

«وهل لديك نص الطلب؟».

«نعم، إنما أريد أن أسرع في إجراء المعاملة، لأمر ضروري لي. هل يمكن انجازها كلها خلال هذا اليوم؟».

«اليوم؟ لا يا عزيزي! قبل إجراء ذلك يجب أن تقدم لي ما يثبت أن لا اعتراضات على هذه المعاملة».

«إذن، علي أن أخبرك أن ايفان جريجوريفيتش صديق حميم لي، فأرجو السرعة».

فقال ايفان انطونوفيتش دون حماس «من المحتمل، ولكن ايفان جريجوريفيتش ليس وحده مسؤولاً، فهناك آخرون أيضاً».

«نعم، ولكن الآخرين لن يشعروا بالظلم. لقد كنت نفسي في الخدمة وأعرف كيف تسير الأمور».

فأجاب ايفان انطونوفيتش بلهجة أكثر لطفاً «من الأفضل أن تذهب وتقابل ايفان جريجوريفيتش. دعه يعطي امرأً لمن يهمه الأمر فباستطاعتنا أن ننجز المهمة».

عندئذ سحب تشيتشيكوف من جيبه ورقة نقدية وألقاها أمام ايفان انطونوفيتش، فرفع الأخير كتاباً بسرعة ووضعه فوقها. وحاول تشيتشيكوف أن يريها له مرة ثانية ولكن ايفان انطونوفيتش هزّ رأسه دلالة على أن هذا غير ضروري.

وأضاف قائلا «سيوصلك أحد الموظفين إلى غرفة ايفان جريجوريفيتش».

عندئذ تقدم منهم أحد الكادحين في خدمة تيميس - متعصب، قدّم لها تضحيات من صميم الفؤاد جعلت معطفه ينشق عند كوعيه وتنتشر بطانته - وأوصل صديقينا (كما أوصل فرجيل دانتي ذات مرة) إلى ديوان الحضرة الربانية. في هذا المكان المقدس انتصبت بضعة كراسي من ذوات المتكأ ومنضدة عليها كتابان سميكان ومرآة كبيرة. وأخيراً كان الرئيس يجلس إلى المنضدة كالشمس في وحدانيتها، على ما تدل عليه الظواهر. وما وصل فرجيلنا الجديد إلى باب الغرفة حتى بدأ كأن الرعب استحوذ عليه، فقفل راجعاً دون أن يجرؤ على إدخال قدمه داخل الباب، وبعمله هذا عرض ظهراً لامعاً كالحصير علقت به ريشة طير في احدى نواحيه. وحالما دخل الصديقان إلى الحضرة الربانية أدركا أن الرئيس لم يكن وحيداً بل كان يجلس إلى جواره سوباكيفيتش الذي اختبأ هيكله حتى تلك الساعة وراء المرآة المعترضة. أما دخولهما فقد أثار عاصفة من صيحات مختلفة وتسبب في اندفاع كرسين من كراسي الحكومة إلى الوراء بينما كان سوباكيفيتش ذو الأردان المعبعبة يقف بارزاً خلف المرآة. وتناول الرئيس تشيتشيكوف بالعناق، ودوت الحضرة العلوية برهة من الزمن برنين القبلات وأخذا يتبادلان الأسئلة

عن صحة بعضهما البعض. وقد تبيّن أن الإثنين كانا يعانيان من تلك المسّة من الألم التي تصيب الإنسان في أسفل الخصر والتي تسببها حياة الخمول. وقد تبين أيضاً أن الحديث بين الرئيس وسوباكيفيتش كان حول بيع النفوس إذ تقدم الآن يهنئ تشيتشيكوف على ذلك - وهو أمر كان محرجاً لبطلنا إحراجاً شديداً لأن اثنين من البائعين مانيلوف وسوباكيفيتش، ساوم كل واحد منهما في منتهى الكتمان، كانا يقفان الآن أمام بعضهما وجهاً لوجه. ومهما يكن من أمر، فقد شكر تشيتشيكوف الرئيس شكراً جميلاً ثم التفت إلى سوباكيفيتش وسأله عن صحته.

فأجاب سوباكيفيتش «الحمد لله، لست أشكو من شيء». وقد أصاب كبد الحقيقة بقوله هذا، لأن قطعة من الحديد قد تصاب بالبرد والعطاس قبل أن يصاب هذا الإنسان الجلف.

وتدخل الرئيس قائلاً «كان لك دائماً صحة جيدة، أليس كذلك؟ ووالدك المرحوم كان في قوتك أيضاً».

فأجاب سوباكيفيتش «نعم، حتى أنه كان يخرج لصيد الدببة وحيداً».

فاستأنف الحاكم يقول «أظن أنك تقهر الدب أن خضت معه نزالاً؟».

فقال سوباكيفيتش «أوه، لا، فقد كان والدي أقوى مني - وهنا تنهد ثم اكمل يقول - لكن هذه الأيام خلو من أمثاله من الرجال. حتى حياة كحياتي، ما قيمتها؟».

فصاح الرئيس «إذن أنت غير راضٍ عنها؟».

فاستأنف سوباكيفيتش هازّاً رأسه يقول «لا، فالراحة بعيدة عني. ولك أن تحكم بنفسك على ذلك يا ايفان جريجوريفتش. أنا الآن في

الخمسين من عمري، و لم أصب في حياتي بمرض قط حتى ولا بدمل أو بثرة عرضيين. وهذه علامة غير محمودة، إذ يجب أن أدفع الحساب على ذلك إن عاجلاً أو آجلاً» وطغت عليه مسحة من الكآبة.

أما الرئيس وتشيتشيكوف فقد راحا يقولان في نفسيهما «استمعوا لهذا المخلوق! من أي شيء يشكو في حياته!».

ثم صاح تشيتشيكوف قائلاً «أن لك معي كتاباً يا ايفان جريجوريفيتش». وأخرج من جيبه رسالة بلوشكين.

وتساءل الرئيس صائحاً وهو يفض ختم الرسالة «ممن؟ ايه أنها من بلوشكين! إنه لا يزال حيّاً؛ أي عالم غريب هذا، لقد كان إنساناً لطيفاً، موسراً والآن...».

فأكمل سوباكيفيتش قائلاً «الآن هو إنسان خسيس، بخيل يجيع أقنانه حتى الموت».

فقال الرئيس «اسمحوا لي لحظة» وقرأ الكتاب. ولما أكمله راح يقول «نعم، أنا على استعداد تام لكي أكون وكيل بلوشكين. متى تريد أن تسجل عقد البيع يا سيدي تشيتشيكوف؟ الآن أو فيما بعد؟».

فأجاب تشيتشيكوف «الآن إذا سمحت. وإني لأرجوك في الواقع إنجاز المعاملة اليوم إذا كان ذلك في الإمكان، لأني سأترك المدينة غداً. وقد أحضرت معي نماذج العقود ونص الطلب».

«حسن جداً، إلا أننا مع هذا لن نتركك تغادرنا بهذه السرعة. ستكمل العقود اليوم، إنما يجب عليك أن تمدد إقامتك عندنا. سأصدر الأوامر الضرورية الآن».

قال ذلك وفتح باب المكتب العام حيث ظهر الكتبة كأنهم أسراب النحل حول قرص من عسل «إذا صح لي أن أشبه أعمال الحكومة بهذه المادة».

وسأل الرئيس «هل ايفان انطونوفيتش هنا؟».

فأجاب صوت من الداخل «نعم».

«إذن أرسله إلي».

وعلى ذلك ظهر في الممر ايفان انطونوفيتش ذو الوجه الجرة، وانحنى.

فقال الرئيس «خذ هذه العقود يا ايفان انطونوفيتش، وليكن لديك علم بأن...» فقاطعه سوباكيفيتش يقول «أرجوكم أن تذكروا أولاً أن الشهود يجب أن يكونوا حاضرين، لا أقل من شادين عن كل فريق. ولنرسل أولاً إلى المدعي العام الذي ليس لديه ما يعمل إلا القليل، حتى هذا القليل يقوم به رئيس كتبته زولوتوخا وهو أكبر مرتشٍ في العالم. ومفتش دائرة الصحة أيضاً رجل خالٍ من الأعمال، ومن المحتمل أن يكون في البيت إن لم يكن قد ذهب إلى حفلة للعب الورق. وهناك كثير من الرجال الذين يثقلون الأرض عبثاً ومنهم تروخاتشيفسكي وباغوشكين».

فقال الرئيس موافقاً «تماماً كذلك، تماماً كذلك» وسرعان ما أرسل كاتباً يستدعي الأشخاص المذكورين.

وطلب تشيتشيكوف قائلاً «يسرني لو أرسلت في طلب ممثل مفوض عن ملاّكة لي معها معاملة، وهو ابن الأب كيريل وهو موظف في مكاتبكم».

فأجاب الرئيس «سندعوه بكل تأكيد، سنعمل كل شيء حسب رغبتك. إنما أمنعك أن تقدم أي منحة لموظفينا. هذا طلب خاص أطلبه منك. فليس من أصدقائي من يدفع درهماً واحداً».

وبهذا أعطى ايفان انطونوفيتش التعليمات الضرورية. ومع أن هذه التعليمات لم تكد تحوز تأييد هذا الموظف، إلا أن الوثائق أثّرت في

الرئيس كثيراً على ما يظهر وزاد ذلك لما رأى المجموع الكلي يقارب المائة ألف روبل. فحدق في عيني تشيتشيكوف لحظة أو لحظتين وعلى وجهه أمارات الرضى العميق، ثم قال «أحسنت يا بافيل ايفانوفيتش! إنها صفقة رائعة حقاً!».

فأجاب تشيتشيكوف «إنها كذلك».

«عمل عظيم، أجل، عمل عظيم!».

«إنني أدرك في الحقيقة أن لم يكن في قدرتي أن أعمل عملاً أحسن منه. إن أهداف المرء من حياته لا تصبح واضحة المعالم والحدود حتى يشيّد هيكل حياته تلك على أسس متينة بدلاً من أوهام الشباب العابرة».

وانطلق تشيتشيكوف من هذه البداية يلقي التهم الإضافية على الشباب الحديث وليبيراليتهم. إلا أن نوعاً من فقدان الثقة كان يكمن وراء كلماته. كان يبدو وكأن نفسه تقول له «يا سيدي الفاضل، إنك تتكلم هراء محضاً ولا شيء غير الهراء». حتى أنه لم يجروْ على النظر إلى مانيلوف وسوباكيفيتش. فكأنه غير متأكد مما سيراه في ملامحهما. وما كان عليه في الحقيقة أن يخشى شيئاً. فوجه سوباكيفيتش لم تتحرك فيه عضلة واحدة، أما مانيلوف فكان تحت تأثير فصاحة تشيتشيكوف بحيث لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً إلا أن يهزّ برأسه مطاطئاً بين اللحظة والأخرى تأييداً له - مثله في ذلك مثل عشاق الموسيقى وهم يستمعون إلى مغنية يصحب صوتها كمان وينافسه، حين تصدر نغماً فيه من الحدّة ما يفوق طاقة طائر السمان المغرد.

وسأل سوباكيفيتش تشيتشيكوف «ولكن لماذا لا تخبر ايفان جريجوريفيتش عما اشتريت بالضبط؟ ولماذا يا ايفان جريجوريفيتش لم تسأل تشيتشيكوف بالضبط مم تتكون مشترياته؟ أي جمع عظيم من الأقنان، بالتأكيد. أنا نفسي قد بعته صانع العجلات ميخيف».

فصاح الرئيس «ماذا؟ بعته ميخيف؟ إني أعرفه جيداً. إنه رجل رائع، وقد عمل لي في فترة من الفترات دروزكي[٣٠]. لكن... لكن... أجل، ألم تخبرني مؤخراً أنه مات؟».

فردد سوباكيفيتش وهو يضحك «ميخيف مات؟ أيه، لا يا عزيزي. كان ذلك أخوه. أما ميخيف نفسه فهو حيّ جداً حتى أن صحته أحسن مما كانت عليه. ومنذ عدة أيام صنع عربة لا يمكن صنعها حتى في موسكو. على أية حال، جدير بأن يتفرغ للعمل عند القيصر وحده».

فقال الرئيس «إنه صانع ماهر حقاً. إلا أن الذي أستغرب منه هو كيف استطعت التخلي عنه».

«هل تظن أن ميخيف هو القنّ الوحيد الذي تخليت عنه؟ لقد تخليت أيضاً عن بروبكا ستيبان النجار، وميلوشكين البناء وتلياتنيكوف الحذّاء. نعم لقد بعت كل هؤلاء».

ولما سأله الرئيس لم فعل ذلك مع أن هؤلاء القوم كلهم من العمال الماهرين الذين لا غنى عنهم، أجاب سوباكيفيتش بأن ذلك كان مجرد نزوة طغت عليه جعلته يفعل ما فعل، وهكذا فإن أصل هذا التصرف كله هو نعرة من نعرات الجنون. ثم رفع رأسه فعل النادم على هذا العمل التهوري، وقال:

«مع أن الشيب وخط رأسي إلا أنني لم أتعلم الحكمة بعد».

ثم تساءل الرئيس «ولكن كيف حدث يا بافيل ايفانوفيتش أن تشتري الأقنان دون الأرض؟ هل تنوي أن تنقلهم إلى مكان آخر؟».

«نعم».

«حسن جداً. إذن هذه مسألة أخرى. إلى أية جهة؟».

---

(٣٠) نوع منخفض من العربات ذو أربعة عجلات. المترجم.

«إلى مقاطعة خارسون».

«حقاً؟ أن هذه المنطقة كلها أراض رائعة» وأخذ يسهب في وصف مراعي خارسون.

ثم سأل يقول «وهل لك أرض كبيرة هناك؟».

«نعم، تكفي للأقنان الذين اشتريت».

«وهل هناك نهر أو بحيرة في تلك الولاية؟».

«كلاهما».

وبعد هذه الإجابة القى تشيتشيكوف نظرة لا إرادية على سوباكيفيتش. ومع أنه وجه هذا الإنسان كان جامداً كعادته أبداً. إلا أن تشيتشيكوف قرأ في وجهه أنه يقول «أيها الكذاب! تقول أن لك نهراً وبحيرة. وأرضاً أيضاً».

كان الشهود في تلك الأثناء يتوافدون الواحد بعد الآخر. فوصل المدعي العام، الذي يغمز أبداً، ومفتش دائرة الصحة، وتروخاتشيفسكي وباغوشكين وآخرون - وكل منهم على حد تعبير سوباكيفيتش من الذين يثقلون على الأرض عبثاً. ومهما يكن من أمر فقد كان تشيتشيكوف يجهل بعضهم جهلاً تماماً لا سيما وقد كانت المعاملة تستدعي إدخال وكلاء وأشخاص آخرين لإكمال العدد المقرر، وهذا ما فعلوه بإدخال الموظفين الثانويين. وتلبية للدعوة لم يصل ابن الأب كيريل وحسب بل وصل الأب كيريل نفسه. وأضاف كل واحد من هؤلاء الشهود إلى إمضائه سلسلة من المميزات والمؤهلات. أضافها أحدهم بأحرف مطبعية وآخر بالأحرف الدارجة وآخر بخط مقلوب رأساً على عقب لم يعد مثله من قبل في الابجدية الروسية. وكان صاحبنا ايفان انطونوفيتش أثناء ذلك يستعمل ما يليق من عبارات المخاطبة. وبعد أن أمضيت العقود وحفظت وسجلت دعي تشيتشيكوف إلى دفع

مبلغ تافه جداً، وهو النسبة المئوية التي تتقاضاها الحكومة وأجرة إعلان الصفقة في الجريدة الرسمية. وكان السبب في ذلك أن الرئيس قد أمر أن تؤخذ نصف الرسوم فقط من المشتري الحالي، وسجل النصف الآخر بشكل من الأشكال في حساب إنسان آخر من طالبي تسجيل الأقنان.

وبعد أن أكمل كل شيء، قال ايفان جريجوريفيتش «والآن لم يبق علينا إلا الحلوان».

فأجاب تشيتشيكوف «وأنا على استعداد لهذا أيضاً، وما عليكم إلا أن تعينوا الساعة. وسأكون ضنيناً حقاً أن لم أدع أغطية زجاجات الشمبانيا تتطاير في الهواء لقاء رفقتكم الطيبة».

«ولكننا لن نتركك تغرم شيئاً، مهما كان ذلك الشيء. فعلينا إحضار الشمبانيا لأنك ضيفنا، وعلينا نحن أن نكرمك - إنه واجبنا، إنه الفرض الواجب علينا. أصغوا إلي أيها السادة - هيا بنا إلى بيت رئيس الشرطة، فهو الساحر الذي ما عليه إلا أن يغمز بائع السمك أو تاجر الخمر أثناء سيره، ولن نتمتع بطيب الأكل في بيته وحسب، بل سنلعب الوست أيضاً».

ولم يثر هذا الاقتراح أي اعتراض، لأن ذكر السمك فتح شهية الحضور. وبناء على ذلك، ما كادوا يسمعون به حتى حدث هجوم على القلانس والقبعات. وإذ كانت الزمرة تمر من قاعة المكاتب العامة همس ايفان انطونوفيتش في اذن تشيتشيكوف بانحناءة لطيفة من وجهه الشبيه بالجرة قائلاً «لقد دفعت مئة ألف روبل للأقنان، ولكنك لم تدفع لي مقابل تعبي إلا شيئاً زهيداً جداً».

فأجابه تشيتشيكوف بهمسة مماثلة «نعم، ولكن أي نوع من الأقنان تظنهم؟ أنهم طائفة ضعفاء لا نفع فيهم، ولا يساوون حتى نصف هذه القيمة».

وفهم ايفان انطونوفيتش من هذا أن الرجل ذو شخصية قوية – رجل لا ينتظر منه أن يدفع أكثر مما فعل.

وهمس سوباكيفيتش في أذن تشيتشيكوف «وبأي ثمن اشتريت أنفسا من بلوشكين؟».

فتمتم تشيتشيكوف قائلاً «ولماذا أضفت المرأة فوروبي إلى قائمتك؟».

«فوروبي؟ من فوروبي هذه؟».

«المرأة إليزابيت فوروبي – إليزابيت وليس اليزابيتا».

«لم أضف اسماً كهذا». وانضم سوباكيفيتش إلى الضيوف الآخرين.

ووصلت الزمرة أخيراً إلى بيت رئيس الشرطة. وأثبت الأخير أنه رجل ساحر حقاً، إذ لم يكد يعلم بحقيقة الأمر حتى دعا شرطياً شاباً نشيطاً وهمس في أذنه بشيء ما، ثم أضاف بصوت عالٍ يقول «لقد فهمت، أليس كذلك؟» ثم رتب الأمر بحيث جلس الضيوف في غرفة جانبية يلعبون الوست، بينما راحت مائدة الطعام تزخر بسمك الحفش والكافيار والسالمون والزجر والجبن واللسان المدخن والبطرخ الطازج والمعلّب – كلها قد أحضرت من السوق المحلية وأضيفت إليها أصناف من بيت المضيف نفسه من أطباق مطبخة فطيرة محشوه بالغضاريف، ووجنات سمكة سلمون ضخمة، وفطيرة أخرى محشوة بالفطر وضفائر. كان رئيس الشرطة المحترم في الحقيقة، في مركزه ذاك كأنه أب لأهل المدينة أو وليّ نعمتهم، فكان يسير بين المواطنين كما يسير المرء بين أهله وذويه ويحدق في الأسواق والحوانيت كأن هذه مستودعات خاصة له. وقد كان يقوم بواجباته على ما يرام حتى يتعذر علينا أن نقول فيما إذا كان هو الذي يصلح لمنصبه ذاك أو أن منصبه هو الذي يصلح له. وقد استطاع أن يسوي أموره تسوية مرضية بحيث لم يفقد

مرة حب مواطنيه مع أن دخله قد أربى على ضعفيّ دخل سابقيه. وقد أحبه التجار على الأخص حبّاً جمّاً، لأنه لم يتعال عن أن يكون لهم كما يكون الأب لأطفاله و لم يتكبر أن يأكل الطعام على موائدهم. وكانت له في الحقيقة خلافات في الرأي معهم - وخلافات خطيرة في هذا الخصوص. لكنه كان دائماً يعدلها بأن يخبط المستاء منهم على كتفه ويشرب معه قدحاً من الشاي ويعده بزيارة في بيته ولعب الشطرنج معه. وكان يسأل عن شؤون التاجر الخاصة وإذا علم أن له ابناً مريضاً وصف له العلاج اللازم. بالاختصار، كان يتمتع بسمعة طيبة جداً. وحين يستقل عربته، ليتفقد الأمور، لا يفوته في الوقت ذاته أن يلقي جملة لهذا أو لذاك «طيب، يا ميخييتش! لا بد أن نتم دورة لعبتنا في وقت ما». فيرد هذا خالعاً قبعته: «صحيح، يا ألكسي ايفانوفيتش، لا بد». - «طيب، يا أخ ايفان بارامونتيش، زرني وألق نظره على حصاني السباق. أنا واثق أنه سيسبق حصانك، ولا تنس أيضاً أن تعد حصانك للسباق. لنجرب». فيستدر ذلك من هذا التاجر المفتون بالخيول العداءة ابتسامة مخصوصة، ويقول برحابة صدر، كما يقال، ممسداً لحيته «لنجرب، يا الكسي ايفانوفيتش!» وحتى الباعة في الحوانيت الذين كانوا يفقدون عادة في مثل هذا الوقت وقبعاتهم بأيديهم فقد كانوا جميعاً يتبادلون النظرات فيما بينهم بارتياح، ولسان حالهم يقول «الكسي ايفانوفيتش رجل معتبر!» وباختصار استطاع أن يحظى بشعبية تامة، وكان رأي التجار أن الكسي ايفانوفيتش «على رغم حبه للرشوة، لن يشي بك أبداً».

وما أن رأى رب البيت أن المائدة مهيّاة حتى اقترح على ضيوفه أن يؤجلوا لعبة الوست إلى ما بعد الغداء، ودعوا كلهم إلى غرفة الطعام حيث كانت منذ زمن غير قليل تنبعث منها إلى خياشيمهم رائحة شهية وحيث كان سوباكيفيتش بالذات يوجه أنظاره إلى سمكة حفش

ضخمة موضوعة على الخوان. وبعد أن تناول كل فرد منهم كأساً من الفودكا الزيتية اللون - فودكا ذات لون لا يرى إلا في ذلك النوع من أحجار سيبيريا الذي تصنع منه الأختام - انكب القوم على الأشواك والسكاكين، وبعملهم هذا تجلت ميزاتهم وأذواقهم المختلفة. فقد استنكف سوباكيفيتش مثلاً عن الزهيد التافه من الطعام وتوجه إلى سمكة الحفش الكبيرة. وبينما كان زملاؤه الضيوف يأكلون خفيف الطعام ويشربون ويتحدثون تمكن من أن يلتهم معظم السمكة. حتى أن ربّ البيت لما تذكر هذه المخلوقة وتوجه إليها وهو يحمل الشوكة في يده قائلاً «ما رأيكم أيها السادة في انتاج الطبيعة العجيب هذا؟» تبين له أن انتاج الطبيعة العجيب لم يبق منه إلا ما يزيد قليلاً عن الذنب. هذا بينما كان سوباكيفيتش - وأقل ما يدل عليه مظهره أنه لم يأكلها - كان معنياً بغرز شوكته في سمكة أخرى أقل من سابقتها حجماً، كانت ملقاة في طبق قريب. وبعد أن هجر السمك لم يأكل و لم يشرب شيئاً آخر بل جلس على كرسيه ذي المتكأ متجهماً رامشاً.

وما كان ربّ البيت بالبخيل بالخمر، لأن الأنخاب التي شُربت كانت لا تحصى. جُرع أولها (كما قد يتصور القارئ) نخب مالك خارسون الجديد، وثانيهما نخب توفيقه في فلاحيه ونقلهم بسلام، وثالثهما نخب جمال زوجته المقبلة - تحية جعلت شفتي بطلنا ترفان ابتساماً. وأخيراً وجه إليه الجمع دعوة حارّة اجماعية بأن يمدد اقامته في المدينة أسبوعين آخرين على الأقل وأن يسمح في الوقت نفسه بالتفتيش عن زوجة له.

- لا، يا بافيل ايفانوفيتش! لك أن تقول ما تشاء، ولكن هذا بمثابة تبريد الجو. تصل إلى العتبة، ثم تعود من حيث أتيت! يجب أن تمضي بعض الوقت معنا! وسنزوجك، أليس كذلك، يا ايفان غريغوريفتش، نزوجه؟

فوافق الرئيس قائلاً «تماماً كذلك. إننا مصممون على زواجك حتى لو قاتلتنا بالباع والذراع. لقد أوقعك الحظ بيننا ولن تندم على ذلك، وإننا في الأمر لجادّون».

فقال تشيتشيكوف باسماً «لكن لماذا أقاتلكم بالباع والذراع؟ إنّ الزواج لا يأتي عرضاً. لو كانت لي خطيبة فقط...».

«إذن ستكون لك خطيبة. لم لا؟ أننا سنعمل حسب رغبتك».

فوافق تشيتشيكوف قائلاً «حسن جداً».

فصاحت الجماعة «لله درك! لله درك! يعيش بافيل ايفانوفيتش. مرحى! مرحى! وبهذا أدنى كل واحد منهم كأسه إلى كأسه، وكان قرع الكؤوس، وأخذ هو يتلقى التحيات، يتلقاها مراراً عديدة على التوالي. وكان مرح الجماعة في الواقع يزداد بمرور الوقت، حتى أن الرئيس (وهو رجل شديد اللطف حين تسيطر عليه كأسه) عانق ضيف الساعة بالكلمات العاطفية التالية «يا أعز إنسان! يا أغلى صديق لديّ! لا، بل راح يرقص حول الكرسي الذي جلس عليه الضيف ويفرقع بأصابعه ويغني مقاطع من أغنية شعبية. وتبع الشمبانيا نبيذ هنغاري زاد في حيوية الجماعة والتهاب عواطفهم. عندئذ كان كل منهم قد نسي لعبة الوست واستسلم للصياح والجدل. ولقد بحثوا كل المواضيع التي تقبل البحث بما في ذلك الشؤون السياسية والحربية. وقد أبدى الضيوف بهذا الخصوص آراء ركيكة تافهة لو سمعوها من أبنائهم في غير هذا الوقت لصفعوهم عليها صفعاً شديداً. وحلوا العديد من القضايا المعقدة. وقد أحس تشيتشيكوف كالبقية بمرح ليس له به عهد من قبل، فتوهم أنه صاحب خارسون بحق، وراح يتكلم عن إصلاحات زراعية مختلفة وعن النظام الثلاثي لاستغلال الأرض[٣١]،

(٣١) الطريقة التي يزرع بها ثلثا الأرض ويترك الثلث بوراً. الناشر.

وعن الغبطة والسعادة في ائتلاف روحين متشابهين. وراح يروي شعراً لسوباكيفيتش الذي كان يرمش وهو يستمع لأن به رغبة شديدة للنوم. وأخيراً، أدرك ضيف الساعة أن الأمور قد وصلت حدها فطلب إيصاله إلى مقره، وهيئت عربة المدعي العام من نوع دروزكي لهذا الغرض. وكان سائق العربة لحسن الحظ رجلاً خبيراً في عمله، إذ استطاع أن يمسك الأعنة بيد واحدة وأن يستند إلى الخلف ويمسك تشيتشيكوف باليد الأخرى إمساكة تقيه من الخوف. واستمر بطلنا يثرثر حول فتاة ذات شعر أشقر وشفتين ورديتين وغمازة على خدها الأيمن وعن رأس ماله وقراه في خارسون إلى أن دخل النزل. وليس ذلك فقط، بل أصدر أوامر عالية إلى سيليفان أن يذهب ويجمع الفلاحين الذين سينقلهم ويعد لائحة كاملة مفصلة عنهم. واستمع له سيليفان برهة وهو صامت، ثم ترك الغرفة وذهب إلى بتروشكا يطلب منه أن يساعد السيد في خلع ملابسه. وكما حصل، فلم تكد تنزع نعلا تشيتشيكوف حتى أكمل بقية المهمة بنفسه دون مساعدة، وتدحرج على السرير (الذي صرف صريفاً مزعجاً عندئذ) وغرق في نوم عميق يليق من جميع الوجوه بملاك خارسون. بينما أخذ بتروشكا معطف السيد وسراويله العنّابية إلى الممر حيث نشرهما على سرج حصان وراح يحسهما بالفرجون ويملأ الممر كله غباراً. وإذ كان يهم بإرجاعهما إلى غرفة سيده، نظر عبر الرواق فرأى سيليفان راجعاً من الإسطبل. فتبودلت بينهما النظرات وتوصل الإثنان إلى تفاهم غريزي – تفاهم على أن السيد نائم نوماً عميقاً وأن من واجب المرء الآن أن يلتفت إلى متعته الخاصة. وبناء على ذلك، أرجع بتروشكا المعطف والسراويل إلى موضعيهما ونزل السلم ثم غادر النزل برفقة سيليفان. ولم تدر بينهما كلمة واحدة عن هدف مهمتهما بل على العكس راحا يتحادثان عن أمور خارجية. إلا أن مسيرهما لم يبتعد بهما كثيراً، بل قادهما إلى الناحية الأخرى من الشارع ثم إلى بناية تقابل

الفندق مباشرة، واجتازا باباً زجاجياً ثم دخلا غرفة فيها بعض الزبائن الجالسين إلى موائد خشبية صغيرة ملتحين وغير ملتحين، بعضهم في معاطف فرائية والبعض الآخر في قمصان لا غير، وآخرون في معاطف من النسيج الخشن. أما ماذا عمل سيليفان وبتروشكا بعد ذلك فهذا ما لا يعلمه إلا الله. على أية حال فقد خرجا بعد ساعة من الزمن وهما صامتان صمتاً عميقاً وكل منهما يتأبط ذراع الآخر ويتشبث به تشبثا غريباً، وكل منهما على استعداد دائم لمساعدة أخيه عند مرورهما بزاوية مظلمة. وصرفا ربع الساعة التالية في محاولة صعود سلم النزل، وهما لا يزالان مشتبكين معاً و لم يتركا بعضهما لحظة واحدة. وأخيراً تمكنا من الصعود وسارا في طريقهما. ووقف بتروشكا يفكر برهة أمام فراشه الصغير الحقير. كانت المشكلة أمامه هي كيف يمكن أن يضطجع عليه. وأخيراً، اضطجع على وجهه ورجلان ترفلان على الأرض. ثم اضطجع سيليفان على الفراش نفسه أيضاً ورأسه على خصر بتروشكا وهو غافل كل الغفلة عن نومه هنا لا يجوز إطلاقاً بل يجب أن ينام في مكان الخدم أو في الإسطبل قرب الخيول. و لم تكد تمضي لحظة واحدة حتى غرق الإثنان في النوم وراحا يصدران شخيراً أجش أجاب عليه سيدهما من الباب المجاور بشخير أنفي ذي صفير. و لم يمض في الواقع وقت طويل حتى حذا حذوهما المريح كل من في النزل. وبدا الفندق وكأنه غارق في بحر الراحة العميمة. إلا أن نوراً كان لا يزال منبعثاً من غرفة الملازم الذي وصل حديثاً من ريازان. كان جلياً أنه مفتون بالأحذية لأنه اشترى أربعة أزواج وهو يحاول الآن شراء الخامس. وقد اقترب مرات عديدة من الفراش قاصداً أن يخلع الحذاء ويأوى إلى مضجعه، ولكنه فشل في كل مرة من هذه المرات لأن الحذاء كان مغرياً جداً بحيث لم يجد أمامه بدّاً من أن يرفع أولاً إحدى قدميه ثم الأخرى ليتأمل في حواشي الحذاء الأنيقة.

الفصل الثامن

سرعان ما أصبحت مشتريات تشيتشيكوف حديث المدينة، واختلفت الآراء فيما إذا كان من الصواب شراء الأقنان من بلد ونقلهم إلى بلد آخر. وفي الحقيقة كان اهتمام بعض المواطنين في الأمر اهتماماً بالغ الشدة. وكان آخرون يقولون «بالطبع، لا اعتراض لأحد على ذلك. فإن الأراضي في الولايات الجنوبية جيدة وخصبة، ولكن كيف سيدبر فلاحو تشيتشيكوف أمورهم بدون ماء؟ وفي تلك المنطقة لا يوجد أي نهر». – «لا يهم كثيراً، إذا لا يوجد ماء، لا بأس، يا ستيبان دميتريفيتش، ولك توطينهم مسألة مشكوك فيها. أنت تعرف الفلاح، إذا استوطن أرضاً جديدة، وتوجب عليه أن يحرثها ويزرعها علاوة على ذلك، بينما هو لا يملك بيتاً، ولا ملحقاته، هروبه مؤكد مثل اثنين واثنين تساوي أربعة. سيهرب دون أن تجد له أثراً». – «لا، يا ألكسي ايفانوفيتش، وأرجو المعذرة، أنا لا أتفق معك. أنت تقول فلاحو تشيتشيكوف سيهربون. الروسي يتلاءم مع كل شيء، ويتعود على كل مناخ. أرسله إلى كامتشاتكا، وإعطه قفازين دافئين، وستراه يضرب كفيه، ويمسك الفأس، ويخرج ليقطع الأشجار، ويصنع منها كوخاً جديداً له». – «ولكنك، يا ايفان غريغوريفيتش فاتك شيء مهم. أنت لم تسأل أي فلاحين هم فلاحو تشيتشيكوف. ونسيت أن المالك لن يبيع شخصاً معتبراً. أنا مستعد أن أقطع رأسي إذا لم يكونوا فلاحو تشيتشيكوف لصوصاً أو سكيرين إلى آخر درجة، أو تنابلة تماماً، أو شقاة مشاكسين». – «بالضبط، بالضبط. أنا متفق معك، صحيح

لا أحد يبيع ناساً معتبرين، وفلاحو تشيتشيكوف هؤلاء سكيرون، ولكن يجب الانتباه إلى أن ذلك هو ما يسمى بالمعنوية. هنا تلعب المعنوية دورها. إن هؤلاء عاطلون الآن لا ينفعون لشيء، ولكن حالما يستوطنون أرضاً جديدة حتى يمكن أن يصيروا رعايا ممتازين. وهناك أمثلة غير قليلة على ذلك في عالمنا الراهن، وفي التاريخ أيضاً». - «مستحيل، مستحيل، - قال مدير المعاملة الحكومية - صدقوني، هذا لا يحصل أبداً. لأنه سيكون لفلاحي تشيتشيكوف الآن عدوان قويان. العدو الأول هو القرب من ولايات أوكرانيا، حيث بيع الخمرة، كما تعرفون، بلا قيود. أنا أؤكد لكم أنهم خلال أسبوعين سيعبون جرادل من الفودكا، ويصيرون سكارى طينة. والعدو الآخر هو التعود على حياة التصعلك التي لا بد أن تلحق بالفلاحين عند الانتقال. ويجب أن يكونوا دائماً تحت مراقبة تشيتشيكوف، وأن يمسكهم بيد من حديد، ويعاقبهم على كل هفوة، ولا يعتمد في ذلك على شخص آخر، بل أن يلخمهم ويصفعهم على القفا بيديه هو وكما يجب». - «ولماذا يكلف تشيتشيكوف نفسه، ويصفعهم على القفا. يمكنه أن يحصل على مدير أعمال». - «أي نعم، وكيل أعمال. كلهم نصابون!» - «نصابون، لأن الأسياد لا ينشغلون بأعمالهم». أيده كثيرون قائلين: «صحيح، يجب أن يعرف السيد، ولو قليلاً عن إدارة أعماله، ويقدر أن يميز بين الناس. وعند ذاك سيكون له دائماً وكيل أعمال جيد». ولكن مدير الأعمال قال - بأقل من خمسة آلاف لا يمكن إيجاد مدير أعمال جيد. ولكن الرئيس قال - يمكن إيجاده وحتى بثلاثة آلاف. ولكن مدير الأعمال قال: «أين تجده؟ تحت أنفك؟» ولكن الرئيس قال: «لا، ليس تحت أنفي، ولكنه في هذا القضاء ولا أبعد منه. وبالذات بيتر بيتروفيتش ساموليوف، فهو مدير الأعمال اللازم لفلاحي تشيتشيكوف!» وتفهم الكثيرون وضع تشيتشيكوف بشكل جيد، كما أرعبتهم للغاية صعوبة

إعادة إسكان هذا العدد الغفير من الفلاحين، فأخذوا يبدون مخاوفهم الشديدة من أن يحصل كل شيء، وحتى العصيان، بين أناس مشاغبين، كفلاحي تشيتشيكوف. وبهذا الصدد لاحظ مدير الشرطة أن لا خوف من العصيان، وأن سلطة مأمور مركز ما وجدت إلا لقمع هذا العصيان، وأن مأمور هذا المركز، وإن كان نفسه لا يخرج، إلا أن سيرسل بدلاً منه قبعته الرسمية، وهذه القبعة وحدها ستطارد الفلاحين إلى حيث يقيمون. وعرض الكثيرون آراءهم بخصوص كيفية استئصال روح التمرد التي استولت على فلاحي تشيتشيكوف. وكانت الآراء من مختلف الأصناف، ومن بينها كانت تفوح القسوة العسكرية والصرامة الزائدة تقريباً. وبالمقابل، كانت هناك آراء تنم عن روح التساهل. وذكر مدير البريد أن واجباً رهبانياً سيواجه تشيتشيكوف، وأن في أمكانه أن يكون بين فلاحيه بمثابة الأب لتطبيق حتى التعليم الإحساني وذكر بثناء كبير مدرسة للتعليم المتبادل في مدينة لانكاستر.

هكذا تكلموا في المدينة حتى أنهم راحوا ينصحون المشتري باستصحاب الحرس الكافي لكي يؤمن وصول القافلة إلى مقرها بسلام. ومع أن تشيتشيكوف شكر للناصحين نصيحتهم وقال بأنه سيكون مسروراً للجوء إلى هذه الحيلة إذا اقتضى الأمر، إلا أنه أعلن أيضاً بأن ليس هناك من حاجة ماسة للحراسة لأن الفلاحين الذين ابتاعهم قوم مسالمون كل المسالمة، وبما أنهم موافقون في الأصل على فكرة النقل فيما لا ريب فيه أنهم سيسلسون القياد.

ومن النتائج الحميدة التي انبثقت عن هذه الدعاية لمشروعه أن أصبح يُعدّ في عيون الناس من أصحاب الملايين لا أكثر من ذلك ولا أقل. وبناء على ذلك، فإذا كان سكان المدينة قد أحبوا بطلنا لأول وهلة (كما مر بنا في الفصل الأول)، فقد أحبوه الآن أكثر من أي وقت مضى. وقد كانوا في حقيقة الأمر معشراً يتميزون تميزاً فريداً بالهدوء والطيبة

وسلاسة المزاج وكانت أحاديثهم على هذا الشكل البسيط الوديع «عزيزي الفاضل، أيليا ايليتش»، «اسمع، يا أخ، انتيباتور زخارافيتش!»، «لفّقت يا عزيزي ايفان غرغوريفيتش». وكانوا يضيفون دائماً لمدير البريد المدعو ايفان اندرييفيتش «شبريخين ذي ديتش، يا ايفان اندريتش؟» (أي «أتتكلم بالألمانية؟») وباختصار كانوا في جو عائلي ممتاز. وكان الكثيرون منهم ليسوا بلا ثقافة تماماً. فرئيس المجلس المحلي مثلاً كان يحفظ عن ظهر قلب قصيدة «لودميلا» للشاعر جوكوفسكي التي كانت آنذاك في أول ذيوعها فإذا ما تلاها ووصل إلى المقطع الذي يقول فيه «بأن النوم خيّم على غابة الصنوبر، والوادي في هدوء» وكلمة «انصتوا» التي تلي ذلك، فإنه يضع في إلقائه من الإيقاع التأثيري ما يجعل المرء يتصور أن النوم والهدوء قد خيّما على الغابة والوادي حقاً. ويبلغ التأثير ذروته في الحقيقة بالطريقة التي يسبل فيها أجفانه في تلك اللحظات. أما مدير البريد فقد كان اتجاهه اتجاهاً فلسفياً فكان يواظب على قراءة كتب من أمثال «خواطر الليالي» للكاتب يونغ، و«أسرار الطبيعة» لايكارتسهاوزن، وكان يستشهد من الأخير بمقاطع عديدة لا يفهم سامعوه منها شيئاً. وفيما عدا ذلك كان ذكياً فصيحاً مغرماً بتنميق الكلام وزخرفته، فيستعمل لهذا الغرض تعابير كالتالية – «يا سيدي العزيز»، «الله أعلم»، «هل عرفت»، «هل فهمت؟»، «هل تتصور؟»، «نسبياً»، «مثلاً»، «وبالإضافة إلى ذلك»، «إلخ، إلخ» – تعابير يستطيع أن يملأ منها أكياساً. ويستطيع أن يزخرف كلامه أيضاً بطريقة أخرى، وهي أن يسبل أحد أجفانه فتصبح عينه بين الغمض والغمز – حيلة كانت تضفي على تعليقاته الساخرة أثراً لاذعاً. ولم يكن زملاؤه أقل منه إلماماً. كان أحدهم مثلاً، لا ينفك يقرأ مؤلفات كرامزين التاريخية، وآخر لا ينقطع عن تصفح «جريدة موسكو»، وثالث لم يفتح كتاباً أبداً. والبعض الآخر كان مما يدعى بـ «البعوضة» أي ذلك الذي إذا أردت أن

تنهضه فلا بد أن تنغزه بشيء ما. والبعض الآخر كان تنبلاً، قضى عمره كله مستلقياً على جنبه، كما يقول المثل، بل ومن العبث أن تجرب وتنهضه من مكانه. فإنه لن يبارح مكانه في كل الأحوال. أما من حيث المظهر فهم، كما هو معروف، أناس يعتمد عليهم، ولن تجد أي مسلول بينهم. ومع أنهم ف حياتهم الداخلية ينادون من قبل نسائهم بألقاب مثل «أبو كرش» و «برميل» و»فأر» و «عزيزي» إلا أنهم كانوا في الواقع على قسط كبير من حسن النية وطيبة القلب ذوي كرم حاتمي يفتحون قلوبهم لكل من شاطرهم الخبز والملح أو قضى معهم ليلة في لعبة الورق، وخصوصاً لتشيتشيكوف الذي يعرف أسرار الفتنة بدقة وأحكام. لهذه الخصائص الطيبة التي كان يتحلى بها أهل المدينة أصبح تشيتشيكوف موضع الاعجاب والتقدير، بحيث عاد من الصعب عليه أن يترك البلد الذي أينما حل فيه طنت في أذنيه جملة واحدة لا تتغير وهي «ابق معنا أسبوعاً آخر يا بافيل ايفانوفيتش». باختصار، أصبح يحس بأنه محاط بالقلوب وليس له من الحرية ما يستطيع أن يفعل بها ما يشاء. ولكن الوقع المدهش حقاً (وهو أمر لا يخلو من الغرابة) هو ذلك الذي تركه تشيتشيكوف في قلوب السيدات. ولكي أستطيع أن أشرح هذه الظاهرة شرحاً وافياً علي أن أقول الكثير عن السيدات أنفسهن وأن أصف علاقاتهن الاجتماعية ومميزاتهن الروحانية وصفاً جلياً في أوضح الألوان. ولكن أمراً كهذا سيكون شاقاً عسيراً علي لسببين – أولهما هو احترامي العميق لجميع نساء الموظفين المدنيين، وثانيهما.. أجل.. أن الأمر نفسه صعب حقاً. على أية حال فإن نساء مدينة «ن» كنّ... لكن لا، لا أستطيع... إن قلبي ليخذلني. إن نساء مدينة «ن» يتميزن... لكن لا لا فائدة، إن الريشة تأبى أن تتحرك على الورقة وكأنها أثقلت بالحديد. وما دام الأمر كذلك، فسأكتفي بكلمة أو كلمتين عابرتين عن مزاياهن الطاغية وسماتهن البارزة، وكلمة أو كلمتين عن المظهر والمنظر

ثم كلمة أو كملتين عن سطحيات الأمور. كانت نساء «ن» يعتنين أكثر ما يعتنين بالوسامة. ويمكن اعتبارهن من هذه الناحية نموذجاً لنساء المدن الأخرى. أي إنهنّ كن يمشين على أصول اللياقة ويتبعن قواعد الزينة ويتابعن الطراز الحديث باهتمام كبير. وهن فيما يختص بهذا الشأن يبرزن سيدات موسكو وبطرسبورج من حيث أن لهن ذوقاً رفيعاً في الملبس ولا يركبن في العربات إلا إذا كانت على أحدث طراز وإذا ما خرجن يصطحبن معهن الحارس الذي يرتدي البذلة المقصبة. وهن يقدّسن بطاقات الزيارة - حتى لو كتبت لسبب من الأسباب على ورقة الآس الديناري أو الإثنين الاسباتي. كانت هذه الأمور في موضع كبير من القداسة، حتى أن صديقتين حميمتين جداً كانت تربطهما أخوة متينة منذ أمد بعيد، اختلفتا مرة من المرات وانقطع بينهما حبل الوداد لأن احداهما لم ترد الزيارة للأخرى! ومع أن الأزواج والأقارب تدخلوا بين المتنازعتين لإصلاح ذات البين، إلا أنهم أدركوا آخر الأمر أن كل شيء في هذا العالم يمكن أن يغتفر إلا اهمال الزيارة. وهكذا بقيت كلتا السيدتين تتبادلان الجفاء على حد تعبير المجتمع المحلي. وكانت بين الحين والحين تظهر مشاهد حول الأفضلية والأسبقية بين النساء - مشاهد من ذلك النوع الذي أثار في قلوب الأزواج مشاعر الفروسية والمغامرات حول الجنس اللطيف وحمايته. إلا أن مبارزة لم تحدث بينهم قط، وذلك لأن كل الأزواج كانوا موظفين في خدمة الحكومة. إلا أن الخصم كان يوقع بخصمه أذى شديداً كلما سنحت له الفرصة، وهو أمر قد يكون أكثر اضراراً بالخصم من المبارزة. أما فيما يختصّ بالأخلاق فقد كانت نساء «ن» محافظات جداً، وكانت فضيلتهنّ تجعلهنّ يتميزون غيظاً إذا ما سمعن عن حادثة من حوادث الرذيلة. لا، حتى أنهن على مجرد اللين كنّ يسحبن سوطاً خالياً من الرحمة. أما من الناحية الأخرى، فإذا مرّ ذكر من يسمى عادة

«بالشخص الغائب» في جلسة كنّ فيها، فإنه يمر بشكل لا يسترعي الانتباه وفي غاية الكتمان، حتى الزوج الذي يمسه هذا الكلام يبدو وكأنه على أهبة الاستعداد، فيما لو رأى «الشخص الغائب» أو سمع عنه، أن يقول بلطف وتعقل «وما شأن هؤلاء القوم بين الصديق والصديق؟» وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن أقول بأن نساء مدينة «ن» يشبهن عالم النساء في مدينة بطرسبورج من حيث إغراقهنّ في استعمال التعابير الأنيقة وحرصهنّ على اختيار الكلمات الرقيقة. فلم تكن سيدة منهن تقول «مخطت» أو «عرقت» أو «بصقت». لا، أبداً بل كانت تقول مثلا «زحت العبء عن أنفي باستعمال المنديل» أو ما شابه ذلك. وكان من المحظور أيضاً أن تقول «هذه الكأس أو هذا الطبق ذو رائحة كريهة». حتى الإشارة إلى كلمة كهذه كانت لا تليق بتاتاً. ولكن التعبير المناسب في هذه الحالة هو أن تقول «أن هذه الكأس أو هذا الطبق لا يبدو طيباً» - أو أي تعبير آخر من هذا القبيل. وهنّ من أجل تهذيب اللغة الروسية تهذيباً كاملاً، حذفن نصف كلماتها، فكان عليهن والحالة هذه أن يلجأن إلى اللغة الفرنسية، لأن الكلمات نفسها إذا قيلت باللغة الفرنسية كانت شيئاً آخر مختلفاً اختلافاً كلياً، ويستطيع المرء أن يستعمل كلمات أكثر فظاظة من تلك التي كانت موضع اعتراض في الأصل.

وإذا شئنا أن نحصر أنفسنا في نطاق الملاحظات السطحية عن نساء مدينة «ن»، ففيما قلناه الكفاية. ولا حاجة بنا إلى القول بأن التعمق أكثر من ذلك سيكشف عن خفايا كثيرة أخرى. لكن التعمق في قلوب السيدات غير سليم العواقب. فلنلزم السطحيات إذن ولنكمل الحديث.

كان السيدات ما قبل ذلك لا يعرن تشيتشيكوف اهتماماً خاصاً مع أنهن يعترفن له بحسن السلوك ولطف المعشر. أما الآن وقد سرت الشائعات القائلة بأنه صاحب ملايين فقد أخذت تبرز له صفات أخرى. ولم تكن تسيطر على كل السيدات مصلحة ذاتية من وراء ذلك،

إنما الواقع أن السبب هو لقب «صاحب الملايين» لا مميزات الشخص الذي يحمل اللقب فلرنين هذه الكلمة أثر بلا حدود في نفوس العالم كله: المحترمين منهم والأنذال ومن هم ليسوا بأولئك ولا بهؤلاء. وصاحب الملايين يعاني دائماً من رؤية الوضاعة في كل مكان – الوضاعة الخالصة لوجه الله، الخالية من المصلحة. فكثير من الناس يعلمون جيداً أنهم لن يستفيدوا منه قميطراً، ولكنهم مع ذلك يلاحقونه بابتساماتهم ورفع قبعاتهم ويسعون جهدهم لحضور الولائم التي يعرفون أنه ذاهب إليها بغيّة التشرف بالمثول في حضرة صاحب الملايين. لا يمكن القول أن هذا النوع من الوضاعة استولى على سيدات مدينة «ن» بطبيعة الحال. ومع ذلك فإنهنّ يتهامسن في صالات الاستقبال بأن تشيتشيكوف إن لم يكن آية في الجمال فهو على الأقل كما يجب أن يكون الرجل. ومن الأسوأ لو كان أكثر سمنة أو أكثر نحافة. وفي هذه المناسبة كانت تصدر تعليقات جارحة عن الأزواج النحاف وتشبيهات تصفهم بأنهم يشبهون مسواك الأسنان أكثر مما يشبهون الرجال – وتشبيهات نسوية مماثلة أخرى. وأخذت السيدات يبدين اهتماماً خاصاً بملابسهن وزينتهن. فانطلقت جماهيرهن إلى السوق حتى أصبحت مكتظة بهن مزدحمة، واصطفت عرباتهن فيها في صفوف طويلة جداً كأنها في موكب حافل. أما التجار فكانت لهم الفرحة الكبرى عندما رأوا أن البضائع النفيسة الغالية التي تكدست لديهم منذ أمد طويل دون أن تجد شارياً يشتريها، تصبح فجأة موضع الطلب وتنفد في لمح البصر. وحدث مرة أن ذهبت سيدة إلى الصلاة بثوب منفوش يكاد يملأ قاعة الكنيسة بحيث اضطر ضابط الشرطة أن يطلب من عامة الناس التراجع إلى المدخل مخافة أن يتلوث ثوب السيدة. حتى أن تشيتشيكوف نفسه لم يستطع بينه وبين نفسه إلا أن يدرك الاهتمام العظيم الذي أثار. وقد رجع مرة إلى النزل فوجد رسالة معنونة باسمه.

و لم يجد سبيلاً لمعرفة المصدر الذي جاءت منه أو معرفة الشخص الذي أوصلها، لأن خادم النزل قال له بأن حامل الرسالة رفض أن يذكر شيئاً. كانت الرسالة تبتدئ رأساً بالكلمات التالية «يجب أن أكتب إليك» ثم تستمر فتقول بأن هناك رباطاً روحياً وثيقاً يربط ما بين نفسين متماثلتين. ولتأكيد هذه الحقيقة وضعت بعدها نقطاً كثيرة جداً تملأ عدداً من السطور يكاد يقارب نصف سطور الرسالة. وتلا ذلك بعض التأملات الفكرية الصادقة جداً بحيث لا أجد بداً من أن أضعها للقارئ بنصها. قالت كاتبة الرسالة «وإني لأتساءل، ما هي حياتنا؟ إنها ليست غير وهدة من الثبور. وأتساءل أيضاً ما هو العا لم؟ إنه ليس إلا جمهرة من البشر لا يفكرون». ومن ثم تقول بأنها ذرفت دمعة غالية على ذكرى أمها العزيزة التي توفيت قبل خمسة وعشرين عاماً، ومن ثم فإن الكاتبة (وهذا ما فرضناه في البدء) تدعو تشيتشيكوف إلى الانطلاق معها في البراري وترك المدينة إلى الأبد نظراً لكابوس الضوضاء والجوّ الخانق الذي لا يكاد المرء يستطيع فيه التقاط أنفاسه. وفي نهاية الرسالة تكشف الكاتبة عن يأس عميق بالشعر التالي:

قمرية الوادي ستنبش أعظمي
وهديلها النواح يهتف قائلاً
من قبرها يوماً وسوف تراها
عني لقد ماتت لفرط وحدتها وأساها

أجل، إن البيت الأخير مكسور، ولكن لا أهمية لذلك إطلاقاً، فالرباعيات التي نُظم الشعر على أساسها هي آخر طراز من نظم الشعر في تلك الآونة. وكانت الرسالة خلواً من التوقيع والتاريخ، ولكن أُلحقت بها حاشية تقول بأن قلب تشيتشيكوف سوف يدله على شخصية كاتبة الرسالة، وأنها بالإضافة إلى ذلك سوف تحضر الحفلة الراقصة التي سيقيمها حاكم الولاية في منزله في الليلة القادمة.

كان اهتمام تشيتشيكوف بهذه الرسالة كبيراً جداً. فقد كان فيها في الحقيقة كثير من الغموض والغرابة مما جعله يعيد قراءتها مرة ثانية وثالثة ويقول أخيراً «كم كنت أتمنى لو أعرف من أرسلها». خلاصة القول أنه أخذ ينظر إلى القضية نظرة جادة. وراح يفكر فيها أكثر من ساعة. وبعد لأي من الشرود، تمتم بضع كلمات عن أسلوب الرسالة البراق ثم طواها ووضعها في صندوق المراسلات ومعها تذكرة للمسرح وبطاقة دعوة إلى حفلة زواج كانت تقيم في هذا الموضع من هذا الصندوق منذ سبعة أعوام. وبعد هنيهة من الزمن وصلت دعوة إلى حفلة حاكم الولاية للراقصة التي مرّ ذكرها. ويمكن أن نذكر على مجرى الكلام أن حفلات من هذا القبيل هي ظاهرة عامة في مدن الأقاليم، فحيث يوجد حاكم الولاية لا بد أن تكون حفلات تبعث في قلوب النبلاء مشاعر الحب والاحترام.

ومنذ تلك اللحظة طرح تشيتشيكوف جانباً كل فكر آخر، وجعل همّه الاستعداد للمناسبة المقبلة. أما هذه المناسبة المثيرة فقد جعلت تشيتشيكوف في الحقيقة يكرس للعناية بهندامه وقتاً لم يكرسه إنسان منذ بدء الخليقة. أضاع ساعة كاملة في تأمل وجهه في المرآة عندما وقف أمامها يدرس ملامحه المختلفة في الانفعالات المختلفة بدأ أول الأمر باسباغ أمارات العظمة والأهمّية، على ملامحه ثم أسبغ عليها أمارات الوقار الخالص الذي لا يخالطه شيء. وبالتالي، أخذ يقوم بسلسلة من الانحناءات تلاءم مع نوع الملامح الظاهرة على وجهه، ويتمتم بكلمات يقصد منها أن تشابه التعابير الفرنسية في وقعها في السمع (مع أن تشيتشيكوف لم يكن يعرف كلمة واحدة من تلك اللغة). وأخيراً، قام بإجراء سلسلة أخرى مما يمكن أن نسميه «علامات الاستغراب» كضم الحاجبين وزم الشفتين وتحريك اللسان حركات مختلفة شتى. وخلاصة القول، أنه عمل كل ما يحتمل أن يعمله إنسان عندما يكون

وحيداً وعندما يتأكد من أنه وسيم الهيئة ومن أن أحداً لا يتلصص عليه من ثقب من الثقوب. وفي النهاية ربت بيده على ذقنه تربيتاً خفيفاً وقال «هكذا تكون الوجوه». وعلى هذا المستوى من المعنويات العالية ظلّ أثناء ارتدائه ملابسه استعداداً للحفلة. فكان وهو يعدل حاملة السراويل ويربط ربطة العنق يحرك قدميه حركة لا نستطيع أن نقول عنها بثقة أنها الرقص، ولكن يمكن أن نسميها حركة الاستعداد للرقص. و لم تكن لهذه العمل نتائج وخيمة جداً، فكل ما حدث هو أن ضرب باب خزانة الثياب ضربة جعلتها توشك على الإنقلاب وزلقت فرشاة من على المنضدة وانخبطت على الأرض.

وكان لدخوله صالة الرقص فيما بعد، أثر لا يبرزه أثر آخر. وهرع كل الحضور إلى ملاقاته، وبعضهم يحمل أوراق اللعب في يده، حتى أن أحد الرجال قطع حديثه عند نقطة هامّة جداً - عند النقطة التي كان يقول فيها إن «دائرة الاراضي المحلية إجابة على هذا...» فقد طرح المتكلم جواب دائرة الأراضي جانباً ورمى كل تفكير آخر في الهواء وهرول إلى تحية بطلنا. «بافيل ايفانوفيتش! آه، يا رب، بافيلّ ايفانوفيتش! يا بافيل ايفانوفيتش الكريم، بافيل ايفانوفيتش المبجّل! يا روحي، يا بافيل ايفانوفيتش. ها أنت هنا، يا بافيل ايفانوفيتش! ها هو، عزيزنا بافيل ايفانوفيتش! اسمح لي أن أحضنك، يا بافيل ايفانوفيتش. هاتوه هنا، لأقبله لأقبل عزيزي بافيل ايفانوفيتش قبلة حارة». وانهالت كلمات الترحيب على تشيتشيكوف من كل حدب وصوب وأحس بأنه غارق في بحر من العناق. فلم يكد ينتزع نفسه من ذراعي رئيس المجلس المحلي حتى وجد نفسه محتضناً بقوة بين ذراعي رئيس الشرطة الذي سلمه بدوره إلى مفتش دائرة الصحة وهذا بدوره سلمه إلى مدير الجباة وهذا أيضاً عهد به إلى مهندس المدينة. حتى حاكم الولاية الذي كان واقفاً في تلك الآونة بين جمع من النساء، يحمل في احدى يديه

علبة من الحلوى وفي الأخرى كلباً صغيراً، رمى من يديه في تلك اللحظة علبة الحلوى والكلب الصغير (وقد صدر من الكلب تأوه لهذا العمل) واشترك في معانقة الضيف مع بقية الجمع. وفي الحقيقة، لم يكن يبدو وجه واحد لم ترتسم عليه نشوة السرور، أو على الأقل انعكاس نشوة السرور الظاهرة على وجوه الآخرين. هذه النشوة نراها أيضاً في وجوه صغار الموظفين عندما يأتي اليهم المدير الجديد ويفرغ من تفتيشه الدقيق ويبدأون ينتشلون أنفسهم من وهدة الرعب التي لفّتهم أول الأمر، ويرون أن ما يوجب الثناء والمديح قد وجد وأن باستطاعته الآن أن يلقى عليهم كلمات الدعابة ويمنحهم ابتسامة الرضى. عندئذ يستجيب كل موظف من هؤلاء بابتسامة لها قوة مضاعفة، وقد يكون البعض منهم لم يسمع من المدير الجديد كلماته بشكل واضح، حتى الحارس البعيد الواقف بالباب - والذي ربما لم تمر على شفتيه ابتسامة قط، فهو لا يتقن غير ضرب الجماهير وتوزيع اللكمات - حتى هذا الحارس يصدر قهقهة فاترة، قهقهة أشبه بالشهيق الذي يصدر من الرجل عندما يوشك أن يعطس بعد أن يكون قد استنشق كمية غير قليلة من السعوط. وأخذ تشيتشيكوف يوزع الابتسامات والانحناءات وهو راضٍ عن نفسه تمام الرضى. فأحنى رأسه مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال انحناءة جانبية كان مختصاً بها ولم تخب يوماً في فتنة من يراها. أما النساء فقد تجمعن حوله أسراباً مشرقة تعبق بالعطور من كل لون - الورد والخزامى وبنفسج الربيع. كانت الروائح العطرية كثيفة جداً حول تشيتشيكوف حتى أنه بين الآونة والأخرى كان يرفع رأسه بغية استنشاق الهواء. أما ملابس السيدات فكانت تعرض خليطاً مختلفاً جداً من الأنواع والأذواق: الموسلين والدمقس والشيفون من الألوان الباهتة العصرية التي لا يمكن حتى أن تجد لها صفة تنعتها بها (إلى هذا الحد وصل الذوق الرهيف). وكانت العُقَص والأشرطة وباقات الزهور

ترفرف على الفساتين هنا وهناك في أزهى فوضى، رغم أن الذهن المنظم اشتغل كثيراً في خلق هذه الفوضى. وكان غطاء الرأس الخفيف لا يسنده غير الأذنين، وبدأ وكأنه يقول «آه، سأطير، ويؤسفني فقط أن لا أرفع معي هذه الحسناء». وكانت الخصور مشدودة بمشدات قوية، فتلوح للعيون في أبهى شكل. (يجب التنويه بأن سيدات بلدة «ن» كلهن عموماً بدينات قليلاً، ولكنهن كنّ يشددن أنفسهن بعنف كبير، ويتخطرن بعذوبة كثيرة، حتى يتعذر على المرء أن يفطن إلى بدانتهن) كان كل شيء فيهن مدروساً ومحسوباً بدراية فائقة؛ كانت الرقاب والأكتاف مكشوفة إلى الحد الضروري لا أكثر ولا أقل، وكل واحدة قد عرّت ممتلكاتها، بالقدر الذي كانت تشعر، حسب اعتقادها، بأنه قادر على الفتك بالرجل. أما البقية فقد اخفتها كلها بذوق غير اعتيادي: رباط خفيف من الأشرطة، أو لفاع أخف من القشدة المحلاة المعروفة باسم «قبلة»، كان يطوق العنق بشكل اثيري، وقطع هدابية صغيرة من نسيج الباتيسته النحيل معروفة باسم «المحتشمات» تطلع من تحت الكتفين، من تحت الفساتين. وكانت هذه «المحتشمات» تغطي من الأمام ومن الخلف ما لم يعد بمقدوره أن يهلك الرجل، بينما كانت توحي بأن ما تغطيه هو بالذات الهلاك بعينه. و لم تكن القفازات الطويلة ملبوسة حتى الردن، بل كانت تترك الأجزاء المثيرة في الذراعين إلى الأعلى من الكوع عارية عن نية مقصودة، وهذه الأجزاء لدى بعض السيدات على قدر من الامتلاء يحسد عليه حتى أن قفازات جلد الجدي قد تفتقت على بعض الأذرع. وباختصار كان كل شيء ينطق بصوت عال: هذه العاصمة، هذه باريس، وليست ولاية من ولايات الأقاليم! إلا أنه في بعض الأماكن كانت تظهر فجأة قلنسوة لم تر الأرض مثلها شكلاً، أو ريشة كثيرة الشبه بريش الطاووس، وذلك على الضد من كل موضة، وحسب ذوق لابستها لا أكثر. ولكن ذلك لا بد منه، لأنه

طبيعة سكان الاقاليم، ولا بد أن تظهر بشكل من الاشكال. ولما وقف أمامهن تشيتشيكوف أخذ يسأل نفسه قائلاً «أي هؤلاء الفاتنات هي كاتبة الرسالة؟» ورفع رأسه للمرة الثانية وشم الهواء ولكنه جوبه على مقربة من أنفه بمجموعة طيبة من الأكواع وأزرار الأكمام وأطراف الأشرطة والشالات المعطرة والفساتين. رقصة الغالوب المرحة في أوج احتدامها. الجميع نهضوا، وانطلقوا يرقصون: زوجة مدير البريد، ومأمور المركز، وسيدة تضع ريشة زرقاء وأخرى بريشة بيضاء، والأمير الجورجي تشيبخايخيليدزيف وموظف من بطرسبورج، وآخر من موسكو، والفرنسي كوكو، وبيرخوبوفسكي وبيربيندوفسكي.

وقال تشيتشيكوف، وهو يتراجع إلى الخلف:

– ياه! إدارة الولاية كلها منطلقة في عملها!

وعندما عادت السيدات إلى مقاعدهن، أخذ يحاول للمرة الثانية أن يعرف (من التعابير والنظرات) أيّهن هي الشاعرة المجهولة. ومع أن التعابير والنظرات في هذه الحالة كانت مضللة غير كاملة الوضوح. في كل مكان ثمّة ما يشي بمكنون الصدور، بشيء مراوغ لا يمسك. وحدّث تشيتشيكوف نفسه: «أوه، مراوغ جداً. النساء موضوع... – واكتفى بهز ذراعه لإكمال الجملة – شيء واضح تماماً. حاول فقط أن تصف أو تنقل مايرف على وجوههن، كل تلك الايماضات والتلميحات، وستجد نفسك عاجزاً عن التعبير عنها بالكلمات. عيونهن وحدها دولة لا حدود لها، إذا دخلها شخص ضاع وغرق، ولن تستطيع أن تلتقطه بشص. حسناً، حاول مثلاً، أن تصف بريق العيون وحده، البليل، المخملي، السكري. والله يعلم أي شيء هو أيضاً! قاس، ناعم، وحتى داكن للغاية، أو كما يقول آخرون، في رخاء أو بلا رخاء أسوأ من الرخاء – فهو يعتصر قلبك، ويلعب بروحك كلها، وكأنه قوس كمان. أكيد، لا يمكنك أن تجد الكلمات. النصف الزيني من الجنس البشري، وهذا كل ما تستطيع أن تقوله».

أرجو المعذرة! يبدو أن كلمة سوقية أفلتت من فم بطلنا. ولكن ما العمل؟ هذا حال الكاتب في روسيا! بالمناسبة إذا وقعت كلمة سوقية في كتاب، فليس الذنب على الكاتب، بل على القراء، وقراء مجتمعنا الراقي قبل غيرهم، لأنك لن تسمع منهم كلمة لائقة واحدة بالروسية، بينما هم كما أعتقد، يغرقونك بالكلمات الفرنسية والألمانية والإنجليزية بحيث تضجر، وهم ينطلقون بها محافظين على كل طرائق النطق المتاحة: يخنّون ويلثغون إذا تكلموا بالفرنسية، ويغردون بالإنجليزية كما يغرد الطير، بل ويقبلون سحناتهم كما يفعل الطير لدى تغريده، بل ويضحكون من الذين لا يجرأون على محاكاة سحنة الطير. ولكنهم لا يستطيعون أن يغردوا بأي شيء روسي، إلا إذا استثنينا بناء بيت ريفي لهم على الذوق الروسي. هؤلاء قراء المجتمع الراقي، ومن خلفهم كل الذين يعتبرون أنفسهم من الفئة الراقية. ومع ذلك فما أطول باعهم في التزمّت! إنهم يصرّون على أن يُكتب كل شيء بلغة ملتزمة للغاية منقاة رفيعة، وباختصار العبارة يريدون أن تنزل اللغة الروسية بنفسها من السماء مصاغة كما تنبغي الصياغة، وتحط على ألسنتهم، بحيث لا يكون لهم إلا أن يديروا أفواههم، ويطلقونها. وطبيعي أن النصف اللطيف من الجنس البشري يصعب فهمه، ولكن يجب الاعتراف بأن قراءنا المحترمين أكثر صعوبة على الفهم أحياناً.

وخلال ذلك كان تشيتشيكوف في حيرة تامة من التأكد من صاحبة الرسالة. حاول أن يدقق النظر، ورأى من الجانب النسائي أيضاً ما يعبر في آن واحد عن الأمل والآلام العذبة لقلب إنسان فان مسكين، حتى أنه قال أخيراً «مستحيل أن أحزر أبداً». إلا أن عقبة كهذه لم تكن تنقص من معنوياته العالية. وتبادل مع أحداهن كلمات المباسطة الخفيفة بكل سهولة وقبول، ثم اقترب من أخرى بخطوات متبخترة كتلك التي يقوم بها الغندور الطاعن في السن الذي يتسكع قرب السيدات. وكان

إذا ما دار – بغير قليل من الخفة والرشاقة – إلى اليمين أو إلى الشمال ترك إحدى ساقيه تجر قليلاً وراء الأخرى، كالفاصلة في الحروف أو كالذيل الصغير. كانت هذه الحيلة موضع إعجاب السيدات. موجز القول، أنّهن بدأن يرين فيه لا موضع اللطف والجاذبية وحسب، بل أخذن يلمحن في وجهه نوعاً من الهيبة العسكرية كتلك التي تبدو في وجه مارس إله الحرب – وهو شيء، كما نعرف، لا يخيب أبداً في إرضاء عيون النساء. وقد أخذ بعضهنّ يتنازعن عليه، ولما رأينه يقضي معظم وقته قرب الباب سارع بعضهن في احتلال أقرب الكراسي إليه. وفي الواقع كاد ينشب صدام بين سيدتين سبقت إحداهما الأخرى إليه وكاد يحدث مشهد مؤسف جداً، مشهد كان سيعتبر مثلاً مفجعاً على الوقاحة وصفاقة الوجه في نظر اللواتي كن يتمنين لو قمن أنفسهن بالعمل نفسه.

وكان تشيتشيكوف غارقاً في الحديث مع مطارداته الحسنوات، أو نستطيع أن نقول بأن المطاردات الحسناوات كن قد أوقعن تشيتشيكوف في حبالهن وأمسكن به بأن أخذن يلقين عليه عدداً لا نهاية له من الأحاجي العميقة التي جعلت قطرات العرق تتصبب عن جبينه في محاولته حلّها، بحيث نسيّ أن يؤدي فروض التحية وواجبات الاحترام الواجبة عليه قبل كل شيء لربّة البيت. ولم يتذكر هذه الواجبات في الواقع إلا عندما سمع زوجة حاكم الولاية التي كانت واقفة أمامه منذ بضع دقائق تبدئه بالكلام. وقالت بصوت خافت لا يخلو من الخبث «ها نحن قد رأيناك أخيراً يا بافيل ايفانوفيتش». أما ما تلا ذلك من كلامها فلا أستطيع أن أنقله إلى القارئ بالنص، لأنه من نوع الخطاب الذي يدور بين الفرسان والسيدات في الطبقة الراقية والذي نجده مكتوباً في القصص الشهيرة التي كتبها كتاب هم أبرع مني في وصف حياة الطبقات الراقية وأكثر اطلاعاً عليها. قالت زوجة الحاكم

بأنها تأمل أو أن لها وطيد الأمل، بأن يكون قد بقيّ في حنايا قلب تشيتشيكوف زاوية - حتى ولو كانت زاوية صغيرة جداً - لأولائك الذين قد جار عليهم بالهجر والنسيان، أو ما هو بهذا المعنى. فالتفت إليها تشيتشيكوف لكي يرد عليها بجواب كان من المنتظر أن لا يقل بحال من الاحوال عن أجوبة الابطال الروائيين من أمثال زفونسكي ولينسكي وليدين وهريمين في ظروف مماثلة، ولكنه ما أن رفع عينيه حتى أطبقهما وكان صاعقة هوت على أم رأسه.

لم تكن ربة البيت وحدها التي تقف أمامه إنما كانت تمسك بفتاة. الشعر الذهبي، والقسمات الأنيقة الرقيقة، والوجه البيضوي الساحر - الوجه الذي يجدر به أن يكون النموذج الصالح لمريم العذراء - والجمال الذي يندر أن يمر المرء بمثله في روسيا، حيث كل شيء، مهما يكن، يتخذ، كما يبدو، أبعاداً كبيرة سواء أكان ذلك جبلاً، أو غابة أو سهباً، أو وجهاً أو شفة أو قدماً، ذلك الجمال الذي يكون كل جزء فيه من قمة الرأس إلى أخمص القدم في ذروة الإتقان، هذا الجمال كله كان ما رآه في العربة أثناء الاصطدام عندما كان هارباً من نوزدريف حين اصطدمت عربتاهما بشكل غريب سواء أكان ذلك حماقة من السائقين أو الخيول، وتشربكت عدة الخيول وتبرع العم ميتياي والعم مينياي بفكها. وقد ارتفعت حرارة عواطفه إلى درجة أصبح معها لا يستطيع أن يلفظ حرفاً واحداً، وراح يتمتم بكلمات لا يفهم معناها غير الشيطان، كلمات لا تصدر قطعاً عن شفتّي بطل من أبطال القصص العظيمة.

وقالت ربة البيت «أظن أنك لم تقابل ابنتي قبل الآن. فهي حديثة عهد في التخرج من المدرسة».

فأجاب بأنه كان سعيداً أن قابلها من قبل في ظروف لم تكن متوقعة، وعندما حاول أن يضيف إلى هذا الكلام شيئاً آخر خانه لسانه وأطبق

عليه. فقالت زوجة حاكم الولاية كلمة أو كلمتين أخريين وسارت بابنتها لتحادث الضيوف الآخرين. ووقف تشيتشيكوف مسمراً في مكانه، كالرجل الذي يخرج من بيته مرحاً طروباً فيذكر فجأة أنه نسي في البيت أمراً خطيراً. وإذ يقف في منتصف ا لطريق ليتذكر ما هو الأمر الخطير تختفي من وجهه بشائر المرح وكأن غشاوة تغطي عينيه فلا يعود يرى أمامه شيئاً. وجاهد أن يتذكر ما نسيه. ربما المنديل؟ ولكن المنديل في جيبه، أو ربما النقود؟ النقود أيضاً في الجيب، كل شيء في مكانه كما يبدو، ولكن روحاً غير مرئية تهمس في أذنه أنه نسي شيئاً. وها هو واقف ينظر بذهول وغبش إلى الجمهور المتحرك أمامه، والعربات المنطلقة، وإلى قبعات الفوج المار العسكرية وبنادقه، وإلى لافتة، دون أن يستطيع رؤية أي شيء بشكل جيد. وعلى هذا النمط أصبح تشيتشيكوف غائباً عن كل ما حوله. بيد أن ألسنة السيدات العذبة ما فتئت تصب في مسامعه من أسئلتها وغمزاتها ما لا عداد له – أسئلة وغمزات توحيها الرغبة في الاستيلاء على قلبه. «هل لنا نحن المتطفلات أن نجرؤ على السؤال عما تفكر فيه؟». «هل لك أن تتكرم وتخبرنا عن الآفاق التي يجول فيها خيالك الآن؟» «هل لنا أن نسأل عن اسم السعيدة الحظ التي جعلتك تسبح في هذا الخيال اللطيف؟» ولكنه كان يستقبل هذه الأسئلة بأذن صماء وكأنه صيحة في واد. وقد وصلت جلافته في الواقع ذروتها عندما سحب نفسه من بينهن وسار يبحث عن المكان الذي استقرت فيه زوجة حاكم الولاية وابنتها. ولكن السيدات لم يكن ليتركنه بهذه السهولة. فأخذت كل واحدة منهن تبذل قصارى جهدها وتجهد بنات أفكارها للإبقاء عليه. ويجب أن نلاحظ أن لبعض النساء – وأنا أقول لبعض النساء، وهذا يعني ليس لكلهن – موطن ضعف صغيراً، وهو أنهن لو لاحظن فيهن شيئاً مميزاً في حسنهن، أي جبهة، أو فماً أو يدين، يتصورن أن الجزء الأحسن في وجوههن

هو أول من يلفت نظر الجميع فيهن، ويأخذ هؤلاء يتحدثون فجأة في صوت واحد: «انظروا، انظروا أي أنف اغريقي رائع لها!» أو «أي جبين متناسق فاتن!» ومن لها كتفان بديعتان تكون متأكدة مسبقاً بأن الشباب جميعاً سيكونون معجبين كلياً، وكلما مرت بهم سيكررون «آه، ما أبدع كتفيها!» ولن يلقوا نظرة إلى وجهها، وشعرها، وأنفها وجبينها، وإذا نظروا فكأنهم ينظرون إلى شيء لا يخصها. بهذا الشكل تفكر بعض النساء. وكل امرأة قطعت على نفسها عهداً بأن تكون أفتن ما يمكن في الرقص، وتظهر كل ألق ما تعتبره تفوقاً فيها. فزوجة مدير البريد أمالت رأسها إلى جانب، حين كانت ترقص الفالس، حتى لاح في حركتها هذه شيء لا يمت إلى الأرض بصلة. لم تصطبر سيدة مهذبة جداً لم تأت لغرض الرقص مطلقاً بسبب، ما وصفته «اينكوموديته»[٣٢] على شكل مسمار في قدمها اليمنى جعلها تضطر إلى لبس جزمة مسطحة، وقامت رغم ذلك، ببعض الدورات في جزمتها المسطحة، حتى لا تغرق زوجة مدير البريد بالوهم أكثر من اللازم.

ولكن ذلك كله راح هباءً لأن تشيتشيكوف لم يعرهن أذناً صاغية وأخذ يقف. على أصابع قدميه - حتى حين ابتدأ الرقص - ويجول بعينيه في القاعة ليعرف مقر الفتاة الساحرة ذات الشعر الذهبي وينظر من فوق رؤوس جيرانه وأكتافهم حتى رآها آخر الأمر جالسة بجوار أمها التي كانت تضع على رأسها عمامها شرقية بريشة. وبدأ عليه عندئذ أنه قد صمم أن يجتاح هدفه اجتياحاً كما تفعل العاصفة العاتية، فقد اندفع إلى الامام اندفاعة شديدة بتصميم اليائس حتى أن كوعه ضرب مدير الجباة ضربة جعلته يترنح على قدميه وكان سينكفئ على الأرض لا محالة لولا صف الضيوف الذي دعمه من المؤخرة. أما مدير البريد فقد سارع

(٣٢) بالفرنسية تلفظاً، وتعني هنا "اعتلال". المترجم.

وأخلى له الطريق، لكنه التفت إليه محدقاً فيه بنظرة تهكم واندهاش. لكن ذلك كله لم يكن يسترعي انتباه تشيتشيكوف، فلم تكن ترى عيناه غير ذات الجمال الأشقر. كانت في تلك اللحظة تلبس في يديها قفازاً طويلاً، ومما لا ريب فيه أنها كانت تتهيأ لخوض حلبة الرقص حيث كان قد أصبح فيها أربعة أزواج ينسجون خطوات المازوكا. وكان بين الراقصين بالذات ضابط باللباس العسكري منهمك روحاً وجسداً ويدين ورجلين ليقوم بأداء خطوات لا عهد لإنسان بها من قبل حتى في الأحلام. مهما يكن من أمر، فقد اجتاز تشيتشيكوف الراقصين وكاد أن يدوس على كعوبهم حتى اقترب منهما بكثير من التحسب خالياً كل الخلو من سالف التبختر والمرح. لا، بل كان يضطرب حين كان يسير، وكل حركة من حركاته تشير إلى عظيم ارتباكه.

ومن الصعب علينا أن نقول فيما إذا كان الشعور الذي ثار في قلب بطلنا هو الحب. فمن الأمور المختلف عليها هو أن يكون الرجال أصحاب هذه البنية – أي ليسوا بالسمان ولا بالنحاف – قادرين على الإحساس بشيء من هذا القبيل. ومع ذلك فأن شعوراً غريباً جداً قد طغى عليه لم يستطع له تفسيراً. فقد لاح له أن قاعة الرقص بما فيها من لغط وضجيج قد أصبحت شيئاً بعيداً جداً، وأن الفرقة الموسيقية قد انسحبت إلى ما وراء إحدى التلال وأن المنظر كله أصبح مبهماً كالصورة التي رسمها الفنان بغير اعتناء. ومن خلال هذا المنظر المبهم يتألق شيء واحد فقط هو وجه الغادة الفاتنة: وجهها البيضوي المدور، وقوامها الأهيف الرهيف التي تتميز به الفتيات خلال الأشهر الأولى من تخرجهن من المدرسة وثوبها الأبيض البسيط تقريباً المحبوك بخفة وبداعة على أطرافها الهيفاء الفتية في كل مواضعها، حتى برزت بخطوطها النقية. ولا أدري كيف صور له خاطره بأن قوامها الغالي شديد الشبه بدمية من العاج تبدو براقة بيضاء شفافة وسط الزحام المبهم البليد.

نرى هنا ظاهرة ليست قليلة الوجود. الظاهرة التي يصبح فيها تشيتشيكوفات هذا العالم شعراء ولو إلى حين، ولكن كلمة «شاعر» ستكون مبالغة كبيرة. على أيّة حال، فقد شعر تشيتشيكوفنا لفترة قصيرة من الزمن أنه أصبح شاباً مرة أخرى، هذا إذا لم يكن ضابطاً في الجيش. وما إن رأى كرسياً فارغاً بجوار الأم وابنتها حتى سارع إلى احتلاله. ومع أن الحديث ابتدأ فاتراً بليداً، إلا أن الأحوال تحسنت بالتدريج وأخذ يستعيد الثقة بالنفس شيئاً فشيئاً. عند هذه النقطة أجد نفسي متردداً في أن اتشعب في موضوع الحديث لأقول بأن الرجال ذوي المقام الكبير والمناصب العالية عندما يتحدثون إلى النساء لا يكون لهم وزن ولا قيمة. بينما الضباط الصغار – أي من كانت رتبته أصغر من رتبة رئيس على الأقل – فهم دائماً أكثر نجاحاً. أما كيف يستطيعون ذلك، فالله وحده أعلم. فإذا نطقوا بهنة فارغة تجد الفتاة التي تجلس بجوارهم تهتز ضحكاً. أما إذا دخل وجيه في الحديث مع سيدة وقال لها مثلاً بأن الامبراطورية الروسية واسعة الأرجاء، أو قال لها مجاملة تدل على قسط كبير من الذكاء (مهما فاحت هذه المجاملة بروائح الكتب)، فإنها تقع موقعاً بارداً جداً. حتى النكتة إذا قالها فإنه يضحك هو نفسه عليها أكثر مما تضحك السيدة المستمعة إليه. وقد حشرت هذا التعليق في حديثي هنا لكي أفسر للقارئ السبب الذي من أجله – عندما بدأ بطلنا الحديث أخذت الفتاة تتثاءب. لكنه على أية حال، كان أعمى العينين عن هذه الحقيقة فانطلق يقص عليها مغامرات شتّى وقعت له في بقاع مختلفة من العالم وبالتحديد في ولاية سيمبرسك في بيت سوفرون ايفانوفيتش بيسبتشني، بحضور ابنته أديلايدا سوفرونوفنا، وأخوات زوجها الثلاث ماريا غفريلوفنا، وألسكندرا غفريلوفنا، واديلغيدا غفريلوفنا، وفي ولاية ريزان في بيت فيدور فيدوروفيتش بيريكرويف، وفي ولاية بينزا في بيت فرول فاسيليفيتش بوبيدونوسني، وفي بيت

أخيه بيتر فاسيليفيتش بحضور أخت زوجته كاترينا ميخانيلوفنا وابنتي عمّ عمّها روزا فيدوروفنا واميليا فيدوروفنا، وفي ولاية فياتسك في بيت بيتر فارسونوفيتش بحضور أخت زوجة ابنه بيلاغيا يغوروفنا وابنة أخيه صوفيا روستيسلافنا وابنتي زوجة أبيها صوفيا ألسكندروفنا وماكلاتورا الكسندروفنا.

وغنيّ عن الذكر أن بقية السيدات قد استأن استياء عميقاً لهذا السلوك. وقد سارت إحداهنّ متبخترة أمامه لكي تشعره بهذه الحقيقة وفي الوقت نفسه مست ابنة حاكم الولاية بكم فستانها وجعلت طرف اللفاع يلامس وجهها. أما السيدة التي كانت تجلس خلفهم فقد رمتهم بنفحة من البنفسج وبتعليق لاذع قتّال. ومع هذا، فأما أن يكون قد صمّ عن سماع التعليق أو تظاهر بأنه لم يسمعه. و لم يكن هذا منه من الحكمة في شيء، لأن إهمال آراء السيدات لا يليق أبداً. وقد شاء له القدر أن يتعلم هذه الحقيقة، ولكن بعد أن سبق السيف العذل.

موجز القول، أن الاستياء بدأ يعلو وجوهاً عديدة. فمهما كان تشيتشيكوف عالي المقام في المجتمع، ومهما كان يملك من الملايين المقنطرة وكانت ملامحه تدل على العظمة التي لا حد لها والروح العسكرية المتوثبة، إلا أن هناك أموراً لا تستطيع أن تغتفرها سيدة مهما كان الرجل الذي صدرت عنه هذه الأمور. وهناك حالات نجد فيها المرأة، وعلى رغم كل ما في طبيعتها من ضعف وعجز بالقياس إلى الرجل، تصير فجأة أشد قسوة ليس من الرجل فقط، بل ومن كل شيء في الدنيا. والاستخفاف الذي أبداها تشيتشيكوف، وهو استخفاف غير مقصود تقريباً، أعاد بين النساء حتى الوفاق الذي كان من قبل على حافة الانهيار، حين بدأ التنافس على المقعد إلى جانبه. فقد وجدن لمزات لاذعة في كلماته الجافة الاعتيادية التي ألقاها عرضاً. ونحن نعرف عادة أن الحضور في حفلات حكّام الولايات الراقصة يؤلفون

أشعاراً ينتقدون الراقصين فيها، أما في حالتنا هذه فقد نُسبت الأشعار كلها إلى تشيتشيكوف. خلاصة القول، أن الامتعاض أخذ يعم ويزداد حتى أصبح من المفهوم ضمنياً أن السيدات قد أصدرن مرسوم الاعدام بحق الاثنين، بطلنا والفتاة الصغيرة المسكينة.

ولكن مفاجأةً ألّعن من هذه كانت في انتظار بطلنا. فبينما كانت الفتاة تتثاءب وتشيتشيكوف يقص عليها إحدى مغامراته السالفة، حتى ذكر اسم الفيلسوف اليوناني ديوجين أثناء الحديث، إذ بباب غرفة مجاورة ينفتح ويظهر منه نوزدريف. ولا يعلم أحد فيما إذا كان قد جاء من المقصف أو خرج من غرفة جانبية كان يدور فيها لعب القمار، وهل خرج بمحض إرادته أو قذف به اللاعبون مطروداً. لكنه على أية حال، عندما دخل قاعة الرقص كان في نفسية عالية جداً، وكان يتأبط ذراع المدعي العام، ويظهر أنه كان يجره منذ أمد بعيد لأن المسكين كان يتلفت من ناحية إلى أخرى كما لو كان يفتّش عن وسيلة تنقذه من هذه الرحلة البغيضة. ومما لا شك فيه أنه كان في وضع لا يطاق لأنه ما كاد يحتسي نوزدريف كأسين من الشاي مع شيء من الروم، حتى بدأ يكذب عليه دون شفقة أو رحمة. وما رآه تشيتشيكوف عن بعد حتى عزم على التضحية بنفسه. أي أنه عزم على ترك وضعه الحالي الذي يحسد عليه وينسلّ على جناح السرعة، لأنه أدرك أن لقاءه مع القادم الجديد أمر لا تُحمد عقباه. ولسوء حظه أن حاكم الولاية آنذاك أمسك به طالباً منه أن يكون حكماً بينه (أي بين حاكم الولاية) وبين سيدتين. كان موضوع الخلاف هو هل أن حب المرأة يدوم أو لا يدوم. وفي اللحظة نفسها انقضّ نوزدريف على بطلنا بحملته العنيفة. فابتسم ابتسامة جعلت خديه النضرين الأحمرين حمرة الورد يرتعشان، وأخذ يصيح قائلاً «أيه يا ملاّك خارسون العظيم! هل مرّ عليك عهد طويل وأنت تتاجر بالأنفس التي انتقلت إلى رحمة الله؟» ثم التفت إلى حاكم

الولاية وقال «أظنّ أن سعادتك لا تعرف أن هذا الرجل يتعاطى شراء الأنفس الميتة». ثم إلى تشيتشيكوف «اسمع يا تشيتشيكوف. إني أقولها لك بروح الصداقة المخلصة، إن كل الموجودين هنا يحبونك - حتى سعادة حاكم الولاية. ولكن الأمر لو كان بيدي لشنقتك! أي والله، إني لأفعل».

وبلغت خيبة تشيتشيكوف أوجها.

واستمر نوزدريف يقول «وهل تصدقني يا صاحب السعادة؟ إن هذا الإنسان قد طلب مني أن أبيعه ما لدي من الأنفس الميتة. وقد كان الضحك يقتلني ويا للعجب! ما أكاد أصل إلى هذا البلد حتى أسمع أنه اشترى أنفساً بثلاثة ملايين روبل لكي ينقلها! طبعاً لكي ينقلها! لقد ساومني على أنفسي الميتة! اسمع يا تشيتشيكوف. إنك خنزير! نعم والله إنك خنزير صرف! أليس كذلك يا صاحب السعادة؟ أليس كذلك يا صديقي المدعي العام؟»).

ولكن الدهشة التي اعترت حاكم الولاية والمدعي العام وتشيتشيكوف كانت أكبر من أن تجعل أحدهم ينطق ببنت شفة. أما نوزدريف النشوان فلم يكن ينتظر منهم جواباً، وإنما راح مندفعاً في هذره، يقول «أيه يا سيدي العظيم! لن أدعك هذه المرة تفلت من بين يديّ. لا، إلا إذا علمت ما هو معنى شراء النفوس الميتة هذا. استمع إلي. يجب عليك أن تخجل من نفسك. نعم، أقول هذا لأنني من أوفى الاصدقاء إليك». ثم التفت إلى حاكم الولاية وقال «هل تعلم يا صاحب السعادة أنني وهذا الرجل لم نكن نفترق أبداً. ولو جئت تسألني يوماً وقلت «استحلفك بشرفك يا نوزدريف أن تخبرني أيهما تحبّ أكثر أباك أم تشيتشيكوف» لقلت لك « تشيتشيكوف والله!» ثم قال «هيا! هيا أيها الصديق الحميم! دعني أطبع على خديك قبلة أو قبلتين. أنت تسمح لي طبعاً أن أقبله يا صاحب السعادة. أليس كذلك؟ لا، لا تقاومني يا

عزيزي تشيتشيكوف دعني على الأقل اطبع قبلة واحدة على خدك الأبيض». ودفعه تشيتشيكوف عنه أثناء محاولاته لطبع القبلات عنوة على خده حتى كاد يقع نوزدريف بطوله على الأرض. وانزوى بعد ذلك كل فرد إلى ناحية وأصم أذنيه عن سماع زيادة في الهراء. ولكن الكلمات التي وردت عن ابتياع الأنفس الميتة كانت قد رنت في أرجاء القاعة بأعلى صوت كانت تصحبها قهقهة مدوية أثارت انتباه من هم في أقصى أطراف القاعة، الواقفين منهم والجالسين. كانت الفكرة غريبة جداً طريفة جداً بحيث وقف الجمع وليس على وجوههم غير أمارات الدهشة المتجمدة الخرساء. بيد أن بعض السيدات (وهذا ما لاحظه تشيتشيكوف) أخذّن يتبادلن ابتسامات ساخرة وغمزات خبيثة ذات معان، مما زاد في بلبلته. كان كل إنسان بالطبع يعرف أن نوزدريف كذاب أشر، ولن يدهش أحداً إذا انفجر انفجارته السخيفة الرعناء. ولكن الرجل الفاني يصعب، في الحقيقة، حتى أن تفهم من أي شيء مخلوق. إذ مهما يكن الخبر الذي يطلقه، ولكن لكونه خبراً لا غير، لا بد أن ينقله إلى فانٍ آخر، على الأقل ليقول «إنظر أي كذبة أطلقوا!» فيميل هذا الفاني الآخر أذنه إليه بارتياح على الأقل ليقول فيما بعد «نعم، هذه كذبة رخيصة تماماً لا تستحق أي اهتمام!» وفي أثر ذلك، وبنفس الساعة يتوجه ليبحث عن فانٍ ثالث، ليحدثه بها، وليهتف معه بعد ذلك بسخط نبيل: «أية كذبة رخيصة هذه!» وهكذا وبالتأكيد ستجوب الكذبة المدينة كلها. وسيتحدث بها جميع الفانين، مهما تكن كثرتهم، حتى يشبعوا منها لا محالة، وبعد ذلك سيعترفون بأنها لا تستحق أي اهتمام، ولا تساوي التحدّث عنها.

وبطبيعة الحال بلغ الحنق من بطلنا أشده، فمهما كانت الكلمات التي تصدر من لسان المجنون سخيفة، فهي كافية لكي تزرع بذور الشك في عقول العاقلين. فأحسّ بطلنا إحساس الرجل الذي ينتعل

حذاءً مدهوناً دهاناً فاخراً حين يجد نفسه فجأة يغوص في أقذر الأوحال. وقد حاول أن يطرح الأمر جانباً وأن يبسط من نفسه وأن يستمتع مرة أخرى. لا، بل حاول أن يشترك في لعبة الوست. ولكن ذلك كله كان عبثاً. فقد ظلّت أموره معوّجة ليس إلى تعديلها من سبيل. وقد أخطأ في اللعب مرتين، وأصبح رئيس المجلس المحلي في حيرة شديدة من أمر صديقه بافيل ايفانوفيتش اللاعب الحاذق الماهر من قبل، كيف يرتكب خطأ جسيماً ويرمي الملك البستوني الذي كان يعتمد عليه اعتماداً عظيماً، أو حسب تعبيره نفسه «كاعتماده على إله». وطبيعي أن مدير البريد والرئيس وحتى رئيس الشرطة راحوا، كما جرت العادة، يتندرون مع بطلنا ويسألونه: هل هو عاشق، ويقولون إنهم يعرفون أن قلبه مصاب، ويعرفون التي أصابت قلبه بسهمها، إلا أن كل ذلك لم يسل عنه، مهما ضحك، وردّ مزاحهم بمزاح. وحتى عند تناول طعام العشاء كان كل شيء على غير ما يرام، على الرغم من أن القوم الذين جلسوا معه إلى المائدة كانوا من لطف المعشر على قسط كبير، وعلى الرغم من أن نوزدريف كان قد أُبعد لأن السيدات قد وجدن سلوكه الفاضح لا يحتمل لا سيّما وقد جلس آخر الأمر على الأرض وأخذ ينتش ملابس الراقصين والراقصات. كان العشاء بهيجاً جداً، وجميع الوجوه التي مرقت أمام الشمعدانات الثلاثية الرؤوس، والزهور، والحلويات والزجاجات متألقة بارتياح غاية في الطلاقة. جميع الضباط والسيدات وسترات الفراك وكل شيء صار مهذّباً إلى حد الغثيان. كان الرجال يثبون من مقاعدهم ويهرعون ليأخذوا الأطباق من الخادم، ويقدمونها للسيدات بخفة غير اعتيادية. قدّم ضابط برتبة عقيد لأحدى السيدات صحن الصلصة على طرف سيفه المسلول. وكان الرجال، كبار السن، الذين كان تشيتشيكوف يجلس بينهم يتجادلون بأصوات عالية، مبتلعين كل كلمة ركينة مع قطعة من السمك أو لحم البقر مبلّلة

بالخردل بشكل لا يرحم، ويتجادلون في مواضيع كان دائماً يشارك فيها ولكنه كان يبدو كرجل تعب هدّه سفر طويل، ولا يدخل شيء في عقله، ويعجز عن الاهتمام بأي شيء، حتى وجد نفسه في وضع حرج جداً، ولهذا وضع حداً له بأن ترك غرفة الطعام حتى قبل نهاية العشاء وعاد إلى الفندق قبل موعده المعتاد بوقت طويل.

وفي غرفته الصغيرة ذات الباب المغطى بستار يفصلها عن الغرفة المجاورة، وذات الزوايا التي تطلّ منها الجعلان السوداء بين الحين والآخر، جلس على كرسيّ متخلخل مضطرب مثل أفكاره المتخلخلة المضطربة. كان قلبه ينبض بالكآبة المؤلمة وكان يجتاحه احساس من الغمّ والكدر، ويشعر بفراغ خانق يكاد يطبق على أنفاسه.

وأخذ يناجي نفسه قائلاً «سحقاً لمن اخترع الحفلات الراقصة! فأيّ إنسان يمكن أن يشعر فيها بالبهجة الخالصة؟ العوز والفاقة ماثلان في كل بقعة من هذه الولاية، والناس يقيمون الحفلات الراقصة! وهؤلاء النسوة السخيفات اللواتي يرتدين باذخ الملبس! إن كل واحدة منهن لا تحمل أقل من ألف روبل على كتفيها، ألف روبل جاءت من عرق الفلاح المثقل عبؤه بالضرائب، أو ما هو ألعن من ذلك، على حساب ضمير الجار. نعم، فالكل يعرف لماذا تنتشر الرشوة، ولماذا تلتوي نفوس الرجال: ليحصل الواحد منهم لزوجته على لفاع أو أقمشةٍ من مختلف الأنواع لها أسماء لا يمكن أن تضبطها. فعلام كل هذا؟ وما القصد من ورائه؟ لكي لا تقول «صديقة» زوجته أن زوجة مدير البريد تلبس أحسن من ثوبها - ولذلك اضطر الرجل المسكين أن يدفع ألف روبل ثمناً لثوب جديد! إن الصرخة التي تدوى في هذه البلاد هي «السرور والحفلات الراقصة، السرور والحفلات الراقصة!» والحفلات الراقصة ما هي إلا جنون محض! إنها لا تتفق والروح الروسية أو الأصالة الروسية، ولا يعلم إلا الشيطان سبب وجودها في هذه البلاد. فالكهل

الناضج ذو المظهر الصلب والحلة الرسمية السوداء ما يكاد يخطو إلى الحلبة حتى يأخذ بهز قدميه، ورجل آخر قد يكون منغمساً في الحديث مع زميل له حول شأن من شؤون الأعمال الخطيرة ما يكاد يخوضها حتى نجده يذهب تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار كالعنزة الخرقاء! إنه التقليد الأعمى، ولا شيء غير التقليد الأعمى! فإذا كان الفرنسي وهو في الأربعين مثله وهو في الخامسة عشرة، أصبحنا نتصور أننا يجب أن نكون مثله. لا، إن الحفلات الراقصة تترك دائماً في النفس شعوراً بارتكاب الخطيئة، ولهذا لا يحب الإنسان حتى أن يفكر فيها. إنها تترك عقل المرء فارغاً كلياً، تماماً كما يفعل التحدّث إلى ابن هذه الحياة. فابن الحياة كثير الثرثرة، وإذا تحدث فهو يطرق كل موضوع يخطر على البال، ويتكلم بأسلوب ناعم وجمل فصيحة اختارها من الكتب دون أن يعرف حقيقة معناها، بينما إذا تحدثت إلى رجل تاجر مثلاً يلمّ بموضوع واحد إلماماً صحيحاً نتيجة تجربته ومراسه فأنك ستخرج منه بفائدة عظيمة تزيد عن تلك التي تخرج بها من ألف من الثرثارين. وما هي الفائدة التي يجنيها المرء من الحفلات الراقصة؟ ولو حاول كاتب ما أن يصفها على حقيقتها، فمما لا شك فيه أنها ستبدو سخيفة غير ذات معنى، كالواقع الذي تقوم عليه في هذه الحياة. وهل هي من الأخلاق في شيء؟ الشيطان وحده يعلم. وليس على المرء إلا أن يغلق الكتاب باصقاً».

بمثل هذه الأفكار الساخطة كانت تعليقات تشيتشيكوف على الحفلات عموماً. وقد كان سخطه، على أية حال، ينبع من مصدر آخر. فلم تكن ضغينته الرئيسية ضد الحفلات عامة كما كانت ضد تلك الحفلة الخاصّة بالذات التي افتضح فيها أمره وعرف الناس أنه يلعب لعبة غامضة غريبة. وبطبيعة الحال، عندما أعاد النظر في هذه الحادثة المؤسفة على ضوء العقل السليم وجد أنها لن تضر شيئاً، فبضع

كلمات نابية لا قيمة لها ما دام الهدف الرئيسي قد تمّ بلوغه. ولكن الإنسان مخلوق غريب. إذ أخذ الألم ينهش قلب تشيتشيكوف لهذا الإعراض الذي قوبل به من طائفة لا يكنّ لها أي احترام، طائفة أدان هو نفسه غرورها وضحالة تفكيرها. وعندما أعاد النظر في الأمر مرة أخرى وأوسعه تفكيراً زاد سخطه إذ وجد أن السبب في هذه الكارثة يقع عليه جزئياً. ولكن ليطمئن القارئ بالاً، فلم يكن سخطه هذا على نفسه. لأن الكل منا يكمن فيه هذا النقص البسيط، الذي يتلخص في أن يستثني نفسه من ارتكاب الأخطاء وأن يبذل قصارى جهده دائماً في التفتيش على مخلوق يُنحي عليه باللائمة ويلقي عليه التبعة وقد يكون هذا المخلوق خادماً أو موظفاً صغيراً أو زوجة، وأخيراً على كرسي صادف أن طار في اللحظة غير المناسبة حتى ارتطم الباب بعنف فانخلع عنه ذراعه وظهره وليعرف إلى أي حد يصل الغيظ. وبالمثل، فقد فتّش تشيتشيكوف على ضحية يلقي عليها تبعة ما اساءه. وكان كبش الفداء في حالتنا هذه نوزدريف. فقد صبّ عليه جام غضبه وشرع بضربه من كل حدب وصوب دون شفقة أو رحمة كما يفعل النقيب أو حتى الجنرال عندما يشتم عمدة القرية أو الحوذيّ متجاوزاً أصول الشتائم الكلاسيكية المتعارف عليها، ليضيف إليها قسطاً كبيراً جداً من بنات أفكاره. خلاصة القول، أن نوزدريف قد وضع على المشرحة ودرس حسبه ونسبه، فكان على أسوأ ما يكون إنسان.

ولكن بينما كان تشيتشيكوف جالساً في كرسيه غير المبطّن تضنيه الأفكار والأرق، ويكيل بالصاع والذراع لنوزدريف ولكل أهله، وشمعة الودك تشحب أمامه، لأن فتيلها قد تغطي بقبعة سخام سوداء مهدداً بين لحظة وأخرى بالانطفاء، والليل الأعمى القاتم يطل عليه من النافذة، وهو يتهيأ للذوبان من الفجر المقترب، وفي البعيد تصايحت ديكة منفردة، وفي مكان ما من البلدة الهاجعة تماماً ربما سار رجل

يخفق في معطفه الخشن، بائس من طبقة أو رتبة مجهولة لا يعرف (وا أسفاه!) غير الطريق التي دكته كثيراً أقدام الصعاليك الروس - وفي هذه الآونة، كان يدور في طرف المدينة الآخر حادث قدر له أن يزيد في كدر بطلنا واحراج مركزه. ففي أزقة المدينة وشوارعها كانت تقرقع عربة من الصعب أن نعطي لها إسماً، فهي من نوع خاص قائم بذاته تشبه أكثر ما تشبه بطيخة كبيرة تكمشت قشرتها، تحملها أربعة عجلات. وخذا هذه البطيخة. أقصد بابيها الذين كانا يحملان آثار طلاء أصفر، كانا ينقلقان بشكل سيء جداً بسبب سوء حالة المقابض والأقفال التي كانت مشدودة بحبال في بعض الأماكن والبطيخة نفسها كانت مملوءة بالنضد من القطن على شكل أكياس الخبز ومختلف أشكال الكعك المصنوع من العجين المسلوق وفطائر الدجاج والمحشوة بالحنطة السوداء تطلّ حتى إلى فوق. ومرقى العربة الخلفي يحتله شخص ينتصب إلى الخدم ويرتدي سترة من نسيج يدوي زاهي اللون، وجهه غير حليق وخطّه الشيب، وباختصار شخص يعرف عندنا باسم «الصغير». أيقظ الضجيج والزعيق اللذان ترسلهما الكلاليب الحديدية والبراغي الصدئة شرطياً في الطرف الآخر من البلدة، فرفع مِطرده، وصاح بكل ما لديه من قوة، وهو بين النوم واليقظة «من القادم؟» ولكنه حين لم يرَ أحداً قادماً، ولم يسمع إلا دربكة بعيدة، اصطاد على ياقته حيواناً مفترساً، وتقدم من الفانوس، وأعدمه بأن قصعه تحت إظفره. وبعد ذلك ترك المطرد وغفا من جديد وفق ميثاق فروسيته. وكانت الخيول تقع، بين الحين والآخر، على قوائمها الأمامية، لأن حوافرها لم تكن ذات حذوات، بالإضافة إلى أنها كانت قليلة المعرفة بجادة البلدة المرصوفة الهادئة. سار هذا الشيء العجاب من شارع إلى آخر حتى انعطف أخيراً إلى زقاق مظلم ماراً بكنيسة القديسة نيقولاي الصغيرة وتوقف. عند باب بيت تسكن فيه زوجة كاهن هذه الكنيسة وقفزت منه فتاة ترتدي سترة

قصيرة، وتضم على رأسها شالاً. وأخذت تقرع الباب قرعاً شديداً يحسده عليها أي رجل (فيما بعد سحب الصغير ذو السترة الزاهية اللون من رجليه، لأنه كان يغط في نوم أهل الكهف) برهة غير قليلة من الزمن حتى أثارت كلاب الحي نباحاً. وانفتح الباب أخيراً ليدخل فيه هذا الشيء العجاب السمج إلى فناء البيت الضيق المزحوم بالأخشاب، وخنن الدجاج، ومختلف الأقفاص الصغيرة. عندئذ نزلت من العربة السيدة الملاّكة وإذا بها مدام كوروبوتشكا! كان سبب قدومها المفاجئ هو انشغال بالها على نزوة تشيتشيكوف فظلت بعد تركه إيّاها ثلاث ليال متتالية لا يغمض لها جفن. وبناء على ذلك، وعلى الرغم من أن خيولها غير ذات حذاء، انطلقت إلى المدينة لتسأل قبل كل شيء عن سعر النفس الميتة الدارج في تلك الآونة، ولتعرف فيما إذا لم تكن قد باعتها - لا سمح الله - بثلث الثمن الحقيقي مثلاً. وسيعرف القارئ نتائج رحلتها من حديث دار بين سيدتين، نحتفظ له به في الفصل القادم.

الفصل التاسع

في صبيحة اليوم التالي، قبل موعد تبادل الزيارات المعتاد، برزت سيدة بمعطف صوفيّ ثمين، من رتاج بيت خشبي، برتقالي اللون ذي مخزن عُلوي صغير وصف من الأعمدة الزرقاء. وبرز معها تابع بمعطف طويل متعدد الحواشي ذو قبعة لماعة مزينة بالأشرطة الذهبية. وبسرعة وكبرياء صعدت السيدة السلّم الذي أنزل إليها من عربة كانت واقفة أمام المدخل. وما تم ذلك حتى أقفل التابع خلفها الباب ورفع السلّم إلى موضعه وأمسك بالنطاق الجلدي الموجود في مؤخرة العربة وصاح بالسائق «هيا انطلق». وسبب هذا كله، هو نتف من الأخبار كانت هذه السيدة تتحرق شوقاً للإفضاء بها إلى صديقة لها. وأخذت تنظر بين الفينة والأخرى من نافذة العربة فترى والحنق بالغ منها أشدّه أنها لم تتجاوز منتصف الطريق بعد. بدا لها أن واجهات البيوت كانت أطول مما هي عليه في العادة، وعلى الأخص واجهة المستشفى الحجري الأبيض ذي صفوف النوافذ الضيقة فقد لاح أنها لا تكاد تنتهي. وصرخت السيدة بعد لأي تقول «أف لهذه البناية اللعينة! إنها عديمة النهاية قطعاً!» ثم رفعت من صوتها تحثّ السائق قائلة «أسرع يا اندروشكا. فيم هذا التباطؤ الشديد في مطلع النهار؟» وتم البلوغ إلى الهدف أخيراً، ووقفت عربة أمام بيت خشبي من طابق واحد، ذي لون رمادي غامق ونقوش بيضاء محفورة على الشبابيك، وقام أمام الأخيرة سياج خشبي طويل وحديقة ضيقة فيها بضع شجيرات نحيلة بدت بحلّة بيضاء ناشزة اكتستها من غبار الطريق. وكان في نوافذ البناية

أيضاً بعض الأصص ذات الزهور وببغاه في قفص ترقص على أرضه تارة وتتعلّق بمنقارها في الحلقة المدلاة من سقفه تارة أخرى. وكان أمام الباب أيضاً كلبان أليفان نائمان تحت أشعة الشمس. في هذا البيت كانت تسكن صديقة السيدة الحميمة. والمؤلف يجد صعوبة فائقة في أن يسمي كلتا السيدتين، بشكل لا يسبب غضب الناس عليه مرة أخرى، كما حدث من قبل إن إطلاق لقب عائلي مختلق عليهما شيء خطر. فإن أي لقب تختلقه لا بد أن يكون له وجود حقيقي في ركن من أركان دولتنا، بسبب سعتها. وسيغضب حامل هذا اللقب حتماً غضباً يهون دونه الموت. وسيقول أن المؤلف جاء إلى بلدته سراً وعن نية مقصودة ليعرف من هو، وأي معطف يلبس، ومن هي اغرافينا ايفانوفنا التي يزورها باستمرار، وأي الأطعمة يحب. وإذا سمّاهما برتبتهما، فالعياذ بالله، الأمر أخطر. فإن جميع الرتب والفئات عندنا الآن في منتهى الحساسية، بحيث يتصورون أن كل ما يضمه كتاب مطبوع يمسهم شخصياً. مثل هذا الموقف شائع، كما يبدو. يكفيك أن تقول أن في البلدة الفلانية يوجد شخص أحمق، حتى يقولوا: هذا يعنيني. فتُفاجأ بأن يصرخ عليك شخص محترك الحياة «أنا أيضاً شخص، إذا أنا أحمق أيضاً» وباختصار يفطن إلى حقيقة الأمر. ولهذا السبب، وحذراً من كل الملابسات سنسمي السيدة التي وصلت إليها الضيفة كما كان أهل مدينة «ن» يسمونها بالإجماع تقريباً: أي السيدة اللطيفة من كل النواحي. وقد اكتسبت هذه التسمية بطريقة شرعية، لأنها بالفعل لم تكن تضن بشيء لتبدي اللطف في أرقى درجاته، ولو كانت تتسرب، من خلال اللطف، خفة نشطة من النوع الأنثوي! فقد كان يطلّ، وأن لم يكن دائماً، طرف دبوس لاذع. والله يساعد المرأة التي ينغرز في قلبها هذا الدبوس، إذا بادرت فوقفت أمامها بشيءٍ ما، وعلى نحوٍ ما. ولكن كل ذلك كان مغلفاً، بأرهف آداب السلوك المتاحة لبلدة إقليمية. كانت

كل حركة تقوم بها تنمّ عن ذوق، بل وكانت تهوى الشعر، وأحياناً كانت تجيد حتى التلطع برأسها حالمة - وكان الجميع متفقين على أنها بالضبط سيدة لطيفة من كل النواحي. أما السيدة الأخرى، أي الزائرة، فلم يكن في خلقها هذا التعدد في النواحي، ولهذا سنسميها: امرأة لطيفة فقط. أيقظ قدوم الزائرة كلبين، صغيرين كانا نائمين في الشمس وهما أديل الاشعث الذي كان يتشربك بشعره دائماً، وبوبوري النحيل القوائم. واندفع كلاهما نابحاً، وقد دوّر ذيله، إلى الرواق حيث كانت الزائرة تخلع عنها عباءة السفر، وتطلع في فستان على الموضة في نقشه ولونه، وذيول طويلة تخرج من رقبتها. وامتلأت الحجرة كلها بعطر الياسمين. وحالما علمت الصديقة اللطيفة من كل النواحي المذكورة بقدوم الزائرة هرولت تركض إلى القاعة واشتبكت السيدتان في العناق والتقبيل. وزعقتا كما تزعق طالبتان تلتقيان بعد تخرجهما من مؤسسة تربوية بوقت قصير، قبل أن تلحق أم احدهما أن تبلغ ابنتها بأن أبا صديقتها أفقر وأقل مرتبة من أبيها. كانت القبلة تصدر صدّاحة، لأن الكلبين عادا ينبحان من جديد، وضُربا بالمنديل جزاء على ذلك. وانسحبتا الصديقتان بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال الزرقاء بالطبع فيها أريكة ومنضدة وردية بيضوية، بل وحاجز له ظليلة من اللبلاب. وجرى ورأهما أديل الاشعث يولول، وبوبوري الطويل ذو القوائم النحيلة. قالت ربّة البيت وهي تجلس ضيفتها في ركن الأريكة «هنا، تعالي هنا، في هذا الركن» وحشرت وراء ظهرها مخدة طرز عليها بالصوف فارساً، بالشكل الذي يرسم فيه الفرسان دائماً على الطنافس: الأنف بارز كالدرج، والشفتان مربعتان. وقالت الصديقة اللطيفة من كل النواحي «كم أنا مسرورة لرؤيتك! عندما سمعت صوت عربة قادمة عجبت ممن قد يزورني في هذا الوقت المبكر. وقالت لي براشا أن الزائرة يجب أن تكون زوجة وكيل حاكم الولاية، فهممت أن أبلغهم بأن يقولوا لها

أنني غير موجودة في البيت لكي أتخلص من إزعاجها».

وكان بودّ الضيفة أن تقوم بمهمتها بالإفضاء بما لديها من أخبار، إلا أن صيحة استغراب مفاجئة من ربة البيت حولت مجرى الحديث مؤقتاً إلى ناحية أخرى.

صاحت وهي تنظر إلى رداء الأخرى «ما ألطف هذا القماش!».

فأجابت الزائرة «أجل أنه لطيف، ولكن براسكوفيا فيدروفنا تظن أن من الأفضل لو أن المربعات أصغر، والرصعات زرقاء سماوية، لا بنية. وقد بعثوا لأختها قطعة من هذا القماش ساحرة جداً، يستحيل وصفها بكلمات. تصوري: خطوط نحيلة جداً لا يستطيع أن يتمثلها إلا الخيال البشري. والخلفية سماوية اللون، وبين خط وخط رصعات وحلزونات، رصعات وحلزونات... باختصار، من غير مثيل! ويمكن القول بلا تردد: لم يشهد العالم لها مثيل».

«يا عزيزتي، هذه زركشة».

«لا، ليست زركشة».

«آه، زركشة!».

ويجب أن نذكر أن السيدة اللطيفة من كل النواحي كانت ماديّة بعض الشيء، ميّالة إلى الرفض والشك، وكانت ترفض أشياء كثيرة جداً في الحياة.

وعند ذاك أوضحت السيدة اللطيفة فقط أن هذه ليست زركشة إطلاقاً، وهتفت:

«ولكن، اهنئك: بطلت كشكشات الفساتين من الموضة».

«كيف بطلت؟».

«حلت محلها الفسطونات».

«أوى، الفسطونات ليست جميلة».

«نعم، الفسطونات، كلها فسطونات، الوشاحات كلها من الفسطونات. وعلى الأكمام فسطونات، والكتافيات من فسطونات. وفي الأسفل فسطونات. وفي كل موضع فسطونات».

«غير لطيف، يا صوفيا ايفانوفنا، إذا كان كل شيء فسطونات».

«لطيفة، آنا غريغوريفنا، إلى آخر حد. تخاط بدرزتين. فتحات أكمام عريضة ومن فوق... ولكن لا بأس، سترين وتنذهلين، وعند ذلك ستقولين أنه... طيب، تنذهلين. تصوّري. حمالات الصدر صارت أطول، تلتقي في المقدمة على شكل بروز، والنتوء الأمامي تجاوز كل حدود. والتنورة تدور كلها حول الجسم، كما كان ذلك في قبب التنورات القديمة، بل ويضعون بعض القطن في الخلف، يجعلوك «بيل – قام» (٣٣) كاملة».

«أوه، ذلك فوق كل حد» – قالت السيدة اللطيفة من كل النواحي، وأدت برأسها حركة إحساس بالكرامة.

رددت السيدة اللطيفة فقط «بالضبط، فوق كل حد». «على كل حال، لن تجديني أحاكي هذه الموضة. ولك أن تقولي ما تشائين».

«أنا أيضاً... الحقيقة، إلى أي حد تصل الموضة أحياناً... أعجوبة لا مثيل لها! طلبت من أختي ميلانيا أن ترسل لي تفصيلة لمجرد المزاح. وقد بدأت ميلانيا في خياطته».

«إذن، عندكم تفصيلة؟» – صاحت السيدة اللطيفة من كل النواحي، وصوتها لا يخلو من انفعال».

«بالطبع، وأرسلتها أختي لي».

(٣٣) الحسناء. كلمة فرنسية كتبت في الأصل بالحروف الروسية. المترجم.

«يا روحي، أعطيها لي بحق كل مقدس».

«أه، وعدت بها براسكوفيا فيدروفنا. إلا إذا كان بعدها».

«ومن سيلبسها بعد براسكوفيا فيدروفنا؟ سيكون هذا مستغرباً جداً. من ناحيتك، إذا كنت ستفضلين الغريبات على أقاربك».

«ولكنها هي أيضاً من قريباتي».

«قريباتك من بعيد طبعاً، من جهة الزوج. لا، يا صوفيا ايفانوفنا، هذا لا أستطيع حتى أن أسمعه منك. يعني تريدين أن تنزلي بي هذه الإهانة... الظاهر أنني أضجرتك، الظاهر أنك تريدين أن تقطعي أية علاقة بي».

ولم تعرف صوفيا ايفانوفنا المسكينة ماذا تفعل. وشعرت بين أية نارين شديدتين وضعت نفسها. هذه نتيجة فلتان اللسان! وكانت مستعدة أن توخز لسانها الأحمق بالإبر عقاباً على ذلك.

وخلال ذلك قالت السيدة اللطيفة من جميع النواحي:

«طيب، كيف حال فاتنك ذاك؟».

«وهل تعرفين ما الذي دفعني إلى المجيء هنا؟» - قالت الزائرة وأخذت تلهث أنفاسها بسرعة شديدة وظهر أن مزيداً من الكلمات كانت تحوم فوق شفتيها كما تحوم الصقور استعداداً للانقضاض على الفريسة. ولا يطاوع إنساناً قلبه على مقاطعتها وهي في حالتها هذه إلا الذي يخلو قلبه من الشعور الإنساني بوصفه «صديقاً حميماً». وكانت ربّة البيت صديقة من هذا النوع تماماً، فبادرت حالاً تقول:

«إني لأعجب كيف يستطيع المرء أن يمتدح هذا الرجل أو يعجب به. وفي رأيي إنه سافل وضيع في أدنى درجات السفالة والوضاعة. ولو رأيته لقلت له هذا الكلام في وجهه».

«نعم، لكن استمعي لما سأقوله لك».

«أجل، إني أعرف أن بعض الناس يرون فيه الجمال والسحر ولهذا يسمونه ساحراً. أما أنا فإني أرى أنه ليس من هذا في شيء. ألم تري شكل أنفه الغريب؟».

«دعيني، دعيني فقط أن أحدثك، يا روحي، يا آنا غريغوريفنا، اسمحي لي أن أحدثك. إنها حكاية، فاهمة، حكاية فاضحة، «سكونابل استوار» - قالت الضيفة وفي سحنتها ما يشبه القنوط، وصوتها ضارع تماماً. ولا ضير في أن نذكر أن في حديث كلتا السيدتين. الكثير من الكلمات الأجنبية، والعبارات الفرنسية الطويلة جداً أحياناً. ولكن مهما كان تقدير المؤلف للمنافع المنقذة التي تقدم اللغة الفرنسية لروسيا، ومهما كان تقديره لعادة مجتمعنا الراقي الحميدة في التعبير عن نفسه بهذه اللغة طيلة ساعات اليوم، مدفوعاً، طبعاً، بشعور الحب العميق لوطنه، فإنه رغم كل ذلك لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يدخل عبارة بأية لغة أجنبية كانت إلى قصيدته الروسية هذه. فلنتابع القول إذن، باللغة الروسية.

«ما هي هذه الحكاية؟».

«أنك لا تستطيعين أن تتصوري حالتي النفسية! فقد زارتني زوجة الأب كيريل هذا الصباح - أنت تعرفينها، أليس كذلك؟ وهل تعلمين حقيقة زائرنا الظريف ومن تبين أن يكون؟».

«معقول أنك تريدين أن تقولي: كان يغازل زوجة الكاهن كيريل؟».

«أوه، لا يا عزيزتي! لو كان هذا كل ما في الأمر لما كان شيئاً. اسمعي ما قالته لي زوجة الأب كيريل. قالت أن سيدة ملاّكة اسمها مدام كوروبوتشكا وصلت الليلة السابقة إلى بيت الكاهن. وصلت شاحبة اللون وهي ترتعش هلعاً وراحت تحدثها عن أشياء يقف لها

شعر الإنسان رعباً! حوادث لا يستطيع المرء تصديقها بغير جهد جهيد، وكأنها من نسيج الخيال! ففي هدأة الليل وبعد أن أوى الناس إلى مضاجعهم، سمعت دوي قرع مخيف على الباب، وصوت إنسان يصرخ قائلاً «افتحوا الباب، وإلا كسرناه» تصوري! وكيف بعد هذا يستطيع المرء أن يقول عنه أنه جذاب؟».

«وما هو شأن مدام كوروبوتشكا في الموضوع؟ هل هي في مقتبل العمر أم على قدر من الجمال؟».

«أوه، لا يا عزيزتي! أنها عجوز بلغت من العمر عتياً».

«يا للغرابة! إذن هذه هي خطيبته؟ إن اللعنة تحقّ على أذواق السيدات اللواتي وقعن في حبّه».

«أجل، ولكن القصة لا تقف عند هذا الحد. أتعرفين؟ لقد دخل على هذه العجوز وهو مدجج بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وقال لها بيعيني الأنفس التي ماتت لديك أخيراً. وكان جواب مدام كوروبوتشكا بالطبع معقولاً جداً. فقد قالت له «كيف أبيعك هذه الأنفس وقد فارقت الحياة؟»، ولكنه أجاب «لا، لا إنها ليست ميتة. هذا ما أقول لك. فأنا الذي يعرف حقائق الأمور. وأقسم لك أنها ما تزال حية». خلاصة القول كان مشهداً غريباً جداً، وتراكض أهل القرية وتعالى صراخ الأطفال وصياح الرجال، ولم يفهم أحد حتى الآن سبب ذلك كله. وما سمعت بنفسي هذا الكلام حتى كاد يغمى عليّ من الهلع، ورحت أرتجف ارتجافاً لا تستطيعين تصوره. حتى أن وصيفتي ماشكا قالت لي «انظري إلى وجهك في المرآة يا سيدتي العزيزة، لتري كم هو شاحب». فأجبتها «لا وقت لدي لذلك إذ يجب أن أذهب إلى صديقتي آنا غريغوريفنا وأحمل إليها هذه الأخبار». ولم أضع لحظة واحدة في طلب العربة. غير أنني عندما جلست فيها وسألني السائق

عن الجهة التي أتجه إليها لم أستطع النطق بكلمة واحدة، ووقفت أحدق فيه ذاهلة ولا ريب أنه ظن بي مسّاً من جنون. أيه يا آنا غريغوريفنا لو تعلمين مبلغ اضطرابي!».

فعلقت ربّة البيت تقول «أية قصة عجيبة هذا! وماذا يعني الرجل بالأنفس الميتة؟ إن هذه الكلمات تتعدّى إدراكي. ومن الغريب أن الحديث عن الأنفس الميتة أخذ يدور بين الناس للمرة الثانية. كان زوجي يقول لي بأن نوزدريف يكذب ولكن يجب أن يكون في كذبه شيء من الحقيقة».

«تصوري حالتي إذن عندما سمعت هذا كله وقد قالت كوروبوتشكا لزوجة الكاهن أنها أصبحت ضائعة لا تدري ماذا تفعل، لأن الرجل رمى لها خمسة عشر روبلاً وأجبرها أن توقع ورقة ما. تأملي المرأة الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة والتي لا تعرف شيئاً من شؤون الأعمال، يرغمها هذا الإنسان على بيع نفوسها الميتة! تصوري مشاعري عندما أسمع أن قصصاً كهذه لا تزال تحدث في هذه الأيام! تصوري..».

«لا بدّ أن يكون هناك شيء أكثر من النفوس الميتة التي تبدو للعيان».

فوافقت الأخرى قائلة «لا بدّ أن يكون كذلك». ولكن ملاحظة صديقتها هذه وقعت في نفسها موقع الدهشة والاستغراب وأثارت فيها حبّ الفضول. فأرادت أن تعرف ما الذي يمكن أن تدل عليه كلمة «أكثر». ولذلك راحت تقول «وما الذي تظنينه وراء هذا كله؟».

«لا، أخبريني أولاً ماذا تظنين أنت».

«ماذا أظن؟ إني حائرة لا أدري من الأمر شيئاً».

«إذن اخبريني بماذا تفكرين».

واضطرت الزائرة أن تعترف بأنها مشتّتة الفكر لا تستطيع أن تعمل

فكرها باتزان، بل أنها تخشى على نفسها مسّاً من الجنون، ولذلك فهي بحاجة إلى العطف والنصيحة.

فقالت ربّة البيت «إذن، إليك ما أعتقده بشأن النفوس الميتة» - فرفعت الضيفة أذنيها حالاً، (أو بالأحرى ارتفعت الأذنان بنفسهما) وأجرت بعض التعديل على وضعها بحيث كادت تصبح جلستها نموذجية، وعلى الرغم من أنها ذات وزن لا يستهان به إلا أنها اتخذت مظهر الريشة الطائرة في مهبّ الرياح.

تماماً مثل سيّد روسيّ متحمس للصيد والقنص، إذ يقترب من غابة يتوقع أن يقفز منها بين لحظة وأخرى أرنب بري انهكته الكلاب المطاردة، فيتحول كله مع حصانه وسوطه الطويل المرفوع إلى لحظة جامدة، إلى بارود، على وشك أن تقرب النار منه. فغرز عينيه في الهواء المضبب، وهو يوشك أن يلحق قنصه، ويشوبه قبل أن يذبحه، وغير خائف أن يثور ضده السهب الثلجي الشاسع كله، وينثر نجومه الفضية على شفتيه، وشاربيه، وعينيه، وحاجبيه، وفي قبعته الفرائية.

وابتدأت ربة البيت بالقول «النفوس الميتة...».

فتساءلت الضيفة بانفعال شديد: «هي ماذا؟ هي ماذا؟»

«هي، هي...».

«تلكمي، اخبريني بحق السماوات».

«هي بدعة تخفي وراءها أمراً آخر. فغاية الرجل الحقيقة هي - هي أن يهرب بابنة حاكم الولاية».

كان هذا الاستنتاج غريباً غير منتظر أبداً على الزائرة اللطيفة فغدت عند سماعه قطعة من الدهشة الأصيلة الشاحبة المتجمدة. وصرخت وهي تضرب يداً بيد - «يا الهي! ليس في طاقتي أن أتصور هذا!».

«هذه هي الحقيقة. وقد عرفتها في الساعة التي فتحت فيها فمك بهذا الحديث».

«إذن كفى البنات تعليماً في المدارس. ها هي ابنة حاكم الولاية قد تعلمت، فانظري النتيجة!».

«أي والله! وقد قيل لي أنها تتلفّظ بكلمات أخجل من أن أرددها على مسامعك».

«إن قلب المرء ليعتصر أسى عندما يرى التدهور الخلقي الذي وصلنا إليه في هذا الزمان».

«وعلى الرغم من أن بعض الرجال أضاعوا عقولهم في هواها فهي تافهة في كل صفاتها لا تستحق الذكر. وأزيدك علماً أن طباعها لا تحتمل».

«آه، يا حياتي، يا آنا غريغوريفنا، إنها تمثال، وجهها خال من أي تعبير».

«أي نعم، متصنعة، ومتصنعة جداً، يا ربّي، كم هي متصنعة! لا أعرف من علمها ذلك، ولكني لم أر أيّة امرأة لها مثل مباهاتها».

«إنها تمثال، يا روحي، وشاحبة كالموت».

«أوه، لا أعتقد، يا صوفيا ايفانوفنا. تحمّر وجهها بشدة».

«كيف هذا منك، يا آنا غريغوريفنا. أنها مبيّضة كالطبشورة، تماماً كالطبشورة».

«ذات مرة جلست قربي، يا عزيزتي. الحمرة بسمك الإصبع، وتتساقط من وجهها قطعاً كما يتساقط ملاط الجدران. أمها علمتها، فهي نفسها غنجة، ولكن ابنتها ستتفوق عليها».

«طيب، تفضلي. احلفي أنت ما تشائين من يمين، ولكنني مستعدة

في هذه اللحظة أن أحرم من أولادي وزوجي وكل ضيعتي، إذا كان لها ولو قطرة، وحتى ذرة، وحتى ظل من حمرة».

«ما هذا الذي تقولينه، يا صوفيا ايفانوفنا!» - قالت السيدة اللطيفة من كل النواحي، وضربت كفّاً بكف. فقالت السيدة اللطيفة «آه، أنت تدهشينني حقاً، يا آنا غريغوريفنا» - وضربت كفّاً بكف أيضاً.

ولكن أرجو ألا يستغرب القارئ من أن السيدتين كلتيهما لم تتفقا فيما بينهما على ما رأتاه كلتاهما في وقت واحد تقريباً. ففي العالم، بالفعل، أشياء كثيرة لها هذه الخاصيّة، وهي إذا نظرت إليها سيدة لاحت بيضاء تماماً، وإذا نظرت إليها سيدة أخرى لاحت حمراء، حمراء كالفراولة.

تابعت السيدة اللطيفة تقول:

«طيب، إليك دليلاً آخر على أنها شاحبة الوجه. أنا أتذكر، وكأنما حدث ذلك الآن، أنني كنت جالسة قرب مانيلوف، فأقول له «أنظر، كما هي شاحبة!» صحيح يجب أن يكون الإنسان أبله مثل رجالنا حتى يعجب بها. أما ظريفنا... أه، كم يبدو لي مقرفاً! لا يمكن أن تتصوري، يا آنا غريغوريفنا، إلى أي درجة يبدو لي مقرفاً».

«نعم، ومع ذلك فهناك سيدات أبدين له بعض الاهتمام».

«أنا، يا آنا غريغوريفنا؟ لن يمكن أبداً أن تقولي ذلك عني. لن، ولن!..».

«ولكنني لا أعنيك، وكأنما لم يكن أحد غيرك».

«لا، ولن! يا آنا غريغوريفنا! اسمحي لي أن أنبّهك إلى أنني أعرف نفسي جيداً. إلا إذا كان ذلك يخص بعض السيدات اللواتي يمثلن دور المحصنات».

والآن، اعذريني، يا صوفيا ايفانوفنا! واسمحي لي أن أقول لك لم تحصل معي مثل هذه الفضائح. مع الآخريات ممكن، ولكن ليس معي. هذا ما أرجو أن أقوله لك».

«ولماذا انزعجت بهذا الشكل؟ فقد كانت هناك سيدات أخريات، بل وكانت هناك من تدافعن ليأخذن مقاعد قرب الباب، ليجلسن أقرب إليه».

وبعد هذه الكلمات التي تفوهت بها السيدة اللطيفة، كان لا بد أن تعقبها عاصفة، ولكن من الغرابة الشديدة أن كلتا السيدتين هدأت فجأة، ولم يعقب ذلك شيء. تذكرت السيدة اللطيفة من كل النواحي أن تفصيلة الفستان الجديد ليس في حوزتها، والسيدة اللطيفة فقط فطنت إلى أنها لم تتعرف بعد على أية تفاصيل عن هذا الاكتشاف الذي جعلته صاحبة مخلصة، ولهذا حل السلام بينهما بسرعة. وعلى العموم لا يجوز القول أن أياً من السيدتين كانت في طبعيهما تميل إلى إيذاء الناس، وخلقهما، بشكل عام، خالٍ من أي خبث، بل مجرد أن رغبة صغيرة قد تولدت أثناء حديثهما لا شعورياً ومن تلقاء نفسها في أن تلسع أحداهما الأخرى. لمجرد أن أيّة واحدة منهما تجد قليلاً من المتعة حين تقول للأخرى كلمة جديدة لاذعة، وكأن تقول «هاك، خذي، تسلّمي، كلي!» ذلك لأن رغبات من مختلف الأشكال تظهر في قلوب الرجال والنساء على حد سواء.

«لكن أكثر ما يحيرني هو كيف يمكن لرجل مثل تشيتشيكوف الطارئ على الولاية أن يتورّط في عمل كهذا العمل. لا شك أن له شركاء في الجريمة» – قالت السيدة اللطيفة فقط.

«هذا لا شك فيه، واستطيع أن أقول أن نوزدريف هو أحد هؤلاء الشركاء».

«أكيد؟».

«لا مراء في ذلك. فقد عرفت عنه مرة أنه جرب أن يبيع أباه! أو على الأقل فقد قامر عليه في اللعب».

«حقاً ما تقولين؟ لقد أثرت كوامن استغرابي. لم أكن أتصور أن لنوزدريف دوراً في هذه القضية».

«أما أنا فقد كنت دائماً أتنبأ بهذا».

«ولك أن تتصوري. صحيح ما أكثر الأشياء التي تحصل في هذا الدنيا! ولكن هل كان من الممكن التنبؤ عند ذاك، أنت تذكرين، وتشيتشيكوف قد وصل إلى بلدتنا لتوه، بأن يحدث مثل هذه الضجة الغريبة في مجتمعنا؟ آه، يا آنا غريغوريفنا، ليتك تعرفين كم ارتعبت! لو لا مودتنا وصداقتنا... لكنت... لكنت حقاً على حافة الهلاك... وإلى أين المهرب؟ ماشكا تراني شاحبة كالموت وتقول لي «مولاتي العزيزة، أنت شاحبة كالموت». - فأقول « لم أعد أهتم بذلك الآن!» تلك كانت الحال. وما أن دخل نوزدريف، أوه، حتى لا أدري ماذا أقول».

كانت السيدة اللطيفة تود كثيراً أن تطلع على المزيد من التفاصيل عن الاختطاف، في أي ساعة حصل، وما إلى ذلك. ولكن ما أكثر ما تود. أعلنت السيدة اللطيفة من كل النواحي صراحة بأنها لا تعرف شيئاً. و لم تكن تجيد الكذب. شيء آخر أن تفترض، ولكن حتى الافتراض، في مثل هذه الحال، يجب أن يبنى على اقتناع داخلي. ولو كانت تشعر باقتناع داخلي فإنها ستقدر أن تدافع عن نفسها، وعندها ليجرب أي محام كبير مشهور بموهبته في قهر آراء الآخرين أن يتبارى في هذه القضية، فسيعرف ما هو الاقتناع الداخلي.

وما اقتنعت به كلتا السيدتين أخيراً، بشكل كليّ، في أن ما كانت تفترضانه سابقاً لم يكن إلا مجرد افتراض، لم يكن شيئاً غير اعتيادي.

ونحن ومن على شاكلتنا، من الناس الأذكياء، كما نسمّي أنفسنا، نتصرف بهذه الصورة تقريباً، تعتبر جدالاتنا العلمية دليل إثبات. في البداية يعالجها العالم معالجة كرجل متزلف، يبدأ بتهيب واعتدال يبدأ بسؤال في غاية الوداعة: أليس من هناك؟ ألم يأخذ هذا القطر اسمه من منطقة معينة؟ أو ألا تعود هذه الوثيقة إلى عهد آخر أقدم؟ أم هل نحن متأكدون من أنهم يعنون بهذا الشعب شعباً آخر مختلفاً؟ وسرعان ما يستشهد بهؤلاء وغيرهم من الكتاب القدامى. وما أن يرى أن تلميح أو مجرد ما يراه تلميحاً حتى يمتطي صهوة جواده، ويتشجع ويتناظر مع الكتاب القدامى ببساطة، ويطرح عليهم الأسئلة، بل ويجيب هو نفسه عنها ناسياً كلياً أنه بدأ بافتراض متهيب. فقد صار يتصور الآن أنه يراه ذلك، وأن ذلك واضح، وينتهي النقاش بهذه الكلمات «هذا حصل بالشكل التالي، والشعب الفلاني يجب أن يعني الشعب الفلاني، ومن وجهة النظر هذه يجب أن ينظر إلى الموضوع!» وبعد ذلك يعلن على الملأ من على المنبر. وتذيع الحقيقة المكتشفة حديثاً في العالم، جامعة حولها المحققين والأتباع.

كانت السيدتان ما تزالان تتجادلان بحدّة وصياح، عندما دخل الغرفة عليهما المدعي العام – بحواجب كثّة وعينين رامشتين وقسمات لا حراك فيها. فسارعتا فور المسارعة لأطلاعه على ما لديهما من أنباء، بالإضافة إلى تفاصيل وافية عن شراء الأنفس الميتة وعن مشروع هروبه مع ابنة حاكم الولاية واربكتاه كلياً، بحيث أنه لم يستطع أن يفهم شيئا، مهما أطال وقفته في مكانه لا يريم، رامشاً بعينه اليسرى، ضارباً لحيته بمنديله ليزيح عنها ذرات التبغ. وبعد هذا انطلقتا إلى المدينة لتنوير أهلها. وكانتا بحاجة إلى ما يزيد قليلاً عن نصف ساعة لتنفيذ هذه المهمة على الوجه الأكمل.

كانت البلدة في هيجان شديد، وكل شيء في فوران. ويا ليت أحداً

استطاع أن يفهم شيئاً ما. السيدات لم يكنّ قادرات إلا على إحداث البلبلة بين الجميع، ولا سيما بين الموظفين الذين ظلوا ذاهلين مصعوقين لبعض الوقت. فغدا مثل كل فرد من طائفة الموظفين كمثل تلميذ المدرسة، وقد اغتنم الفرصة رفاق له آخرون استيقظوا قبله، فذرّوا في عينيه قبضة من السعوط وهو ما يزال نائماً. وعندما استنشق السعوط متململاً بكل قوة إنسان نائم، استيقظ، وثب من سريره، وحدّق كالأبله، مبحلقاً عينيه في كل الجهات، ولا يستطيع أن يفهم أين هو، وماذا حصل له، ثم يتميز بعد ذلك الجدران المضاءة بشعاع الشمس المائل، وضحك زملائه، المختبئين في الزوايا، والصباح الطالع المطل من النافذة، بالغابة المستيقظة الصدّاحة بالألوف من أصوات الطيور، والجدول المشف المتألق بتعرجاته هنا وهناك بين القصب النحيل، المُرقّط كلية بأجساد الأولاد العراة الداعين إلى السباحة، وبعد ذلك، أخيراً، يشعر بأن في أنفه سعوطاً. تلك بالضبط. كانت حالة أهالي البلدة وموظفيها في الوهلة الأولى. كان كل واحد منهم يتوقف مبحلقاً عينيه كالخروف. كانت الأنفس الميتة، وابنة حاكم الولاية وتشيتشيكوف يختلطون ويتشربكون في رؤوسهم بغرابة غير اعتيادية. وفيما بعد فقط، بعد الصعقة الأولى، صاروا وكأنهم يميزون بينهم، ويفصلون بعضهم عن بعض، وأخذوا يطالبون بايضاح، ويغضبون، وهم يرون الأمر يعزّ على كل إيضاح. ما هذا اللغز، في الحقيقة؟ ما لغز هذه النفوس الميتة؟ لا يوجد أي منطق في النفوس الميتة، تُباع وتُشترى. وأي أحمق سيشتريها؟ وبأيّ نقود ممسوخة سيشتريها؟ ولأي غرض وفي أي عمل يمكن أن يحشر هذه النفوس الميتة؟ وما علاقة ابنة حاكم الولاية في هذه القضية؟ فإذا كان يريد أن يأخذها، فما حاجته لشراء النفوس الميتة؟ وإذا كان يريد شراء النفوس الميتة فما حاجته لأخذ ابنة حاكم الولاية؟ هل يريد أن يهدي لها هذه النفوس الميتة؟ وما هذه السخافة التي تسري في

البلدة؟ وأي إدارة هذه، إذا كنت ما أن تلحق أن تدير رأسك، حتى تجد شائعة قد شاعت. ويا ليت لو كان لها معنى... ولكنها شاعت، ومعنى ذلك كان هناك موجب؟.. فما هو الموجب في النفوس الميتة؟ لا يمكن أن يكون لها موجب. يعني مجرد سخافات، سفاسف، ثرثرات حمقى! والله أعلم أي شيء آخر! وباختصار كلام في كلام. وأخذت المدينة كلها تتحدث عن النفوس الميتة وابنة حاكم الولاية، عن تشيتشيكوف والنفوس الميتة، وعن ابنة حاكم الولاية وتشيتشيكوف. وطلع كل شيء إلى الخارج. والبلدة التي كانت تبدو هاجعة هاجت كالزوبعة. وخرج من مهاجعهم كل التنابلة والكسالى الذين ظلوا عدّة سنين منطرحين في أرديتهم المنزلية، ملقين اللوم على الإسكاف الذي صنع لهم جزمات ضيقة لا يستطيعون السير فيها، أو على الخيّاط، أو على حوذيهم السكير. كل الذين قطعوا منذ زمان كل صحبة، ولم يكونوا يعرفون غير صحبة المالك سرحان، إذا صح التعبير، والمالك نائم، (وهما اسمان معروفان مشتقان من الفعلين «سرح» و «نام» الواسعي الانتشار عندنا في روسيا، مثلما تعني عبارة «قام بزيارة السيد غافي والسيد شاخر» الغاط في نومة أهل الكهف على جنبه أو على قفاه وفي كل الأوضاع الأخرى المصحوبة بالشخير ونخير الأنف واللوازم الأخرى) كل الذين لم يكن في الإمكان إغراؤهم بالخروج من البيت حتى في دعوتهم إلى مأدبة حساء سمك الحفش النفيس الذي يكلف مائتي روبل، مع شرائح من هذا السمك الدسم الضخم وكل أنواع الفطائر التي تذوب في الفم. وباختصار ظهر أن البلدة كثيرة السكان، كبيرة، ومأهولة بكل أنواع الوافدين. ظهر شخص يدعى سِيسوى بفنوتيفيتش وآخر باسم ماكدونالد كارلوفيتش، وهما شخصان لم يسمع بهما أحد من قبل، وصار يتردد على غرف الضيوف رجل طويل جداً، ذو ذراع مصابة، أطول حتى من أي شخص رآته العين. وظهرت في الشوارع مركبات

مغلقة ورعبات وحجلات من شتى الأنواع. واختلط الحابل بالنابل. إن شائعات كهذه ربما ما كانت ستثير أي اهتمام، إذا كانت قد وقعت في وقت آخر وفي ظروف أخرى، ولكن بلدة «ن»، لم تكن قد تلقت أية أخبار، منذ زمن بعيد، بل و لم يحصل فيها، خلال ثلاثة أشهر، ما يسمونه في العواصم «كوميراجيه»[٣٤] وذلك، كما هو معروف، بمثابة وصول أغذية في الوقت المناسب، بالنسبة للبلدة. وظهر في خضم تفسيرات البلدة رأيان مختلفان تماماً. وانقسمت المسائل الموضوعة على بساط البحث إلى قسمين – مسألة الأنفس الميتة، ومسألة ابنة الحاكم. وتشكل تبعاً لذلك فريقان – فريق الرجال وفريق النساء. أما فريق الرجال، وهو أقل الفريقين إحساساً بلا جدال، فقد حصر اهتمامه في الأنفس الميتة. بينما شغل فريق النساء نفسه فقط في القضية المزعومة عن خطف ابنة الحاكم. ويمكن أن نذكر هنا (لصاحل النساء) أن فريقهن كان أبرع خطة وأشد حيطة من الفريق المنافس، وقد يكون سبب ذلك انهماكهنّ الدائم في إدراة البيوت وتدبير أمورها. ولهذا سرعان ما اتخذت القضية عند السيدات شكلاً محدداً واضحاً، وتبلورت بجلاء لا يدحض، وتبدّت لا يشوبها من الريب شائبة. وقال بعضهن أن تشيتشيكوف كان غارقاً في حبّ الفتاة منذ أمد طويل وأن الإثنين كانا يلتقيان في ضوء القمر، وأن حاكم الولاية كان على وشك القبول (لا سيما وقد رأى أن تشيتشيكوف غنيّ كيهوديّ) لولا عقبة اكتشفها في الطريق وهي أن تشيتشيكوف كان قد هجر زوجة له (أما كيف توصلت السيدات المحترمات إلى أن يعرفن أنه كان متزوّجاً، فهذا لا يزال غامضاً حتى الآن) وأن السيدة المهجورة السالفة الذكر – وقد أضناها زوجها الخائن حبّاً – ارسلت كتاباً مؤثراً جداً لحاكم الولاية،

(٣٤) من الكلمة الفرنسية "Le commérage" أي الأقاويل.

ولما رأى تشيتشيكوف أن الأب والأم سوف لا يمنحانه القبول صمم على اختطاف البنت. وفي حلقات أخرى كانت القصة تروى على شكل آخر. فقد أكد قسم منهن أن تشيتشيكوف لا زوجة له، لكنه كرجل حنكة ودهاء رأى أن يطلب يد الفتاة بأن يوقع أمّها في حبائله أولاً ويوثق بينه وبينها عرى لا تنفصم ثم يتقدم بعد ذلك بطلبه المنشود. ولكن الأم، مخافة أن تقترف الخطيئة في دينها واحساساً منها بوخز ضميرها ردت على تشيتشيكوف برفض صريح. وبعد ذلك كله فكر تشيتشيكوف بالخطف المزعوم. وقد أضيفت، طبعاً، حواشي مختلفة من البراهين والإيضاحات تتناسب مع مدى ما وصلت إليه القصة في أرجاء المدينة. وأن المجتمعات الواطئة في روسيا مغرمة جداً في الحديث عن الفضائح التي كانت تحصل في المجتمعات الراقية. ولهذا أخذت الأحاديث تجري عن ذلك في مساكن حقيرة لم يقع بصر أهلها على تشيتشيكوف، ولم يعرفوه، وحصلت إضافات وإيضاحات أكثر. وأخيراً، وصل الخبر بما عليه من تعديلات إلى أذن زوجة حاكم الولاية نفسها. وبطبيعة الحال بلغ استياؤها أشده لدى سماعها هذه القصص، ولها الحق أن تفعل بوصفها أمّاً لعائلة وأول سيدة في المدينة وربّة بيت لم يتطرق إليها الشك يوماً من الأيام حول هذه الأشياء. وكان على ابنتها الصغيرة المسكينة، نتيجة ذلك، أن تتحمل - على براءتها - أقسى تقريع سمعته فتاة في السادسة عشرة.

وانهمرت سيول كبيرة من الاسئلة والاستجوابات والتوبيخات، والتهديدات، والتعنيفات، والاستمالات، حتى أن الفتاة انفجرت تبكي، وراحت تنتحب ولم تستطع أن تفهم أي كلمة؛ بينما تلقى البواب أمراً بأن لا يسمح لتشيتشيكوف مطلقاً بدخول البيت.

وبعد أن أنهى فريق السيدات مهمته مع زوجة حاكم الولاية، انهال على فريق الرجال بغية اقناعهم بوجهة نظرهن وكسبهم إلى ناحيتهن،

مؤكدات أن النفوس الميتة ما هي إلا اختراع لتحويل الأنظار حتى تنجح مهمة الهروب بالفتاة. وقد تحول في الواقع أكثر من رجل وانضم إلى فريق النساء، على الزغم من أن هؤلاء المنشقين قد تعرضوا لشتائم من رفاقهم السابقين مثل (أيتها العجوز الشمطاء) و (أيتها الانثى) وألقاب أخرى مسيئة للرجال.

وبالإضافة إلى ذلك، فمهما حاول الرجال أن يسلحوا أنفسهم وأن يتقدموا الطليعة إلى الميدان فإنهم لا يستطيعون أن يضاهوا النساء في التنظيم وترتيب الصفوف. وقد كان كل أمر عند الفريق الأول عتيقاً مشوشاً غير منسجم لا معنى له أو في غير موضعه وعلى أسوأ ما يرام. و لم يكن يملأ رؤوسهم غير الخلافات والتفاهات والبلبلة والفوضى في التفكير. خلاصة القول، تجلت عندهم كل خصائص الرجال عامة من خشونة وغلظة عاجزة عن تدبير البيت أو المبادرة إلى الاستنتاج، طبيعة تظل دائماً وأبداً كسولا عديمة الثقة مليئة بالشك والتهيب الدائم. فقد أعلن فريق الرجال مثلاً بأن القصة هراء كلها وأن هرب ابنة حاكم الولاية هو أقرب ما يكون إلى تأليف رجل آثم من رجال الجيش، وأن السيدات يكذبن عندما يتّهمن تشيتشيكوف بهذا العمل، وأن النساء مثل كيس النقود يحتفظن بأي شيء تضعه فيه، وأن الموضوع الذي يستحق الاهتمام في الحقيقة هو النفوس الميتة - الشيء الذي لا يعلم معناه إلا الشيطان. إلا أن هناك شيئاً ما غير مألوف في طبيعة الأمور. سبب واحد جعل فريق الرجال يتأكد من أن النفوس الميتة هي شيء غير مألوف في طبيعة الأمور - وهو أنه كان قد تعيّن حديثاً حاكم عام... حدث أثار القلق العظيم، طبعاً، في نفوس الموظفين المدنيين جميعهم لما يترتب على ذلك من تنقلات وأحكام تأنيبية، كما يترتب عليه من ولائم رسمية يتفضل الحاكم العام عادة بتشريف موظفيه بالحضور إليها. وكان يدور في تفكير هؤلاء المواطنين ما يلي «يا للهول! أنه لو علم بالوقائع

التي تدور الأحاديث الآن عنها في المدينة فسيقيم الدنيا ويقعدها وينزل على رؤوسنا البلوى التي لا نستطيع بعدها سماع نهاية هذه الأحاديث».

وعلى الأخص، مدير الدائرة الطبية، فقد شحب لونه إذ تصور أن الحاكم الجديد قد يظن أن «النفوس الميتة» تدل على مرضى في المستشفيات المحلية قتلتهم الحمى لقلّة العناية بهم. أليس من المحتمل أن يكون تشيتشيكوف مندوباً للحاكم العام لا أكثر ولا أقل، أرسله ليقوم بتحقيقات سرية؟ وبناء على ذلك، أسرّ (أي مدير الدائرة الطبية) بظنه هذا إلى رئيس المجلس المحلي الذي كان عازماً أول الأمر أن يقول «هراء»، إلا أنه شحب فجأة حينما فكر في نفسه يقول «وكيف فيما لو كانت النفوس التي اشتراها تشيتشيكوف ميتة حقاً؟» - تفكير مرعب، لا سيما وقد سمح بتسجيل البيع وقام بنفسه بدور الوكيل عن بلوشكين! ما الذي سيحدث إذا وصلت هذه الأخبار إلى أذني الحاكم العام؟ وذكر هذا لبعض أصدقائه الذين انقلبوا بدورهم صفر الوجوه، لأن الرعب أسرع انتشاراً من الطاعون وأشد منه فتكاً. وفجأة اكتشف الجميع في أنفسهم ذنوباً لا وجود لها. وكانت كلمة «نفوس ميتة» تحمل اليهم أصداء غامضة، حتى أخذوا يتصورون أنها تنطوي على إيماءات إلى جثتين دفنتا على عجل نتيجة حادثتين وقعت في وقت ليس بالبعيد. الحادثة الأولى وقعت لبعض التجار من سولفيتشيغودسك وفدوا إلى البلدة للاشتراك في سوقها، وبعد أن باعوا بضائعهم أقاموا مأدبة صغيرة لأصدقائهم تجار أوستيسيسولسك، مأدبة أقاموها على أساس روسي بتحسينات ألمانية - شراب اللوز، البونش، البلزم وغيرها. وانتهت المأدبة بعراك، كما هي العادة. اثخنوا السولفيتشيغودسكيون في زملائهم اوستيسيولسكيين إلى حد الموت، ولكن دون أن ينجوا هم من كدمات في الضلوع والصدر دلت على الحجوم الهائلة لقبضات الذين أسلموا الروح. بل أن أحد المنتصرين تهشّم «عرنينه» على حد تعبير

المقاتلين، أي أن أنفه قد سحق، حتى لم يبق منه على وجه إلا ما يزيد عرضه عن نصف إصبع. وأعترف التجار في المحكمة بذنبهم، موضحين أنهم أساءوا التصرف قليلاً. وسرت شائعات بأنهم عرضوا أربعة آلاف روبل على كل رأس مذنب. والقضية كلها، بشكل عام غامضة جداً. وقد ظهر من كشوف التحقيقات الرسمية أن تجار اوستيسيسولسك قد توفوا بسبب غازات الفحم، ولهذا دفنوا باعتبارهم محروقين. أما الحادثة الثانية التي حصلت قبل مدة قصيرة، فكانت كالآتي: وجهت إلى فلاحي الحكومة من قرية «أم القمل» بالتعاون مع نفس الفلاحين من قريتي «الخنزير المخصى» و «المشاكس» تهمة استئصال شأفة شرطة الريف ممثلة بالمختار دروبياجكين الذي أكثر التردد على قريتهم بشكل زائد، وهو أمر كان أسوأ من الحمى الخبيثة في بعض الأحيان. والسبب في هذه الزيارات، هو أن الشرطي الضعيف القلب إزاء الجنس الآخر كان يغازل نساء القرية وفتياتها. لا شيء مقطوع بصحته، ولو أن الفلاحين في إفاداتهم ذكروا بوضوح أن هذا الشرطي كان فاجراً كهر، وأنهم حذروه مرات عديدة، بل وطردوه ذات مرة عارياً من بيت تسلل إليه. وبالطبع كان الشرطي مستحقاً للعقاب على نزوات قلبه الضعيف، ولكن لا يجوز في نفس الوقت التسامح مع فلاّحي «أم القمل» و «المشاكس» على تصرفهم الكيفي، إذا كانوا قد ساهموا، فعلاً بالقتل. ولكن القضية كانت غامضة، وقد وُجد الشرطي في الطريق، وسترته الرسمية أسوأ من خرقة. أما وجهه فقد تغير جداً، بحيث لا يعرف به. وتنقلت القضية بين المحاكم، ووصلت أخيراً إلى المحكمة العليا، حيث قد أجمعت الآراء في بادئ الأمر على ما معناه: لما كان غير ثابت بالضبط من الذي اشترك من الفلاحين في القتل، والفلاّحون كثيرون، ودروبياجكين قد فارق الحياة الآن، ولن ينتفع، حتى ولو حكمت المحكمة لصالحه - بينما الفلاحون

ما يزالون أحياء، ومعنى ذلك أن قرار المحكمة لصالحهم سيكون ذات أهمية كبيرة بالنسبة لهم، فقد تقرر تبعاً لذلك: أن المختار دروبياجكين نفسه هو المسؤول، بفرضه مضايقات مجحفة بحق فلاحي «أم القمل» و «المشاكس»، وقد توفي إثر نوبة صرع، وهو في طريق العودة على زلاجة. وبدت القضية، وكأنها قد سدت، ولكن الموظفين، لسبب مجهول، أخذوا يتساءلون عمّا إذا كانت للنفوس الميتة الآن علاقة في تلك القضية. ولزيادة متاعب الموظفين أيضاً، حدث في تلك الآونة بالذات أن وقع في يد الحاكم المحلي وثيقتان في غاية الأهمية. كانت أولاهما تشير إلى أن هناك في تلك الولاية، حسب الدلائل والتقارير، مزيّف للنقود يتستر تحت أسماء مختلفة، ولهذا يجب البحث عنه بكل جدّ ونشاط. أما الوثيقة الأخرى فكانت كتاباً من حاكم ولاية مجاورة بشأن شرير أثيم نشر الرعب في تلك الولاية، وفي لهجة الكتاب ما يوحي بالتحذير بأنه إذا ظهر في مقاطعة مدينة «ن» أي شخص مشتبه به لا يستطيع إبراز وثيقة أو جواز سفر، فيجب إلقاء القبض عليه حالاً، وقد ألقت هاتان الوثيقتان الرعب والفزع في قلب كل إنسان، لأنهما أثارتا كل الاحتمالات والتقديرات السابقة. وبالطبع لم يكن في الإمكان الافتراض بأن ذلك إشارة إلى تشيتشيكوف على نحو ما؛ وعندما استعرض كل منهم الوضع حسب وجهة نظره تذكّر أن لا أحد يعرف من هو تشيتشيكوف، بينما كان كلام تشيتشيكوف عن نفسه وتعابيره الغامضة، أجل. تعابيره الغامضة تدل على أنه قاسي كثيراً في سبيل الحقيقة عندما كان في خدمة الحكومة، وأن له أعداء يطلبون حياته. وكانت استعادة هذا الكلام غذاء لتفكير الموظفين. فربما كانت حياته حقيقة في خطر؟ وربما كان هناك حقيقة من يبحث عنه؟ وربما كان قد قام حقيقة بعمل ما؟ أما في واقع الأمر، من هو؟ لم يكن يبدو عليه أنه مزيّف نقود، بله لص، لأن مظهره الخارجي كان في أعلى

درجات الاحترام. لكن من هو؟ وأخذ هؤلاء السادة الموظفون يطرحون على أنفسهم هذا السؤال الذي كان يجب أن يوجهوه في البداية، أي في الفصل الأول من قصيدتنا هذه. وأخيراً، صمم الموظفون على إجراء تحقيق مع أولئك الذين اشترى منهم النفوس حتى يتسنى لهم الاطلاع على الأقل على ماهية المشتريات وما وراءها وفيما إذا كان قد أوضح لأحدهم - عرضاً - عن مآربه الحقيقية أو أطلع أحدهم على هويته. وكان أول من قصدوه في هذا الشأن - طبعاً - كوروبوتشكا. إلا أن المعلومات التي أخذوها من هذا المصدر كانت ضئيلة جداً. كانت مجرد رواية عن أنه اشترى منها بعض النفوس بخمسة عشر روبلاً، ووعدها بأن يشتري منها كمية من الريش وبضائع أخرى في المستقبل لأنه متعهد الشحوم للحكومة، وهذا أمر يدل إلى حد ما على أن الرجل سافل خاصة وأن هناك شخصاً آخر مماثلاً اشترى كمية من الريش إلا أنه غشّ كل من عاملوه، وغشّ زوجة الأب بالذات بمبلغ أكثر من مائة روبل. وما قالته فيما بعد كان تكراراً تقريباً لما قالته وكانت نتيجة التحقيق النهائية مع السيدة أن اقتنع الموظفون بأنها عجوز غبية ثرثارة. أما مانيلوف فقد أجاب بأنه يستطيع أن يتكلم عن تشيتشيكوف كما يتكلم عن نفسه وأنه مستعد للتضحية بكل ثروته في سبيل أن يحوز على عِشر المواهب التي يحوزها بافيل ايفانوفيتش. وأخيراً، قطب حاجبيه بحدّة وألقى خطاباً يمدح فيه تشيتشيكوف بأحسن التعابير الخلاّبة داعماً أقواله بمشاعر شتّى من الصداقة والعواطف بوجه عام. وكان خطابه في الحقيقة كافياً للدلالة على الأحاسيس العاطفية الجياشة في قلب المتكلم ولكنه لم ينر السبيل أمام سائليه في الموضوع الذي يبتغون. أما سوباكيفيتش فقد أجاب بأنه يعتبر تشيتشيكوف إنساناً ممتازاً وأن النفوس التي باعها له كانت حيّة بكل ما في الكلمة من معنى، ولكنه لا يستطيع أن يجيب عما قد يحدث لها في المستقبل، وأن أي كارثة قد

تحل بالنفوس أثناء نقلهم سوف لا تكون غلطته لأن الله سبحانه وتعالى هو رب الجميع وفي يده مقادير الأمور، وأن الحميات والعوارض المميتة الأخرى كثيرة جداً في هذا العالم، وهناك أمثلة على قرى هلكت برمتها بالأوبئة والأمراض. وبعد هذا كله، وجد الموظفون أنفسهم مضطرين إلى اتباع طريقة أخرى، ومع أنها لا تستساغ إلا أنها تستخدم غالباً - ألا وهي إرسال خدم بكل هدوء كي يتصلوا بخدم الشخص الذي يطلبون المعلومات عنه، وأن يعرفوا منهم (أي من الخدم) بعض التفاصيل عن حياة سيدهم السابقة وماضيه. ولم يستطيعوا الحصول حتى من هذا المصدر إلا على النزر اليسير لأن بتروشكا تكرم على سائليه فقط برائحة غرفته، واقتصرت أجوبة سيليفان على أن سيده كان في خدمة الدولة، واشتغل أيضاً في الجمارك. لهذه الطبقة من الناس عادة غريبة للغاية. إذا سألت أحدهم سؤالاً مباشراً عن شيء ما، لم يتذكر شيئاً، ولا يلم كل شيء في ذهنه، بل يكتفي بالرد أنه لا يعرف، وإذا سألته عن شيء آخر أخذ ينسج، ويتحدث بتفاصيل لا تريد أن تعرفها. باختصار، كان المجموع الكلي للمعلومات التي حصل عليها الموظفون هو جهل هوية تشيتشيكوف. لكنه يجب أن يكون إنساناً ما. وعلى ذلك فقد تقرر أن يعقد اجتماع للبحث النهائي فيما يجب عليه، وفيمن يمكن أن يكون تشيتشيكوف، وفيما إذا كان شخصاً يخشى جانبه ويجب اعتقاله لأنه إنسان لا يستحق الاحترام، أو فيما إذا كان شخصاً يستطيع أن يرهبهم ويعتقلهم لأنهم هم أنفسهم الذين لا يستحقون الاحترام. وقرّ الرأي على عقد الاجتماع في بيت رئيس الشرطة الذي يعرف عنه القراء أنه أب وراع للمدينة.

الفصل العاشر

وما أن اجتمع الموظفون في البيت الذي سبقت الإشارة إليه، حتى رأى كل واحد منهم أن الآخرين قد أصابهم الهزال فأصبحوا أرق عوداً من جراء هذه المتاعب المثيرة. أجل، فإن تعيين الحاكم العام الجديد، والإشاعات المندلعة، ووصول الوثيقتين الخطيرتين السالفتين - كل هذه الأمور تركت آثاراً جليّة على ملامح كل فرد من الحضور. وأصبحت بعض المعاطف كبيرة على لابسيها، وذوت بعض البنى مثل بنية رئيس المجلس المحلي ومدير الإدارة الطبية والمدعي العام. حتى أن شخصاً باسم سيمون ايفانوفيتش (و لم يكن يدعى باسم عائلته أبداً لسبب ما، إنما كان يلبس في الإصبع خاتماً اعتاد أن يبهر به أبصار صديقاته السيدات) صغر حجمه حتى كاد يسقط خاتمه من إصبعه. لكن كان هناك عدد من الأفراد الوقحين - كما يحدث دائماً في شدائد كهذه - استطاعوا أن يحتفظوا بكامل قواهم الجسدية والعقلية، وإن كانت الأخيرة لا تزيد حجماً عن الذرة البسيطة. وكان مدير البريد أحد هؤلاء. كان معتدل المزاج، وفي مناسبة كهذه كان يقول «لقد عرفناكم أيها الحكام الكبار، فقد رأينا منكم ثلاثة أو أربعة يأتون ويذهبون، بينما نحن نجلس على هذه المقاعد منذ ثلاثين عاماً». وكان موظفون آخرون يردون على ذلك عادة «وضعك جيد. شبريخن زى ديتش يا ايفان اندريتش. أنت مسؤول عن البريد تتلقى وترسل الطرود. إلا إذا تتحايل فتغلق المكتب قبل الموعد بساعة، أو تأخذ رسماً أكثر على استلام رسالة من تاجر جاء متأخراً عن الموعد المقرر، أو ترسل طرداً ممنوعاً - وبالطبع، كل

إنسان هنا سيكون قديساً. ولكن قد يتردد عليك كل يوم شيطان لا يفتأ يدس في يدك شيئاً، وأنت لا تريد أن تأخذه، ولكنه يدسه لك. بالطبع لست مثقلاً بالأعباء، فأنت والد ابن واحد. ولكن هناك، يا أخ، هذا وذاك من الناس، يمنّ الله عليهم كل سنة بابن أو ابنة. ونغمته تختلف عن نغمتك». بهذا الشكل كان يتكلم الموظفون. ولكن ليس من شأن المؤلف أن يحكم فيما إذا يجب أن يقف الإنسان ضد إغراءات الشيطان أم لا. إلا أن الميزة الطاغية في هذا الاجتماع كانت غياب ما يعرف عادة «بالذوق». ونحن الروس، بوجه عام، لا نظهر بالمظهر اللائق في الاجتماعات الجادة ابتداء من اجتماعات الفلاحين في القرى إلى مختلف أنواع اللجان العلمية وغيرها لأننا ما لم نجد قائداً ذا سلطة معنوية يسيطر بها على الباقين فإن الأمور دائماً تنقلب إلى فوضى. لماذا يجب أن يكون ذلك كذلك؟ لا يستطيع امرؤ أن يجيب. على أية حال، نجاحاتنا تتجلى في الاجتماعات التي يكون موضوعها الولائم والحفلات - أي الاجتماعات التي تعقد في النوادي والمطاعم ذات الإدارة الألمانية. ولكننا مستعدون، على ما أظن، لكل شيء، في كل لحظة. ومثل هبّة الريح ننشر فجأة الجمعيات الخيرية والتشجيعية، وما نشاء من الجمعيات. وقد تكون الغاية نبيلة، ولكن لن تثمر شيئاً أبداً. ولعل مرجع ذلك أننا نشعر بالرضى عن أنفسنا فجأة، ومنذ البداية، ونعتبر كل شيء قد أنجز. فمثلاً ننشئ جمعية خيرية للفقراء، ونتبرع بمبالغ كبيرة، ونقوم على الفور تكريماً لهذه المكرمة بمأدبة غداء لجميع الموظفين الكبار في المدينة، ننفق فيها، بالطبع، نصف مجموع المبالغ التي تبرعنا بها. ونصرف النصف الآخر على استئجار مقر فاخر للجنة الجمعية، فيه تدفئة وحراس، وبعد ذلك لا يبقى للفقراء من كل المبالغ غير خمسة روبلات ونصف، وحتى هذا المبلغ لا يتفق جميع أعضاء اللجنة على وجوه إنفاقه، ويأخذ كل عضو بتزكية أحد أقاربه. مهما

يكن من أمر، فإن اجتماعنا الحالي لم يكن من هذا النوع، إنما هو اجتماع دعت إليه الضرورة لبحث الكارثة التي تهدد كل موظف من الحاضرين. وبالتالي عليهم أن يكونوا أكثر تلاحماً ووئاماً ولكن ما حدث كان العكس. وبالإضافة إلى التباين العظيم في الآراء ووجهات النظر التي طرحت آنذاك، فقد كانت تظهر على جميع المتكلمين موجة طاغية من التردد والحيرة جعلتهم يؤكدون أموراً في لحظة معينة ثم يعودون إلى نقضها في اللحظة التي تليها. إلا أن أمراً واحداً على الأقل لاح أنهم اتفقوا عليه، وهو أن مظهر تشيتشيكوف وحديثه كانا على درجة من الاحترام لا يمكن أن يكون معها مزيّفاً أو لصاً متستراً. أقول، لاح أنهم كلهم متفقون على هذه النقطة من البحث حتى ظهرت صيحة فجائية من مدير البريد الذي كان جالساً منذ مدة مضت مستغرقاً في التفكير.

صاح يقول «استطيع أن أخبركم من هو تشيتشيكوف!».

فأجاب الجميع في هياج شديد «من إذن؟».

«أنه ليس غير الكابتين كوبيكين».

«ومن يكون هذا الكابتين كوبيكين؟».

فنشق نشقة من السعوط (فعل ذلك وغطاء العلبة مفتوح نصف فتحة مخافة أن يتدخل غريب فيدخل أصابعه المتسخة فيها) وراح يقص القصة التالية.

قصة الكابتين كوبيكين

«بعد انتهاء حملة نابليون عام ١٨١٢، أرسل إنسان جريح إلى بيته، اسمه الكابتين كوبيكين. وكان هذا الشاب عنيداً جريئاً يتدفق حيوية ويضفي حيويته هذه على كل شيء أمامه سواء كان في العمل أم كان في السجن. وبما أنه فقد ساقه وذراعه في معركة كراسنى أو معركة لايزيغ

(لا يهم أيهما)، و لم يكن في تلك الأيام تعويضات للجنود الجرحى و لم يعد قادراً على العمل بيده اليسرى فقط، لذلك انطلق ليرى أباه في أمر تدبير قوته. و لم يكن في قدرة الأب أن يعيل ابنه لسوء الحظ، وأطلع الابن على ذلك. فصمم الكابتين على الذهاب إلى بطرسبرج وطلب المساعدة منها نظراً إلى أنه خاطر بحياته في سبيل وطنه وأهرق الكثير من دمه في الدفاع عن بلاده. ولكم أن تتصوروه في عربة الشحن التي أقلته وهو يطل على العاصمة - العاصمة التي لا شبيه لها في مدن العالم! وانبسطت أمام عينيه صور الحياة كلها، صور كأنها ألف ليلة وليلة قام بتكوين أجزائها نيفسكي بروسبكت وشارع جوروخافايا والبروج الملتفّة التي لا حصر لها والجسور التي لا تستند إلى شيء - نينوى أخرى كانت في الواقع مبسوطة أمام عينيه. وتنقل يبغي استئجار موضع للسكن يستقر فيه لكنه وجدها كلها تزخر بالستائر والسجاد العجمي وفاخر الأثاث، ورأى أن استئجارها يعني استهلاك القسم الأكبر من ماله. حقاً إن المرء إذا سار في شوراع بطرسبرج فإنه يخيل إليه أنه يشم الروبلات بالآلاف، ولكن جيب صديقنا كوبيكين كان خالياً إلا من بضع قطع نحاسية وقليل من الفضية لا تكفي لشراء ضيعة على أية حال. وأخيراً، تمكن من إيجاد مأوى له فيما يشبه الحانة حيث تكون حصة النازل فيه طاساً من حساء الكرنب وقشرة من خبز، مقابل روبل واحد في اليوم. ولما شعر بأنه لا يستطيع أن يقيم طويلاً على حصة كهذه، استشار الناس فيما يفعل. فقالوا له «ماذا تفعل؟ الحكومة ليست هنا، إنها في باريس، ولم ترجع الجيوش من الحرب بعد. لكن هناك لجنة مؤقتة ومن الأفضل أن تذهب إليها وترى ما يمكن أن تفعل لك». فقال «حسناً، سأذهب إلى اللجنة وأقول لها أنني أهرقت دمي وضحيت بحياتي في سبيل وطني». واستيقظ مبكراً صباح ذات يوم وحلق لحيته بيده اليسرى (لأن تكاليف الحلاقة غير ذات بال!) وانطلق

بساقه الخشبية ليقابل رئيس اللجنة. ولكنه سأل أولاً عن محل سكن الرئيس فقيل له أن بيته في «كورنيش القصر». ولم يكن البيت كوخ فلاّح طبعاً، إنما كان يعجّ بالشبابيك المتألقة والمرايا الضخمة والتماثيل والخدم ومقابض الأبواب النحاسية! إنه في الواقع من ذلك النوع من المحلات التي لا تدخلونها إلا بعد أن تشتروا قطعة رخيصة من الصابون وتغسلوا أنفسكم بها ساعتين كاملتين. وقام على المدخل أيضاً بواب ضخم بهراوة في يده وياقة مطرزة على عنقه كأنه كلب سمين أفطس الأنف أُتخم أكلاً. مهما يكن من أمر فقد تمكن صديقنا كوبيكين من الوصول بنفسه وبرجله الخشبية إلى صالة الاستقبال. وانزوى في إحدى الزوايا خشية أن يصدم كوعه الصيني المذهب، وجلس ينتظر وهو مغتبط جداً لوصوله قبل أن يغادر الرئيس فراشه وقبل أن يقدم الخدم له الطشت الفضي اللماع لغسيل وجهه. ومع كل ذلك فقد انتظر أربع ساعات حتى جاء خادم الصباح يقول «سيكون الرئيس هنا حالاً». كانت الغرفة عندئذ تعج بالناس وكأنها خلية النحل. وما غادر الرئيس غرفة الإفطار ودخل إلى صالة الاستقبال حتى حمل معه... ايه!.. أية عظمة وأية فخفخة، إنها أبهة العاصمة كلها! وأخذ يتنقل بين الحضور من شخص إلى آخر وهو يقول «ماذا تريد؟ ماذا تريد؟ ماذا أستطيع أن أفعل لك؟ ما شأنك؟» وأخيراً وقف أمام كوبيكين، فقال كوبيكين له «إني أهرقت دمي وفقدت ساقاً وذراعاً في سبيل بلادي، ولا قدرة لي الآن على العمل. فهل لي أن أجرؤ أذن وأطلب القليل من المساعدة إذا كانت القوانين تسمح بها؟ أو منحة أو معاشاً تقاعدياً أو أي شيء من هذا القبيل؟» عندئذ نظر الحاكم فرأى أن إحدى ساقيه كانت حقاً خشبية وأن الكم الأيمن المعلّق في معطفه كان فارغاً. فقال له «حسن جداً، إرجع لي مرة ثانية في غضون بضعة أيام». فشعر كوبيكين بسرور لدى سماعه هذا الكلام، وقال في نفسه «الآن قمت بمهمتي» ولكم أن

تتصوروا كيف راح يعرج على الرصيف، وكيف عرّج على حانة في الطريق واحتسى كأساً من الفودكا، وكيف طلب ضلع خروف وعصير البرتقال وأشياء أخرى للغداء، ثم كيف طلب زجاجة من الخمر وكيف ذهب إلى المسرح في المساء. باختصار، أعطى نفسه حقها على خير ما يرام. وبالتالي، رأى في الشارع فتاة إنجليزية كأنها الإوزة في تيهها. فاندفع يعدو خلفها برجله الخشبية. ولما رأى أنه لن يلحق بها قال لنفسه «لكن، لا. لتذهب هي وأمثالها إلى الشيطان! سأنتظر حتى أتسلم تقاعدي. فقد كفى ما قمت بصرفه حتى الآن». وذهب بعد يومين أو ثلاثة أيام لمقابلة رئيس اللجنة مرة ثانية. وقال له «يسرني أن أعرف إن كنت تستطيع الآن أن تعمل لي شيئاً لقاء دمي الذي أهرقت والأمراض التي عانيت والجروح التي بها أصبت في خدمة الوطن والجيش». فقال له الرئيس «يجب أن أخبرك أولاً أن قضيتك لا يمكن البتّ فيها دون مصادقة من الحكومة العليا. وبغير هذه المصادقة لا نستطيع أن نعمل شيئاً. وأنت ترى أن معظم الأمور تبقى معلّقة حتى رجوع الجيش من الحرب. كل ما يمكنني أن أنصحك به هو أن تنتظر عودة القيصر وأن تتجمّل بالصبر أثناء ذلك. وتأكد أنهم عندئذ لن يغضوا الطرف عنك».
على أية حال فهذا ما لم يكن يريده كوبيكين، فقد كان ينتظر أن يتسلم منحة مقدارها ألف روبل في التو والساعة. وبدلاً من «اشرب وامرح» كانت النتيجة «انتظر فالوقت لم يحن بعد». وهكذا، فمع أن رأسه كان مليئاً بأطباق الحساء وشرائح اللحم والفتيات الإنجليزيات، إلا أنه هبط السلالم الآن مطأطئ الأذنين خافض الذنب ومنظره في الواقع كمنظر الكلب الذي كبّ عليه الطباخ سطل ماء. فترون أيها السادة أن حياة بطرسبرج قد غيّرته تغييراً ليس بالقليل منذ أن ذاق طعمها لأول مرة. فلا يعرف غير الشيطان كيف سيعيش بعد الآن. وازدادت الأمور في وجهه تعقيداً إذ تصور أنه لن يتمتع بشيء حلو بعد الساعة. ويجب

أن تتذكروا دائماً أن للرجل في عنفوان شبابه شهية الذئب. وإذ مر صاحبنا بمطعم رأى خادماً فرنسياً بوجه مستدير وقميص هولاندي ومعطف أبيض كالثلج يحضّر طبقاً فاخراً جداً من الطعام يكاد يأكل نفسه، وإذ مرّ أمام حانوت للفواكه رأى الطيبات ماثلة للمجانين من الناس تطلب منهم أن يشتروها بمئة روبل للحبة الواحدة. تأملوا معي إذن حالته! ويمكننا أن نقول أنه رأى سمك (السالمون) والبطيخ في ناحية والمبلغ المؤلم الذي سيدفعه للحانة مقابلها في ناحية أخرى. وفكر في نفسه قائلاً «دع اللجنة تفعل بي ما تشاء، ولسوف أذهب إليها وأقيم ضجة كبرى، وسأخبر كل موظف فيها أن لي الحق بأن أفعل ما أريد». ووجدت وقاحة هذا الرجل الجرأة في العودة إلى اللجنة بالفعل. وقال له الرئيس «ماذا تريد؟ ما الذي جاء بك للمرة الأخرى؟ فقد أعطيتك التعليمات التي يجب أن تتبعها». فأجاب يقول «أجل معي التعليمات ولكني لن أتبعها. إني أريد شيئاً من الطعام». فقال الرئيس «بعض الحلم، أيها الكابتين. إن الشيء الحقيقي الذي تريده (إذا سمحت لي بذكره) هو بعض الصبر. ستقبض مكافأة مناسبة، فلا يليق أن يترك في عوز من ضحى في خدمة الوطن». ولكم أن تتصوروا أن هذه الكلمات دخلت من إحدى أدني كوبيكين وخرجت من الأذن الأخرى.

ما الذي يجب عمله مع شخص مثل كوبيكين؟ ورأى الرئيس أن اتخاذ إجراءات حازمة أصبح أمراً حتمياً. وقال له «حسناً جداً، إذا كنت ترفض القناعة بما أعطيت وترفض أن تبقى هادئاً في انتظار البت في قضيتك، فعليّ إذن أن أجد لك مأوى. أيها الشرطي خذ هذا الرجل إلى مكان سكنه». فتقدم شرطي كان واقفاً بالباب طوله ثلاثة أذرع وعلى كتفه بندقية - شرطي لديه المؤهلات لكي يحرس مصرفاً مالياً كبيراً، ووضع صديقنا في عربة الشرطة. ففكر كوبيكين في نفسه وقال «على الأقل سوف لا أدفع هنا أجرة الركوب. وفي هذا بعض السلوى».

وبعد أن سارت بهما العربة قليلاً قال لنفسه مرة أخرى «لقد قالوا لي في اللجنة أن أذهب وأفتش عن وسائل أخرى أمتّع بها نفسي، وها أنا أفعل». مهما يكن من أمر، فلا أحد يعلم الآن ماذا حدث لكوبيكين ولا إلى أين قاده المصير. لقد غرق على حد قول الشاعر في بحر النسيان، واندفنت أعماله في أعماقه. لكن اسمحوا لي أيها السادة أن ألمّ شعث القصة. فقد ظهر بعد شهرين من هذه الحادثة عصابة من قطاع الطرق في غابات ريازان. ولم يكن رئيس هذه العصابة غير – «فقاطعه رئيس الشرطة قائلاً «لكن اسمح لي، لقد قلت أن الكابتين كوبيكين فقد ذراعه وساقه، بينما تشيتشيكوف...».

لم يكن هناك داع لزيادة في القول، إذ ضرب مدير البريد جبهته براحة يده، ودعا نفسه مجنوناً أمام الجميع، ولم يكن في مقدوره أن يفهم كيف لم يخطر هذا الأمر في ذهنه منذ بداية القصة، واعترف بصحة المثل القائل «الروسي ذكي بعد فوات الأوان». مع أنه قد جرب أن يصحح خطأه ذاك بقوله أن علم الميكانيكا في إنجلترا قد وصل إلى درجة تصنع فيها السيقان الخشبية بحيث يتمكن لابسها إذا ما ضغط على لولب أن يخفيه عن الأنظار.

ولكن الجميع كانوا في شك من أن تشيتشيكوف كان الكابتين كوبيكين بالفعل، واعتقدوا أن مدير البريد قد سرح به الخيال. وهم بالمناسبة لم يقصّروا، من جانبهم، ومضوا أبعد متأثرين في فطانة مدير البريد. وقد بحثت نظريات مختلفة أخرى، منها أن تشيتشيكوف هو نابليون وأن الأنجليزي منذ قديم الزمان يحسد روسيا على كونها بلاداً كبيرة شاسعة، بل وطبعت عدة صور كاريكاتورية يصور فيها الروسي يتحدث مع إنجليزي كان يمسك خلفه كلباً من مقوده، وهم يعنون به نابليون، والانجليزي يقول «حذار، إذا لم يعجبني شيء ما، فسأطلق عليك الكلب!».

ولعلهم الآن قد أطلقوه من جزيرة هيلانه. وهو الآن يتسلل إلى روسيا، وقد يكون تشيتشيكوف في حقيقة أمره ليس شخصاً بهذا الاسم. وبالطبع لم يصدق الموظفون بذلك، بل جعلهم ذلك يفكرون في الأمر، على أية حال، وفي خضم تفكيرهم هذا، اقتنع كل واحد منهم بأن تشيتشيكوف، إذا أدار وجهه جانباً، فسيشبه تماماً صورة نابليون. بل أن مدير الشرطة الذي كان في الجيش أثناء حملة نابليون عام ١٨١٢، ورأى نابليون شخصياً لم يكن في وسعه إلا أن يقر أن نابليون ليس أطول قامة من تشيتشيكوف في كل الأحوال، وأن نابليون في هيئة جسمه لا يمكن أن يقال أيضاً أنه سمين جداً، ولكنه ليس النحيف بشكل ملحوظ. ولربما يصف كل هذا بأنه غير مستحب، والمؤلف أيضاً مستعد، لإرضائهم، بأن ينعت كل هذا بهذه الصفة، ولكن من سوء الحظ أن كل ذلك حصل كما يروى، والأعجب من ذلك أن البلدة لم تكن في الأنحاء القصية من البلاد، بل على العكس، لم تكن بعيدة عن كلتا العاصمتين، وعلى أية حال يجب أن يذكر أن حوادث هذه القصة قد وقعت بعد أن طُرد الفرنسيون من روسيا بسنوات غير عديدة. وفي ذلك الوقت انقلب كل مالكي الأراضي عندنا، والموظفين، والتجار، والباعة في المخازن، وكل المتعلمين، بل وحتى الأميون إلى سياسيين عتاة لمدة ثماني سنوات على الأقل. وصارت جريدة «وقائع موسكو» وجريدة «ابن الوطن» تُقرآن بحماس غير قليل وتداولتهما الأيدي حتى كانتا تصلان إلى القارئ الأخير مزقاً لا تصلح لأي استعمال. وبدلاً من الأسئلة المعتادة «بكم بعت كيل الشوفان، يا عم» أو «كيف استفدت من الثلج الذي سقط البارحة» صاروا يقولون «ماذا تكتب الصحف، ألم يطلقوا سراح نابليون من الجزيرة مرة أخرى؟ وكان التجار أشد الناس خوفاً من ذلك، لأنهم كانوا يؤمنون كلياً بتنبؤ نبيّ كان قد أمضى ثلاث سنوات في السجن. وقد وصل هذا النبي من مكان غير معلوم

ينتعل حذاء من ليف ويلبس فروة تفوح برائحة سمك فاسد قوية، وذكر أن نابليون هو المسيح الدجال وسوف يهرب من سجنه في الجزيرة يوماً ما ليمارس السلطة الكبرى على العالم. وسجن النبي جزاءاً على نبوءته، ولكنه قد ترك تأثيره، على كل حال، وأثار التجار كلياً. وظلوا لزمن طويل، حتى أثناء عقد الصفقات المربحة، وتوجههم إلى الحانات لتثبيتها بالشاي يتحدثون عن المسيح الدجال. ووجد الكثيرون من الموظفين ونبلاء القوم أنفسهم يفكرون في ذلك أيضاً، وأصيبوا بعدوى الصوفية التي كانت رائجة، كما هو معروف، وعلى الموضة. ورأوا في الحروف التي يتألف منها اسم نابليون معنى خاصاً يعادل رقم ٦٦٦ أي اسم إبليس الذي تنبأ به سفر الرؤيا. ولهذا فلا عجب إذا وجد الموظفون أنفسهم منقادين إلى التفكير في هذه النقطة، إلا أنهم سرعان ما صحوا، وقد فطنوا إلى أن خيالهم تمادى أكثر من اللازم، وأن الأمر ليس كذلك تماماً.

وصمم الموظفون أن يسألوا نوزدريف، كآخر ملاذ يلوذون به، إذ لم يكن هو أول من ذكر الانفس الميتة وحسب، بل كان يبدو أنه على علاقات متينة مع تشيتشيكوف. ومعنى ذلك أنه يعرف بلا شك شيئاً من ملابسات حياته، فلنحاول مرة أخرى ما سيقوله نوزدريف.

غرباء هؤلاء السادة الموظفون، ومن ورائهم جميع المراتب الأخرى. فقد كانوا يعرفون جيداً أن نوزدريف كذّاب، ولا يمكن التصديق بكلمة واحدة، مهما تكن تافهة من اقواله، ومع ذلك فقد لجأوا إليه بالذات. وما أغرب مخلوق في الدنيا من إنسان لا يؤمن بالرب، ولكنه يؤمن بأن أنفه إذا حكه، فسيموت لا محالة. ويتغافل عن رائعة شاعر واضحة كالنهار، مبنية كلها على الانسجام وحكمة البساطة الرفيعة، ولكنه يتهافت على ما يكتبه طائش يشوش ويلفق ويحطم ويفسد الطبيعة فيعجبه هذا العمل، ويظل يصيح «أنه معرفة حقيقية لأسرار القلب!»

وطوال حياته لا يحملهم محمل الجد، ويؤول أخيراً إلى اللجوء إلى امرأة من العوام تعالج بالتمتمات والبصقات، أو في أحسن الأحوال يتكر هو نفسه مستخلصاً من قاذورات يتصور لسبب لا يعلمه إلا الله، أنه يشفي مرضه. طبيعي من الممكن أن نعذر السادة الموظفين بقدر ما بسبب وضعهم الصعب بالفعل. فالناس تقول الغريق يتشبث بالقشة الصغيرة، وهو في الوقت ذاته لا يفكر في أن الذبابة وحدها يمكن أن تركب قشة، بينما وزنه أثقل بما لا يقاس، ولكنه في تلك اللحظة لا يستطيع أن يتصور ذلك، فيتشبث بالقشة. وبهذا الشكل تشبّث سادتنا بنوزدريف. وبناء على ذلك أرسل رئيس الشرطة مذكرة بيد مأمور خاص فرع هذا في نفس اللحظة بجزمته الطويلة العنق، وخداه متوردان، ممسكاً بحسامه متجهاً إلى مسكن نوزدريف. كان نوزدريف في ذلك الوقت منهمكاً في عمل هام جداً، هو من الأهمية في درجة جعلته يلزم غرفته أربعة أيام متتالية، وكان يتناول طعامه من النافذة ولا يقابل زائراً أبداً. والعمل المشار إليه كان يتكون من وضع علامات سرية على عدد كبير جداً من أوراق اللعب بحيث يتمكن من الاعتماد عليها أكثر مما يعتمد على صديق حميم. وبقي من العمل ما يستغرق أسبوعين على الأقل، وكان على بورفيري طوال هذا الوقت كله أن ينظف سرة جرو كلب حراسة ضخم بفرشاة خاصة، ويغسله ثلاث مرات في اليوم بالصابون. و لم يكن يحب بطبيعة الحال أن تُغزى عزلته، وبدأ أول ما بدأ بإرسال المأمور إلى الشيطان. لكنه حالما علم من الرسالة المرسلة إليه أن هناك ضيفاً عند مدير الشرطة حديث العهد باللعب، رأى أن زيارة كهذه لم تكون عديمة الجدوى. فلانت عريكته. وفتح باب غرفته ورمى على كتفيه أول رداء وقع بين يديه وشرع في الرواح. وكانت إفادات نوزدريف وشهاداته وافتراضاته متعارضة مع افتراضات السادة الموظفين حتى أوقعت الاضطراب حتى في

تخميناتهم الأخيرة. لقد كان بالتأكيد رجلاً لا وجود للشكوك عنده أبداً. فقد كان له من التصميم والثقة بقدر ما لافتراضاتهم من خلخلة والتهيب. وقد أجاب على كل سؤال سأله اياه الموظفون بثبات وحزم. وقال بأن تشيتشيكوف قد اشترى حقيقة أنفساً ميتة بمبلغ عدة آلاف من الروبلات. وفي الواقع أنه (أي نوزدريف) باعه بعضها، وما زال يرى أن ليس هناك ما يمنعه من أن يفعل. وبالتالي أجاب بالإيجاب على سؤال بشأن ما إذا كان تشيتشيكوف جاسوساً أم لا، وأضاف يقول بأن تشيتشيكوف كان يُعرف منذ أيام المدرسة التي قضاها معه «بالمخبر»، وقد دقّ رفاقه عنقه مراراً لهذا السبب. حتى اضطر لوضع مائتين وأربعين علقة على صدغه، أي أنه كان يريد أن يقول أربعين، ولكن مائتين جاءتا على لسانه من تلقاء نفسها. وأجاب الشاهد بالإيجاب على سؤال فيما إذا كان تشيتشيكوف مزيّفاً للنقود أم لا، واستشهد بقصة تدل على مهارة تشيتشيكوف المتناهية في هذا المضمار، وهي أن السلطات علمت ذات يوم أن في بيت تشيتشيكوف مليوني ورقة مزيفة من ذوات الروبل وبناء على ذلك ختمت أبواب البيت بالشمع وأحاطته من كل ناحية بالحرس المسلح. فما كان من تشيتشيكوف إلا أن ذهب في ظلمة الليل وغير الأختام الشمعية بأخرى جديدة ورتب أموره بحيث لما فتش البيت وجد أن النقود المزيفة كانت نقوداً صحيحة أصيلة! وبالإضافة إلى ذلك، لما سئل عما إذا كان تشيتشيكوف قد أعدّ خطة للهرب بابنة الحاكم، وعما إذا كان صحيحاً أنه (أي نوزدريف) شرع في مساعدته وإغوائه على هذا العمل، أجاب الشاهد بأنه لو لم يشرع في ذلك لما كان في الامكان تنفيذ المشروع. وعند هذه النقطة نهض الشاهد إذ أدرك أنه قد كذب كذبة يمكن أن تسبب له الكثير من المتاعب. ولكنه لم يكن يستطيع مقاومة لسانه - فالتفاصيل التي كانت تتأرجح على طرف هذا اللسان كانت خلابة جداً حتى أنه راح يذكر

اسم القرية التي كانت تقع فيها الكنيسة التي اتفق الإثنان على عقد القران فيها واسم الكاهن الذي سيجري العقد ومقدار الأجر الذي سيدفع له (خمسة وسبعين روبلاً). وجزم أيضاً بما يلي - أن الكاهن رفض بادئ ذي بدء إجراء مراسيم القران حتى هدده تشيتشيكوف بأنه سيفضح الحقيقة التالية، وهي أنه (أي الكاهن) كان قد زوج ميخائيل (وهو بائع حبوب في المدينة) من قريبته. وجزم أيضاً بأن تشيتشيكوف كان قد هيأ عربة لنقل العروسين وعدداً من خيول المواصلات في مراكز تبديل الخيول على الطريق. لا، فالرواية التي رواها نوزدريف وصلت حداً من التفصيل راح يذكر فيه أسماء بعض الحوذية! وبالتالي سبر الموظفون غوره في ما إذا كان من الممكن أن يكون تشيتشيكوف هو نابليون، ولكنهم ما لبثوا أن ندموا على خطوتهم هذه، لأن نوزدريف راح يهذر هذراً طائشاً لا عهد لهم بمثله من قبل. وأخيراً ترك معظم المستمعين الغرفة ولم يبق غير رئيس الشرطة (آملاً أن يجمع المزيد من المعلومات). حتى هو اضطر آخر الأمر إلى تكذيب المتكلم بإيماءة تقول «الشيطان وحده يعلم ما الذي يقوله هذا الإنسان!» وعرف الموظفون أن المرء لا يمكن أن يجني من الشوك العنب. وبقيّ الموظفون في وضع أسوأ من ذي قبل، وكانت النتيجة أنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا قط حقيقة تشيتشيكوف. وأصبحت واضحة طبيعة إنسان. أنه حكيم ذكي ومدير في كل الأشياء التي تخص الآخرين، ما عداه. يسدي النصائح الرشيدة الحازمة في ظروف الحياة الصعبة! يصيح الجمهور «رأس داهية! أي طبع صلب له!» ولكن ما أن يقع هو في مصاعب حياتية حتى يتلاشى هذا الطبع، ويرتبك هذا الرجل الصلب، ويتبين فيه جبان بائس، تافه، طفل هزيل أو مجرد مائع، كما ينعته نوزدريف.

كل هذه الأقوال والآراء والشائعات أثرت، لسبب مجهول، في المدعي العام، أكثر من غيره. وكان تأثيرها فيه من القوة، بحيث أنه،

حين وصل إلى بيته، أخذ يفكر، ويفكر، حتى مات بلا سبب ولا علة، على حد التعبير الشائع. لا أحد يعرف هل أصيب بالفالج أو بشيء آخر. إلا أنه ما أن قعد، حتى انكفأ من الكرسي على وجهه. وصاحوا وصفقوا يداً بيد على حكم العادة «آه، يا رب!» وأرسلوا في طلب الطبيب ليحجم له، ولكنهم اكتشفوا أن المدعي العام ما هو إلا جثة بلا روح. وعند ذلك فقط عرفوا، بحسرة، أن المرحوم كانت له روح بالفعل، ولو أنه لم يكن يظهرها قط، بسبب تواضعه. ومع ذلك فقد كان مجئ الموت مرعباً للصغير والكبير على حد سواء. فالرجل الذي كان إلى وقت قصير يتحرك، ويلعب الورق، ويوقع مختلف الأوراق، وكان مرموقاً جداً بين الموظفين بحاجبيه الكثيفين، وعينه الرامشة، هو الآن مسجّى على طاولة، وعينه اليسرى لم تعد ترمش، ولكن أحد حاجبيه كان مرفوعاً قليلاً في تساؤل. والله وحده يعلم عمّ كان المرحوم يتساءل، ولماذا مات، ولماذا عاش.

إلا أن ذلك لا يقبله العقل، على كل حال! ولا يتفق مع أي شيء! من المستحيل أن يفزع الموظفون أنفسهم بهذا الشكل، ويخلقوا هذه السخافة، ويبتعدوا عن الحقيقة بينما حتى الطفل نفسه يعرف ما هي المسألة! وسيقول ذلك الكثيرون من القراء، ويؤنبون المؤلف على مجانبته للاحتمال، أو يصفون الموظفين المساكين بالحمقى، لأن الإنسان كريم في استخدامه لكلمة «أحمق» ومستعد لأن يلصقها بجاره عشرين مرة في اليوم. يكفيه أن يكون جانب واحد من جوانب خلقه العشرة أحمق ليوصف بالأحمق على حساب الجوانب التسعة الجيدة. ومن السهل على القراء، وهم ينظرون من ركن عليائهم الهادئ، حيث الأفق مكشوف لهم، أن يحكموا على كل ما يجري في الأسفل، حيث لا يرى الإنسان غير الشيء القريب منه. وفي المدونات العالمية لتاريخ البشرية الكثير من القرون الكاملة التي يبدو شطبها ومحوها ممكنين، لأنها غير ضرورية. فهناك الكثير من الضلالات في العالم تبدو الآن

لا يمكن أن يقوم بها حتى الطفل. فكم من الطرق المعوجة المسدودة الضيقة، المنيعة المنحرفة بعيداً اختارتها الإنسانية في سعيها للوصول إلى الحقيقة الأزلية، بينما كان مفتوحاً أمامها الطريق المستقيم، كالطريق المؤدي إلى هيكل عظيم مخصص ليكون مقراً للقيصر! فهو أوسع الطرق كلها، وأفخرها، منور بالشمس ومضاء طوال الليل بالأنوار، ولكن الناس تجاوزته، وسارت في الظلام الدامس. وكم من مرة، حتى بعد أن تزودوا بالرسالة المنزلة من السماء، زاغوا وانحرفوا سواء السبيل، ووقعوا من جديد وفي وضح النهار في مغارات نائية مسدودة، وأنزلوا من جديد غشاء العمى على عيون بعضهم البعض، منجذبين إلى السراب الخادع، ووصلوا إلى حافة الهاوية، ليسأل بعضهم بعضاً فيما بعد: أين المخرج، أين الطريق؟ إن الجيل الحالي، يرى كل شيء الآن بوضوح، وتدهشه الضلالات، ويضحك من سخافات سلفه، ولا يرى أن تلهب النار السماوية تلك المدونة التاريخية، ليصرخ كل حرف فيها وليشار إليه بالبنان من كل مكان، يشار إليه، إلى الجيل الحالي، ولكن الجيل الحالي يضحك ويبدأ بثقة في النفس واعتداد في سلسلة من الضلالات الجديدة، سيضحك منها الخلف أيضاً فيما بعد.

هذا، ولم يكن تشيتشيكوف يعلم من الأمر شيئاً. فقد أصابته قشعريرة خفيفة والتهاب في الحلق جعلاه يلزم غرفته ثلاثة أيام كان فيها يغرغر حلقه باللبن وعصير التين وقد أكل الفاكهة التي استخرج منها العصير، ووضع على عنقه كمادة من البابونج والكافور. وكوسيلة لقضاء الوقت أخذ يعمل قوائم مفصلة جديدة عن الأنفس التي اشتراها. ثم راح يطالع كتاب «الدوقة دولا فالير»[٣٥] وينبش في حقيبته ويقلب الأوراق والأدوات الأخرى التي وجدها في صندوق المراسلات،

---

(٣٥) "الدوقة دولا فالير" - رواية الكاتبة الفرنسية س. جانليس (١٧٤٦ - ١٨٣٠).

وقد وجد أن كل شيء من هذه الأشياء على ما يرام من الترتيب. و لم يستطع أن يعلل لماذا لم يزره أحد من أصدقائه الموظفين للسؤال عن حاله، لا سيما وقد رأى قبل مدة بسيطة عربات مدير البريد والمدعي العام ورئيس المجلس المحلي واقفة أمام الفندق. فتعجب ثم ازداد عجباً وهزّ كتفيه وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. و لم يلبث أن شعر بالتحسن الملحوظ وأحس برغبة في الخروج إلى الهواء الطلق مرة أخرى، فحلق كمية غير قليلة من الشعر النامي على وجهه ولبس بهمّة كادت تشق سراويله ورش على نفسه ماء الكولونيا، ولف نفسه بألبسة دافئة وربط خده وانطلق عبر الشارع. وكان أول ما عزم عليه هو الذهاب إلى بيت الحاكم. وراحت تحوم في رأسه أفكار خاصة بشأن ابنة الحاكم حتى نسيّ نفسه وأخذ يتبسم مداعباً أفكاره.

وما أن وصل إلى البيت يهم بخلع لفاعه حتى حياه البواب بقوله، «لدي أوامر تمنعني من السماح لك بالدخول».

فبهت تشيتشيكوف وصاح مندهشاً «ماذا؟ ألا تعرفني؟ أنظر الي مرة أخرى لتعرف من أنا».

فأجاب البواب «أنا أعرفك طبعاً، وقد رأيتك أكثر من مرة قبل الآن. ولكني أمرت بأن أسمح لكل إنسان بالدخول عدا السيد تشيتشيكوف».

«حقاً؟ و لم ذلك؟».

«هذا ما أُمرت به وعلي تنفيذه». قال ذلك و لم يتقدم بالطبع لتناول ما سيخلعه تشيتشيكوف كما كان يفعل في المرات السابقة وباللطف السابق. وقد اتضح لديه أن تشيتشيكوف (ما دام السادة قد رفضوا قبوله زائراً) لا بد أن يكون سافلاً.

فقال تشيتشيكوف لنفسه «أنا لا أفهم هذا» وغادر المكان متخذاً

طريقه إلى رئيس المجلس المحلي، ولكن الموظف المذكور بدا عليه انفعال شديد عند رؤية تشيتشيكوف حتى أنه لم يستطع أن يلفظ كلمتين متتابعتين، وإنما أخذ يهذر هذراً جعل الضيف وربّ البيت في دهشة داهشة. وتعجب تشيتشيكوف وهو يترك البيت مما يمكن أن تعنيه تمتمات الرئيس الغريبة التي لم يستطع أن يفرق فيها بين الرأس والذنب. وبالتالي زار رئيس الشرطة ونائب الحاكم ومدير البريد بالتتابع. لكنه كان في كل حالة إمّا أن يرفض قبوله أو يجد أن المقابلة غريبة فيها قدر كبير من التحفظ والتهيب وتشتيت الفكر والإحراج، حتى أنه بدأ يخشى الجنون على مستقبليه. وقد حاول مرة وأخرى أن يتكهن بالسبب وكان نصيبه الفشل الشديد. وعلى هذا، راح يتجول في المدينة على غير هدى دون أن يدرك ما إذا كان الجنون قد أصابه أو أصاب الموظفين. وأخيراً عاد إلى الفندق في حالة يرثى لها من الحيرة والذهول - عاد إلى المكان الذي خرج منه عصر اليوم نفسه بمعنويات عالية يحسد عليها. وأحس برغبة تدفعه إلى أن يعمل شيئاً، فطلب الشاي وهو لا يزال مستغرباً من وضعه الشاذ الغريب وكان على وشك أن يصبه في الكوب عندما فتح الباب ودخل نوزدريف.

وبدأ يقول «يقول المثل «ليس كثيراً أن تمشي يوماً كاملاً لتقابل صديقاً»، وقد كنت مارّاً قرب النزل حينما رأيت نوراً من نافذتك. وقلت لنفسي «ما رأيك في أن تصعد وتزوره؟ إنه على الأرجح لم ينم بعد، ها! ها! إني أرى شاياً على مائدتك. حسناً، إذن سأشرب معك قدحاً لأنني تناولت طعاماً بائساً وبدأت أحس بثقل على معدتي. قل لخادمك أن يعبئ لي غليوناً. أين غليونك؟».

فأجاب تشيتشيكوف بجفاف «أنا لا أدخن أبداً».

«هراء! كأنني لا أعرف أي مدخنة أنت! ما اسم خادمك؟ فاخرامي! تعال إلى هنا».

«اسمه بتروشكا وليس فاخرامي».

«حقاً؟ لكن كان عندك رجل اسمه فاخرامي. أليس كذلك؟».

«لا، أبداً».

«إذن يجب أن يكون خادم ديريبين هو من أفكر فيه. أي إنسان محظوظ ديريبين هذا! له عمة تشاجرت مع ابنها لأنه تزوج أَمة من الأقنان فتركت كل ثروتها له – لديريبين. آه لو كان لي عمة من هذا النوع احتياطاً لطوارئ المستقبل! لكن، قل لي، لماذا كنت مختبئاً؟ أظن أنك تغوص في الأمور المبهمة وتنغمس في بطون الكتب». (أما ما الذي جر نوزدريف إلى هذه الاستنتاجات، فلا أحد يدري – على الأقل تشيتشيكوف) «بالمناسبة، أريد أن أخبرك عن أمر يرضي نَعره الدعابة لديك». (وهذا الاستنتاج عن نعرة الدعابة عند تشيتشيكوف لا مبرر له في كلام نوزدريف) «وذلك أن ترى التاجر ليخاتشيف وهو يخسر كومة كبيرة من النقود في اللعب. بشرفي كنت ستضحك! وكان معنا شخص اسمه بيربنديف كان يقول ليت تشيتشيكوف كان هنا، أنه كان سيضحك من أعماق قلبه». (وفي واقع الأمر فأن تشيتشيكوف لم يقابل في حياته منذ أن ولد شخصاً باسم بيربنديف) «مهما يكن من أمر، فعليك أن تعترف يا صديقي بأنك قد أسأت لي يوم أن لعبنا الشطرنج معاً، لكن، بما أنني ربحت اللعبة فلن أحمل لك حقداً. بالمناسبة، إنني الآن عائد من بيت الرئيس وعلي أن أخبرك بأن الرأي العام في المدينة ثائر عليك، لأن كل إنسان يعتقد بأنك مزيّف نقود. وقد استدعيت شخصياً وسئلت عنك. ولكني دافعت عنك في كل صغيرة وكبيرة وأخبرت الموظفين أني كنت معك في المدرسة وأني عرفت أباك. لقد رددت السائلين في الواقع خاسئين».

فقال تشيتشيكوف وهو ينهض من مجلسه «تقول أنهم يعتقدونني مزيّفاً؟».

فقال نوزدريف «نعم. لكن لماذا رحت تخيف الناس كلهم بأعمالك؟ إن بعض الناس قد مسهم الجنون من جراء ذلك ويقولون

عنك بأنك لص متستر أو جاسوس. حتى أن المدعي العام توفي أمس من هذه الأخبار وسيدفنونه غداً». ألا تكون هناك؟ ولكن القوم يكادون يطيرون ذعراً من الحاكم العام الجديد لأنهم يظنون أنه سوف يخلق لهم المتاعب بشأنك. بالمناسبة، يقال عنه أنه رجل متكبر يدسّ أنفه في كل شيء. فإذا كان ذلك كذلك، فأن عواقب النبلاء لن تكون محمودة، لا سيما وهم قوم يستحقون التغاضي. أجل، بشرفي! إذا ما اعتزل الحاكم العام الجديد في مكتبه وامتنع عن حضور الحفلات فستكون العواقب أوخم ما في الحسبان! بالمناسبة، إن مشروعك خطر يا تشيتشيكوف».

فتساءل تشيتشيكوف بقلق ظاهر «أي مشروع تعني؟»».

«ماذا؟ مشروع خطف ابنة الحاكم. على أية حال فلا أكتمك الحقيقة إذا قلت لك بأنني كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل. وما رأيتك معها في الحفلة الراقصة حتى قلت لنفسي «آه، آه! لا يمكن أن يكون تشيتشيكوف هنا لغير ما سبب!» أما أنا شخصياً فأعتقد أن اختيارك غير موفق، لأني لا أرى فيها أية ميزة اطلاقاً. بينما هناك ابنة أخت صديق لي اسمه بيكوسوف – فتاة لا غبار عليها! آية من الجمال في ثياب إنسان!».

فتساءل تشيتشيكوف وعيناه تتسعان «أي شيء بالله هذا الذي تتكلم عنه؟ وكيف يمكنني أن اختطف ابنة حاكم الولاية؟ أي شيء تعني بالله؟».

«ماذا؟ ماذا؟ أي شخص كتوم أرى؟ إن كل قصدي من المجيء إليك هو أن أمد إليك يد المساعدة. أصغ لي. إنك إذا أدنتني ثلاثة آلاف روبل فسأقوم بتكاليف الزواج وبإعداد العربة وخيول المواصلات. يجب أن أحصل على هذا المبلغ ولو متّ في سبيله».

كان تشيتشيكوف طوال الوقت الذي يهذر فيه نوزدريف يفرك عينيه كي يتأكد فيما إذا كان حلماً ما يرى ويسمع. فاتهامه بالتزييف واتهامه بمشروع الاختطاف وموت المدعي العام (وكأنه كان بسببه)

وقدوم الحاكم العام الجديد - كل هذا جعله يشعر بأنه في منتهى البؤس وفي قرارة اليأس.

وقال لنفسه «حيث أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد فمن الأفضل أن لا أتلكأ ويجب أن أغادر حالاً». وما تخلص من نوزدريف بأسرع ما يستطيع حتى أرسل في طلب سيليفان وأمره أن يستيقظ مع الفجر لتنظيف العربة ولتهيئة كل شيء للسفر في السادسة صباحاً. ومع أن سيليفان أجابه «سمعاً وطاعة يا بافيل ايفانوفيتش». إلا أنه تلكأ برهة على الباب. ومن ثم أمر تشيتشيكوف بتروشكا أن يخرج له الحقيبة المغبرة من تحت السرير، ثم أخذ يكوم فيها الجوارب والقمصان والياقات (النظيف منها والمتسخ) والأحذية وإحدى التقاويم وأدوات مختلفة أخرى خليطاً بعضها فوق بعض. وقد وضع كل شيء في الحقيبة كما تناولته يده، فقد كان هدفه أن يحول دون ما قد يجد من عوائق عند السفر في الصباح. هذا بينما كان سيليفان المتلكئ يترك الغرفة ببطء - ببطء شديد جداً - ثم راح ينزل السلم بالبطء نفسه (تاركاً في كل خطوة من خطواته آثار قدميه الموحلتين) ووقف أخيراً يحك رأسه أما ماذا يعني هذا الحك؟ وما هذا كله بشكل عام؟ أهو انزعاج من عدم تمكنه من الإلتقاء المقرر ليوم غد بصاحبه في معطفه البائس المحزم بحزام عريض في حانة أم هو علاقة غرامية مع فتاة في مكانه الجديد، واضطراره ترك وقفته المسائية عند البوابة في إنتظارها، وإمساكه يدها البيضاء بأدب جمّ في تلك الساعة التي يهبط فيها المساء على البلدة، وفتى في ثوب أحمر يضرب على البلالايكا أمام جمع من الخدم، وخليط من الشغيلة يتكلمون بأصوات هادئة؟ أم مجرد أسف على ترك مكان صار عامراً بالدفء، في مطبخ الخدم، وهو متدثر في فروته قرب الموقد مع صحن حساء بلقم هشّة، ليعود من جديد إلى التجوال في المطر والوحل، وكل منغصات الطقس السيء الأخرى؟ فلن يستطيع أحد أن يجيب، لأن هذا الحكّ عند عامة الروس يمكن أن يعني أي شيء من مائة شيء.

الفصل الحادي عشر

بيد أن الأمور لم تجري وفق رغبة تشيتشيكوف. أولاً، لأنه نام أكثر من عادته – هذه واحدة. وثانياً، عندما صحا من نومه وسأل عما إذا كانت العربة مهيأة وكل شيء جاهزاً، قيل له لا هذا ولا ذاك – هذه ثانية. واستعد ونفسه مشتاطة غضباً أن يلقي على سيليفان أمض تعنيف مرّ به في حياته، وأخذ ينتظر بفارغ الصبر سماع ما قد يدافع به الخادم عن نفسه. ولا حاجة بنا إلى القول بأن سيليفان حالما ظهر بالباب أخذ يقدم المعاذير المعتادة التي يقدمها الخدم عادة عندما يكون السفر المستعجل أمراً حتمياً.

قال على مهله «بافيل ايفانوفيتش، إن الخيول بحاجة إلى حذوات».

فأجابه تشيتشيكوف قائلاً «أيها الغبي! لماذا لم تقل ذلك من قبل أيها المجنون اللعين؟ ألم يكن لديك وقت كاف لحذوها؟».

فوافق سيليفان بقوله «بلى، لقد كان. وإحدى العجلات أيضاً تحتاج إلى إطار جديد لأن وعورة الطريق أبلت الإطار القديم، ثم، أن صندوق العربة نفسه أصبح بالياً بحيث لا يحتمل سير مرحلتين».

فضمّ تشيتشيكوف قبضته واقترب من سيليفان كأنما سيلكمه، فتقهقر الأخير خوفاً وانزوى كالكلب في ناحية. وصاح عليه «يا سافل! هل تنوي أن تهلكني وتحطم أضلاعي في الطريق أيها الأبله اللعين؟ لم يكن لديك أي عمل لثلاث أسابيع خلت، والآن في آخر لحظة تجيئني وأنت تتلعثم وتلعب دور المجنون! كان عليك أن تعلم ذلك قبل الآن. هل عرفته أم لم تعرفه؟ أجبني حالاً».

فأجاب سيليفان وهو يمد رأسه «نعم لقد عرفته».

«إذن، لماذا لم تخبرني عنه؟».

لم يكن لدى سيليفان جواب حاضر، فاستمر يمد رأسه وراح يخاطب نفسه بهدوء «يا ويحي، كيف تصرفت! كنت أعرف كل شيء ومع هذا لم أقل».

واستمر تشيتشيكوف يقول «والآن، اذهب حالاً وأحضر حداداً. وقل له أن ينجز كل شيء في ساعتين على أكثر تقدير. هل تسمع؟ وإذا لم تفعل ذلك فإني سأجلدك جلداً لم تعهده في حياتك من قبل». وكان الغضب في الواقع قد أخذ من تشيتشيكوف مأخذه.

فاتجه سيليفان إلى الباب كما لو كان ذاهباً لتنفيذ الأوامر، لكنه وقف وأضاف يقول «ذلك الحصان الأرقط يا سيدي، ألا تظن من الأنسب أن نبيعه لأنه ليس إلا نذلاً، فوجوده عائق لا مساعد».

«ماذا؟ أتنتظر مني أن أذهب الآن إلى السوق لبيعه؟».

«أجل يا بافيل ايفانوفيتش، فهو مظهر خداع فقط لا يصلح لشيء، لأنه بطبيعته حيوان خبيث جداً، لم أرَ في حياتي مطلقاً حيواناً خبيثاً مثله».

«مجنون! عندما أريد أن أبيعه فسوف أبيعه. أما أنت فلا تتعب دماغك فيما لا يعنيك، بل اذهب وأحضر حداداً وليكن كل شيء جاهزاً في غضون ساعتين، وإلا خلعت شعر رأسك وضربتك حتى أخفي سحنتك. انصرف! أسرع!».

فانصرف سيليفان، وثارت ثائرة تشيتشيكوف فرمى على الأرض خنجره الذي كان يحتفظ به دائماً كوسيلة لفرض احترامه على من قد يحتاجون إلى ذلك. ثم صرف ربع الساعة التالية في مساومة اثنين من الحدادين - وكانا من ذلك النوع السافل من الرجال الذين إذا علموا

أن أمراً ما مطلوب بسرعة راحوا يطلبون الأجر اضعافاً. وفي الواقع لم يستطع تشيتشيكوف بثورته وهياجه وهو يمنحهما ألقاب اللصوصية والنهب والابتزاز أن يؤثر فيهما، إذ رفضا أن يخفضا من الأسعار التي طلباها - وهذا ما يتفق تمام الاتفاق مع طبيعتهما. وليس ذلك وحسب، بل صرفا منذ أن بدآ بالعمل حتى انتهيا منه لا ساعتين فقط بل خمس ساعات ونصف ساعة. وسنحت الفرصة لتشيتشيكوف أثناء ذلك أن يستمتع بتلك المتعة السارة التي يعرفها جميع المسافرين، ألا وهي الجلوس في غرفة خالية خاوية إلا من نثار الخيوط ونفايات الأوراق وما أشبه ذلك، حين يكون الشخص لا هو بالمسافر ولا بالمقيم، ويرى من النافذة المارين المتعرجين المتحدثين عن أمورهم الرخيصة، والرافعين أبصارهم بفضول أحمق لينظروا إليه، ثم يمضون في حال سبيلهم، مما يعكر أكثر الحالة النفسية للمسافر المسكين الضجر. وكل ما يحيط به، وما يراه سواء أكان الحانوت المقابل له، أو رأس عجوز تسكن البيت المقابل، وتقترب من نافذة ذات ستائر قصيرة، كل ذلك مقرف له. ومع ذلك فهو لا يترك النافذة. ويقف سارحاً تارة، أو موجهاً اهتماماً مثلوماً إلى كل شيء يتحرك أمامه أو لا يتحرك ويقتل من الإنزعاج ذبابة تطن في ذلك الوقت وتضرب الزجاج تحت إصبعه. لكن لكل شيء نهاية. وجاءت اللحظة المنتظرة أخيراً، حين وضعت الأمتعة في العربة ووضع إطار جديد للعجل التالف وانتعلت الخيول بالنعال الجديدة وانصرف الحدادان المفترسان بغنيمتهما. ووضع في العربة رغيفان ساخنان اشتريا لتوهما، وحشر سيليفان شيئاً لنفسه في مقعد الحوذي، وصعد بطلنا إلى العربة أخيراً، بينما كان النادل الذي خرج لتوديعه بمعطفه القطني القصير ملوحاً بقبعته، وخدم الفندق ومختلف الخدم والحوذية لأسياد آخرين قد تجمعوا ليروا كيف يغادر سيد غير سيدهم، وفي مختلف الظروف الأخرى التي تصاحب المغادرة، والعربة المفضلة عادة من قبل العزاب

والتي تتوقف طويلاً في البلدة، والتي لا بد أن القارئ قد ضجر منها الآن. وفكر تشيتشيكوف «الحمد لله» وانطلقت العربة تدرج عبر بوابة الفندق وتهتز فوق البلاط الحجري. فكر تشيتشيكوف بذلك ورسم علامة الصليب. قرع سيليفان بالسوط. جلس بيتروشكا إلى جانبه من جهة اليمين وقد تعلق لبعض الوقت على موطئ العربة، وجلس بطلنا في وضع أروح على سجادة جورجية، ووضع وراء ظهره مخدة جلدية، وحشر الرغيفين الساخنين. إلا أن شعوراً غريباً لم يستطع تحديده استولى عليه وملأ عليه صدره عندما راح ينظر إلى البيوت والشوارع والبساتين التي قد لا يراها فيما بعد مرة أخرى. وما أن دارت العربة عند أحد المنعطفات حتى وجد أنه مضطر إلى الوقوف فجأة لأن موكباً كبيراً جداً لجنازة لا نهاية لها كان يسد الشارع. انحنى تشيتشيكوف إلى الأمام وهو في العربة وسأل بتروشكا عمن يدل عليه موكب الجنازة، فأجابه بأنه يدل على أنه المدعي العام. فأحس بصدمة مؤلمة وسارع برفع خيمة العربة وإسدال الستائر على نوافذها وانزوى في ركن من مؤخرتها. أما سيليفان وبتروشكا فقد خلعا قبعتيهما عندما وقفت العربة وجلسا يشاهدان المشيعين أثناء سيرهم بعد أن تلقيا تعليمات حازمة بأن لا يطرحا التحية على أي خادم يعرفانه. ومضى هو أيضاً يراقب بتهيب من خلال زجاجة الحاجز الجلدي على جانب العربة: كان يسير خلف النعش جميع الموظفين حاسري الرؤوس. ومع أن تشيتشيكوف أوجس خيفة – لفترة من الزمن – من أن يفطن إليه بعضهم وهو في العربة، ولكن لم يلتفت أحد إليه، لأن بالهم كان مشغولاً بشيء آخر. وفي واقع الأمر، حتى الأحاديث البسيطة التي تدور عادة بين المشيعين في مواكب كهذه لم تكن تدور بينهم. فقد كان تفكير كل واحد منهم منصرفاً إلى مشكلته الخاصة فقط، إلى خبر وصول الحاكم العام الجديد والطريقة التي سينتهجها في إدارته ومدى ما سيلحقه من الأذى منها. وتبع هؤلاء

المشيعين عدد من العربات كانت تطل من نوافذها وجوه سيدات يرتدين ثياب الحداد. غير أن حركات أيديهن وشفاههن كانت تدل على أنهن مستغرقات في أحاديث حيوية – قد تكون حول الحاكم العام الجديد والحفلات الراقصة التي ينتظر أن يقيمها وزينتهن وألاعيبهن الخاصة التي لا تنتهي وفي آخر الموكب مر عدد من العربات الفارغة. وحالما مرت تمكن بطلنا من الاستمرار في طريقه، فرمى خيمة العربة إلى الخلف وراح يناجي نفسه «ايه أيها الصديق الطيب، لقد عشت حياتك، لكنها انتهت الآن! ستقول الصحف أنك مت مأسوفاً عليك لا من أهلك وعشيرتك وحسب، بل من البشرية جمعاء. وأنك كنت إنساناً محترماً وأباً رؤوماً وزوجاً طاهراً لا تشوبه شائبة، وأنك ذهبت إلى قبرك بين دموع أرملتك وأطفالك ومعارفك. لكن هذه الصحف لو اضطرت لسبب من الأسباب أن تعلل قولها هذا لوجدت أن السبب الحقيقي في حاجبيك الغليظين الذين بلغا من الضخامة ما عهد للناس به من قبل». ثم أمر سيليفان أن يحثّ الخطى، وقال «ومع ذلك فلا بأس من مقابلتي لهذا الموكب لأنهم يقولون أن مقابلة الجنازة فأل حسن».

وانعطفت العربة إلى بعض الشوارع الضيقة عبر المطروقة التي تكون محاطة بأسيجة خشبية والتي تدل عادة على قرب الإنتهاء من ضواحي المدن. وانتهى البلاط الحجري وتلته حصباء الطريق العام وأخذت تظهر على جنبات الطريق صفوف الأحجار الدالة على علامات الفرستات والعمال الذين يصلحون ويرممون، والقرى ذات اللون الرمادي وفنادق فيها سماورات، وفلاحات وفلاحون يهرعون من الحظائر والشوفان ملء أكمامهم، ومشاة بأحذية متهرئة يلوح على المرء منهم أنه قطع ثمانمائة فرستاً، ومدن صغيرة بأخصاص وضعت فيها براميل ملأى بالطحين المعد للبيع وعرضت فيها أحذية وأرغفة صغيرة وتوافه أخرى، وحواجز الطريق، وجسور شبعت من كثرة الترميم، وآفاق شاسعة من

الحقول ممتدة إلى اليمين وإلى الشمال، وفارس راكب يحمل صندوقاً أخضر مقفلاً بالحديد كتب عليه «بطاريّة الـ... المدفعية»، وأخاديد طويلة حرثت حرثاً جديداً كان ينعكس لونها أخضر وأصفر وأسود على وجه الحقول - واختلطت بهذا كله أصوات غناء ذات نفس طويل وذرى شجر الصنوبر سابحة في الضباب، ونغمات الأجراس البعيدة المدى وسحائب لا نهاية لها من الغربان السحم والأفق الذي لا حد له. أيه، روسيا، روسيا، من منزلي الجميل في بلد غريب لا أزال أراك! فيك كل شيء مسكين مشوش لا يليق. ليس فيك ما يبهج العين ولا ما يخيف النفس من روائع الطبيعة. فيك لا يرى المرء المدن ذات العمارات الضخمة المتعددة النوافذ الشامخة شموخ الصخور، ولا الشوارع الباهية، ولا الأطلال التي تكسوها الأعشاب، ولا الشلالات تحيط بها الأغصان الدائمة الإخضرار ويصدر منها الهدير الذي لا ينقطع، ولا الأجرفة الهاوية تبلبل العقول بضخامة صخورها، ولا منظر الكروم والعليق وملايين الورود البرية وتلالأ زرقاء لا يحصى لأيامها عدد تكاد تبدو أمام السماء الفضية الصافية وكأنها نوع من الخيال. فيك كل شيء منبسط مكشوف. مدنك بارزة فوق السهل الأملس المنبسط وكأنها النقط أو العلامات، ولا شيء كائناً ما كان مما يخلب البصر أو يسحره. لكن أي سر وأي قوة قاهرة تشدني إليك؟ أي شيء ذلك الذي يردد ويعيد في أذني الاغنية الحزينة التي تحلّق على طول حدودك وعرضها؟ وأي عبء تحمل تلك الأغنية إلي؟ لماذا تعول في قلبي وتنتحب وتحز فيه؟ وما الذي تقوله هذه النغمات التي تعانق روحي وتضمها بألم وتحوّم حولي نافثة ولولاتها؟ ما الذي تطلبينه مني يا الروسيا؟ ما هو الرباط الخفي الذي يصل ما بيني وبينك؟ ولماذا تنتظرين إلي هذه النظرات؟ ولماذا يصوب لي كل شيء فيك عينين ملؤهما الشوق والحنين؟ حتى في هذه اللحظة التي أقف فيها وأفكر ذاهلاً مستغرقاً متحيراً في مساحاتك

الشاسعة وآفاقك الواسعة يلوح لي أن ديمة منذرة محمّلة بالأمطار المتجمعة تخيّم فوق رأسي. ما ذاك الذي يتنبأ به اتساعك الذي لا حد له؟ ألا يتنبأ بأن ستنهض فيك ذات يوم أفكار مثلك لا حد لها؟ ألا يتنبأ أيضاً بأن سينبعث منك ذات يوم الأبطال القدامى إذا ما وجدوا المجال لإبراز مواهبهم مرة أخرى؟ وكيف يطويني جبروت عظمتك وينعكس في كياني بسحر عجيب غريب، ويومض في عيني وميضاً يتعدى ما تعهده الطبيعة من وميض؟ نعم، إنك تسفرين في الحقيقة عن مرأى غريب برّاق سماوي! يا الروسيا، يا وطني الحبيب!

وصاح تشيتشيكوف في سيليفان يقول «قف، قف أيها المجنون!».

وقد مرت أثناء قوله هذا عربة ترويكا – في مهمة حكومية – تقرقع على أحد جانبي الطريق ثم اختفت في عاصفة من غبار. أما الشتائم التي تلقاها سيليفان من تشيتشيكوف لأنه لم يتجنب الطريق بخفة، فلم تكن وحدها التي انصبت عليه، فقد قدم له حصة مماثلة من الشتائم شرطي ريفي بشاربين كالذراع طولاً كان في العربة الأخرى.

أي شيء غريب جذّاب بل أي شيء خيالي خلاّب ذلك الذي تدل عليه كلمة «الطريق العام»! وكم هي لذيذة لذاتها هذه الطريق العامة! فإذا كان اليوم يوماً جميلاً (وإن كان بارداً) في خريف عذب، فاضمم إليك عباءة سفرك واسحب قلنسوتك على أذنيك واستكن براحة في إحدى زوايا العربة قبل أن تسري آخر رعشة في أوصالك، وسيطرد الدفء الناشئ الجديد برد الخريف ورطوبته. وكم هو جميل ذلك النعاس الذي يأتيك متلصصاً ويسبل جفنيك والخيول سائرة في طريقها خبباً! وستظل أثناء نعاسك برهة من الزمن تسمع أنفاس الخيول المتتابعة وقرقعة العجلات، ولكنك ستسغرق أخيراً في دور الشخير. وإذا ما استيقظت – فماذا سترى؟ ستجد أنك قد قطعت خمس مراحل وأن القمر مشرق في السماء وأنك قد وصلت إلى بلد غريب مليء بالكنائس

والقباب الخشبية والأبراج المسودة والبيوت البيضاء نصف الخشبية! وإذا ما وقعت أشعة القمر هنا وهناك فتكاد ترى الجدران والشوارع والأرصفة وقد اكتست بالحلل - حلل مبقعة بالظلال الفاحمة السوداء، تبدو الاسطحة الخشبية بالنسبة لها أكثر بريقاً تحت أشعة القمر الشاحبة المنصبة عليها. ولن ترى إنساناً في ناحية، فالكل غارق في النوم. لكن، لا. ففي إحدى النوافذ المنعزلة يتلألأ نور تحته يصلح أحد الحرفيين الطيبين حذاءه أو يسحب الخباز قطعة من عجين. أيها الليل، وأيتها القبة السماوية، كم هو كامل ظلام قبتك التي لا حد لها - كم هي شامخة وكم هي سحيقة أغوارها الممتدة في سكون لا يدركه من الأحاسيس إلا السمع! وما يزال الليل ينفث أنفاسه المهدهدة المنعشة في وجهك حتى تستغرق ثانية في غفوة شاخرة. ويلتفت إليك جارك المسكين مغضباً وقد بدأ يشعر بثقلك عليه، ومن ثم تصحو مرة أخرى، ولكنك لا ترى أمامك الآن غير المعابر والحقول. حيثما وقع بصرك تجد الخلاء القفر. ولكن الحروف الدالّة على علامات الفرستات تقفز فجأة أمام عينيك! الصباح في انبلاج والرعشة في عودة، وقد استطعت أن ترى خط الأفق الذابل يشع بالتدريج خيطاً ذهبياً باهتاً. والريح تزداد حدة وانتعاشاً، وأنت تلتف بعباءتك التفافاً. لكن كم هو عظيم هذا الانتعاش وكم هو مدهش هذا النوم الذي يطويك مرة أخرى! ها هي هزّة! وتعود إلى وعيك آخر الأمر. الشمس الآن في كبد السماء، ومن ثم تسمع صيحة قائلة «رويداً، رويداً» وتلتفت فترى عربة شحن زراعية تطل من طريق جانبي. ومن تحتك ترى صفحة ممتدة من الماء يحجزها سد منيع ووجه الصفحة يتلألأ تحت أشعة الشمس كأنه لوح من نحاس. وعلى ناحية من المنحدر تنتشر أكواخ الفلاحين ثم بيت السيد، وفي حد الأخير كنيسة القرية وصليبها الذي يشع كالنجم. وتحمل الريح إلى أذنيك اصوات ضحكات الفلاحين بينما تشعر في

قرارة نفسك بشهية ليس إلى مقاومتها من سبيل. أيتها الطريق العامة الطويلة، ما أعظمك! كم مرة في كلالي ويأسي انطلقت ماشياً عبرك فوجدت العزاء والسلوى! وكم مرة اتبعت هديك فحلت عليّ الأفكار العجيبة والأحلام الشاعرية والانطباعات الغريبة المدهشة! كانت تخالج تشيتشيكوف في هذه اللحظة رؤى ليست طبيعية عادية كلها. دعنا نحدّق في نفسه ونشاطره إياها. ظلّ بادئ ذي بدء لا يعي شيئاً مطلقاً لأنه مشغول البال جداً يريد أن يستيقن من أنه قد تخلص من المدينة حقاً. ولكنه حالما رأى أنها اختفت أمام ناظريه كلياً بمطاحنها ومصانعها ومنشئاتها الأخرى، وليس ذلك وحسب، بل حتى غاصت أبراج الكنائس الحجرية تحت الأفق، عندئذ بدأ يعي الطريق واختفت من مخيلته مدينة «ن» تمام الاختفاء كأنها شيء لم يعهده منذ الصبى. ثم أصبحت الطريق بدورها شيئاً لا يهمه أيضاً. وراح يغمض عينيه ويرمي برأسه على الوسائد. وليغتنم المؤلف هذه الفرصة ويتكلم بإسهاب عن بطله، فقد منعته (أي المؤلف) أشياء كثيرة من أن يفعل ذلك - نوزدريف والحفلات والسيدات والمؤامرات المحلية وآلاف التوافه التي تظهر توافه فقط إذا ما وضعت في كتاب، ولكنها في الحياة الواقعية أمور لها أهميتها. دعنا نطرح هذه الأشياء جانباً ونشرع في العمل.

أما فيما إذا كانت الشخصية التي اخترتها لبطلي سترضي القارئ، فهذا بالطبع شيء مشكوك فيه كل الشك. على أية حال، فالسيدات لن يرضين عنه، لأن الجنس اللطيف يتطلب من البطل الكمال. والعياذ بالله، إذا حصلت لطخة نفسية أو جسدية! نعم، فلن يهم العمق الذي يسبر به المؤلف غور نفسية البطل، ولن يهم ذلك الوضوح الذي يصور به صورته كما لو كانت تنعكس على مرآة، فلن يعترفن له بفضل فيما فعل. والواقع أن بدانة تشيتشيكوف وتقدمه في السن يعملان ضده. والصفة الأولى في البطل جريمة لا تغتفر، ومعظم السيدات في حالة

كهذه سيشحن بوجوههن عنه قائلات لأنفسهن «اوف، أي وحش هذا!» نعم، والمؤلف على علم بذلك. إلا أنه وإن لم يستطع - إبقاءً على حياته - أن يتخذ إنساناً فاضلاً ليقوم بالدور الرئيسي في القصة، فقد تكون في القصة قضايا لم تطرق بعد، وقد يبرز فيها كل الغنى الروحي الروسي الذي لا يحدّه حد. فهي تصور إلى جانب تشيتشيكوف الفلاح بالفضائل التي حباه بها الله، والفتاة الروسية الرائعة التي لا تضاهيها في العالم فتاة أخرى في جمال الروح الأنثوية ذلك الجمال الذي تمتد جذوره إلى الطموح النبيل والكرامة الأصيلة. ولو قابلنا في الواقع هذه النماذج الروسية بمثيلاتها في الشعوب الأخرى، لبدت هذه جامدة عديمة الحياة كما يبدو كتاب جامد لا حياة فيه إذا ما قوبل بنص كتاب ينبض بالحياة والروح. نعم، فمن حركة فكرية تظهر في روسيا، يتضح جلياً أن هذه الحركة هي من صميم الطبيعة السلافية، بينما هي الزبد الذي يطفو على السطح في الأمم الأخرى. لكن لماذا أتكلم هكذا؟ وما الذي أرمي إليه من وراء هذا الحديث؟ إنه لمن العار حقاً على مؤلف بلغ منزلة الرجال منذ أمد بعيد وربّى نفسه على دراسة نفسه وتمحيصها تربية عنيفة، وثقف نفسه تثقيفاً محترماً أن يعطي المجال لهذه التحليقات التافهة حول نقطة كهذه. فلكل شيء دوره ومكانه وزمانه. وكما كنت أقول، فلم يكن بوسعي أن أختار شخصية فاضلة لبطلي. وسأخبركم عن السبب. السبب هو أن قد مرّ وقت طويل جداً على استعمال كلمة «فقير، لكنه ذو فضيلة». السبب هو أن كلمة «رجل محترم» أصبحت كلمة مبتذلة. السبب هو أن «الرجل المحترم» قد انقلب إلى حصان وليس من كاتب إلا ويركبه ويجلده بمناسبة وبغير مناسبة. السبب هو أن «الرجل المحترم» قد أجيع حتى لم تبق لديه ذبالة من فضيلة و لم يبق في جسمه إلا الجلد والعظم. السبب هو أن «الرجل المحترم» يخفى دائماً عن الأنظار. السبب هو أن «الرجل المحترم» قد فقد احترام كل

إنسان. لهذه الأسباب أعود فأؤكد أن الوقت قد حان لنشد سافلاً إلى النير. تعالوا إذن نشد هذا السافل إلى النير. كانت ابتداءات بطلنا معتدلة كل الاعتدال، غامضة كل الغموض. كان والداه في الحقيقة من الأعيان ولكن الابن لم يشبههما بحال من الأحوال. على أية حال فقد حضرت ميلاده امرأة قريبة له، قصيرة بدينة، وقالت وهي ترفعه بين يديها متعجبة «أنه غير ما كنت أتوقع أن يكون. كان يجب أن يشبه أحد أبويه، ولكنه كما يقول المثل - لا لأمه ولا لأبيه بل رمته الريح في قارعة الطريق». هكذا نظرت الحياة لتشيتشيكوف بامتعاض مرير، فكان كالنافذة التي تجمع عليها الصقيع فأصبحت تحجب النوَر: لا صديق له، ولا زميل في المدرسة. غرفة صغيرة ذات خزائن حقيرة لم تفتح صيفاً ولا شتاء، أب عليل عليه دثار بطانته من جلد الخروف، وقدمه حافية تلفها الرباطات، ما ينفك يزفر زفرات حارة عميقة ويذرع الغرفة جيئة وذهوباً ويبصق في علبة رمل، وهو نفسه يقضي الفترات الزمنية بالجلوس على مقعد خشبي، الريشة في اليد والحبر يصبغ اليدين والشفتين، وكان يسمع في فترات أخرى عبارة مأخوذة من كتاب تقول «لا تكذب أبداً، بل أطع رؤساءك وارع الفضيلة في قلبك». وأصوات جر نعال لا تنتهي رائحة غادية في الغرفة، وإذا ما أضنت الصبي واجباته القاتلة فحاول أن يحليّ دفتره بصورة من بنات أفكاره سمع دائماً صوتاً مجلجلاً يصيح به قائلاً «ها أنت تتغابى مرة أخرى!» وهناك وقت عسير يحس فيه احساساً مألوفاً أبداً، لكنه مزعج أبداً، يتبع الكلمات السابقة حينما تفرك أذنا الصبي فركاً مؤلماً بين إصبعين طويلتين ملتويتين عند الطرف - هذه هي الصورة البائسة لطفولة لم يعد تشيتشيكوف يذكر منها غير أطياف باهتة. لكن كلْ حال تحول، وكل شيء في هذا العالم قابل للتغيير والتبديل الفجائيين. ففي ذات يوم من إطلالة الربيع عندما ذاب جليد

الأنهار، انطلق الأب وابنه الصغير في تليزكا[٣٦] يجرها جواد أشقر من النوع الذي يسميه أصحاب الخيول «سورروكا» (أي عقعق)، ويسوقها أحدب قليل الحجم هو ربّ العائلة الوحيدة من الأقنان التي يمتلكها تشيتشيكوف الأكبر ويقوم في بيت تشيتشيكوف بكل الأعمال. وسار بهم سورروكا يوماً ونصف يوم كاملين، قضوا الليل بينهما في نزل على جانب الطريق، وقطعوا نهاراً وأكلوا فطائر باردة ولحم خروف مشوي ووصلوا أخيراً إلى المدينة. وظهرت الشوارع في عيني الفتى بمظهر براق غير مألوف. ففغر فاه ذاهلاً. وانعطفت العربة في زقاق موحل استدعى الوحل فيه جهد سورروكا الجهيد ومسبات السائق والسيد، ووصلت أخيراً إلى رتاج حظيرة فيها بستان صغير للفواكه فيه بعض الشجيرات، وشجرتان مبرعمتان من التفاح، وسقيفة صغيرة قذرة حقيرة هي كل المنشآت التابعة للبيت الذي جار عليه القدر. هنا عاشت إحدى اقارب تشيتشيكوف، عجوز مسنة ذاوية كانت تنزل إلى السوق بنفسها وتجفف جواربها على السماور. وما إن رأت الصبي حتى ربتت على خديه وأبدت الرضى عن صحته. واتضحت له الحقيقة الآن، وهي أنه سيعيش عندها فترة من الزمن يذهب فيها إلى المدرسة. وعزم الوالد بعد أن استراح ليلة أن يعود إلى بيته. ولم تتخلل الدموع الفراق بين الأب والابن. إنما أعطى الأب الصبي قطعة نحاسية أو قطعتين، ثم ألقى عليه (وهذا هو الأهم) النصائح التالية، «أصغ لي يا بني. اجتهد في دروسك ولا تكسل ولا تتغاب. وليكن همّك قبل كل شيء استرضاء معلميك. وما دام هذا النهج نهجك فالنجاح حليفك، وستبزّ اقرانك حتى لو حرمك الله من نعمة العقل ولو أصابك الفشل في الدروس. ولا تندمج كثيراً مع الرفاق فأنهم لا ينفعون، وإذا كان لا بد من ذلك

(٣٦) عربة مكشوفة بأربع عجلات. المترجم.

فلتكن صداقتك مع أكثرهم غنى فقد يفيدونك ذات يوم. ولا عليك أن تكرم أو تقري منهم أحداً، بل دعهم هم يكرمونك ويقرونك. وأخيراً، وقبل كل شيء، احتفظ ووفر كل كوبيك لديك. فأهم ما في الحياة هو توفير النقود. إن الرفيق والصديق يخيبان ظنك دائماً وهما أول من يجفوك إن حلت بك ضائقة، ولكن الكوبيك لن يتخلى عنك مهما عظمت النازلة التي تلم بك. وفي هذه الدنيا لن يتعذر عليك عمل شيء ولن تعجز عن الوصول إلى ما تبتغي بمساعدة النقود وعونها». وما إن ألقى الأب هذه النصائح حتى ضمّ ابنه إليه وقفل عائداً. ومع أن الابن لم ير أباه بعد ذلك أبداً إلا أن كلمات الأب غرقت في أعماق نفسه واستقرت في زواياها.

وفي اليوم التالي حضر بافلوشكا الصغير المدرسة لأول مرة، ولكن نفس الصبي لم تستكشف عن أية موهبة خاصة في أي فرع من فروع العلوم التي يتلقاها. إنما كانت ميزته البارزة هي المثابرة والترتيب. أما من نواحي الحياة العملية فقد نما عنده ذكاء خارق. ففي أسرع من لمح البصر فهم كيف يجب أن تسير الأمور وحذق فنّها. ومنذ ذلك الوقت أخذ يسلك سلوكاً خاصاً نحو زملائه بحيث إذا ما قدموا إليه هدية - وشد ما كانوا يفعلونه - لم يكن يكتفي بعدم رد مثلها إليهم بل كان في بعض الأحيان يضع الهدايا في جيبه ويبيعها لرفاقه. ومع أنه كان صبياً - كما هو - إلا أنه تمكن من أن يصبح عصامياً. فلم يصرف كوبيكاً واحداً من العطية التافهة التي أعطاها له والده، بل زاد في الواقع إلى ذخيرته في السنة نفسها بأن صنع عصفوراً من الشمع ودهنه وباعه بمربح غير قليل. وبالتالي، ومع مرور الزمن، شرع يشتغل في صفقات أخرى - هي بالذات بيع المأكولات. فكان يتخذ مجلسه قرب الأولاد الذين يحملون وفرة من النقود، وإذا ما بدت على أحد هؤلاء الموسرين أمارات الإعياء (وهذا يعني انفتاح شهيته) دسّ له من تحت المقعد قطعة من الفطير أو

كعكة زنجبيل ثم تقاضى الثمن حسب شدة الشهية وحجم القطعة. وقضى أيضاً شهرين في تدريب فأر احتفظ به في قفص خشبي صغير في غرفته. ولما وصل التدريب إلى نهايته آخر الأمر كان الفأر يقف على رجليه الخلفيتين ويضطجع وينهض ثانية امتثالاً لأوامر يلقيها عليه. ثم باع هذا المخلوق بكمية محترمة من النقود. وهكذا بمرور الزمن بلغت مدخراته خمسة روبلات وبناء على ذلك صنع لنفسه كيس نقود، وابتدأ يملأ كيساً آخر مماثلاً. لكن سلوكه تجاه أصحاب النفوذ كان أكثر دقة وإتقاناً. فلم يكن باستطاعة امرئ أن يجلس في مقعده بالهدوء الذي كان يجلس به. وبهذه المناسبة يجب أن نذكر أن معلمه كان رجلاً يحب الهدوء وحسن السلوك قبل كل شيء، ولم يكن يطيق الأولاد الأذكياء الماهرين لأنه كان يظنهم يضحكون منه وبناء على ذلك، فكل من استرعى انتباه المعلم بذكائه في يوم من الأيام كان يكفي منه انتقاله من موضعه أو تحريك حاجبيه حتى تثور ثائرة المعلم عليه فيطرده من الغرفة ويعاقبه عقاباً لا رحمة فيه. وكان يقول، «ايه، يا لك من ظريف! عندي دواء لوقاحتك وقلة احترامك لمعلمك! إنني أعرفك أكثر مما تعرف أنت نفسك، ولأكبحنّ جماحك وأجعلك تجثو على ركبتيك». ومن ثم يضطر الصبي التعيس لسبب لا يعلمه أن يخرّ على الأرض راكعاً حتى تتهرأ ركبتاه وأن يقيم على الجوع يوماً كاملاً. وكان المعلم يقول «إن المواهب والكفاءات هراء في هراء، ولن احترم إلا السلوك الحسن. وسأعطي العلامات الكاملة لأولئك الذين يحسنون السلوك حتى لو لم تساعدهم مواهبهم على تعلم الأبجدية. أما أولئك الذين أرى فيهم الميل للدعابة والمزاح فلن يكون نصيبهم إلا الرسوب حتى ولو كانوا يفوقون صولون علماً». ولهذا السبب نفسه كان المعلم يكره المؤلف كريلوف لأنه يقول في إحدى قصصه «من الأحسن أن تشرب الخمر ولكن تعرف عملك». وغالباً ما كان الأستاذ يقص على تلاميذه

كيف كان في سالف الأيام معلماً في المدرسة وكان الصمت يخيم عليها حتى يسمع المرء طنين الذبابة وكيف كانت تنقضي السنة دون أن يعطس تلميذ أو يسعل في غرفة الدراسة، وكيف كان الصمت كاملاً فلا يحس إنسان بوجود إنسان. وفي لمح البصر أدرك تشيتشيكوف عقلية المربي، وعدل من سلوكه بحيث يرضيه. فلم يكن يتحرك له حاجب أو يطرف له رمش خلال ساعات الدراسة مهما تلق من خلفه من قرصات. وإذا ما قرع الجرس ركض سابقاً زملاءه ليقدم لمعلمه القبعة المثلثة الزوايا التي اعتاد أن يلبسها الأستاذ، ومن ثم يكون أول من يترك غرفة الدراسة ليقابل المعلم في الطريق أثناء عودته إلى البيت لا أقل من مرتين أو ثلاثاً حتى تسنح له الفرصة في كل منها أن يرفع له قبعته محيياً. وقد أثبت هذا المشروع نجاحه الكلي. فكان طوال إقامته في المدرسة ذا حظوة كبرى ولما تركها حاز على علامات كاملة في كل موضوع، وشهادة دراسية وكتاباً نقش عليه بالأحرف المذهبة «جائزة الاجتهاد المثالي والسلوك الممتاز». كان عندئذ قد كبر فأصبح فتى حسن المنظر وبلغ السن التي تطلب الذقن فيها موسى الحلاقة. وفي تلك الآونة مات والده، مخلفاً له بيتاً، وأربعة صدارات متهرئة ومعطفين وكمية قليلة من النقود. يتضح من هذا أن الوالد كان بارعاً في إسداء النصائح عن توفير النقود لا في توفير النقود. فباع تشيتشيكوف البيت القديم وما يحيط به من الأرض بألف روبل، وانتقل بقنّه وقنّ العائلة إلى العاصمة حيث شرع يؤسس بيتاً جديداً وهو يريد أن يلتحق بخدمة الحكومة. وفي الوقت الذي كان فيه تشيتشيكوف يفعل ذلك، حدث أن فقد ناظر مدرسته (لغبائه أو لسبب آخر من هذا القبيل) خدمته في المدرسة والتي اختزن فيها الكثير من الصمت وحسن السلوك. وجرّه حزنه إلى الخمر. ولما لم يبق لديه حتى ما يفي بهذا الغرض اعتزل مريضاً يائساً جائعاً، في خص محطم كئيب. ولكن بعض تلاميذه السابقين – أولئك الصبية الأذكياء الماهرين

الذين كان يتهمهم بالوقاحة وسوء السلوك - سمعوا بحالته التي يرثى لها فجمعوا له من النقود ما استطاعوا حتى أنهم باعوا بعض حاجاتهم الضرورية، إلا تشيتشيكوف فإنه لما طلب إليه ذلك ادعى بعجزه وساومهم على تقديم قطعة واحدة فقط من فئة البياتاك[٣٧] ردها له زملاؤه القدامى في وجهه صائحين «أوه! يا لك من بخيل!» أما المربي المسكين فلم يكد يسمع بما عمله تلاميذه السابقون حتى دفن وجهه بين يديه وانفجرت الدموع من مقلتيه الذابلتين كما تنفجر من عيني الطفل البائس، وتمتم بصوته الضعيف يقول «لقد بعثكم الله الي كي تبكوني على فراش موتي». ولما سمع بأبناء تشيتشيكوف تنهد تنهداً عميقاً وقال «ايه يا بافلوشكا. كيف يمكن أن يتغير الإنسان! لقد كنت تلميذاً طيباً ذات يوم، ولم تسبب لي المتاعب، ولكنك الآن أصبحت متكبراً حقاً!» لكننا يجب أن لا نستنتج من هذا أن شخصية بطلنا أصبحت قاسية متجهمة أو أن ضميره قد تجمد حتى ننفي عنه كل ذرة من الشفقة والعطف. وحقيقة الأمر أنه كان يحس بهاتين العاطفتين وكان يسره جداً أن يقدم العون والمساعدة لمعلمه القديم لو لم يستدع ذلك المساس بذخيرته التي قرر أن تبقى سليمة لا يمسها أحد. وبكلمات أخرى تقول، إن نصيحة الوالد التي قال فيها «احتفظ ووفر كل كوبيك» أصبحت قانوناً صارماً لا يخرق عند الابن. إلا أن الشاب لم يكن الدافع عنده لجمع النقود هو حب النقود لذاتها ولم يكن مصاباً بغريزة البخل وجمع المال. إنما كانت تحوم أمام عينيه صور الحياة وملذاتها وأطايبها - صور عن العربات والبيت المؤثث بفاخر الأثاث والولائم الفخمة. وعلى أمل الحصول على هذه الأشياء يوماً من الأيام راح يدخر كل كوبيك ويضيق على نفسه وعلى الآخرين، وإذا ما مر به غني في عربة

---

(٣٧) قطعة فضية قيمتها خمسة كوبيكات.

فخمة يجرها جوادان متماثلان مسرعان كان يقف مفكراً تفكيراً عميقاً ثم يقول لنفسه فعل من يصحو من النوم، «لا بد أن هذا الرجل كان موظفاً أخصائياً في دوائر المالية، فكان تسريحه بسيطاً جداً!» خلاصة القول، أن كل ما يختص بالثروة والغنى كان يؤثر فيه تأثيراً لا يمحي. حتى حين ترك المدرسة، لم يروح عن نفسه بعطلة يستجم فيها، إذ كانت رغبته شديدة جداً في الحصول على عمل والدخول في سلك الحكومة. إلا أنه مع كل ما احتوت عليه شهادته من مديح وتقريظ لم يتمكن إلا بعد عناء شديد من تنسيب اسمه في وظيفة صغيرة بمرتب قدره ثلاثون أو أربعون روبلا في السنة. ومع كل ذلك، وعلى بؤس الوظيفة التي حصل عليها فقد صمم أن يتغلب على العقبات وأن يصل إلى النجاح بالانتباه الشديد إلى عمله. وقد أبدى في الواقع من الصبر والعصامية والاقتصاد ما يستحق الاعجاب. فكان يجلس منذ الصباح الباكر حتى هزيع متأخر من الليل منغمساً في عمله الحقير من نسخ الوثائق الرسمية بحماس في الروح والجسد لا يعروه الكلال، وينام على المكاتب في غرف الدائرة، وكان يأكل ما تأتّى له مع الحارس صاحب النوبة. لكنه كان يحاول دائماً أن يظل نظيفاً مرتباً وأن يحافظ على بشاشة ملامحه وقد جرب أن يكسب حركاته سمات الخفة والرشاقة. ويمكن أن نذكر عابرين، أن زملاءه الموظفين كانوا على قدر غريب من البساطة، ذوي أشكال لا تستحب، وكانت لبعضهم وجوه كالخبز الذي أُسيء خبزه، وخدود متورمة، وذقون متقلصة، وشفاه مشققة متقرحة. ولم يكن في الحقيقة منهم إنسان جميل. هذا إلى أن نغمة شرسة كانت دائماً في أصواتهم كما لو كانوا يفكرون في ضرب من معه يتكلمون. وقد اتضح من تضحياتهم المتكررة لباخوس أن الطبيعة السلافية لا يزال فيها شيء من الوثنية. لا، بل كانوا يدخلون غرفة المدير وهم لا يزالون تحت تأثير الخمر، وبما أن رائحة أنفاسهم لم

تكن عطرة جداً فسرعان ما يصبح جو الغرفة غير عطر أيضاً. وبطبيعة الحال، بين موظفين على هذه الشاكلة، لم يفشل تشيتشيكوف في استرعاء الإنتباه وإلفات النظر لأنه كان على النقيض من زملائه في كل شيء - في المرح ورقّة الصوت وإهمال المشروب إهمالاً كلياً. غير أن السبيل لم يكن أمامه سهلاً. إذ كان يرأسه لسوء حظه، رئيس كتبة كان منحوتاً للتبلد وقوة الاستمرار. فهو دائماً بعيد المنال، على الوتيرة نفسها، لم يتبسم في حياته قط و لم يسأل مرة من المرات عن صحة أحد معارفه. و لم يعهده امرؤ ابداً يختلف في الشارع أو في البيت عما هو عليه في مكتبه، أو مبدياً أقل اهتمام بأي شيء مهما كان ذلك الشيء أو شارباً أو منغمساً في نشوة الكأس أو مستسلماً لذلك المرح الغريب الذي يستسلم له حتى اللص إذا ثمل. لا، لم تكن لديه ذرة واحدة من هذا، بل لم تكن لديه ذرة واحدة من أي شيء، حسناً كان أم سيئاً. شخصية سلبية تمام السلبية كان لها أثر غريب. وعلى هذا المنوال ذاته كانت تقاطيع وجهه الرخامية الذابلة التي لم تكن تذكر رائيها بشيء، كانت على قسط كبير جداً من التناسق الجامد. وكانت آثار الجدري المنتشرة في وجهه هي الشيء الوحيد الذي يضمه إلى ذوي الوجوه التي يقول فيها المثل الدارج «مشي عليها الشيطان في الليل يطحن فولاً». وباختصار، كان يلوح وكأن أي امرئ لا يستطيع أن يقرب هذا الرجل أو ينال رضاه. غير أن تشيتشيكوف حاول جهده. فقد أخذ بادئ ذي بدء باستمالته في كل التوافه من الأمور. فكان ينظف ريشته بكل عناية وإذا ما اتم ذلك وضعها حسب رغبته عند كوعه، ثم ينفض الغبار ورماد التبغ عن المكتب ويكنسه ويحضر مفرشاً جديداً لمحبرته، ويعتني بقبعته - أحقر قبعة عرفها العالم - ويهيؤها له في الوقت المحدد لانتهاء العمل، ويمسح ظهره بالفرجون إذا ما تلطخ بجير الحائط. إلا أن كل هذه الامور مرت دون أن تسترعي انتباه الرئيس، وكأن شيئاً لم يكن.

وأخيراً، حشر تشيتشيكوف أنفه في عائلة رئيسه وفي حياته البيتية، وعلم أن له بنتاً راشدة هي أيضاً بوجه مشى عليه الشطيان ذات ليلة يطحن فولاً. هنا ظهرت فرصة لشن هجوم جديد! وبعد أن عرف أي كنيسة تزور يوم الأحد أخذ يقابلها فيها بملبس مرتب وقميص منشى. وسرعان ما تكلل مشروعه بالنجاح والتوفيق. وتردد رئيس الكتبة الجاف بعض التردد، لكنه ما لبث أن انتهى بدعوته إلى تناول العشاء. ولم يكن باستطاعة أي رجل من زملائه في المكتب أن يخبرك كيف توصل تشيتشيكوف في فترة وجيزة إلى الانتقال إلى بيت رئيس الكتبة وأن يصبح ضرورة لازمة في البيت لا غنى عنها. فأصبح يشتري الطحين والسكر ويعامل البنت معاملة الخطيبة وينادي رئيس الكتبة «بابنكا»(٣٨) ويقبل أحياناً يد بابنكاه. وقد ظنّ الموظفون في الواقع أن الزواج في نهاية شباط (أي قبل الصوم الكبير) بل وراح الأب الجاف يوصي السلطات بشأن تشيتشيكوف حتى تمكن هذا من الحصول على وظيفة شغرت آنذاك هي وظيفة رئيس كتبة. وكان ذلك إيذاناً بنهاية العلاقة بين تشيتشيكوف ومضيفه لأنه أسرع إلى تعبئة أغراضه خلسة في حقيبته. وفي اليوم التالي كان في بيت جديد. وانقطع فيما بعد عن مناداة رئيس الكتبة بيابنكا وعن تقبيل يده وانتهت حكاية الزواج نهاية فجائية كما لو لم تكن موضوع بحث في يوم من الأيام. إلا أنه لم ينس يوماً أن يضغط على يد مضيفه السابق إذا ما قابله أو يدعوه إلى تناول الشاي معه. أما من الناحية الأخرى، فكان رئيس الكتبة – مع ما هو عليه من الجمود وعدم المبالاة – يهز رأسه ويتمتم قائلاً ايه، يا صديقي العزيز! لقد ازددت كبرياء، لقد ازددت كبرياء!».

كانت الخطوة السابقة أصعب الخطوات التي كان على بطلنا

(٣٨) يا ابتاه. المترجم.

أن يجتازها. فقد أصبحت الأمور بعدها أكثر سهولة وأسرع نجاحاً. وكان يسترعي الإنتباه أينما حل لا سيما وقد نمّى نفسه على كل ما هو ضروري في هذه الحياة - الخلق الجذاب والصبر الجميل والاجتهاد العظيم في شؤون الأعمال. وإذا كان متسلحاً بهذا الدهاء فقد تمكن من الحصول على ترقية إلى مركز يوصف عادة بأنه «مركز ثخين»، فاستغله إلى أقصى حدود الاستغلال. وقد جرى في تلك الأيام تحقيق شديد في موضوع الرشى، ولكنه لم يخشه - لا، بل استفاد منه لتدعيم مركزه، مظهراً بذلك الدهاء الروسي الذي لا يخفق في أن يبلغ الأوج فيما يتعلق بالابتزاز. أما طريقته في إدارة الأعمال في مكتبه فقد كانت كما يلي. حالما يأتي إليه المدعي أو مقدم الطلب ويمد يده إلى جيبه ليخرج النقود، يمسك تشيتشيكوف بيده مبتسماً ويصيح متعجباً «لا، لا! بالتأكيد أنا لست... لكن لا، لا! هذا واجبنا، وأن عمله فرض علينا. ولسنا بحاجة إلى مكافآت إذا قمنا بما هو واجب. أما بشأن قضيتك فيجب أن يستريح بالك. سيتم كل شيء غداً. إذا تفضلت بإعطائي عنوانك؟ لا حاجة بك أن تكلف نفسك عناء الحضور مرة أخرى لأن الوثائق سترسل إلى بيتك بسهولة». ويعود صاحب المعاملة إلى بيته وهو يكاد يطير فرحاً، ويقول لنفسه «لقد كنا بحاجة ماسة إلى رجل كهذا منذ أمد بعيد. إن هذا الرجل جوهرة لا تقدر بثمن». ويجلس في بيته يوماً ويومين وثلاثة أيام ينتظر رسولاً يحمل الوثائق، لكن دون جدوى. ثم يعود إلى الدائرة مرة أخرى ليجد أن قضيته لم تمسها يد بعد. وأخيراً يقابل «الجوهرة التي لا تقدر بثمن». فيعلو صوت تشيتشيكوف برنة أدب ولباقة يقول، وهو يمسك بيد زائره ويضغط عليها «الحقيقة أن لدينا عملاً كثيراً جداً! ولكن مسألتك ستنجز غداً، وإني متأسف جداً لتأخيرها». وتظهر على وجهه أثناء ذلك تعابير معزّية جذابة. لكن الوثائق لا تصل إلى بيت صاحب المعاملة لا في الغد ولا في اليوم الذي يليه ولا في اليوم الذي

يلي الذي يليه. وبناء على ذلك يفكر فيما إذا كان عليه أن يعمل شيئاً. وما يكاد يسأل حتى يجاب بأن عليه أن يدفع شيئاً للناسخين. فيقول «حسناً، لا ضير في ذلك. وقد أعددت قطعة أو قطعتين من فئة ربع الروبل». فيكون الجواب «أوه، لا، لا. أن ربع الروبل لا تكفي للناسخ، فهو يتقاضى روبلاً كاملاً». «ماذا؟ روبل لكل ناسخ؟» - «طبعاً، وهل في ذلك ما يدعو إلى التذمر؟ سيتقاضى الناسخ نفسه ربع روبل فقط أما الباقي فيذهب إلى الرئيس». وعلى ذلك يستشيط صاحب المعاملة المضلل غيظاً لهذه الطريقة من اختلاس النقود ويلعن سلوكهم الشائن العاتي. ويتحسر قائلاً «كان الإنسان قبل اليوم يعرف ما يفعل، كان إذا اعطى المدير ورقة مالية أصبح الأمر في يده. أما الآن فيضطر بعد انتظار أسبوع إلى إعطاء كل ناسخ روبلاً كاملاً لكي تسير أموره كما يشتهي. إلى الشيطان بهؤلاء الموظفين المحترمين!» وكان الحق كل الحق مع الرجل في سخطه هذا، فما دام قد انتهى دور المرتشين وما دام المديرون قد أصبحوا ذوي مكانة واحترام - كما يقولون - فلماذا يوعزون إلى الكتبة والموظفين بأن يقوموا لهم بأعمال اللصوصية؟ وبمرور الزمن انفتح أمام تشيتشيكوف مجال أوسع، فتشكلت لجنة للإشراف على إقامة مبان للحكومة وقد رشح عضواً فيها فأثبت أنه من أنشط الأعضاء. وشرعت اللجنة بالعمل دون تأخير، ولكن المباني المذكورة لم تتم في غضون ست سنوات. وقد يكون السبب في ذلك أن الطقس قد أعاق عملية البناء أو أن المواد التي استعملت كانت من النوع الذي لا يسمح لمبان كهذه بأن تعلو عن الأساس. وفي الوقت نفسه شاهد أهل المدينة بيتاً جميلاً ذا هندسة غير حكومية يقام لكل عضو من أعضاء اللجنة. من الواضح أن التربة التي أقيمت عليها أساسات هذه البيوت كانت أصلح من تلك التي أقميت عليها بناية الحكومة المنكودة. وبالمثل، فقد بدت مظاهر الرخاء على كل أعضاء اللجنة

وأكملوا نصف دينهم بالزواج. حتى أن تشيتشيكوف لأول مرة في حياته، هجر القوانين الحديدية التي فرضها على نفسه من كبت شديد وحرمان لا يرحم، ولطف من حدة التقشف في الامتناع عن أطايب الحياة التي كان قادراً أيام شبابه على الامتناع عنها. نقول، أن بعض الحاجات الكماليات أخذت تظهر في بيته، فاستخدم طاهياً ماهراً، وأخذ يلبس القمصان الكتانية، واشترى لنفسه بذلة من نوع لا يلبسه أحد في المقاطعة، ولبس الثياب ذات النقوش المربعة بألوان حمراء وبنية زاهية، واشترى حصانين أصيلين (كان يقودهما بلجام واحد)، وتعود أن يستحم باللبن المخلوط بماء الكولونيا ويفرك جسمه بأفخر أنواع الصابون حتى يكسب جلده مسحة من الصفاء.

إلا أن الأحوال لا تدوم، فقد ظهر على المسرح فجأة مدير جديد - رجل عسكري شديد التعصب في عدائه للمرتشين ولكل ما يشذ عن القانون. وفي اليوم التالي لوصوله طلب دفاتر الحسابات واكتشف مواضع النقص والكميات المفقودة. وتنبه إلى البيوت الجميلة السابقة الذكر والمبنية بناء مدنياً غير حكومي. ونتج عن ذلك تنقلات عامة. فأحيل كثير من الموظفين على التقاعد، واستردت الحكومة بيوتهم، وحولتها إلى ملاجئ مختلفة أو إلى مدارس لأبناء الجنود. وهكذا خرّ الصرح القديم إلى الأرض هاوياً - وخاصة تشيتشيكوف. فكان المدير يمتعض امتعاضاً شديداً من وجه تشيتشيكوف بالذات. أما لماذا كان ذلك بهذا الشكل؟ فمن الصعب أن نجيب. لكنه أمر يحدث غالباً في حالات مماثلة لا نعرف له سبباً. مهما يكن من أمر، فقد أبغضه المدير بغضاً قتالاً لكن المدير على ما هو عليه من عقلية عسكرية لم يكن على علم بالدهاء الوافر في العقلية المدنية. لذلك لم يمض وقت طويل حتى تمكنت عصابة جديدة من الموظفين بمظهر من الحصانة والكياسة ومقدرة على المداهنة والرياء، أن تعيد إليه وداعته. فوجد الجنرال نفسه في أيدي

لصوص أبرع من سابقيهم، لصوص لا يتسرب إليهم الشك، ظناً منه أنه اختار النخبة الصالحة، وراح فوق ذلك يفتخر بأن له عيناً ثاقبة في إدراك المواهب. وما لبث الموظفون المذكورون أن أخذوا يكيلون له الثناء على نفسيته وشخصيته. ونتيجة لذلك توهم أن الدائرة التي يعمل فيها قد تحولت إلى مؤسسة لاكتشاف كل ما يشذ عن القانون. ففي كل مكان وفي كل حالة كانت تطارد هذه المخالفات كما يطارد الصياد بخطافه الحوت السمين. وقد برهنت هذه الرياضة على نجاح تام. ففي برهة وجيزة أصبح كل صياد من القوم المذكورين يمتلك عدة آلاف من الروبلات. عندئذ ارتد عدد كبير من العصابة السابقة إلى الطريق السوي، وسمح لهم بالعودة إلى وظائفهم. ولكن تشيتشيكوف لم يستطع بوسيلة من الوسائل أن يتخذ إلى الرجوع سبيلاً، مع أن السكرتير الأول للجنرال والمدير الحقيقي لشؤونه - مدفوعاً بمبالغ مختلفة من الأوراق المالية - حاول جهده أن يدافع عن صالح بطلنا. ويظهر أن الجنرال كان من صنف من الرجال الذين وإن كانوا يقادون من أنوفهم بسهولة (شريطة أن يجري ذلك دون علمهم) إلا أنه إذا تمسك بفكرة في رأسه فإنها تثبت فيه كالمسمار الذي لا يقتلع. وكل ما استطاع فعله ذلك السكرتير الداهية هو أن يمزق الوثيقة الرسمية التي تدل على سوء سيرة تشيتشيكوف عند الحكومة - حتى هذا لم يستطع فعله إلا بعد أن قدم استرحاماً للجنرال باسم زوجة تشيتشيكوف وأطفاله (الذين لم يكن لهم وجود في الواقع).

وقال تشيتشيكوف لنفسه «حسناً، لقد بذلت جهدي ولكني أخفقت في كل شيء حتى الآن. إن ندب الحظ لا يجدي فتيلاً. فإلى العمل». وصمم عندئذ أن يبدأ حياته من جديد وأن يتسلح بالصبر والعصامية مرة أخرى. ولكي يسهل عليه ذلك، كان عليه طبعاً أن يغير المدينة التي يسكن فيها. ومع هذا فقد اخفقت مساعيه فترة من الزمن.

ووجد نفسه أكثر من مرة مضطراً إلى تغيير وظيفته إلى وظيفة أخرى لأقل إشارة. وكانت هذه الوظائف كلها على أحقر وأتعس ما تكون. غير أنه وهو الرجل المتناهي في الأناقة، لم يمنعه اختلاطه بزملاء أقل ما يقال فيهم أنهم لا يعرفون ما هي الأناقة، من أن يحافظ على حبه الفطري لكل ما هو محترم المظهر وعلى غريزته التي كانت تقوده إلى تزيين مكتبه بالزخارف الخشبية المصقولة وإلى إحلال الترتيب والنظام في كل مكان. ولم يكن يسمح في وقت من الأوقات لكلمة نابية أن تتسرب إلى حديثه، وكان يشعر باستياء شديد إذا ما مرت في حديث الآخرين اشارة مهينة إلى ما يختص بالكبرياء والمناصب. وسوف يسرّ القارئ أيضاً إذا ما علم أن بطلنا كان يبدل ثيابه يوماً بعد يوم، وفي أيام الصيف عندما تشتدّ الحرارة كان يبدلها كل يوم، لأن أقل شكّ في رائحة كريهة كان يسيء إلى تأنقه. ولهذا السبب نفسه كان - عندما يأتي إليه بتروشكا - يحشو منخريه بقطعتي قرنفل. باختصار، كان المساس بالوجاهة والكبرياء يؤذي نفسه ويضرّ بها حتى كانت تمرّ عليه أوقات تنهار فيها أعصابه وكأنها أعصاب فتاة، وهذا مما يزيد امتعاضه من العمل مع رجال لا معرفة لهم بالاحتشام في هذه الحياة. وعلى الرغم من تمسكه الشديد بهذه العادات إلا أن أوقات الضائقة والشدائد غيّرت من صحته فبدا عليه شيء من الترهّل. وكان قد أخذ يسمن ويتخذ تلك الأشكال المدورة المعتبرة التي وجده القارئ فيها، حين تعرف عليه، وحين كان يتطلع إلى نفسه في المرآة كان يفكر غير مرة عن أشياء كثيرة لطيفة منها ما يتصل بالنساء، ومنها ما يتصل بالطفولة، وكانت الابتسامة تشبع هذه الأفكار. وكان إذا ما رأى نفسه في المرآة لم يتمالك أن يصيح «يا للعذراء المقدّسة! أي وحش قبيح أرى؟» ويروح فيما بعد يفكر مدة طويلة في هذه القضية بانفعال شديد. لكنه تحمل ذلك كله بالصبر والجلد. وانتهى به الأمر إلى الاشتغال في دائرة الجمارك. ويمكن أن

نقول أن هذه الدائرة كانت الهدف الذي يطمح إليه في سره منذ أمد طويل، لأنه لاحظ الرشاقة الأجنبية التي يتحلى بها موظفوها، ولاحظ أنهم يرسلون بين الفترة والأخرى هدايا من الصيني والقماش النفيس إلى أخواتهم وعمّاتهم... بل إلى صديقاتهم عموماً. نعم، وكان يناجي نفسه ويتنهد قائلاً «هذه هي الدائرة التي يجب أن أكون فيها. مدينة على الحدود، وزملاء ذوو ذوق. عندئذ سأصبح قادراً على اقتناء القمصان الكتّانية الممتازة». ويمكن أن نقول أن أفكاره كثيراً ما كانت تتجه إلى نوع من الصابون الفرنسي يكسب الجلد ابيضاضاً والخدود نضارة وبهاء. واسم هذا الصابون لا يعلمه إلا الله، لكنه على الأقل يمكن الحصول عليه عند الحدود فقط. وكما أقول، فقد كان تشيتشيكوف يصبو دائماً إلى الجمارك، ولكن أعاقته عن تقديم الطلب إليها - برهة من الزمن - اللجنة البنائية وما فيها من خيرات متنوعة مدرارة. وكان على حق في أن يرى في الأخيرة طيراً في اليد، والأولى طيراً على الشجرة. ولكنه صمم الآن - مهما كانت الظروف - أن يتخذ إلى الجمارك سبيلاً. وقد اتخذ هذا السبيل وقد بدأ العمل الجديد بحماس شديد مصدره أنه كان يعتقد أن الطبيعة قد خلقته خلقاً خاصاً ليكون موظفاً في الجمارك. وفي الحقيقة كان ما أبداه من النشاط والبصيرة الثاقبة وحضور الذهن شيئاً لم يعهد و لم يحلم به من قبل. ففي أربعة أسابيع على أكثر تقدير أحاط الإحاطة التامّة بشؤون الجمارك وأصبح على علم بكل صغيرة وكبيرة فيها. فلم يكن يتقن الكيل والميزان وحسب، بل كان يستطيع أن يقدّر عدد الأذرع في لفّة القماش، أو إذا كانت مادة أخرى فإنه يأخذ منها رزمة في يده فيعرف عندئذ عدد الأرطال التي كان سيسجلها الميزان. أما عند التفتيش، أجل، فقد اعترف زملاؤه بأن له حاسّة الكلب الشموم. ولا يستطيع المرء إلا أن يعجب بالصبر والأناة اللتين كان يتحلى بهما إذ يفتش كل زر وعروة في

الشخص الظنين. وهو أثناء ذلك كله محتفظ بأدب صامت وبرودة في الدم تفوق مدى التصوّر. وفي الوقت الذي يكون فيه المهربون يرغون غيظاً والزبد يعلو أشداقهم ويتمنون لو بدلوا ضحكة سحنته بصفعة قوية رنّانة، تجده هادئاً لا تتحرك عضلة في وجهه ولا ينقص لطفه ذرة واحدة، ويتمتم قائلاً «هل تسمح لي بأن تكلف نفسك عناء الوقوف؟» أو «الرجاء أن تتفضلي بالدخول إلى الغرفة التالية يا سيدتي، حيث ستعتني بك زوجة أحد الموظفين»، أو «أرجوك أن تسمح لي بأن أجرّ هذا السكين في بطانة معطفك» (ومن ثم يروح ينتزع البطانة قطعة قطعة بفتور وبرود كالبرود الذي يخرج به أمتعته من حقيبته الخاصة). حتى أن رؤساءه اعترفوا بأنه شيطان في عمله أكثر منه إنسانا. فكانت غريزته مدهشة جداً في التفتيش في عجلات العربات وصواريها وفي آذان الخيول وفي محلّات يجب على المؤلف أن لا يفكر بها حتى في خياله - محلات لا يسمح إلا لرجال الجمرك بالتدخل فيها. وتكون النتيجة أن يصبح المسافر التعيس الذي قطع الحدود ضائعاً في بحر من الحيرة، يتصبب عرقاً ويفور جسمه الفور تلو الأخرى، ويقبع يرسم علامة الصليب «مه، مه، مه!» ويشعر هذا المسافر في الواقع أن مثله مثل التلميذ الذي دعاه الناظر ليلقي عليه بعض التعليمات فكان نصيبه بدلاً من ذلك أن ضربه ضرباً مبرحاً. وخلاصة القول، أن تشيتشيكوف قطع رزق المهربين فترة من الزمن. وقد أوقع اليهود البولونيين بالذات في حالة من اليأس والقنوط. وكانت استقامته ونزاهته من المناعة حتى لا تكاد تبدو طبيعية. فكان يتعفف عن المال البسيط الذي يمكن الحصول عليه من البضائع المصادرة التي كانت لا تسلم للحكومة عادة توفيراً للعناء الكتابيّ. ولا حاجة بنا إلى القول أيضاً، أن عملاً كهذا بحماس طاغ لا مصلحة من ورائه قد استرعى انتباه الموظفين وتبعاً لذلك انتباه السلطات. وعلى هذا فقد وصلته ترقية ما لبث بعدها أن وضع مشروعاً

متيناً لاكتشاف المهربين شريطة أن تخوّل له السلطة اللازمة لتنفيذه. وخوّلت له هذه السلطة حالاً، كما أعطيت له صلاحية لا حد لها في إجراء أي نوع من البحث والتفتيش. كان هذا هو كل ما يريد. وحدث أن تأسست قبل ذلك شركة للتهريب على خطط مرتبة منظمة، وكان هذا المشروع يبشّر بالملايين. ومع أن تشيتشيكوف كان على علم بها من قبل إلا أنه قال لرسول الشركة الذي جاء لشرائه أول الأمر «لم يحن الوقت بعد». لكنه الآن – وقد أصبح زمام الأمور في يده – أرسل كلمة للعصابة يقول فيها «أن الوقت قد حان». و لم يكن مخطئاً في حساباته، فقد استطاع في غضون سنة واحدة أن يحصل على ما لم يكن ليحصل عليه في عشرين سنة من خدمة أمينة. والحكمة نفسها هي التي جعلته يرفض في أيامه الأولى أن ينشئ علاقات مع الشركة، لأنه لم يكن عندئذ شيئاً يستحق الذكر ولن يكون له في الغنائم شيء يذكر. أما الآن، فالمسألة مسألة أخرى ويستطيع أن يملي ما يريد من شروط. وبالإضافة إلى ذلك، ولكي تسير الأمور على ما يرام، لم ينس أن يتواطأ مع موظف مسؤول آخر من أولئك الموظفين الذين – وإن شاب شعرهم – إلا أن عزائمهم تخور أمام المغريات. فأجرى العقد وباشرت الشركة العمل. وقد بدأ العمل في غاية التوفيق. لكن معظم القراء في الغالب يعرفون القصة التي كثر ترديدها حول الماعز الإسباني عبر الحدود ولكل معزى منها جلدان تحمل بينهما ما فيه الكفاية من الدنتلات التي تباع بمليون روبل. ولن أعيد القصة مرة ثانية، إلا أنني أقول أن رحلات كهذه لم تقع قبل أن يصبح تشيتشيكوف رئيساً للجمارك، وأنه لو لم تكن له يد في المشروع لما استطاع يهود العالم أجمع أن يكللوه بالنجاح. ولما تمّت ثلاث رحلات أو أربع من هذه الرحلات الماعزية الضخمة حتى غدا تشيتشيكوف وشريكه يملكان أربعمائة ألف روبل دفعة واحدة. وهناك من يقدّرون أن أرباح أول منهما بلغت نصف المليون لأنه بذل جهداً

أكبر في هذا الشأن. ولا يعلم إلا الله ما هو الرقم الذي كان سيصل إليه ربحهما لو لم يقطع عليهما ترتيباتهما طارئ سيء. نقول، أن الشيطان لسبب ما أضاع إحساس الموظفين المتآمرين فراحا يتنابذان بالحديث وانتهى الأمر بينهما إلى خصام. ذات مرة أثناء جدال عنيف قال تشيتشيكوف لزميله – وقد يكون نشوان ساعتئذ – «يا ابن الكاهن»، ومع أن هذا الوصف هو الحقيقة الأكيدة بالنسبة للزميل، إلا أنه استاء منه وردّ على تشيتشيكوف بصوت حاد عال يقول «أنت الكاهن أبوك». وأضاف نكاية في تشيتشيكوف يقول «نعم، هذه هي حقيقتك، وليكن هذا معلوماً لديك». ومع أنه قلب لتشيتشيكوف ظهر المجنّ ورد التحية بأحسن منها وتوّج عمله هذا بالتأكيد الأخير، إلا أنه لم يقنع إلا بأن أرسل خطاباً سرّياً للسلطات. ويروي آخرون رواية أخرى عن نزاعهما هذا، فيقولون أنه كان بسبب امرأة كانت على حد التعبير الذي وصفها به رجال الجمارك «كأنها لباب اللفت في نضارتها وعنفوانها»، وأن أشقياء قد استؤجروا ليهاجموا بطلنا في زقاق مظلم، وأن المشروع منيّ بالفشل، وقد تبين أن تشيتشيكوف وزميله كانا مخدوعين لأن السيدة كانت تكنّ الودّ لكابتين اسمه شمشاريف. على أية حال فلا يعلم الحقيقة إلا الله. ولندع القارئ الفضولي يستنبطها بنفسه إذا أراد. أما ما حصل في الواقع فقد كان أن اكتشفت الاتصالات بالمهربين اكتشافاً تاماً. ومع أن الموظف نفسه قد وقع في المكروه، إلا أنه أغرق زميله. ووقع الموظفان تحت طائلة التحقيق وجرّدا مما يملكان وأجبرا على تسجيل كل ما عملاه. ولم يتحمل زميل تشيتشيكوف وطأة خطيئته فأدمن على شراب حسب العادة الروسية. أما تشيتشيكوف فقد واجه الأمر بالحزم، وعلى الرغم من جهود السلطة الجهيدة في معرفة مغانمه إلا أنه استطاع أن يخبئ قسماً منها، ولجأ إلى كل الحيل والألاعيب التي يتقنها رجل حنّكه الزمان فخبر زملاءه خبرة واسعة.

فلم يترك وسيلة مجدية دون أن يستخدمها - الأخلاق السمحة والخطب المثيرة والنفاق والرياء وحشو راحة اليد بالنقود بين آونة وأخرى. وكانت نتيجة ذلك أن ما لحقه من الفضيحة كان أقل مما بزميله، وأن نجا من محاكمة فعليه بتهمة جنائية. بيد أنه خرج مجرّداً من كل رأسماله، مجرّداً من كل ما جمعه، مجرداً من كل شيء وكان هناك راغبون في كل هذه الأشياء. نقول، أن كل ما تبقى لديه هو عشرة آلاف روبل إدّخرها ليوم عاصف، وأربعة وعشرون قميصاً كتانياً وعربة صغيرة من النوع الذي يقتنيه العزاب، وخادمان اسمهما سيليفان وبتروشكا. نعم، وقد دفع العطف موظفي الجمرك إلى أن يعطوه بعض قطع الصابون التي كان يستحسنها لنضارة الخدود. وهكذا وجد بطلنا نفسه موهوناً مرّة أخرى. فما هذه المصائب المتجمعة التي انصبّت على رأسه؟ — لكنه كان يسميها «المقاساة في سبيل الحقيقة». وسيظن القارئ ظنّاً لا مراء فيه أن تشيتشيكوف بعد هذه الصدمات والمحن وتقلب الحظوظ - أي بعدما ذاق مرارة الحياة وصابها - سينسحب بنفسه (وبالعشرة آلاف روبل الغالية) إلى ركن هادئ في مدينة ريفية حيث يقبع مرتدياً عباءته يستمع إلى الفلاحين وهم يتشاجرون في أيام الاعياد أو يذهب (ترويحاً عن النفس) إلى بائع الطيور ويجسّ الفراخ إذا كانت تصلح للحساء فيقضي حياة هادئة ليست عبثاً. لكن شيئاً كهذا لم يحدث، وهنا علينا أن نعترف بقوة شخصيته. وبكلمات أخرى، مع أنه قد أصيب بما كان سيعتبره معظم الرجال دماراً وتثبيطاً وقضاء على الآمال إلا أنه ظل محتفظاً بهيبته. وقد شعر - وهو المنبوذ الساخط المستاء من العالم أجمع - بثورة على القدر الظالم وتبرّم من معاملة الرجال. غير أنه لم يتمالك إلا أن يكرر المحاولة مرة أخرى. وباختصار، كان ما بدأه من الصبر يزيد عن نوع الثبات الألماني المتخشب - الثبات الذي يرتد أصله إلى دورة دمه البطيئة الوسنى. ولكن الأمر عند تشيتشيكوف لم يكن

كذلك، لأن طبيعته تجعل تدفّق الدم في عروقه عنيفاً، وكان عليه أن يبذل الكثير من قوة الإرادة ليكبح في نفسه جماح العناصر الثائرة التي توشك أن تنفجر وتعربد في طلب الحرية. وقد فكّر ثم فكّر، ولاح له في تأملاته المنطق.

وقال لنفسه «كيف صرت إلى ما صرت إليه؟ ولماذا لاحقني سوء الحظ هكذا؟ ومن يترك فرصته تضيع الآن في الخدمة عند الحكومة؟ الجميع يحصلون. لم أسيء في حياتي إلى فقير، ولم أسلب أرملة، ولم أطرد مخلوقاً من بيتي. كان كل همّي دائماً أن أغنم من أولئك الذين يملكون أكثر مما يستحقون. ولم أكن - زيادة على ذلك - ألتقط الحب إلا حيث يلتقطه كل إنسان، ولو لم أفعل لالتقطه غيري بدلا مني. إذن لماذا ينجح الآخرون بينما أهوي أنا إلى الحضيض؟ ما أنا؟ ولماذا أصلح؟ وكيف أستطيع في المستقبل أن أنظر إلى وجه أي أب شريف؟ وكيف أتخلص من عذاب الفكرة التي أحملها عن تحطيمي؟ وماذا سيقول أبنائي عني في السنين المقبلة إلا أن أبانا كان حيواناً لم يخلف لنا شيئاً نعيش من ورائه؟».

ويجب أن أشير هنا إلى مدى التفكير الذي كان تشيتشيكوف يكرسه لسلالته المقبلة. والحق أقول، أنه لو لم يطرق عقله دائماً هذا السؤال القائل «ماذا سيقول أطفالي؟» لما انغمس في فعاله بهذا العمق. ومع ذلك فقد كان كالقطة الحذرة التي تختلس النظر يمنة ويسرة لترى فيما إذا كانت ربتها ستأتي قبل أن تستطيع اختطاف شيء ما وقع تحت مخلبها (سواء كان زبدة أم دهناً أم شحم خنزير أو كناري أو أي شيء آخر). - كان مثل صاحبنا مؤسس الأسرة المقبلة مثل هذه القطة، يبكي ويندب حظه دائماً إلا أن عينيه لا تتغاضيان عن شاردة ولا واردة. فاحتفظ بتوقد ذهنه ونشاطه وأبقى على قَدْح فكره وأعماله، وكان كل ما يحتاج إليه هو خطة يسير عليها. لذلك كله، مرة أخرى استجمع

قواه، ومرة أخرى خاض غمارة الحياة، ومرة أخرى حشر نفسه في كل شيء ومرة أخرى ترك الجو النقي المحترم إلى حياة القذارة والانحطاط. وبكلمات أخرى اشتغل في وظيفة كاتب للدعاوي - ريثما يتيسر له عمل أفضل - وهي وظيفة لا مكانة لها، يتزاحم عليها الكثيرون، ولا يحترمها حتى صغار الموظفين في المحاكم، وظيفة دعت إليها الضرورة ينظر إليها الجميع بفظاظة واستخفاف. ولكن الحاجة الماسة أرغمت تشيتشيكوف عليها. ومن بين المهمات التي عهد إليه بها هي أن يقدم لمجلس الخزينة بضع مئات من الفلاحين كانوا يعملون في مزرعة حلّ بها الخراب. وقد حلّ الخراب بهذه المزرعة من مرض أصاب الماشية ومن سفالة المديرين ومن إخفاق الموسم ومن الأوبئة التي تقتل أحسن العمال، وأخيراً وليس آخراً، من إدارة صاحبها الحمقاء الذي أعد لنفسه بيتاً في موسكو على أحدث طراز وبعزق كل كوبيك لديه بحيث لم يبق له ما يقيم به أوده فاضطر إلى رهنها بكل ما فيها من فلاحين. كان الرهن إلى خزينة الدولة في تلك الأيام بدعة يُنظر إليها بكثير من التحفظ، فاضطر تشيتشيكوف، كوكيل في القضية أن يستفسر من كل الموظفين الذين يعنيهم الأمر (ونحن نعرف أن أبسط المسائل القانونية لا يمكن أن توضع موضع التنفيذ إلا إذا صببت في حلق كل كاتب زجاجة من الماديرا سلفاً)، وأن يبيّن لهم - مخافة ما قد يجد من الاعتراضات القانونية - أن نصف الفلاحين قد ماتوا.

فسأله السكرتير «هل هم مسجلون في لوائح الإحصاء؟» وأجاب تشيتشيكوف «نعم»، فأكمل السكرتير يقول «إذن ما الذي يخيفك؟ إذا ماتت نفس من النفوس تولد أخرى تحلّ محلّها». وبهذا هبطت على بطلنا أفكار ملهمة لم تطرق عقلاً بشرياً من قبل، وراح يناجي نفسه قائلاً «يا لبساطتي؟ لقد كنت أفتش عن قفازي بينما هو معلّق طول الوقت في نطاقي. أجل، فلو قمت بشراء ألف نفس ميتة قبل صدور

اللوائح الجديدة فسيعطيني مجلس الخزينة العام مائتي روبل لكل نفس، وسأجد نفسي عندئذ برأسمال قدره مائتا ألف روبل مثلاً! واللحظة الحالية هي الوقت المناسب إذ قد حلت أوبئة في مختلف أرجاء البلاد، وقد مات عدد كبير من النفوس والحمد لله، وقد أخذ الملاّكون في هذه الآونة يلعبون الورق ويقيمون الولائم ويصرفون النقود بغير حساب وراحوا ينضمون إلى خدمة الحكومة في بطرسبورج. وأملاكهم بناء على ذلك سائرة على الخراب والدمار، فهي تدار كيفما تيسر الأمر، ولا يستطيع أصحابها دفع الضرائب عنها إلا بشقّ الأنفس سنة بعد أخرى. وإذا كان ذلك كذلك، فسوف يسرّهم أن يتنازلوا عن أنفسهم الميتة بدلاً من دفع الضرائب عنها. بهذه الوسيلة سوف أجمع من المال غير قليل. هناك بعض المصاعب طبعاً، لكني يجب أن استعمل كل الدهاء لكي أتجنب الفضيحة. لقد أعطي الإنسان عقلاً ليستعمله لا ليطرحه جانباً. وإحدى مزايا هذا المشروع هو أنه غير محتمل الوقوع، وإذا ما طرأ طارئ فلن يصدّقه إنسان. حقيقة أن شراء الفلاحين أو رهنهم دون الأرض هو عمل غير قانوني، ولكني أستطيع أن اتظاهر بسهولة أنني اشتريهم لنقلهم إلى مكان آخر. والأراضي في توريدا وخارسون لا تكاد تساوي شيئاً، وليس على المرء إلا أن يصلحها. إذن إلى خارسون سوف أنقلهم وليعيشوا هناك طويلاً! وسيكون تسجيل نفوسي الميتة على أدقّ الأصول القانونية، وإذا ما طلبت مني السلطات إثباتاً بشهادة فسأبرز لهم كتاباً من رئيس الشرطة الخراسوني. وأخيراً سيكون اسم القرية المنتظرة في خارسون «تشيتشيكوفوي»، بل الأفضل «بافلوفسكي» حسب اسمي الأول. هكذا نبت في عقل بطلنا هذا المشروع الغريب الذي قد يرضى عنه القارئ أو لا يرضى، ولكن المؤلف راضٍ عنه بكل تأكيد، لأنه لو لم يخطر ببال تشيتشيكوف لما رأت هذه القصة النور.

وبعد أن رسم على نفسه علامة الصليب، حسب العادة الروسية،

راح منطلقاً بمشروعه. وأخذ بحجة التفتيش على مكان يستقر فيه يتفحص زوايا الإمبراطورية الروسية، موجهاً اهتمامه إلى تلك التي حلّت بها الكوارث الطارئة كإخفاق الموسم وارتفاع نسبة الوفيات أو أي شيء آخر يمكّنه من شراء الأنفس بأرخص سعر مستطاع. لكنه لم يختر الملاّكين اختياراً عابراً، إنما اختار أولئك الذين توسّم فيهم الخير ورأى أنهم يلائمون ذوقه وتوقع أن يعقد معهم الاتفاقيات دون عناء. وكان يحاول أول ما يحاول – سواء على أساس التعارف، أو الأفضل من ذلك على أساس الصداقة – أن يحصل على النفوس مجاناً حتى يتجنب تكاليف الشراء. وبهذه المناسبة يجب أن لا يلومني قرّائي إذا لم تعجبهم الشخصيات التي وردت على هذه الصفحات أيّما إعجاب. فالخطأ ليس بخطئي أنما هو خطأ تشيتشيكوف لأنه سيد الموقف وعلينا أن نتبعه حيث سار. وإذا ما ندّد بي قرائي، أيضاً، لشيء من الغموض أو لنقص في الإيضاح عن بعض الشخصيات الرئيسية فجوابي على هذا بأن منحى الكتاب ومغزاه العام لن يتّضحا منذ البداية. مثل ذلك مثل المسافر الذي يدخل المدينة، أو العاصمة، لأول مرة، فينطبع عندئذ في ذهنه للوهلة الأولى طابع من الغموض ويبدو كل شيء أمام عينيه رمادي اللون على وتيرة واحدة وتظهر أعمدة دخان المصانع وصفوف المعامل لا نهاية لها، ولكنه مع مرور الوقت تنجلي أمام عينيه معا لم البنايات ذات الطوابق الستة والحوانيت والشرفات ومناظر الشوارع العريضة وخليط من الأبراج والأعمدة والمسلاّت – كل هذا ضمن إطار من الضجة والصخب والعجائب التي لا حد لها مما توصل إليه عقل الإنسان ويده. أما الطريقة التي اتبعها تشيتشيكوف في مشترياته الأولى فالقارئ على علم بها. وسيعرف أيضاً تبعاً لذلك كيف تطورت الأمور، وما مر به بطلنا من النجاح والإخفاق، وكيف كان عليه أن يتذرع بالحزم ليتغلب على مشاكل هي أكثر صعوبة من سابقتها، وبأي قوة جبّارة كانت

تتحرك مجريات هذه القصة الممتدة الأطراف، وكيف يترتب على ذلك كله أن ينفسح الأفق حتى ينتحي كل شيء فيه منحى العظمة والشاعرية. نعم، فلا تزال هناك فرستات عديدة ستقطعها فرقة مكونة من رجل وعربة من النوع الذي يقتنيه العزاب وخادم اسمه بتروشكا وسائق اسمه سيليفان وثلاثة خيول من المستشار إلى الأرقط عرفناها بأسمائها واحداً واحداً. وبالإضافة إلى ذلك، ومع أنني قد قدمت وصفاً كاملاً لمظهر بطلنا الخارجي (كما هو تماماً) إلا أنني قد أسأل عن تعريف شامل لشخصيته الخلقية. أما أنه ليس بالبطل الذي يتحلّى بالفضائل والكمال، فهذا أمر يجب أن يكون واضحاً منذ الآن. إذن ماذا يكون؟ هل هو نذل؟ ولماذا ندعوه نذلاً؟ ولماذا نقسو هذه القسوة على رجل مثلنا؟ لقد انعدم الأنذال من الوجود في هذه الأيام. بل هناك أناس أصحاب شهامة لطاف. ولكنك قد تجد إثنين أو ثلاثة أهانوا أنفسهم بأن عرّضوا خدودهم للصفع على الملأ. وحتى هؤلاء يتحدثون الآن عن الفضيلة. من الأفضل أن ندعوه جشعاً. إن الجشع وحب التحصيل خطأ شائع عند معظم الناس، وهو السبب في نزوات كثيرة، وكثيرة جداً توصف عادة بأنها «غير شريفة». وشخصية من هذا القبيل، في الحقيقة فيها عنصر من القباحة. ولكن القارئ أثناء تجواله في الحياة قد يجلس مع شخصية من هذا النوع وقد يقضي مع صاحبها أطيّب الأوقات، ولكن سيكون أول من ينظر إليه نظرة المتسائل إذا ما علم أنه يتزيّا بزيّ بطل في رواية أو قصة. لكنه حكيم جداً ذلك القارئ الذي إذا قابل شخصية كهذه يتفحّصها بإمعان ويسبر غورها إلى الأعماق بدلاً من أن ينكمش عنها بامتعاض. وما من شيء في شخصية الإنسان إلا وهو قابل للتبديل والتغيير في طرفة عين – لا شيء فيها إلا وقد تنبثق منه سوسة أكّالة تمتصّ منها العصارة الحية في لمح البصر. فلن تبدو لك في الإنسان العاطفة الطاغية وحسب، بل ستبدو لك عاطفة أخرى من أحط الدرجات

في رجل خلق لأمر أجلّ من هذا. وهذه العاطفة الأخرى تقوده إلى نسيان واجباته العظيمة وفرائضه المقدسة فيرى الجلال والتقديس في أتفه الأمور. إن عواطف الإنسان كرمال الشاطئ لا يحصى لها عدد، وهي بلا شك أكثر تنوعاً. وتبتدئ كلها، رفيعها ووضيعها، في خدمة الإنسان، ثم تتدرج حتى تصبح سيده المستبد. سعيد، إذن، هو ذلك الإنسان الذي ينتخب من سلسلة العواطف البشرية عاطفة نبيلة! ساعة بعد ساعة ستنمو هذه الغريزة وتتكاثر إلى أن تصبح خيراً عميماً، وساعة بعد ساعة ستغوص أعمق وأعمق في جنان نفسه السرمدية. غير أن هناك عواطف لا يستطيع الإنسان أن يتخلص منها، ولدت معه منذ ولادته ولا حيلة له في تركها. وعلى هذه العواطف تسيطر قواه العليا فتكبتها، ولكنها تظلّ تناديه وتأبى السكوت حتى نهاية حياته وستأخذ دورها الكامل في مجال الحياة، سواء تسترت تحت جنح الظلام أم تزيّت بزي سيتحوّل إلى نور يضيء أرجاء العالم. وهي في كلتا الحالتين قد انبثقت لصالح الإنسان. على هذا المنوال قد يكون منشأ العاطفة التي جرت تشيتشيكوف إلى أن يعمل ما عمل دون أن يكون نفسه شاعراً بما يعمل، وعلى المنوال نفسه قد يكمن وراء الجوهر البارد شيء يجعل الرجال يتذللون يوماً أمام حكمة الله السرمدية. وهناك نقطة أخرى غامضة، وهي لماذا طلعت تلك الشخصية في هذه القصيدة التي توشك أن تنشر.

أما أن لا يرضى الناس عن بطلي، فهذا ليس من الأهمية في شيء، فالذي يهمني هو استحسانهم الذي لا بدّ منه تحت ظروف معينة وفي مواقف معينة. فلو لم يتوغل المؤلف كثيراً في نفس تشيتشيكوف ولو لم يحرك في أعماقها ما انكمش واختبأ عن الأنظار ولو لم يكشف عن أفكار بطله التي لم يكن هذا البطل ليكشف عنها حتى إلى أعزّ أصدقائه وفي الواقع لو أظهر المؤلف تشيتشيكوف كما أظهر هذا نفسه لأهل مدينة «ن» ولمانيلوف وللباقين – لكان علينا عندئذ أن نطمئن إلى أنه

سيحوز على رضى كل قارئ وسيعدّه هذا إنساناً لطيفاً جداً. وقد لا يكون من الضروري أن نصور تشيتشيكوف للقارئ بهذه الصورة التي رسمناه بها فجعلناه ماثلاً أمام العين بشكله وهيبته ونفسيته حتى نترك له (أي للقارئ) من هدوء البال ما يستطيع به بعد فراغه من مطالعة الكتاب من أن يعود إلى اعتكافه وعبادته للعب الورق الذي هو السلوان والمسرة الكبرى لخيرة الروس كلهم. نعم، يا قارئي هذا الكتاب، ليس فيكم من يكترث عن صدق لرؤية البشرية وهي تتعرى. وتقولون «ولم نفعل ذلك؟ وما فائدته؟ ألا نعرف من قبل أن في البشرية كثيراً مما هو ثقيل محتقر؟ ألا يكفي أن نرى بأم أعيننا الكثير من المزعجات؟ كان من الأفضل لو وضعت لنا قصة لطيفة جذابة ننسى بها أنفسنا قليلاً». وعلى هذا الطراز يخاطب الملاّك مأمور أملاكه فيقول «لماذا جئت تخبرني أن شؤون أملاكي متدهورة؟ إنني أعرف هذا دون مساعدتك. أليس عندك شيء آخر تنبئني به؟ أرجوك أن تسمح لي بنسيان هذه الحقيقة، أو دعني أبقى جاهلها. ولك مني أطيب الشكر». ومن ثم يروح هذا الملاّك يصرف على ملذاته النقود التي كان يجب أن يصرفها في تعمير أملاكه. والعقل الذي يمكن أن يكتشف مصدراً غير متوقع للتأثيرات العظيمة نائم الآن. بينما أنهت ضربة مطرقة عملية بيع ضيعة في مزاد علني، ومالكها رجل ليطوف في العالم، وينسى، وروحه من التطرف مستعدة لكل القبائح الذي كان هو نفسه يرتعب منها من قبل.

وقد يتعرض المؤلف للملامة من الذين يدعون «بالوطنيين» الذين يجلسون بهدوء في زواياهم يجمعون الأموال ويصبحون رأسماليين على حساب الآخرين. نعم، وإذا ما حدث شيء مما يسمونه ماسّاً بسمعة الوطن – كنشر كتاب عن الحقائق المرة مثلاً – فستجدهم عندئذ يخرجون من مخابئهم كالعنكبوت التي لمحت ذبابة تقع في نسيجها. وسيصبحون قائلين «هل حسن ما أظهرت للعالم وتركت الناس يلوكون

الحديث حوله؟ إن الذي وصفت يمسّنا وهو من شأننا نحن. هل هذا هو سلوك المواطن الصالح؟ لماذا تريد من الأجانب أن يفترضوا أن كل شيء لدينا على غير ما يرام وأننا خلو من الشعور الوطني؟» أجل، فليس في الحقيقة من جواب يجاب به على هذه الملاحظات الحكيمة، وخاصة فيما يتعلق برأي الأجانب فينا. لكن رويدك لقد عاش في يوم من الأيام في زاوية من زوايا روسيا البعيدة مواطنان روسيان. أحدهما كان رجلاً طيباً اسمه كيفا موكيفتش وهو أب له عائلة، كان لين العريكة وكان سائراً في حياته بعباءة يتدثر بها. و لم يكن يكترث لشؤون بيته، وسبب ذلك أنه كان قد ركز اهتمامه في التفكير والتأمل في الطبيعة. وكان في هذه بالذات منهكما في مسألة فلسفية يصيغها عادة في السؤال التالي، «لقد ولد الحيوان عاريّاً. ولماذا كان ذلك كذلك؟ لماذا لا يولد الحيوان كما يولد الطير - أي بأن يفقس من بيضة؟ إن الطبيعة أعلى من الإدراك مهما حاول المرء أن يسبر غورها». كان هذا هو محور تفكير كيفا موكيفتش. لكن هذه ليست هي النقطة الرئيسية. أما الآخر فكان اسمه موكي كيفوفيتش، ابن الأول. كان ما نسميه - نحن الروس - بطلاً. إذ بينما كان والده يفكر في مولد الحيوان كان مزاج الابن العنيف ابن العشرين سنة يناضل نضالاً جبّاراً في سبيل تطوره، غير أنه لم يستطع أن ينجز أمراً دون أن يحدث معه حادث مماثل في الجبروت والعنف. كسر مرة أصبع أحد الناس ومرة أخرى لَكَم شخصاً على أنفه، حتى أصبح يهرب منه كل إنسان وكل حيوان - من الخادم حتى الكلب في الساحة، ولم يسلم من ذلك حتى فراشه في سريره فقد تناثر قطعاً. هكذا كان موكي كيفوفيتش. ومع هذا فقد كانت روحه خفيفة لطيفة. لكن هذه ليست هي النقطة الرئيسية، بل النقطة الرئيسية كانت تتمثل في الواقع التالي. إذ كان الجيران والخدم يأتون إلى الأب قائلين، «سيدنا العزيز كيفا موكيفتش، ماذا أنت عامل لنا بموكي كيفوفيتش؟ إننا لا

نرتاح منه، فهو يرى نفسه أكبر مما هي». فكان الأب يجيب «إن هذا لعب منه فقط، إن هذا لعب منه فقط. وماذا تنتظرون منه غير هذا؟ لقد فات أوان الخصام معه، ولو حاولت أن افعل فسيتهمني الناس بالخشونة والفظاظة. إنه مغرور في الحقيقة بعض الغرور، ولكني لو وبخته أمام الناس فسيصبح هذا مدار الحديث وسيلقّبه الناس بألقاب الكلاب. وإذا فعلوا ذلك فسوف يمسّني القول لأنني أبوه. ثم إني أيضاً مشغول بالفلسفة ولا وقت لدي لهذه الاشياء في بعض الأحيان، ولكنني أبو موكي كيفوفيتش هو ابني، وهو عزيز جداً على قلبي». وأكّد لهم كيفا موكيفيتش مرة أخرى وهو يضرب صدره بيده، وأضاف أن ابنه لو رأى أن يظل سادراً في لعبه ذاك، فليس له - اي للأب - أن يصرح بالحقيقة أو أن ينفصل عن ابنه. وبعد أن تلفّظ كيفا موكيفتش بهذه الكلمات المليئة بالحنان الأبوي، ترك موكي كيفوفتش لأعماله البطولية وعاد بنفسه إلى تأملاته المحبوبة التي كان موضوعها الآن المسألة التالية «لنفرض أن الفيلة بدأت تفقس من البيض، ألا تكون قشرة هذه البيضة من السمك بحيث لا تخترقها قنابل المدافع وهذا ما يدعو إلى اختراع أسلحة من نوع جديد؟».

وهكذا، فأننا نرى بانتهاء هذه القصة اثنين من سكان زاوية هادئة من زوايا روسيا، يريان - كما لو كانا يطلاّن من نافذة - يجيبان جواباً متواضعاً عن الاتهامات الموجهة من جانب الوطنيين المتحمسين، المنشغلين بهدوء حتى الآن بفلسفة من الفلسفات أو بطرق الإثراء على حساب وطنهم الذي يحبون، وهم لا يفكرون في أن يتجنبوا فعل ما هو شائن، بل في أن لا يتحدث الناس عن كونهم يقومون بهذا الفعل الشائن. نعم، فالشعور الذي يثير من يسمون بالوطنيين ليس من الوطنية في شيء إطلاقاً. إنما هناك شيء آخر يكمن وراءه. ولم الخوف من قول ذلك؟ ومن ذاك الذي سيرفع الصوت عالياً لإظهار الحقيقة أن لم يكن المؤلف نفسه؟

إن رجالاً مثلكم – يا مواطنّي الزائفين – ليرتجفون رعباً من العين التي تستطيع إدراك الأمور، فأنتم أنفسكم ترتعبون من توجيه نظرة عميقة إلى شيء ما، وتحبون أن تمرروا عيونكم غير المفكرة على كل شيء خطفاً. وبعد أن تضحكوا ملء قلوبكم على نكبات تشيتشيكوف – وربما تمدحون المؤلف على براعة الملاحظة أو طرافة الخاطرة – ستشعرون بكبرياء متعاظمة في أنفسكم وستبتسمون ابتسامة ملؤها الرضى وتقولون «أجل، إننا لا ننكر أن هناك في بعض المقاطعات أفراداً على جانب من الغرابة والسخرية وأن هناك سفلة أنذالاً لا ضمير لهم».

بيد أنكم إذا ما جلستم هادئين وحيدين وأخذتم تحاسبون أنفسكم، فمن منكم لا يحسن صنعاً إذا ما راح يسبر غور نفسه ويطرح عليها السؤال الرزين التالي «أليس فيّ عنصر من تشيتشيكوف؟» ولماذا لا يكون؟ ومن منكم لا يحتمل أن يمرّ به في الشارع ذات يوم أحد معارفه، فيلكز جاره ويقول بسخرية لا تكاد تخفى «انظر! هو ذا تشيتشيكوف! إن الذي مر بنا هو تشيتشيكوف نفسه!».

لكننا كنا نتكلم بأعلى أصواتنا بينما كان بطلنا لا يزال نائماً في العربة! وقد تردد اسمه كثيراً ونحن نسرد قصة حياته، ولا بد أنه قد سمعنا! وهو دائماً نزق سريع الغضب إذا ما وردت سيرته بغير احترام. وقد لا يهتم القارئ فتيلاً لإغضاب تشيتشيكوف، ولكن خصام المؤلف مع بطله معناه الخراب، إذ لا يزال عليه أن يمشي مع تشيتشيكوف، يداً بيد، مسافات بعيدة المدى.

وصدرت صيحة من تشيتشيكوف تقول «أيه، أيه، يا سيليفان!».

فأجاب سيليفان بصوت ناعس «ما المسألة؟».

«ما المسألة؟ ما بالك تسوق ناعساً؟ أسرع حرك نفسك قليلاً!».

وكان سيليفان في الواقع جالساً منذ مدة طويلة بعينين نصف

مغمضتين ويدين لا تستحثان الجياد الوسنى إلا بمسّها باللجام على أردافها بين فترة وأخرى. أما بتروشكا فقد أضاع قبعته وكان منحنياً إلى الخلف حتى ارتاح رأسه على ركبتي تشيتشيكوف - وهو أمر استدعى إيقاظه بكلمة. وتحمس سيليفان وجاد على الأرقط ببضع ضربات على ظهره جعلته يركض خبباً ولوح سيليفان للجميع بسوطه من فوق، وغمغم بصوت مترنم رخيم: «لا تخف!» وما إن حذا زميلاه الآخران حذوه حتى راحت العربة تدرج إلى الأمام كأنها حبة من خرز. وشحذ سيليفان صوته وصاح «هيه، هيه!» بينما كانت تعاريج الطريق تهزه صاعداً نازلاً على مقعده. واتكأ تشيتشيكوف في الوقت نفسه على الوسادة الجلدية داخل العربة وابتسم ابتسامة الرضى إذ أحس أن العربة تنطلق كالريح. وأيّ روسي لا يحب أن يسرع؟ ومن منا لا يتوق بعض الأحيان إلى أن يطلق لجياده العنان ويلقي لها الحبل على الغارب ويصيح قائلاً «ألا فليذهب العالم إلى الشيطان!» وكيف لا تحبها نفسه هذه اللحظات، وفيها شيء رائع عجيب إذ يحس المرء أن قوى جبارة ترفعه فكأنه على جناح، فيجد أنه يطير وإلى الناحية المعاكسة كل شيء آخر يطير - علامات الفرستات والتجار على عربات الشحن والغابة ذات الخطوط المعتمة التي يرسمها شجر التنوب والصنوبر والتي قد يسمع منها صوت بلطة الحطاب ونعيق الغراب. نعم، ومن خلال ذلك البون الشاسع المدى الذي يكتنفه الغموض تتقدم الطريق إليّ، ولا يبدو للعين شيء ساكن غير السماء والغيوم الخفيفة التي يشقها القمر. أيه أيتها الترويكا، أيتها الطائر، من اخترعك؟ لا يمكن أن تولدي إلا في شعب عالي الهمة، في أرض لا تحب المزاح، بل تنداح منبسطة لتكون نصف العالم، فيظل المسافر يعد صوى الطريق ويعد حتى تتعب عينيه. وقد يظن المرء أن واسطة السفر هذه لا دهاء فيها. إنها غير مثبتة بمسامير حديدية، ولكنها صنعت على عجل بالفأس والإزميل، وضمّ

بعضها إلى بعض فلاح حاذق من يارسلافل. وسائقها ليس ألمانياً في جزمة طويلة الساقين، بل ملتح مورد الخدين يقعد على شيء لا يعلم ما هو إلا الله. ولكن ما إن يرفع جسمه، ويقرع بسوطه، ويطلق صوته بالغناء حتى تنطلق الخيول كالعاصفة، وتصير قضبان العجلات دائرة واحدة متماسكة، والطريق وحدة يهتز، والماشي يتوقف صائحاً في فزع، وتنطلق الترويكا وتنطلق!... ولا يبقى إلا الغبار يدوم في البعيد، ويتلولب في الهواء.

وأنت، يا روسيا، ألست أنت أيضاً، تنطلقين مثل ترويكا خاطفة لا تسابق؟ الطريق يتزوبع تحتك كالدخان، والجسور تهدر، وكل شيء يتراجع، ويبقى إلى الخلف. ويتوقف المتفرج مصعوقاً بهذه الأعجوبة الآلهية. لعلها بارقة هبطت من السماء؟ ما هذه الحركة التي تثير الفزع؟ وما هذه الروح غير المنظورة في تلك الخيول التي لم ير العالم مثلها؟ آه، يا خيول، يا خيول، وأية خيول! أهي الزوابع مخفية في أعرافك! أهي أذن مرهفة السمع تتوهج في كلّ عصب منك. سمعت صوت أغنية مألوفة تُغنّى في الأعالي، فوتّرت صدورها النحاسية على الفور، وهي لا تكاد تمس الأرض بحوافرها، وتحولت إلى خط واحد ممدود طائر في الهواء، منطلقة بوحي من الرب! روسيا، إلى أين تنطلقين؟ أجيبيني. إنها لا تجيب. جرس يملأ الهواء برنين عجيب، والهواء يرعد، ويصير ريحاً، ويتحول إلى مزق. كل شيء على الأرض يمرق عائراً، وتنظر الشعوب شزراً وتتنحى الشعوب والدول الأخرى فاسحة الطريق لها.

تعليقات

صدر المجلد الأول لأول مرة في عام ١٨٤٢ في كتاب مستقل بعنوان: «مغامرة تشيتشيكوف أو الأنفس الميتة. قصيدة ن. غوغول». موسكو. ١٨٤٢.

ترجع بداية العمل في هذه القصيدة إلى عام ١٨٣٥. والرسالة التي أرسلها غوغول إلى ألكسندر بوشكين، بتاريخ ٧ تشرين الأول ١٨٣٥ - وهي الرسالة التي طلب فيها أن يعطيه موضوعاً لمسرحيته المقبلة «المفتش العام» تتضمن أيضاً المعلومات الأولى عن «الأنفس الميتة»: بدأت أكتب «الأنفس الميتة». الموضوع امتد ليصير رواية طويلة جداً، وأعتقد أنه مضحك جداً... أحب أن أظهر في هذه الرواية جانباً واحداً على الأقل من روسيا». وغوغول، في إبلاغه بوشكين هذا المشروع المعروف له يبدو وكأنه يستأنف حديثاً قد بدأه من قبل.

وفيما بعد، تحدث غوغول في «اعترافات مؤلف» عن الظروف التي قدم فيها بوشكين له موضوع «الأنفس الميتة»: «كان يحثني منذ زمن بعيد على البدء بمؤلف كبير، وأخيراً، وذات مرة، بعد أن فرغت من قراءتي مقطعاً صغيراً من مشهد مسرحي صغير، كان قد أعجبه، على كل حال، أكثر مما قرأته له سابقاً، قال: «كيف يمكنك أن لا تبدأ بعمل كبير، ولك هذه القدرة على حدس الإنسان، وتصويره ببضع لمسات ليطلع أمامك حياً! إن ذلك جرم تماماً!» وفي أثر ذلك أخذ يصور لي ضعف بنيتي، وعللي، التي يمكن أن تبتر حياتي في وقت مبكر. وضرب لي مثلاً في سرفانتس الذي كتب بعض الروايات الصغيرة الرائعة جداً

والجيدة، ولكن لو لم يأخذ بكتابة «دون كيخوت» لما احتل تلك المكانة التي يحتلها الآن بين الكتاب، وختاماً لكل ذلك أعطاني موضوعاً من عنده كان يريد هو نفسه أن يكتبه على شكل قصيدة، وما كان سيعطيه لشخص آخر، حسب قوله. وكان ذلك موضوع «الأنفس الميتة».

ويشير غوغول في موضع آخر أورده فيما بعد (الرسالة الثالثة، في «الرسائل الأربع» لأشخاص مختلفين بخصوص «الأنفس الميتة») إلى أن المسودات الأولية للقصيدة كانت مكتوبة بنبرات مختلفة قليلاً وأكثر جهامة، وشخصياتها تشبه «الغيلان». وقد شعر غوغول بضرورة تغيير هذه الطريقة بعد قراءة القصيدة في بيت بوشكين (كان ذلك في نهاية ١٨٣٥ أو في النصف الثاني من عام ١٨٣٦). «حين بدأت أقرأ لبوشكين الفصول الأولى من «الأنفس الميتة».بما في ذلك ما كانت عليه من قبل أخذ بوشكين الذي كان يضحك دائماً عند قراءتي (وكان مولعاً بالضحك) يتعبس شيئاً فشيئاً، وأخيراً صار في منتهى الجهامة. وما أن أنهيت القراءة حتى قال بصوت ملوع: «يا إلهي، كم هي موحشة بلادنا روسيا!» أذهلني هذا... ومنذ ذلك الحين أخذت لا أفكر إلا بتخفيف الانطباع المرهق الذي يمكن أن تتركه «الأنفس الميتة».

في خريف ١٨٣٦ استأنف غوغول العمل في «الأنفس الميتة» الذي كان قد بدأ في بطرسبورج استأنفه في فيف (سويسرا) ومن ثم في باريس. وهو يبلغ صديقه الشاعر فاسيلي جوكوفسكي في رسالة مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني: «... كل ما بدأته قد راجعته من جديد، وفكرت أكثر في الخطة كلها، وأنا الآن أسير بها بهدوء كمدونة تاريخية. ومنذ ذلك الحين بدت لي سويسرا أفضل، وجبالها الرمادية الليلقية الزرقاء السماوية الوردية أخفّ وأشفّ. ولئن أنجزت هذا العمل بالطريقة التي يجب أن ينجز فيها... فأي موضوع ضخم أصيل سيكون». وحسب خطة غوغول الجديدة يجب أن لا يكرس محتوى العمل الجديد للجوانب

المظلمة من الحياة الروسية فقط، وبدلاً من تصوير روسيا من «جانب واحد» يتحدث غوغول الآن عن «روسيا كلها ممثلة فيه». وفي الرسالة المذكورة إلى جوكوفسكي لم تعد «الأنفس الميتة» تسمى رواية (كما في رسالته إلى بوشكين) بل «قصيدة». والسطور التالية التي وردت في رسالة إلى الكاتب والمؤرخ والصحفي ميخايل بوغودين بتاريخ تشرين الثاني ١٨٣٦ تشير إلى تلك التغيرات: «العمل الذي أنكب عليه الآن وأكدح... لا يشبه رواية قصيرة، ولا رواية... إنه طويل، طويل، في عدة مجلدات. وإذا أعانني الرب فسأنجز قصيدتي، كما يجب، إنها ستكون أول عمل ابداعي معتبر لي. روسيا كلها منعكسة فيه».

ورسائل غوغول في تلك الفترة إلى معارفه وذويه مشبعة بالرجاءات لتزويده بمختلف المعلومات في موضوع «القضايا المثيرة للفضول» ولا سيما تلك التي «يمكن أن تحصل عند شراء النفوس الميتة». ويطلب غوغول من جوكوفسكي: «أبلغ بوشكين بذلك، فقد يجد هو أيضاً شيئاً من جانبه». وكل هذه المادة ضرورية للاستمرار في القصيدة.

في شباط ١٨٣٧ يصل إلى غوغول، وهو في باريس، نبأ مقتل بوشكين. ويكتب غوغول من روما: «كل متعة حياتي، كل متعتي الرفيعة اختفت معه. لم أكن أُقدم على أي شيء بدون نصيحته... وعملي الحالي، الموحى منه، هو ابداعه...» والآن يعتبر غوغول «الأنفس الميتة» بمثابة «وصية مقدسة» لبوشكين. (رسالة إلى ف. جوكوفسكي بتاريخ ١٨ نيسان ١٨١٧).

في أواخر عام ١٨٤٠ انتهى العمل في المجلد الأول بشكل عام، وأخذ غوغول يعده للطبع. وفي كانون الأول يبلغ الكاتب سيرغى أكساكوف في رسالة من روما: «أنا الآن أعدّ المجلد الأول من «الأنفس الميتة» في صيغته النهائية. أغير، وأنقح، وأعيد العمل كلياً في أشياء كثيرة...».

وساعد في استنساخ القصيدة الأديب فاسيلي بانوف قريب سيرغي اكساكوف، والذي صاحب غوغول في رحلته إلى إيطاليا، وبعد ذلك ساعد في الاستنساخ بافيل انينكوف، الناقد والناشر وكاتب المذكرات. وقد خلف انينكوف رواية بديعة يصف فيها كيف جرى استنساخ القصيدة في صيف ١٨٤١ في روما.

«بعد أن يضع نيقولاي فاسيليفيتش الكراسة أمامه... كان يستغرق فيها كلياً، ويبدأ بالإملاء بتوازن وانتشاء، وبإحساس وزخم تعبير جعل فصول المجلد الأول من «الأنفس الميتة» يكتسب في ذاكرتي نكهة خاصة. كان ذلك اشبه بإلهام هادئ متدفق باتساق يولده عادة الإدراك العميق للموضوع».

وحين استنسخ انينكوف «قصة الكابيتن كوبيكين» التي أثارت في مؤلفها الإحساس بارتياح واضح عبر انينكوف عن شكّه في أن تنشر القصة في يوم ما. فأجاب غوغول بثقة في النفس: «النشر شيء هيّن كل شيء سينشر». «وتجلى شعور المؤلف بالارتياح النفسي بقوة أشد، عند وصف حديقة بلوشكين. وأنا أتذكر أن حماسة الإملاء لم تبلغ هذا العلو في غوغول كما بلغته في هذا الموضع، مع الاحتفاظ بكل الطبيعة الفنّية. حتى أن غوغول نهض من مقعده (والظاهر أنه طبيعة ما يصفه مرت أمام عينيه في تلك اللحظة) وصاحب إملاءه بإشارة فخورة آمرة. وبنهاية كل هذا الفصل السادس المذهل كنت منفعلاً، فوضعت الريشة على الطاولة، وقلت بصراحة: «أعتبر هذا الفصل، يا نيقولاي فاسيليفيتش، شيئاً عبقرياً». كوّر غوغول بقوة الكراسة الصغيرة التي كان يملي منها، وقال بصوت نحيل لا يكاد يسمع: «صدقني إن بقية الفصول ليست اسوأ».

في تشرين الأول ١٨٤١ عاد غوغول إلى موسكو عن طريق بطرسبورغ لاستنساخ «الأنفس الميتة» بشكل نهائي وطبعها.

في ٧ كانون الأول قدّم غوغول المخطوطة إلى الرقيب ايفان سنيغيروف، وقد رجاه أن يبدي رأيه فيما إذا كانت لجنة الرقابة في موسكو ستسمح بها.

وفيما بعد تحدث غوغول إلى صديقه الكاتب والصحفي بيتر بليتنيف (رسالة مؤرخة في ٧ كانون الثاني ١٨٤٢) عن الوقائع التي حصلت في اجتماع اللجنة: «ما أن سمع غولوخفاستوف[٣٩] الذي كان يحتل مكان الرئيس اسم «الأنفس الميتة» حتى جأر بصوت الروماني القديم: «لا، هذا لا يمكن أن أسمح به أبداً. النفس خالدة، ولا يمكن أن توجد نفوس ميتة. إن المؤلف يحارب الخلود». وأوضح للمراقبين أن المقصود في ذلك الأقنان المسجلون في الإحصاء، فزاد ذلك من انزعاج المراقبين. فإن ذلك غير مسموح به، إن ذلك يعني الخروج عن نظام القنانة». كما لم تنفع حماية سنيغيريف الذي كان قد قرأ المخطوطة. وإلى جانب معارضة «المراقبين - الآسيويين» عارض «المراقبون - الأوروبيون». وقد قال أحدهم، وهو نيكيتا كريلوف أستاذ القانون الروماني في جامعة موسكو: «مهما قلتم فإن الثمن الذي يدفعه تشيتشيكوف... الروبلين والنصف التي يدفعها للنفس الواحدة، تقلق النفس... إن هذا لا يمكن أن يسمح به لا في فرنسا، ولا في إنجلترا، ولا في أي مكان.. ثم إن أي أجنبي لن يأتي إلينا بعد هذا».

واسترجع غوغول المخطوطة من لجنة الرقابة في موسكو خائفاً من منعها، وسلمها لبيلينسكى الذي كان مسافراً إلى بطرسبورغ وكان غوغول يعتمد على مساعدة أصدقائه في العاصمة وهم -

---

(٣٩) مساعد ناظر الدائرة التعليمية الموسكوفية، وعضو رقابة.

اوديفسكي[٤٠] وبليتنوف وسميرنوفا[٤١] - في تسهيل طريق «الأنفس الميتة» إلى الرقابة. وبالفعل، سمحت الرقابة في ٩ آذار بنشر القصيدة مع بعض التعديلات، ولكن بحذف «قصة الكابتين كوبيكين». وفي الأول من نيسان أبلغ الكسندر نيكيتنكو الذي راجع المخطوطة كرقيب، أبلغ غوغول أن «من المستحيل تماماً السماح بقصة كوبيكين، وما من أحد بمن فيهم ذوو السلطة، يقدر أن يبقى عليها، وأنت نفسك ستوافق، بالطبع، على أنني غير قادر على أن أفعل شيئاً في هذا الخصوص».

ومع ذلك فقد قرر غوغول أن يبقي على «القصة» بكل ما يملك من جهد. فقد كتب إلى نيكيتنكو في ١٠ نيسان: أن القصيدة، بدونها، «ستصاب بثقب لا يمكن ترقيعه بشيء» و»هذه القطعة ضرورية ليس لربط الأحداث، بل لجذب اهتمام القارئ وتشويقه بانطباع تلو انطباع...» ويغير غوغول الرواية، منزلاً رتبة الشخصيات، إذا صح القول: كبير القوم، الجنرال، يصير مجرد «رئيس» وليس من بين زواره جنرالات. ويبلغ غوغول صديقه بليتنوف في ١٠ نيسان «كورنيش القصر» تحاشياً لأن يتبادر إلى الذهن قصر الشتاء الموجود في هذا الكورنيش مع قصور كبار الموظفين البارزين. كما حذفت من خلق كوبيكين صفات من مثل التزمت وشدّة الحساسية ويوافق غوغول حتى على تغيير اسم البطل («إذا كان اسم كوبيكين يضايقهم فأنا مستعد إلى تسميته بـ «بياتكين» وما شاءوا» يكتب إلى نيقولاي بروكوبوفيتش، في ١٥ نيسان خائفاً، كما يبدو، من أن يتبادر إلى الذهن الشقي كوبيكين الذي كان اسمه شائعاً في الفولكور الشعبي في ذلك الحين. ولكن لم تظهر حاجة إلى ذلك في هذا الخصوص. فقد سمح بنشر الصيغة المعدلة

---

(٤٠) كاتب وفيلسوف وناقد وصحفي.

(٤١) أميرة متقربة من الامبراطورة صديقة غوغول.

من الرواية (النص المنشور في الطبعات الحديثة، بما في ذلك الطبعة الحالية، قبل خضوعه للرقابة) كما عدلت الرقابة اسم القصيدة: إذ كتب نيكيتنكو بالحبر الأحمر العنوان الجديد: «مغامرة تشيتشيكوف أو...» فوق عنوان الكتاب القديم «الأنفس الميتة» (والقصيدة في الطبعات المعاصرة تصدر تحت الاسم الأول).

وبينما كان الكتاب يطبع رسم غوغول نفسه غلافاً له. وهذا الغلاف مهم كمثال للتصميم الغروتسكي بشكل واضح، والذي يجمع في تآليف عجيبة مواضيع الحياة اليومية، وصور الناس والحيوانات، مع عدد كبير من الجماجم الإنسانية مما يناسب، من جهة، المحتوى الغروتسكي نفسه، وقد قاد، من جهة أخرى، إلى التقاليد القديمة في الزخرفة الغروتسكية الحائطية بجمعها الفريد لتفاصيل الطبيعة الجامدة، والعالم النباتي والحيواني والإنساني.

وصدر الكتاب في أواخر آيار. وتركز اهتمام الرأي العام كله على عمل غوغول الجديد هذا، وقد أثارته من قبل قراءات فصول منفصلة منه (ابتداء من صيف ١٨٣٧، على أقل تقدير، قام غوغول لعدة مرات بقراءة مقاطع من القصيدة في بيوت مختلفة) وحمسته الشائعات عن تعقيدات الرقابة. ويذكر بيلينسكي: «كل الاهتمامات الأدبية، وكل الأسئلة الصحفية مركزة الآن على غوغول».

ومن بين التقييمات الأولى لهذه القصيدة أحد المدونات من يوميات الكاتب ألكسندر غيرتسين الذي صار فيما بعد ثوريّاً وشخصية اجتماعية، مؤرخة في ١١ حزيران: «الأنفس الميتة» لغوغول كتاب مدهش، تقريع مرير لروسيا الحالية، ولكن لا يخلو من أمل».

بقلم يوري مان

الفهرس

نيقولاي فاسيليفتش غوغول كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي. وُلد في ١ نيسان ١٨٠٩ وتوفي في ٤ آذار ١٨٥٢. من أعماله الأكثر شهرة رواية الأنفس الميتة وقصته القصيرة المعطف، بالإضافة إلى المسرحيتين الكوميديتين المفتش العام وخطوبة.

لقد استأثرت رواية الأنفس الميتة باهتمام فطاحلة الأدب الروسي فقد اعتبرها الناقد فاتسيريون بيلنسكي خطوة عظيمة، يبدو معها كل ما كتبه غوغول ضعيفاً وشاحباً ذلك أنها ومسرحية المفتش يمكن اعتبارهما التجسيد الأكثر عمقاً وجمالاً ورصانة لإبداع هذا الفنان العظيم. وهذه الروعة والجمالية الأخاذة التي صوّر بها غوغول بؤس الواقع الروسي وتناقضاته الصارخة جعلت ديستويفسكي يقول "كلنا خرجنا من معطف غوغول".

"عواطف الإنسان كرمال على الشاطئ لا يحصى لها عدد ، وهي بلا شك أكثر تنوعاً. وتبتدئ كلها، رفيعها ووضيعها، في خدمة الإنسان، ثم تتدرّج حتى تصبح سيّده المستبد. سعيدٌ، إذاً، هو ذلك الإنسان الذي ينتخبُ من سلسلة العواطف البشرية عاطفةً نبيلة".

من رواية الأنفس الميتة

@ketab_n

لوحة الغلاف: كاسبر دافيد فريدريش

ISBN 284306231-4
9782843062315